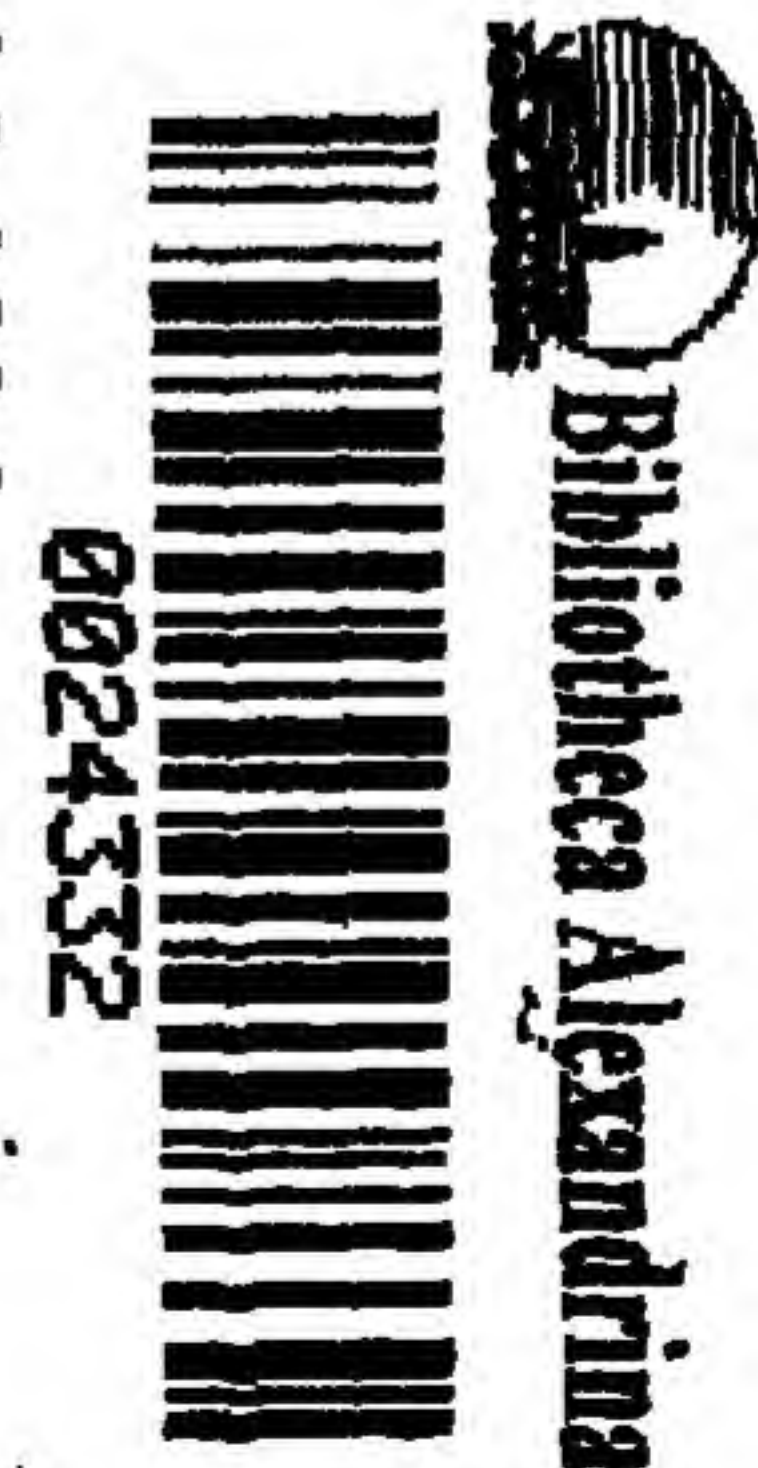


دكتور
جناوة
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر

الناشر
دار الفكر العربي



دكتور
جمال طه
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر

الناشر
دار الفكر العربي

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر

مقدمة

في السنوات الأخيرة حاصرني تاريخ مصر ، فبالإضافة الى عملي كأستاذ بالجامعة تم اختياري كعضو في لجنة التنسيق العليا للمتحف القومي للحضارة المصرية . وكان على أن أراس مجموعة عمل تقوم بالمرور على كافة متاحف مصر الحديثة (المتحف الحربى - المتحف الزراعى - متحف النسكة الحديد - متحف قناة السويس - متحف التعليم - متحف البريد - متحف الركائب - متحف الامير محمد على - متحف الجوهرة ومتحف الرى ... الخ) وذلك تمهيدا لكتابة السيناريو الخاص بالحضارة المصرية الحديثة للمتحف القومي للحضارة ، والذي سيقام بارض المعارض بالجزيرة

وبالإضافة الى اعمالى في لجنة التنسيق العليا في ذلك المتحف ، أصبحت عضوا بمجلس ادارة المتاحف التاريخية والإقليمية وهكذا أصبحت عاكفا على دراسة الحضارة المصرية الحديثة وبطريقة يومية .

وتلفت حولى فوجدت مؤلفات زملائى الاساتذة عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر تملأ الاسماع والابصار . ولكن كتاباتهم متخصصة جدا ككتاب عن أحد الزعماء أو عن أحد الاحزاب أو عن فترة قصيرة جدا من تاريخ مصر السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى . وكذلك كانت كتبى أنا أيضا .

وهكذا برزت في مخيلتى فكرة هذا الكتاب ... معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر . وقد قسمت هذا الكتاب الى فصول ... في الفصل الاول تكلمت عن الحملة الفرنسية على مصر وكيف أن هذه الحملة كانت تمثل تقدم ثلاثة قرون عاشتها أوروبا بعد عصر النهضة أمام تخلف ثلاثة قرون عاشتها مصر تحت الحكم العثمانى ، وكان اللقاء حافلا بطبيعة الحال مما أعد المصريين للتغيير .

وفي الفصل الثانى عصر محمد على تكلمت عن مؤسس مصر الحديثة ،
والواقع أن الكتابة عن محمد على ليست أمرا سهلا لانه بعد ثورة ٢٣ يوليو
١٩٥٢ بدأ الكتاب يهاجمون مؤسس مصر الحديثة ، ولكن المؤرخ هو
كالقاضى من القضية لا يميل ولا ينحاز وهكذا كان لابد من اعادة النظر ،
والكتابة كتابة موضوعية تعطى للرجل حقه وتحاسبه اذا كان قد أخطأ .
لقد شيد محمد على امبراطورية مصرية كبرى شملت الجزيرة العربية
والسودان والشام وكانت مصر هى قلب هذه الامبراطورية . وجند المصريين
الذى حاربوا فى اليونان وقرب خط الاستواء وفى جبال اليمن وفى صحارى
الجزيرة العربية مؤكدين أنهم خير جند الارض . وبالنسبة للمجال الزراعى
شيد محمد على القناطر المختلفة ومنها القناطر الخيرية التى تعتبر أول قناطر
فى العالم بهذا الحجم وبايد مصرية لزراعة المحاصيل الصيفية ، وهى بحق
قناطر الخير . كما شق القرع ومنها ترعة المحمودية التى أحييت مدينة
الاسكندرية بعد وصول الماء العذب اليها مباشرة من النيل . كما ته أضاف
غلات الى المحصولات الزراعية كالقطن . . . الذهب الابيض وعماد الاقتصاد
لوطنى .

وفي مجال الصناعة أقام صناعات كبرى . . ثمانية عشر مصنعا
للنسيج ومصانع النحاس والحديد والزجاج والمصانع الحربية . والمتحف
الحربى يحفظ لنا بعضا من المدافع والبنادق التى صنعت فى مصر مع بدابة
القرن التاسع عشر . والكلام عن محمد على لا ينتهى فهناك التعليم والبعثات
وانشاء كلية الطب والهندسة ثم انشاء الصحافة وتشكيل المجالس المختلفة ،
كل ذلك يجعل المؤرخ المصنف يقول كما عنون الكاتب الانجليزى هنرى
دودويل كتابة عن محمد على « قصة محمد على أو مؤسس مصر الحديثة » ،
كما أن ابراهيم باشا ابن محمد على هو قائد عسكري عالمى بكل المعايير
شئنا ام لم نشأ ومعاركه فى الشام والجزيرة العربية والوثنان تدرس حتى
الآن فى بعض المعاهد العسكرية العالمية والعليا . أن هذه الفترة التى امتدت
من ١٨٠٥ - ١٨٤٩ هى فترة عظيمة ومزدهرة فى تاريخ مصر بصفة عامة .

ويتناول الفصل الثالث عصر اسماعيل وهو عصر التحديث ، فقد عادت
بعثات محمد على من الخارج بعد أن نهلت من الغرب علومه وفنونه وبدأت

تؤثر في مصر ومنهم على مبارك أبو التعليم ورفاعة رافع الطهطاوى أبو الترجمة والخديوى اسماعيل نفسه كان تواقا لتحقيق النقلة الحضارية في مصر ، فنشر التعليم وأنشأ المدارس لتعليم الاناء ، وشيد الكبارى ككوبرى قصر النيل وأقام دار الكتب ووضع أساس المتحف المصرى وشيد القصور الخديوية والبساتين ، وفي عصره افتتحت قناة السويس للملاحة وأقيمت دار الاوبرا .

وقد خصصنا الفصل الرابع لقناة السويس لخصوصية هذا الموضوع وكيف أن فكرة المشروع بدأت منذ عهد الحملة الفرنسية على مصر الى أن وافق الوالى سعيد باشا على شقها ، وتم افتتاحها في عصر اسماعيل سنة ١٨٦٩ . وكيف أن انجلترا وققت تتحين الفرص للاستيلاء على هذا الشريان المائى الخطير والذي يصل أهم بحرين عالميين البحر المتوسط الهند . وكل هذا أدى الى احتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢ .

اما الفصل الخامس فيتحدث عن الثورة العرابية وكيف أن الصحافة المصرية في عصر اسماعيل وكذلك رجال البعثات ، هذا بالإضافة الى مجيء رجل يعد دولة وحده الى مصر وهو السيد جمال الدين الافغانى ، واقامته بها لمدة سبع سنوات من سبعينات القرن التاسع عشر ويكفى أن نذكر أسماء مثل محمد عبده . المويلحى - أديب اسحق - البارودى - سعد زغلول لنعرف مدى تأثير هذا الرجل .

وهكذا اندلعت ثورة عرابى وسط هذا المناخ سنة ١٨٨١ واضطر الخديو توفيق الى الامر بتشكيل وزارة وطنية أصبح الفلاحون فيها وزراء وقادة لأول مرة . ولكن بريطانيا انتهزت فرصة الخلاف بين عرابى والخديوى توفيق واحتلت مصر ، وران على مصر صمت عميق .

وفي الفصل السادس ناقشنا اليقظة المصرية بعد السبات . فقد وقف الزعيم مصطفى كامل يندد بالاستعمار ويستغل حادثة دنشواى ويكتب في الصحافة العالمية ضد الانجليز وكان بحق كما عنون عبد الرحمن الرافعى كتابة عنه باعث الحركة الوطنية بعد الاحتلال .

واذا كان مصطفى كامل قد قضى سنة ١٩٠٨ ، فان زميله محمد فريد حمل المشعل من بعده مضحيا بكل شيء من أجل مصر وكان بحق أيضا كما عنون عبد الرحمن الرافعي كتابة عنه رمز الاخلاص والتضحية ... ما أحوجنا اليوم للتعرف على هذه الزعامات . وفي الفصل السابع ثورة ١٩١٩ والتي اندلعت عقب نهاية الحرب العالمية الاولى ، لأن المصريين ذاقوا الامر من هذه الحرب ، وسئموا وعود الانجليز بالجلاء ، فكانت الثورة التي أجبرت الانجليز على اصدار تصريح الاستقلال في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

أما الفصل الثامن فيتكلم عن مصر المعاصرة ويتعرض بايجاز لاهم موضوعات هذه الفترة حتى سنة ١٩٥٢ .

ولم ارد أن اكتب تاريخ ثورة يوليو السياسي الآن لقلبة الوثائق المنشورة والمتاحة الخاصة بالثورة ، وكثرة الكتابات الصحفية ، والكتابات المتعارضة للمستولين ، ولأن مرّجّل الحوادث لم يهدأ بعد . ويعرض الفصل التاسع لبعض موضوعات مصر المعاصرة الحضارية فهو يعطى صورة سريعة لاهم متاحف مصر الحديثة وهي دراسة تقدم لأول مرة . فقد أفزعني حقا قلة المترددين على هذه المتاحف . ومن المناسب هنا أن نركز على أن هذه المتاحف تعد سجلا للحضارة المصرية الحديثة التي هي نتاج واستمرار للحضارة المصرية على مر العصور .

وتجدر الإشارة الى اننى سرت في هذا الكتاب متبعا التسلسل الزمني للموضوعات ، ومع ذلك فاننى في بعض الفصول آثرت طريقة الوحدات في الكتابة أى انتهاء الموضوع كله ، حتى تكون الصورة واضحة .

والله ولى التوفيق

أ . د . جاد طه

مصر الجديدة في ٢٩ يوليو ١٩٨٥ .

« من أحب وطنه ... أحب تاريخ وطنه »

ظلت دولة المماليك مهيمنة على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب حتى نهاية القرن الخامس عشر . وكان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح وتحويلهم لطرق التجارة العالمية على حساب مصر . ولقد حاولت مصر رغم المفاجأة أن تدفع هذا الهجوم ، وأن ترسل السفن الى البحر الأحمر ، والقوات العسكرية الى اليمن لكي تمنع استيلاء البرتغاليين على عدن أو دخولهم البحر الأحمر وتهديدهم لموانئ الحجاز . وبذل السلطان الغوري كل ما في وسعه ، الا أنه لم يحقق نتائج حاسمة (١) .

وهكذا تمت السيطرة البرتغالية على مياه الهند ، في نفس الوقت الذي ضعفت فيه امكانيات مصر العسكرية ، وتدهورت تجارتها ، وحرمت من مورد أساسي من مواردها .

واذا كان بعض الكتاب ينسب سوء أحوال مصر ابتداء من القرن السادس عشر الى الحكم العثماني فان الواقع يؤكد أن هذا الحكم وصل الى مصر بعد تحول طرق التجارة العالمية عنها .

وكانت منطقة الشرق الأدنى تضم في ذلك الوقت ثلاث قوى رئيسية هي قوة الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى والبلقان والثانية هي قوة الصفويين في فارس والثالثة هي قوة المماليك في مصر والشام والحجاز ، وكان التنافس واضحا بين كل من هذه القوى ، خاصة بين العثمانيين

١ - لمزيد من التفاصيل انظر دكتور جاد طه - سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية - الطبعة الثانية - دار الفكر العربي ١٩٨٤ - ص ٢٠ - ٢٥ .

السنيين والصفويين اشيعة . لقد استولى الصفويون على العراق سنة ١٥٠٨ في عصر الشاه اسماعيل الذي جعل المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لدولته ، مما أدى الى سوء العلاقات مع العثمانيين السنة ، وهكذا فساد سليم الاول قواته نحو الشرق ، وهزم القوات الفارسية في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ ، ودخل عاصمتهم تبريز .

واعتبر العثمانيون أن واجبهم الأول يتلخص في الدفاع عن العالم الاسلامي من الاخطار الخارجية ، واعتقدوا أنهم أقدر من دولة المماليك في الدفاع عن المنطقة ، وخاصة ضد الغزو البرتغالي . واستخدم العثمانيون السيف وسيلة لتوحيد الشرق الأدنى بأقاليمه في دولة واحدة .

وهكذا سار سليم الاول على رأس قواته ضوب سوريا التي كانت تابعة لدولة المماليك ، وانتصر العثمانيون في معركة مرج سنة ١٥١٦ على قوات السلطان الغوري الذي فقد في المعركة ثم هجموا على مصر وانتصروا على المماليك مرة ثانية في موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ ، وأصبح العثمانيون بذلك أكبر قوة موجودة في العالم الاسلامي (١) .

وارتكز نظام الحكم العثماني في مصر على عدة أسس ، فهناك الوالي الذي كان يعين لمدة عام واحد في أغلب الأحوال ، وأدى ذلك الى اهتمام الولاة بجمع الأموال في هذه الفترة القصيرة ، خاصة وأنهم أصبحوا يشترون المنصب قبل توليهم اياه ، كما أنهم اضطروا في نفس الوقت الى الانصراف عن المشروعات العمرانية والإنتاجية ، والتي تتطلب متابعة لاتمامها .

ولما كان الوالي هو ممثل السلطان في مصر ، فقد زودته الدولة بسلطات كبيرة ، وجعلته حاكماً مطلقاً في ولايته .

ومع خوف الدولة من أن يعلن الولاة استقلالهم ، أنشأت الى جانبهم النيوان الذي كان يتألف من كبار ضباط الحامية العسكرية وكبار العلماء

(١) دكتور جلال يحيى ودكتور جاد طه - العرب في التاريخ الحديث
دار الكتب الجامعية ١٩٧٤ ص ١٤ ، ١٥

والتجار . والى جانب الوالى والديوان أضاف العثمانيون قوة ثالثة وهى قوة الممالك ، كنوع من تحقيق التوازن بين القوى . قوة الوالى وقوة الديون وقوة الممالك ، حتى لا تستبد احداها بالسلطة .

والواقع أن تحول طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب كان سببا أساسيا فى تدهور الاحوال فى مصر ، وجاء نظام الحكم العثمانى لكى يؤدى الى مزيد من التدهور .

لقد أخذ الولاة يهتمون بجمع الأموال ، وأخذوا يهتمون بمظاهر الحكم أكثر من اهتمامهم بجوهره . "كما كان الممالك يعيشون حياة مترفة ، ويستغلون مئات القرى لحسابهم ، ورغم ذلك فإنهم أهملوا الزراعة ، فقلت المحصولات ، وارتفعت الاسعار ، واجتاحت البلاد جماعات عديدة . وكان سليم الأول قد أبقى على الارض الزراعية فى يد الحاكم يوزعها على اتباعه أو يوزعها على الفلاحين نظير دفعهم الضرائب . وكانت الحكومة توزع الاراضى على الملتزمين الذين يتعهدون بتحصيل الضرائب نظر حصولهم على عقد الالتزام ، واصبح الملتزم مع الزمن يورث هذا الحق لابنائهم . ومع تدهور الاحوال ، أصبحت الدولة لا تهتم الا ببيع الالتزام لمن يتعهد بدفع مبلغ معين للخزانة (١) .

وفى مثل هذه الظروف أهملت الزراعة والرى ، وزحفت الرمال على الارض الخضراء ، وتناقص عدد السكان ووصلت الصناعة الى مرحلة يرثى لها من الانخراط ، وتدهورت التجارة الداخلية والخارجية . ومع السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر ، ومصر تعيش سنوات التخلف والتدهور حدثت المفاجأة . . . مفاجأة الحملة الفرنسية على مصر والتي كانت تمثل تقدم ثلاثة قرون عاشتها أوربا منذ بداية النهضة فى مواجهة ثلاثة قرون من التخلف عاشتها مصر منذ تحول طرق التجارة العالمية والحكم العثمانى، وكان اللقاء حافلا بلا شك .

(١) دكتور جلال يحيى - دكتور جاد طه - المصدر السابق ص ٣٣ .

الحملة :

حاولت فرنسا النزول الى الميدان الاستعماري بارسال قواتها الى كندا ، والى بعض الجزر في الهند الغربية ، وسأيرت في ذلك الحركة الاستعمارية العامة التي اجتاحت كل أوربا ، وانتقلت من اسبانيا والبرتغال الى دول غرب أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولكن بريطانيا نافست فرنسا في الميدان الاستعماري في العالم الجديد ، وتمكنت من الاستيلاء على كندا ، ومن مضائق فرنسا في مستعمراتها ومراكزها الاستعمارية في الهند والمحيط الهندي (١) . الا أن قيام الثورة الفرنسية قلقل الاوضاع والنظم السياسية والاقتصادية في العالم ، ودخل بالتنافس البريطاني الفرنسي الى ميدان جديد .

وكان البريطانيون قد قاموا بعدة محاولات لاستخدام طريق البحر المتوسط الذي يمر عبر من الاسكندرية الى القاهرة فالسويس . لكي يواصلوا السفر في البحر الاحمر ثم المحيط الهندي . وكانوا قد واجهوا صعوبات متعددة أمامهم في هذا الطريق ، أولها الباب العالي ، ثم البكوات المماليك في مصر ، والاهالي العرب بصفة عامة ، اذ انهم كانوا لا يوافقون على حضور السفن الاوربية الى البحر الاحمر (٢) لان تجارب العرب مع البرتغاليين الذين هاجموا موانئ البحر الاحمر جعلت العرب يفكرون كثيرا قبل أن يسمحوا للاوربيين بالملاحة في هذا البحر .

ورغم كل ذلك فقد تمكنت الشركات الاستعمارية البريطانية من عقد اتفاقيات مع البكوات المماليك للمرور عبر مصر ، ومن هذه الاتفاقيات: الاتفاقية التجارية التي عقدتها انجلترا مع محمد بك أبو الذهب - الذي كان قد تطلع الى الانفصال عن الباب العالي - وذلك من أجل تأمين سير السفن البريطانية

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى - الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٢٢ .

(٢) انظر د . جلال يحيى العالم العربى الحديث - المدخل ص ٨٤

في البحر الاحمر (١) . وهذا يوضح اهمية العلاقات الودية - من وجهة النظر البريطانية - مع مصر ، وذلك بالنسبة لمواصلاتها مع الهند .

وكان لتقارير وكنابات رجال السياسة الفرنسيين ، الذين خدموا في القسطنطينية أو القاهرة ، وكذلك الرحالة الذين زاروا مصر ، أكبر الاثر في كشف القناع عن حالة الامبراطورية العثمانية من جهة ، وتوجيه انظار مواطنيهم الى مصر احدى ولايات هذه الامبراطورية من جهة أخرى . وقد أفبل السياسيون على دراسة هذه التقارير وقراءة هذه الكتب باهتمام كبير ، عندما تجددت الرغبة في الاستعمار (٢) .

قد اختارت حكومة الثورة الفرنسية الجنرال بوناپرت قائدا لحملتها على مصر ، وزودت هذه الحملة القوية بكل ما يلزمها ، وأعطت فائدها سلطات واسعة في التصرف . وقد وصل الاسطول الفرنسي الى سواطىء مالطة في يونيو ١٧٩٨ ، وفي صبيحة يوم ١٩ يونيو غادرت الحملة مالطة في طريقها الى السواطىء المصرية . ولما كان بوناپرت يخشى من مهاجمة الاسطول الانجليزى للاسطول الفرنسى أثناء تقدمه ، فمد عمدا الى تغيير اتجاهه ، وأبحر صوب كريت بدلا من الابحار مباشرة صوب الاسكندرية وفي مياة كريت علم بوناپرت أن نلسن Nelson أمير البحر الانجليزى كان لا يزال يجد في اثره ، فاستمر في سيره بكل سرعة الى الاسكندرية (٣) ، وتمكن من احتلالها ، ثم زحف بحملته عبر الدلتا حتى وصل الى القاهرة التي لم يصمد المماليك طويلا للدفاع عنها امام قواته (٤) ، وهكذا أصبح بوناپرت في موقف يهدد منه المواصلات البريطانية مع الهند (٥) .

ولم يقف الامر عند حد التهديد ، بل لن بوناپرت أمر المسيو لسكاريس بالسفر الى بلاد العرب ليتفاوض مع القبائل العربية المخلفة حتى تسهل

(١) Hunter F.M. an account of the British Settlements of Aden p. 162.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٤ - ٨٦ .

(٤) Harold Ingrams The Yemen p. 49.

(٥) H. Dorwell The Story of Nehmet Alior The founder of modern Egypt p. 56.

تقدم جيوشه الى الهند (١) .

ورغم أن محاولات بونايرت هذه لتأمين طرق تقدم القوات الفرنسية الى الهند لم تكن لها من نتيجة ، فانها أوضحت خطورة الموقف حينذاك بالنسبة للمصالح البريطانية ، ونتيجة لذلك ، قامت قوة بريطانية باحتلال جزيرة بريم في مضيق باب المندب بين خليج عدن والبحر الاحمر (١) وذلك باسم شركة الهند الشرقية ، وذلك حتى تعرقل هذه القوة أى تقدم فرنسى نحو الهند .

الا أن الفرنسيين لم يظلوا في مصر في موقف يهددون منه المواصلات البريطانية مع الهند ، فقد جعل أنتصار نيلسون في أبو قير في أول أغسطس ١٧٩٨ موقفهم في مصر صعبا ، كما أرسل السلطان العثمانى سليم الثالث في نفس السنة سفنا عليها قوات تركية الى مصر (٢) .

وهكذا تمكن نيلسون باغراقه لسفن الاسطول الفرنسى من قطع خطوط مواصلات الحملة الفرنسية مع فرنسا ، الا أن بونايرت واصل حملته التي حضر من أجلها ، وأمر قواته بالزحف على سوريا مبتدئا بفلسطين ، واتصل في نفس الوقت بالوهابيين في الجزيرة العربية . وقد تصدت بريطانيا بمساعدة الدولة العثمانية لهذا التقدم الفرنسى ، مما اضطر بونايرت في النهاية الى العودة الى فرنسا ، وقد اضطرت الحملة الفرنسية نفسها الى الانسحاب من مصر والعودة الى أوروبا بعد ذلك .

ولقد فشلت الحملة الفرنسية على مصر من ناحية فاعليتها في ضرب بريطانيا في الهند ، كما فشلت في إقامة مستعمرة فرنسية في مصر ، أما من حيث تأثير هذه الحرب الاستعمارية على المصريين كجزء من الشعب العربى ، فإن النتائج كانت ايجابية وكانت هامة . فالواقع أن الحملة الفرنسية على

(١) سبديو - خلاصة تاريخ العرب (مترجم) ص ٢٨٢ . ٢٨٣ .

(٢) Plafair R.L. A History of Arabia Felix or Yemen (٢)

p. 122-123.

(٣) Carl Brocklemann The history of Islamic People p. 348.

مصر فتحت حقبة جديدة في تاريخ العرب ، فقد أوضحت هذه الحملة أن سياسة العزلة التي فرضها العثمانيون على العالم العربي لا تصلح أن تكون خطا للمقاومة يحمي الوطن العربي من أطماع أوربا .

المقاومة المصرية ضد الحملة الفرنسية :

بذل الفرنسيون جهودهم عند احتلالهم الاسكندرية منذ ٢ يوليو ١٧٩٨ للتقرب من الشعب المصري ، واتخاذ سياسة أطلق عليها السياسة الاسلامية، ولكن الاسكندرية مع هذا ظلت تبدي من ضروب المقاومة ما يستحق الاعجاب ويعتبر السيد محمد عبد الكريم (١) - كما تنعته المصادر - أو محمد كريم كما شاع بعد ذلك بطل المقاومة في المرحلة الاولى من المواجهة . وعندما شعر الجنرال كليبر قائد منطقة الاسكندرية حينذاك بمسئولية السيد كريم عن المقاومة الوطنية في الاسكندرية وزعامته لها قام بالقبض عليه في ٢٠ يوليو ١٧٩٨ (٢) وبعد ثمانية عشر يوما من الغزو . وكتب كليبر في ٢١ يوليو يخبر بوناپرت في القاهرة بنبا القاء القبض على السيد وتعيين السيد محمد الغرياني خلفا له (٣) .

ثم أمر بوناپرت بتشكيل محكمة عسكريه لمحاكمة الشريف محمد كريم برئاسة الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكري وعند بداية الجلسة قال ديبوى : لقد أثبت التحقيق خيانتك للجمهورية (فرنسا) وانك قمت بتحريض الاهالى وسكان البحيرة على الثورة ضدنا ، ورد عليه الزعيم

(١) السيد محمد عبد الكريم (محمد كريم) شريف النسب ولد على الأرجح في عام ١٧٤٥ ، وكان أبوه رجلا متدينا ، علم ابنه العلوم الدينية في أحد الكتاتيب بالاسكندرية ، ثم أرسله بعد ذلك الى الأزهر لاستكمال دروسه . وبعد وفاة الوالد عمل السيد كريم وزانا (مينة النبانة) . واحبه الناس لامانته واستنهر ذكره في الاسكندرية ورشيد ، وصارت له صلة بالامير صالح بك أمير الحج . ويقول الجبرتي أن صالح بك قد قلد عنمان خجا أمر ثغر رشيد ، وقد سعيا لدى مراد بك الذي قلد محمد كريم أمر الديون والجمارك بالثغر وتخويله السلطة به . وهكذا كان السيد كريم بمناصبه محافظ الاسكندرية عند وصول الحملة الفرنسية اليها ،

(٢) عبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ١٨٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٢ .

بثقة وهدوء ، ان جمهوريتكم هي التي خانت مبادئها . . . لقد اغتصبت وطنى ، وقتلت الناس بلا شفقة أو رحمة ، ثم صاح الشريف فى قاعة المحكمة ، ستؤكدون للعالم بموقفكم هذا ، وبمحاكمتكم لى أننا أمة تبغى الحرية ، وتضحى فى سبيلها بكل ما نملك ، وسوف يخلد التاريخ اسم كل مجاهد ، (١) .

وظل التحقيق مع السيد عدة أيام وهو ثابت لا يحيد عن موقفه ، وأخيرا أعلنت المحكمة قرارها بثبوت جميع الاتهام المنسوبة اليه وأنه خائن للجمهورية الفرنسية ورفع الامر الى بونايرت الذى أصدر قراره بالحكم باعدادام الشريف . وظهر محمد كريم حلدا وشجاعة امام حكم الاعدام . وفى اليوم السادس من سبتمبر ١٧٩٨ تم تنفيذ الحكم رميا بالرصاص ، وأحدث مقتله تأثيرا سميئا لدى المصريين الذين اعتبروه شهيدا ، وانتظروا صابرين حتى تجيء فرصة الجهاد المقدس . ويمكن القول ان هذه الحادثة كانت من أسباب ثورة القاهرة الاولى ضد الحملة الفرنسية فى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وأن مقتل الجنرال ديبوى حاكم القاهرة الفرنسى أثناء هذه الثورة لنوع من القصاص لأن ديبوى كان رئيس المحكمة الفرنسية العسكرية التى حاكت الشريف محمد كريم والذى انتهى أمرها بالحكم عليه بالاعدام .

ثورة القاهرة الاولى :

وهكذا احتل الفرنسيون القاهرة ، ووطدوا سلطتهم بها ، وأصدر بونايرت قرارا بأنشاء الديوان الذى تألف من عشرة من المشايخ لمعاونته فى حكم البلاد (٢) . الا أن شعور أعضاء الديوان بأن سلطتهم استشارية وبأن بعض القرارات الهامة تتخذ دون الرجوع اليهم ، أو تنفذ بطريقة مخالفة لما أبدوه من مشورة ، كان يدفعهم الى النظر الى السلطات الفرنسية على انها كانت تحتفظ لنفسها بالسلطة الفعلية (٣) .

(١) المصدر السابق ص ١٩٦ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٨ .

(٣) د . جلال يحيى - مصر الحديثة - ص ٣٨٤ .

ولقد تكاثفت عوامل كثيرة من أجل زيادة شعور المصريين بالانفصال عن الفرنسيين ، ولا شك أن قيام الثورة أكد استحالة إيجاد جو من التعايش السلمى بين الحكم الفرنسى لمصر الاسلامية وبين الشعب المصرى بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين . لقد كان الشعب فى القرن الثامن عشر يشكل مجتمعا دينيا اسلاميا ، بنظر الى الدولة العثمانية على أنها دولة الاسلام الكبرى وأن سلطانها هو سلطان المسلمين (١) .

ولا شك أن سلوك بونايرت مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المالك ظلمهم وقسوتهم ، فاذا به أشد منهم قسوة وظلما . فقد روى الجبرتى أنه فى يوم السبت ١٤ صفر ١٢١٣ (٢٨ يوليو ١٧٩٨) أى عقب أن استقر بونايرت فى العاصمة ببضعة أيام ، وعقب تأسيس الديوان بثلاثة أيام « . . . اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة وهى خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الافرنج أيضا ، فسألوا النخفف فلم يجابوا فآخذوا فى تحصيلها (٢) » .

ويجب أن لا ننسى هنا أن الفرنسيين كانوا يمنون أنفسهم قبل دخول القاهرة بالحصول على ثروات طائلة من أموال وأموال المالك . ولكنهم لم يجدوا الشئ الكثير بعد دخولهم القاهرة ، خاصة وأن المالك مرربوا كل ما يمكنهم تهريبه معهم فى عملية خروجهم الى سوريا . كما أن تحطيم الاسطول الفرنسى فى أبو قير ، ومحاصرة الاسطول البريطانى للسواحل المصرية أدى الى توقف التجارة وسوء الاوضاع الاقتصادية ، وقطع اتصالات الحملة بفرنسا . وقد أدى ذلك كله بالفرنسيين الى ضرورة الحصول على موارد بطرق أخرى (٣) .

(١) د . عبد العزيز السنناوى - صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر - من ابحاث الندوة الدولية لتاريخ الساعة (مارس - ابريل ١٩٦٩) - مطبعة دار الكتب ١٩٧١ .

(٢) الجبرتى - د ٣ ص ١٢ .

(٣) د . جلال بحى - المصدر السابق ص ٣٨٤ .

وقد ذكر مؤرخنا الجبرتي أن تقرير الضرائب الفادحة التي فرضها الفرنسيون هو الذي أدى إلى نشوب الثورة . ففي يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، عملوا للديوان وأحضروا قائمة مفردات الاملاك والعفار . فحعلوا على الاعلى ثمانية فرانس والاولى ستة والادنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى ، وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوافيت فمئها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والانتساع ، وكتبوا بذلك مناسير على عاداتهم ، والصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخا للاعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص ليتميز الاعلى من الادنى ، وشرعوا في الضبط والاحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء اربابها ، ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم وأستعظموا ذلك (١) .

وتتوقف قليلا عند هذا النص ، ونتمعن في كلمات مؤرخنا . . لقد تمادى الفرنسيون في فرض القروض الاجبارية على جميع أنحاء البلاد ، ففرضوا على تجار الاسكندرية ٣٠٠.٠٠٠ فرنك ، وعلى تجار رشيد ١٠٠.٠٠٠ فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠.٠٠٠ فرنك وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠.٠٠٠ ريال نقدا و ٤٠.٠٠٠ نوعا ، وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠.٠٠٠ ريال ، وعلى الاقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب في الاقاليم ١٠٠.٠٠٠ ريال . ثم فرضوا على تجار خان الخليلي ١٠.٠٠٠ ريال ووكائل الصابون ١٠.٠٠٠ ريال ووكائل الفاكهة ٦.٠٠٠ ريال والسقائين ١٥.٠٠٠ ريال وتجار السكر ١٠.٠٠٠ ريال وتجار الاقمشة الهندية بالغورية ١٥.٠٠٠ ريال (٢) .

ومما زاد الامر سوءا أن الفرنسيين أخذوا يخرجون كثيرا من أصحاب الببوت من بيوتهم ويحتلونها أو يهدمونها بحجة تحصين القاهرة . كما قاموا بهدم ابواب الحارات والدروب ، فأشقت قلق الناس من هدمها ، وتظننوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم في صلاة الجمعة ، وإن كان الجبرتي لا يوافق على هذا الرأي ، فهو يشير الى ذلك بقوله

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٢٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٢٦٧ .

« ٠٠ فلما حصلت هاتان النكتتان أنكمش الناس ثانيا وأرتجفت قلوبهم »
(١) أي أن القول بأن الفرنسيين عازمون على قتل الناس وهم في صلاة الجمعة هو مجرد مبالغة كبيرة جدا لا يمكن الموافقة عليها أو نكتة على حد قول مؤرخنا ٠٠ إلا أن انتشار الاشاعة على أية حال أدى لى انكماس الناس وخوفهم ثم الى ثورتهم في النهاية .

وزاد ظهور تشدد الفرنسيين وضوحا في موقفهم من السيد محمد كريم الحاكم الوطنى لمدينة الاسكندرية ، الذى ثبتوه في سلطته ، ثم حكموا عليه بالاعدام . وكان هذا العمل كفيلا باثارة نفوس المصريين ، وتقليل همة من يتعاون معهم من المصريين .

وكانت هناك اسباب اخرى اجتماعية تدفع المصريين الى عدم التجاوب مع الفرنسيين ، فرغم تظاهر الفرنسيين باحترام وعادات الأهالى وتقاليدهم ، فكانوا في الواقع لا يأبهون بها كثيرا ، فظهرت دور الشراب ، والتفت بعض النسوة الساقطات حول الجنود بشكل يخدش من كرامة المجتمع الاسلامى المتزمت الذى كانت تعيشه مصر آنذاك ، ويكفى أن نورد موقف الجبرتى من هذه النقطة « ٠٠ لما حضر الفرنسيين الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم ، وكانوا يمشون في الشوارع مع نساءهم وهن حاسرات الوجوه ، لا بسات الفستانات والمناديل الحريري الملونة ، ويسدلن على مناكبين الطرح الكشميرى والمزوكشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمر ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة السكارية معهم وحرافيش العامة فمالت اليهم نفوس أهل الاهواء من النساء الاسافل والفراخس ، (٢) » .

كان الرأى العام - اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير - مهبا للثورة ، وجاءت مسألة الضرائب لتكون سببا مباشرا لاندلاعها ، وعلى أية حال فقد استسلم بعض الناس للامر الواقع ، ورأى البعض ضرورة المقاومة « ٠٠ ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر في عواقب الامور ، ولم يتفكر أنه في القبضه مأمور لتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٣ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٦١ .

يقودهم ، وأصبحوا يوم الأحد وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام نصر الله دين الاسلام . (١) :

ونتوقف هنا لحظات كي نتناول كلمات مؤرخنا بالتحليل فهو هنا يأخذ على بعض المتعممين انهم لم ينظروا في عواقب الامور ، وانهم لم يفطنوا الى قوة عدوهم ، ونستطيع بصفة عامة ان نلمس أنه لم يكن موافقا على قيام ثورة القاهرة الاولى بالطريقة التي قامت بها . كما يتضح من كلمات الجبرتي أن الحركة بدأت تلقائية بدون رئاسة أو تنظيم ، وان كان بعض المؤرخين يؤكد أن لجنة الثورة أعدت لقيامها قبل بدئها . كذلك نتوقف عند كلمات الجبرتي الخاصة بتوصيف الثوار وبأنهم من الغوغاء أو الحشرات والزعر والواقع أن الجبرتي كان قاسيا في وصفه هذا على الثائرين الذين كان منهم المحاربون والشهداء في هذه الثورة الاولى ، الا أنه يبدو أن الذي جعله يطلق عليهم هذه الالقاب المنفرة هو تأكده من عدم جدوى الثورة ضد القوات الفرنسية المنظمة والمسلحة بأعتى الاسلحة آنذاك ، وكذلك لان الفوضى والسلب والنهب اللذين صاحبا بدء قيام الثورة جعلته ينفر من بعض القائمين بها ويلقبهم بهذه الالقاب المهينة .

وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ تكونت للثورة لجنة تديرها وتنفذ دعوتها ومقرها الازهر ، وامتلات الطرق والشوارع بالناس حاملين الاسلحة قاصدين الى احياء افرنسيين لمهاجمتها .

ويبدو أن السلطات الفرنسية لم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها في أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم الى مركز المخافر الفرنسية فقتلوا الجنود والحراس . ولم يقدر الجنرال ديبوى - حاكم القاهرة الفرنسي - خطورة الموقف ، واكتفى بإرسال بعض دوريات من الجند ، الا أنه لم يلبث - عندما تبين خطوره الموقف - أن مضى في كتيبة من الفرسان قاصدا مركز الثورة ، الا أن الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صارت كأنها بحر يزخر بالناس ، وأخذ الجنرال

ديبوى يشق لنفسه طريقا بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقطت الاحجار على الكتيبة من جموع الثوار . ولم يحسب حسابا لعواقب مواجهته هذه الجموع الثائرة ، فهاجم عليها على رأس فرسانه ، الا ان الثائرين اطلقوا عليه من كل جانب ، (١) وهنا انزعج ديبوى ، وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الاخطا باللاختق مزحومة فبادروا اليه وضربوه واتخذوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وابطاله وشجعانه ، . والواقع ان مقتل الجنرال ديبوى زاد من حماسة الثوار ، وانحازت الجموع الهائلة الى صفوف الثورة متشجعين بهذا النصر الاول ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف ، واشتدت حمية القتال في نفوسهم واستولوا على معظم المواقع المحيطة بالقاهرة كباب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية ، وهدموا مساطب الجرائيت وجعلوا احجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ووقف دون كل متراس جموع عظيم من الناس ، اما منطقة مصر القديمة ومنطقة بولاق فلم تشتركا مع الثورة ، ويبرر الجبرتي ذلك بقربهما من ثكنات القوات الفرنسية .

وظل الثوار متحصنين وراء المتاريس . الى ان هاجمت قوة فرنسية بعض المتاريس التي كانت موجودة في ناحية المناخية ، وامكن للقوة الفرنسية ان تبعد الثوار عن هذه المنطقة ، الا ان الموقف تطور تطورا خطيرا ، اذ زاد الحال وكثر الرجف والزلازل ، وخرجت العامة عن الحد وبالفرا في القضية بالعكس والطرد ، وامتدت ايديهم الى النهب والخطف والسلب ، فهاجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام والاروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، واخذوا الودائع والامانات وسبوا النساء والبنات ، وكذلك نهبوا (٢) خان الملايات وما به من الامتعة والموجودات ، واكثروا من المعاييب ولم يفكروا في العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين .

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ ، اخذت القوات الفرنسية في التجمع ، ثم بدأ هجومها على الثوار في الشوارع وخلف المتاريس ، وطفقت جموع

(١) عبد الرحمن الرافعي - المصدر السابق ص ٢٧٧ - ص ٢٧٩ .

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٢٥ .

الثوار تحتشد في حي الازهر ، وامتنع بالجامع الاكبر خمسة عشر ألفا من أشد الثوار حماسة ، ودعموا القنايس في الطرق والازقة الموصلة اليه ، وأما الافرنج فانهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحروا جميع الآلات من المدافع والقنايس والبنبات ، ووقفوا مستعدين ، وكان كبير الفرنسيين قد أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ، ومل من المطاولة . هذا والرمي متتلع من الجهتين وتضاعف الحال ضعفين حتى حضر وقت العصر وزاد القهر والنصر . فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الازهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين .

ويصور الجبرتي مدى تأثير ضرب المدفعية الثقيلة على الاحياء الوطنية سواء من الناحية المادية أو المعنوية ، فقد زاد الخطب وعظم الكرب ، فركب المشايخ يقصدون الجنرال بونابرت « ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره عن الرمي المتراسل ، ويكفهم كما فكف المسلمين عن القتال ، والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عابهم في التأخير واتهمهم في التقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم » وعاد العلماء يبشرون الاهالي ويطمئنونهم ، وأما أهل الحسينية والعطراف الدرائبة فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمي المتتابع والقنايس والمدافع الى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الادوات . وعندئذ انتهت المقاومة ، وبدأ الفرنسيون في الدخول في شوارع القاهرة ، وأخذوا في هدم القنايس ، وسبطوا على الموقف .

ونجد الجبرتي - وهو القوي في عقله ودينه - وقد اعتراه غضب شديد مما قام به الفرنسيون في هذه المرحلة ، فتقف وتشتد كلماته ، ثم يبدو وكأنه كان يتلوى ألما وحزنا لما قام به هؤلاء في الجامع الازهر فيقول أن الافرنج دخوا المدينة كالمسيل « أو جند ابليس وهدموا ما وجدوه من القنايس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما جمعوا وعلموا باليقين أن لا دافع لهم لا كمين وتراسلوا ارسالا ركبانا ورجالا

ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول وبيبنهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقباته وعانوا بالاروقسة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وحشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاواشي والفصاع والودائع والمخبآت بالدواليب الخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها .. وشربوا الشراب وكسروا اوانسه وألقوها بصحنه ونواحيه ، (١) .

وأحاطت القوات الفرنسية بهذه المنطقة احاطة تامة ونهبت بعض المنازل بحجة التفتيش على الاسلحة .

ويؤكد الجبرتي أن الشوام وجماعة الاروام اتخذوا موقفا انفصاليا عن اخوانهم المصريين المسلمين وأنهم « أغتتموا الفرصة في المسلمين وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين » فشكوا الى بونابرت أمر نهب ممتلكاتهم رغم أن عمليات النهب والسلب امتدت ايضا الى الكثير من ممتلكات المسلمين المجاورين كذلك .

ويبدو أن البحث عن حملة الاسلحة كان بنم بطريقة عنيفة جدا! اغضبت الشيخ حتى أطلق على الفرنسيين اسم الكفرة .. ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ويدل بعضهم فيضعون على المدلول عليهم ايضا القبض .. وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل فذفوهم ، ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم « وواضح هنا الاتجاه الاسلامي سواء لدى الثوار ام لدى الشيخ الجبرتي نفسه .

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، فان الفرنسيين بدأوا في البحث عن المسئولين عن تدبير الثورة فطلبوا « الشيخ سليمان الجوستي (٢) شيخ طائفة العمبان والشيخ أحمد الشرفاوي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ وسف المصلحي والشيخ اسماعيل الجراوي وحسبهم بعبت

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٢٦ .

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٢٧ .

البكرى ، • كما أنهم اتهموا غيرهم بتوزيع الاسلحة على الاهالى والقوا القبض عليهم ، ولم يستجيبوا لطلب المشايخ وتسفيعهم وعلى رأسهم الشيخ السادات فى أمر اطلاق سراحهم (١) • الا أن الامر انتهى حسب رواية الجبرتى الى قتلهم بالبنادق والقائهم من السور خلف النلعة • ويبدو أن الفرنسيين خافوا من ثورة النفوس عند اذاعة أنباء قتل الشيوخ المذكورين فكتبوا أوراقا والصقوها بالاسواق تتضمن العفو والتخدير من اثاره الفتنة وأن من قتل من المسلمين فى نظير من قتل من الفرنسيين •

ويبدو أن الناس كانوا قد استكانوا - ولو مؤقتا امام قوة الحديد والثار ، لان الفرنسيين أخذوا من جديد فى احصاء الاملاك تمهيدا لفرض الضرائب عليها فلم يعارض فى ذلك معارض ولم يتفوه بكلمة (٢) كما أنهم استمروا فى نزع أبواب الدروب والحارات الصغيرة •

كما يوضح الجبرتى كيف أن الفرنسيين أستغلوا المكانة التى كان يتمتع بها المشايخ فى مصر ، فكتب الفرنسيون « عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخا بالاسواق والشوارع » وأخذت هذه الاوراق شكل نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر الى المواطنين بعدم سماع الاشاعات والاتصال بالمخربين واثارة الفتنة (٣) •

ثورة القاهرة الثانية :

الا أن القاهرة لم تظل صامته فترة طويلة اذ أنها لم تلبث أن ثارت ضد الفرنسيين مرة أخرى فى ٢ مارس سنة ١٨٠٠ ، وتفصيل الامور : أنه وقعت اتفاقية العريش بين العثمانيين والفرنسيين فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ والتى كانت تقضى بحلأ الفرنسيين من مصر ، وورد الخبر بذلك الى مصر ، وفرح الناس بذلك فرحا شديدا ، (٤) •

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٨ •

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٩ •

(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٣٠ •

(٤) الجبرتى ج ٣ ص ٨٣ •

وهناك مسألة محيرة ، هل كان الجبرتي يكتب يومياته يوما بيوم فعلا ، أم أنه كان يكتب هذه اليوميات بعد وفور هذه الاحداث بفترة ، أم أنه كان ينقح ما كتب وبعد ظهور النقائج ، بحيث جاءت كتاباته وكأنه كان عالما بما سوف يحدث في الايام التالية أو انه كان محلا سياسيا يتوقع بصفة عامة بعض الاحداث التالية لانه نتيجة للاتفاق السابق بين العثمانيين والفرنسيين نظر المصريون الى الفرنسيون على أن خروجهم من البلاد أصبح وشيكا وأظهروا شماتتهم فيهم ، دون تمعن في العواقب ، ويقول الجبرتي : « أما الدعايا وهمج الناس من أهل مصر فانهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيين بعين الاحتقار ، وأنزلوهم عن درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتناولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا في عواقب الامور ولم يتركوا معهم للصلح مكانا حتى أن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الاطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف . . . وهم يجهرون ويقولون كلاما اقفى بأعلى أصواتهم يلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقولهم الله بنصر السلطان ويهلك فرط الرمان ونحو ذلك وظنوا فروغ القضية ولم يملكوا لانفسهم صبرا حتى تنتفضى الايام المشروطة على أن ذلك لم يثمر الا الحقد والعداوة التى تأسست في قلوب الفرنسيين وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس » .

وفي هذه النقطة ، يبدو أن الجبرتي كتب ناقدا عدم تبصر العامة بالامور وتسرعهم في ابراز عواطفهم ، الا أنه في ذلك حكم عليهم بما حدث بعد ذلك من أحداث ، فالعامة عبروا في ذلك الوقت عن سعادتهم - بطريقتهم الخاصة في التعبير - بقرب جلاء قوات الاحتلال الفرنسى ، ولبس هذا عيبا فيهم ، بل هي الظروف الدولية التى جعلت الفرنسيين يتراجعون عن تنفيذ بنود اتفاقهم ، فقد كان السير سدنى سميت هو الذى توسط في الاتفاق بين الفرنسيين والعثمانيين ، وكان أخوه سنسر سميت هو الورير المفاوض البريطانى في استانبول ، ووافق على مسودة الاتفاق بين الانجليز والعثمانيين ، وعلى أساس اعطاء جوازات مرور للقوات الفرنسية العودة الى بلادها دون التعرض لها ، ولكن سرعان ما وصل البرد الحار الى

استانبول سفيرا لبلاده (١) ، وأقنع الوزارة البريطانية بخطأ هذه السياسة ما دام في وسع الانجليز ن يأسروا ملقوات الفرنسية بدلا من أن تستخدمهم فرنسا من جديد في معاركها في القارة الاوربية ضد بريطانيا وحلفائها .

وكان الموقف خطيرا ، ففي الوقت الذي وصلت فيه طلائع الجيش العثماني الى المطرية ، استمر الفرنسيون في بيع امتعتهم والانسحاب الى الاسكندرية ، بدا أن السلطات البريطانية لا توافق على اتفاقية - العريش ، الامر الذي اثر على تسلسل الحوادث ، فقد اضطر الجنرال كليبر الى اصدار الامر من جديد باعادة تحصين القلاع المحيطة بالقاهرة ، واستعد لملاقاة الجيش العثماني الزاحف (٢) ، والعثمانيون لا يدرون عن هذه الاستعدادات شيئا ، وهكذا فوجيء العثمانيون بالهجوم الفرنسي ، وتمكن الفرنسيون من تحقيق بعض الانتصارات ، الا أن انتصاراتهم لم تكن كاملة ، اذ ستقوم القاهرة بثورتها الثانية ضدهم ، لأن « أهل مصر لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقليل والقال ، ولم يدركوا حقيقة الحال ، فهاجوا ورمحوا الى اطراف البلد ، وقتلوا اشخاصا من الفرنسيين صادفهم خارجين من البلد ليذهبوا الى اصحابهم ، وذهبت شزيمة من عامة مصر ، فنهبت الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره حيب كان عرضي الفرنسيين وخرج السيد عمر أفندي نقيب الاشراف والسيد أحمد المحروقي وأنضم اليهما أتراك خان الخليلي والمغاربة الذين بمصر ، وكثير من العامة وتجمعوا على القلل خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النباييت والعصى والقليل معه السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاولباش والحسرات وجعلوا يطوفون بالازقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج ونجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم ، .

وكانت فرقة من الفرسان الاتراك قد انفصلت عن الجيش ، واحت صوب القاهرة بقيادة نصوح باشا ، وعجز الفرنسيون عن تعقبها . كما عجزوا عن منعها من دخول القاهرة ، وكان لوصول هذه الفرقة أثر كبير في

(١) د . محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ١٨٨ .

(٢) د . جلال يحيى - مصر الحديثة ص ٤٦٠ - ص ٤٦١ .

تغيير الموقف ، اذ أنها ستزيد من حماس الجماهير ، وتنسجيع روح الثورة نفوس الشعب ، وخاصة عندما قال « نصوح باشا عند ذلك للامة ، اقتلوا النصارى واجاهدوا فيهم ، فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا ورفعوا أصواتهم (١) ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه .

وشرع أهل مصر مع العسكر فى إقامة المتاريس حول المدينة وبأطرافها وكذلك تحصين البلد على قدر طاقتهم ، « وبالحملة كل من كان فى حارة من أطراف البلد انضم الى العسكر الذى بجهته بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الابواب والمتاريس والاسوار وبعض عساكر ان العثمانية وما انضم اليهم من أهل مصر المتسلحين مكثت بالجمالية» وكان هذه القوة التى مكثت بالجمالية كانت كفرقة للامداد أو كفوه اخياطية، والجبرتى يرى هذا الرأى ، ويوضح أنه « اذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بطائفة من هؤلاء » .

كما أن الجبرتى يحدد موقفه من هذه الثورة بوضوح « . . وصار جميع أهل مصر أما بالازقة ليلا ونهارا وهو من لا يمكنه القتال وأما بالاطراف وراء المتاريس وهو من عنده اغتنام وتمكن من الحرب ، ثم يصدر الجبرتى قراره ويصبح موقفه أكثر تحديدا « ولم ينم ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف » (٢) . والواقع أن العالم المتحفظ وقد تأثرت مشاعره بهذا التجمع الوطنى ، لم يستطع سوى أن يتخذ موقفا واضحا ومحددا ، فكل من تقاعس عن المشاركة فى هذه الاعمال الثورية والدفاعية فهو أما جبان أو ضعيف لا يستطيع المعاونة .

ولم يتوقف هذا التجمع الوطنى الاسلامى عند حد الاستعداد الحربى، بل « باشر السيد أحمد المحرقى وباقى التجار ومسائير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر بكل انسان سمح بنفسه وجميع ما يملكه واعانة بعضهم بعضا وفعلوا ما فى وسعهم وطاقاتهم من المعاونة » (٣) .

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩١ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٩٣ .

(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٩٤ .

أن الجبرتي يبرز في النص السابق تلك الروح المصرية 'لاصيلة' ، روح التعاون أمام الاخطار والازمات ، فالناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية يجودون بأرواحهم وممتلكاتهم من أجل نصرة الوطن والدين .

أما في بولاق ، فقد هاجم الثوار المعسكرات الفرنسية واستخدموا بعض مدافع العثمانيين التي كانت لهم في المطرية ، ولم تكن بهذه المدافع قنابل فاستخدموا كرات الموازين الحديدية التي جلبوها من الوكالات والمحلات ، ثم أنشأ الثوار معملا للقنابل ومصنعا لصب الاسلحة ، وأنزعوا من المساجد الحديد والخشب ، وتطوع الحدادون والسباكرون والنجارون وغيرهم للعمل في هذه المصانع ، وتحزم الحاج مصطفى البستيلي وأمثاله وهيجوا العامة وهبئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا وأول ما بدأوا به أنهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيين الذي تركوه بساحل البحر وعنده حرسية منهم فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا الى البلد وفتحوا محازن الغلال والودائع التي للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد وقوى في رأسهم العناد ، (١) .

الا أن الجنرال كليبر بدأ في معالجة الثورة - من وجهة نظرة - بإحكام الحصار حول المدينة النائرة ، ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج وأشستد الحرب وعظم الكرب وأكثروا من الرمي المتتابع بالمكاحل والمدافع وأكثروا وأوصلوا وقع القنابر والبنبات ، ولا شك أن هذا الحصار أثر على الحالة المعنوية للمصريين ، كما اثر كذلك على وجود المواد التموينية الضرورية ، وعدمت الاقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات وارتفع وجرد الخبز من الاسواق ، (٢) .

وغد عمد الجنرال كليبر الى تنفيذ مخططة للقضاء على الثورة ، فمع الحصار سعى الى تفتت عناصر الثورة وصى العثمانيين والمصريين وأمراء الممالك وبدأ بالعثمانيين ، فبدأوا مع زعمائهم على وقف القتال ، ثم عمد

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٩٦ .

كثير في نفس الوقت الى محاولة الاتفاق مع مراد بك الذي كان قد انسحب بقواته الى الصعيد ، وبعد ذلك اصبح في وسع الجنرال أن يضيق الخناق على ثورة القاهرة ويقوم بأقتحام المدينة بالقوة المسلحة . وكانت احوال القاهرة قد ازدادت صعوبة مع استمرار الحصار وقوة ضرب المدفعية ، ويوضح الجبرتي مدى ما لاقاة المصريون من عناء في هذه الفترة ، فقد استمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب وشدة البلاء والكرب ووقوع البنبات على الدور والمساكن من القلاع والهدم وانحرق وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع والبلع من القحط وفقد المأكّل والمشارب وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ووقسوف حال الناس من الببع والشراء » (١) .

وطلب كليبر المشايخ للتحدث معهم في الامر ، وذكر لهم أنه يعطى الامان الكامل لاهل القاهرة على أساس خروج القوات العثمانية الموجودة في المدينة ، وتوسط العلماء بين الفرنسيين والعثمانيين في عقد الصلح . الا أن جماهير القاهرة انقلبت على العلماء « وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيين . وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول » .

ومرة أخرى يحتد الجبرتي وتشتد كلماته على العامة وتعنف ، والعامة هم وقود الثورة ودعائمه ، وهم قد تم شحنهم ضد الفرنسيين ورفعت روحهم المعنوية ، وبذلوا النفس والنفيس من أجل انجاح ثورتهم ، وهم قد فسروا طلب الفرنسيين للمصالحة على أنه ضعف منهم ، كما كان الجميع يعتقدون بأن هناك قوات نجدة ستأتى للقاهرة ، كل هذا ويقوم العلماء بالتوسط في الصلح ، لا شك أن ذلك العمل قد أثار العامة جدا وجعلهم يوجهون للعلماء أقذع الكلام . أما العلماء فهم أيضا قد تبين لهم الفارق البائل في التسليح بين الفرنسيين وبين قوات الثورة ، وأن الدائرة سوف تدور على الثائرين

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٩٨ .

(م ٣ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

وأن المسألة مسألة وقت ليس الا ، ومن ثم - وحققنا لدماء المسلمين - توسطوا في الصلح بين العثمانيين والفرنسيين كمقدمة لحل المسألة كلها .

على أية حال استمات أهل بولاق في الدفاع عنها ، ويقدم الجبرتي تلك النهاية الدرامية للثورة « . غيبت السماء عيما كثيفا وأرعدت رعدا مزعجا عنيفا وأمطرت مطرا غزيرا وسيلت سيلا كثيرا . فسالت المياه في الجهات وتوصلت جميع السكك والطرق . والفرنساوية هجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ولم يبالوا بالامطار لانهم في خارج الافنية وهي لا تتأثر بالمياه كداخل الابنية . ثم هجموا على بولاق من ناحية البحر ومن ناحية بوابة أبي العلا بالطريقة المذكور بعضها وقاتل أهل بولاق جهمهم ورموا بأنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيين عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله الفواصي وصارت القتلى مطروحة بالطرقات والازقة وأحترقت الابنية والدور والازقة ، (١) .

وهكذا سيطر الفرنسيون على بولاق ، واستمرت هذه المأساة من يوم ١٤ أبريل حتى يوم ١٧ ، أن منطقة بولاق لم تسلم ولم تنهزم ، ولكنها أحرقت وتم تدميرها ، ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل فرض الفرنسيون على أهل بولاق غرامة جسيمة بلغت قيمتها مائتي ألف ريال علاوة على ثلثمائة ألف على المتاجر ، وفرضوا على الاهالي أن يسلموا ما لديهم من مدافع ونخائر وغلال وحبوب .

واستولى الفرع على سكان القاهرة ، وانتهاز كليبر هذه الفرصة وأمر بالهجوم العام على القاهرة في ١٨ أبريل ، وبدأ الهجوم بتحضيرات من المدفعية على المدينة من كل جانب ، ومهال العلماء مرة ثانية الى ضرورة السعي للوصول الى الصلح ، واستمرت المفاوضات في شروط التسليم حتى يوم ٢١ أبريل ، وانتهى الامر بدخول كليبر القاهرة بعد انكسار الثوار والاتفاق على شروط التسليم . الا أن هذا

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٠٢ .

التمادى فى سياسة القوة وفرض الغرامات سبكون عاملا فعلا فى اغتسال
الجنرال فى النهاية .

نتائج الحملة

١ - نتائج سياسية .

وضعت الحملة الفرنسية مصر على مائدة السياسة الدولية ، لان
مصر منذ مجيء الحملة أصبحت بحكم موقعها الجغرافى المتوسط فى العالم،
وسيطرتها على أكبر بحرين عالميين البحر الاحمر والبحر المتوسط ،
أصبحت محط أنظار الطامعين . ويأتى قيام بريطانيا بتحطيم الاسطول
الفرنسى فى موقعة أبو قير دليلا على بريطانيا لم ترض بوجوهود
قوى منافسة على الطريق التجارى العالمى بين الامبراطورية البريطانية
وجوهرة التاج البريطانى أى الهند . ولم تتوقف بريطانيا عند حد
تحطيم الاسطول الفرنسى ، ولكنها اشتركت مع الدولة العثمانية
فى اجلاء الحملة الفرنسية عن مصر سنة ١٨٠١ . ورغم انسحاب الفرنسيين
فعلا فى هذا التاريخ ، فان الاسطول البريطانى ظل محاصرا الشواطىء
المصرية حتى عام ١٨٠٣ . ولما فشلت بريطانيا فى ايجاد حكم
مملوكى تابع لها فى مصر ، فانها عادت وحاولت احتلال مصر سنة
١٨٠٧ فيما عرف بحملة فريزر والتي انتهت بهزيمة ساحقة للقوات
البريطانية . وعندما شيد محمد على الامبراطورية المصرية فى
النصف الاول من القرن التاسع عشر وحطم بذلك الهيمنة الاقتصادية
لبريطانيا فى المنطقة بعد أن شيد صرح الصناعة المصرية الحديثة ،
فان بريطانيا حطمت هذه الامبراطورية ، ووجدت سلطة الوالى
المصرى الطموح بحكم مصر فقط وكذلك السودان مدى الحياة ، وذلك
بتسوية لندن ١٨٤٠ ، ١٨٤١ .

وبعد شق قناة السويس سنة ١٨٦٩ قررت بريطانيا الاستيلاء على
مصر ، لان التنافس أصبحت تشكل مع البحرين المتوسط والاحمر أقرب
طريق مستعمرتها فى البند ، وانتهزت بريطانيا فرصة الخلاف بين
الزعيم أحمد عرابى والخديو توفيق واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ .

٢ - نتائج قومية :

من نتائج الحملة الفرنسية غير المباشرة ، أن المصريين ثاروا مرتين عندما تجمعوا في حشود ثورية بزعامات مصرية خالصة . والتعاون بين الثوار وبين القتالين ضد قوى الاحتلال ، ولد شعورا خاصا بالقومية ظل بذفاً على مر الزمن . كما أن اشراك بوناپرت للمصريين معه في حكم مصر أى في الديوان كان بدء الشعور لدى المصريين بأنه في امكانهم حكم بلادهم . كما أن استخدام اللغة العربية في المنشورات الصادرة من قيادة الحملة للشعب المصرى ، والصحف التى كانت تصدر باللغتين العربية والفرنسية أدى الى تدعيم القومية المصرية العربية .

٣ - الآثار الحضارية .

(أ) المجمع العلمى المصرى .

كانت سياسة بوناپرت قائمة على أساس دراسة طبيعة البلاد والوقوف على جميع مواردها حتى يجعل منها نقطة ارتكاز لتوسعاته فى الشرق ، ولذا أمر بإنشاء المجمع العلمى ، فقد كان يعتقد أن آثار العلم أبقي من آثار الحروب ، ومصر تصلح أن تكون حقلاً لتحقيق تلك الغايات ، خاصة وأن علماء الحملة قد شغلوا كل التخصصات . ولذا أصدر بوناپرت بعد دخوله القاهرة أمراً بإنشاء مجمع للعلوم والفنون أهم اختصاصاته نشر العلوم والمعارف فى مصر ، والقيام بالبحوث والدراسات وإصدار الكتب والنشرات . وقد تم بالفعل إنشاء المجمع الذى ضم أربعة أقسام : الرياضيات - الطبيعة - الآداب والفنون - الاقتصاد ويضم كل قسم اثنا عشر عضواً .

واجتمع المجمع المصرى لأول مرة يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ .
 وفى الواقع قام أعضاء المجمع العلمى بمجهودات حثيثة كشفت النقاب عن كثير من ثروات مصر الاقتصادية .

(ب) لجنة العلوم والفنون :

كان بوناپرت قد اختار مونج لرئاسة هيئة العلماء الذاهبة

الى مصر (١) . وكان عدد العلماء الذين حضروا الى مصر ١٧٥ عالما .

وقسدت لجنة العلوم والفنون عند وصولها الى مصر الى ثلاثة أقسام : قسم بالقاهرة برئاسة مونتج ، والثاني بالاسكندرية وكانوا نحو خمسة عشر عالما والقسم الثالث في رشيد وكانوا حوالي عشرين عالما . ولما استقر بونابرت في القاهرة ، أرسل في ٢١ أغسطس يطلب حضور جميع العلماء الى القاهرة . فاستجاب مينو ، وأرسل العلماء الموجودين في رشيد ، ولكن كليبر استبقى العلماء الذين كانوا في الاسكندرية بدعوى انشغالهم برسم خريطة الاسكندرية .

وتم تنظيم لجنة العلوم والفنون ، ووزعت الاعمال على أعضائها ، وقبل بداية شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ كان قد تم انشاء مكتبة العلوم الطبيعية ومعمل الكيمياء ومكتبة التاريخ الطبيعى ومرصد علماء الفلك ، كما تم تسييد الورش الميكانيكية التى زودت العلماء بالآلات والادوات التى احتاجوا اليها فى بحوثهم (٢) .

(ج) الآثار .

اهتم علماء الحملة بالكشف عن الآثار القديمة . وعندما أمر بونابرت بعمل تحصينات فى رشيد ، تبين أن خير مكان لانشاء هذه التحصينات هو موضع القلعة التى كانت تعرف باسم برج رشيد . وعند الحفر عثر بوشار على حجر رشيد ، وهو حجر من الجرانيت الاسود ارتفاعه ٩٧٥ مليمترا وعرضه ٧٣٢ مليمترا وسمكه نحو ٢٥٠ مليمترا .

وقد وجد المكتشفون نقوشا على واجهة واحدة عبارة عن ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن بعض . أما النقوش العليا فكانت اربعة عشر سطرًا بالهروغليفية ، يليها اثنان وثلاثون سطرًا بالديموطيقية - كما عرفت فيما بعد - أما

(١) دكتور فؤاد نمكى - عبد الله حاك فينو وخروج الفرنسيين

ص ٦١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦١٩ .

النقوش التي نلتها فكانت في أربع وخمسين سطرًا باللغة اليونانية القديمة . وقد أرسل هذا الحجر من رشيد إلى القاهرة حتى يفحصه المجتمع العلمي . وقضى العلماء بالقاهرة أسابيع طويلة . حول الحجر يحاولون فك رموزه .

وقد ظل الحجر في مصر حتى جلاء الحملة ، وبذل مينو جهدًا كبيرًا لمنع الانجليز من الاستيلاء على حجر رشيد ولكن الانجليز أصروا على أخذه ، فنقلوه إلى المتحف البريطاني وهناك نجح شامبليون في فك رموزه .

أما بالنسبة لآثار الصعيد فإن ميفان دينون كان من أوائل علماء الحملة الذين تجولوا في اتجاه الصعيد ، فقد رافق حملة الجنرال ديزية في الصعيد نحو ثمانية أشهر يرسم ما يشاهده من معابد وتمائيل (١) . وقد رسم دينون آثار هرمو بوليس (الاشمونين) ومنفلوط وأسيوط كما زار آثار كوم أمبو وادفو الأقصر والكرنك خصوصًا مدينة هابو والرمسيوم ووادي الملوك .

وقد أحضر دينون معه إلى القاهرة مائتي رسم تشتمل إلى جانب صور التماثيل والمعابد وما إلى ذلك على رسوم نقوش هيروغليفية ، كما أحضر معه بعض مجموعات أوراق البردي .

(د) خريطة جاكوتان .

اعتقد بونابرت أنه من الأهمية بمكان وضع خريطة دقيقة ومفصلة لمصر ، وذلك لتحقيق أهدافه المرسومة بها . وانتشر العلماء بتعليهات منه - في ربوع مصر لرسم الخرائط المفصلة . وبعد جهد جهيد ، أمر بونابرت في ٢٨ يونيو ١٧٩٩ باجتماع العلماء الجغرافيين في مقر هيئة أركان الحرب ، وعهد إلى جاكوتان بمسئولية رئاسة الفريق المسئول عن اعداد الخريطة (٢) .

(١) - دكتور فؤاد نسكرى - المصدر السابق ص ٦٣٧ .

(٢) دكتور محمد فؤاد نسكرى - المصدر السابق ص ٦٤٠ .

وعندما حان وقت جلاء الحملة ، استقطاع العلماء الفرنسيون أن يأخذوا معهم الى فرنسا هذه الخرائط التفصيلية ، وفرغوا من اعداد هذه الخريطة نهائيا في ١٣ اكتوبر سنة ١٨٠٣ .

(هـ) كتاب وصف مصر .

يرجع الفضل الى كليبر في ظهور هذا الكتاب . فهو الذى دعا المجتمع العلمى للاجتماع في ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٩٩ حتى يمكن التفاهم في شأن كتاب وصف مصر . ولقى مشروع وضع الكتاب تأييدا شاملا ، وعندما عادت الحملة الى فرنسا ، تقرر أن تقوم الحكومة بنشر الكتاب على نفقتها . وظهر أول اجزاء الكتاب سنة ١٨٠٩ وكتب الاهداء باسم الامبراطور نابليون ، ثم حالت الظروف السياسية دون نشر بقية اجزاء الكتاب ، فظهر آخر اجزاء هذه الطبعة في سنة ١٨٢٢ .

وتتألف من تسعة مجلدات تشتمل على بحوث العلماء ومذكراتهم وأحد عشر مجلدا آخر تحوى الرسوم .

وينقسم الكتاب الى ثلاثة اقسام هي : التاريخ القديم والتاريخ الحديث والتاريخ الطبيعى . والواقع أن كتاب وصف مصر تعرض للجغرافيا والآثار وموارد الثروة الحيوانية والنباتية والمعدنية والتاريخ والمجتمع وما الى ذلك من فروع المعرفة ، ويعتبر اعظم آثار الحملة ، الفرنسية وابقاءها على مر الايام .

(و) المطابع والصحافة .

هيأت حكومة الادارة للحملة كل ما احتاجت اليه من آلات للطباعة (١) ، ولذا فقد عهد بونابرت الى مونج باختيار المستشرقين والذين يحترفون فنون الطباعة العربية (٢) . وتم جمع حروف المطبعة من باريس ،

(١) دكتور ابراهيم عبده - تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية ص ١٢ - ١٣ .
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٦٥٢ .

واستكملت لها الاحرف العربية من مطبعة البروبا جندا يروما ، وأصبح
المستشرق مارسيل ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون - مسئولاً
عن المطبعة العربية (١) .

وقد تألفت المطبعة الرسمية التي احضرتها الحملة معها الى
مصر من مطبعة فرنسية وأثنتين عربيتين وواحدة يونانية وبالإضافة
الى المطبعة الرسمية كانت هناك مطبعة خاصة لأحد الدنيين
الذين رافقوا الحملة هو مارك أوريل (٢) :

وبعد أن استولى بونابرت على القاهرة ، أمر باحضار المطابع
من الاسكندرية ، لاهمية الاعلام أو الدعاية بين أبناء الشعب
المصرى (٣) .

وكان بونابرت قد عهد الى مطبعة مارك أوريل بطبع الصحفيتين اللتين
قرر اصدارهما في مصر وهي صحيفة لوكورييه دوليجبت Le Courrier De
L'Egypte ولا ديكاد اجبسيين La Decade Egyptienne وكانت الصحيفة
الاولى سياسية والثانية أدبية علمية تصدر كل عشرة أيام ، ثم انتهى بها
الحال لتصدر كل شهر .

وبالإضافة الى ذلك كانت هناك صحيفة التنبية التي كانت تصدر
باللغة العربية لنشر البيانات والاوامر ونشاط الديون وأخبار العالم
والمقاولات الادبية والاخلاقية .

واذا كان مارك أوريل قد باع مطبعته وعاد الى فرنسا في
٧ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، فان مينو استطاع أن يعيد المطبعة الرسمية الى
فرنسا مع انسحاب الحملة .

والواقع أن المطبعة الرسمية قد حازت على اعجاب الكثير من
المشايخ وأعضاء الديوان وغيرهم من المصريين الذين زاروها ، وقروا
الصحف والبيانات المطبوعة باللغة العربية .

(١) عبد الرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) د . إبراهيم عبده المصدر السابق ص ٣٦ .

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى - عبد الله جاك مينو ص ٦٥٧ .

(هـ) المسرح .

لم يكن في مصر في نهاية القرن الثامن عشر مسرح بالمعنى المفهوم ، الا أنه مع عام ١٧٩٩ بدأ بناء مسرح الازبكية لتمثل عليه بعض فرق الفنانين مسرحيات فرنسية . وتشكلت بعد ذلك الفرقة المسرحية (الأوبرا) . وبذلك يرجع الفصل الى الفرنسيين في انشاء المسرح في مصر في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر .

وخلاصة القول أن تأثير الحملة الفرنسية كان محدودا على المدى القصير ، وذلك لقصر الفترة التي عاشتها الحملة في مصر ، ولكن بالنسبة للمدى الطويل فإن الحملة هزت المفاهيم الفكرية والاجتماعية التي كان المجتمع المصري يخضع لها ، وأوضحت للمصريين مدى التخلف الذي كانوا فيه تحت ظل الحكم العثماني وأنه لابد لهم من مجاراة العصر والتعرف على العلوم الحديثة ، أي أن الحملة قد أقتنعت المصريين و الصفوة المثقفة بضرورة التغيير ، وحساء مؤسس مصر الحديثة والى مصر العظيم محمد علي ليستفيد من هذا الاعداد النفسى للتغيير ، ويبنى مصر الحديثة .

الفصل الثاني

عصر محمد علي

تعتبر الفترة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر حتى استقر الأمر لمحمد علي فترة اضطراب في مصر ، حيث تعددت القوى المتصارعة على السلطة ، فالأتراك العثمانيون عادوا للاستيلاء على البلاد ، أما المماليك فقد اعتبروا أنفسهم أصحاب مصر ، وكذلك ظل الانجليز محاصرين للسواحل المصرية ، وكانت لهم اليد الطولى في اجلاء الفرنسيين عن مصر ، ووجدوا في المماليك ركيزة لهم وسندا بالنسبة لتحقيق أهدافهم ، وأهملت هذه القوى جميعا قوة الشعب المصرى التى بدأت فى الظهور ، ولم يدركوا أهمية هذه القوة ، ولكن محمد علي أدرك هذه الأهمية وأقن أن التقرب إليها ومصانعتها هو هو السبيل الى تحقيق آماله فى حكم البلاد . وقد اختلف المؤرخون فى تقديرهم لآعمال محمد علي ، فمنهم من يراه مصلحا مستثمرا ، ومنهم من يراه انتهازيا كون لنفسه ولاسرتة ملكا كبيرا من بعده . بل ان ما كتب عنه من مراجع وكتب تتناقض مع ظروف المرحلة فالكتابات عن محمد علي قبل ثورة ١٩٥٢ كانت محايدة الى حد ما ، ولكن ومع قيام ثورة يوليو ، بدأ الكتاب يهاجمون الاسرة المالكة السابقة يهاجمون كل شىء ، ولكن مع شىوع حرية الفكر وروح الديمقراطية وحرية ابداء الرأى يمكن ان نؤرخ للوالى العظيم دون خوف أو وجل ، ولتكن الحقيقة هى النبراس والاساس ، فالحقائق التاريخية هى بمثابة العبرة للشعوب حتى يمكن ان تتلافى اخطاءها السابقة وتتخذ من أيام عظمتها ومجدها شعاعا يضيء لها الامل وييسر لها سبل التقدم والفجاح .

لقد تقلد محمد علي باشا ولاية الحكم بارادة زعماء الشعب المصرى ، ونزولا على رأيهم فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، وقد ظلت هذه

الزعامة في الميدان ، وبقيت قائمة عاملة في السنوات الاولى من حكم محمد علي (١) فكان لها اثر فعال في تثبيت دعائم حكمه وتذليل العقبات التي وضعتها القوى المتصارعة في طريقه .

يتبين مما سبق أن زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم (٢) كان لهم نفوذ في ادارة الحكومة ، وكانوا ملجأ الناس في رفع المظالم ، وقد عظم نفوذ السيد عمر مكرم في تلك السنوات مما لم يسبق له نظير من قبل ولا غرو ، فهو الذي اجلس محمد علي على كرسى الحكم في مصر ، وكان في السنوات الاولى من حكمه أحد أركان الحكم في مصر .

لقد استعان محمد علي بالزعامة الشعبية - في السنوات الاولى من حكمه - لارساء قواعد السلطة . وكان الوالى العظيم من أولئك الذين

(١) عبد الرحمن الرافعى . عصر محمد علي - الطبعة الثانية ١٩٥١ مكتبة النهضة المصرية ص ١٦ .

(٢) ولد السيد عمر مكرم في مدينة أسيوط في أسرة شريفة تنسب الى البيت النبوى الكريم ، ولسنا نعرف على وجه البقين تاريخ ميلاده ، ولكن بعض الباحثين يرون أنه ولد في عام ١٧٥٥ . ولما بلغ السيد مرحلة الشباب - أرسله أبوه الى القاهرة لاتمام تعليمه بالازهر الشريف ، وكانت له عناية بالقراءة ، واقتنى مكتبة كبيرة لا يزال جزء منها محفوظا في دار الكتب المصرية يحمل اسمه . وبدأ السيد حياته السياسية منذ سنة ١٧٩١ ، واصبحت علاقته بالولاة العثمانيين وثيقة وفعالة . وكان للسيد دور كبير ابان الحملة الفرنسية ثم الى غزة ، كما شارك السيد في ثورة القاهرة الثانية وكان من زعمائها .

واثناء الحملة الانجليزية على مصر (فويسر) سنة ١٨٠٧ نظم السيد عمر مكرم المقاومة الشعبية ، وأمر بتعطيل الدراسة في الازهر كي يتفرغ الاساتذة والطلاب للجهاد . واستمر السيد في جهاده مما أدى الى علو مكانته وغبرة محمد علي منه ، وقراره بإبعاد السيد الى دمياط سنة ١٨٠٩ .

تزيد من التفاصيل : انظر : دكتور عبد العزيز السنواوى - عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية - اعلام العرب (٦٧) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ .

اصطاح المؤرخون على وصفهم بالحكام المصلحين المستنيرين ، وان كان قد شاب ذلك الاصلاح نوع من الاستجداد الضرورى لارساء قواعد الاصلاح

• الحكومة والادارة •

كانت حكومة محمد على تشكل نوعا من الديكتاتورية المركزية مع شىء من الشورى التى كفلت وجودها تلك المجالس المتعددة التى انشأها محمد على لبحث المشروعات واعادتها قبل أن تعرض عليه . فهذه المجالس كان عليها أن تعرض كل المسائل بكل تفصيلاتها ، وكان الباشا يبدى عناية بالآراء التى قدمت فى الموضوع الواحد ، ولكن للباشا وحده الكلمة العليا فى النهاية ، ومن حقه المطلق تصريف الأمور .

وكان المجلس العالى هو أهم هذه المجالس ، وقد صدر الى الكتخذا محمد بك لاذ أوغلى أمر تأسيسه فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٢٤ ، وكان يسمى باسماء كثيرة منها مجلس القلعة وديوان الخديوى ومجلس العموم . واختص المجلس بجميع الشئون الداخلية عدا المالية منها . وفى عام ١٨٢٥ صدرت لائحة المجلس الاساسية التى حدثت لها عدة تعديلات ، ونصت هذه اللائحة على أن يضم المجلس بعض رجال الائتليم المنتخبين ، وكذلك عالين من علماء الازهر واثنين من كبار التجار وكاتبين ، وشيخا عن كل مديرية ، على أن يستبدل الجميع كل سنة .

وأخذ المجلس يعقد اجتماعاته السنوية ابتداء من ٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، وكان اجتماعه الاول برئاسة ابراهيم باشا فى سراى الروضه

وبالاضافة الى المجلس العالى كانت هناك عدة مجالس أخرى كمجلس الصحة والاستباليات وديوان التجارة والمبيوعات وجمعية الحقانية وديوان الجهادية وديوان الابنية وغيرها ، وواضح من أسماء هذه الدواوين اختصاصات كل منها .

وفى يوليو ١٨٣٧ صدر قانون السباستنامه لتنظيم شئون الحكومة الداخلية وتوزيع الاختصاصات بين الدواوين (الوزارات) وضم

هذا القانون مقدمة وثلاثة فصول ، اختص الفصل الاول منها ببيان « الترتيبات الاساسية » ، واختص الثانى ببيان « الاجراءات العملية » وافقصر الفصل الثالث على بيان « قانون العقوبات » .

وكان قانون السياساتنامة أول خطوة واسعة في سبيل تنظيم الادارة والحكومة المصرية في عهد محمد على وكان عند الدواوين (الوزارات) التى انحصرت فيها السلطة حسب التنظيم الجديد سبعة : الديوان العالى (الخديوى) وديوان الايرادات وديوان الجهادية وديوان البحر وديوان المدارس وديوان الامور الافرنكية والتجارة المصرية وديوان الفابريقات .

على أنه على الرغم من وجود تلك الدواوين والمجالس كان محمد على مصدر السلطة العليا في مصر ، وكان أسلوبه مع رجال دولته أسلوب الوالد المرشد والحاكم المصلح يتوعد بالعقوبة المذبذبة ، كما يمنح المكافأة للمخلصين في أعمالهم على قاعدة الثواب والعقاب ، وفي خطبته التى ألقاها الوالى العظيم في أعضاء مجلس المشورة ... « ولتعلموا انكم اذا لم تحولوا عن خصالكم القديمة من الآن فصاعدا ، ولم ترجعوا عن طرق الإدارة والمماشاة ولم تقولوا الحق في كل شئ ، ولم تجتهدوا في طريق الاستواء ولم تسلكوا سبيل الصواب لصيانة ذات المصلحة ، فلا بد لى من أن اغتاز منكم جميعا ، واذا كنت موقنا بتقدم هذا الوطن العزيز على اى صورة كانت ، وملتزمًا فريضته على ، صرت مجبرا على قهر كل من لم يسلك هذا الطريق المستقيم اضطرارا ، مع حرقه كبدى وسيل الدموع من عينى ، فالذى أرجوه من الخالق سبحانه وتعالى ان يجعل نصيحتى هذه مؤثرة في قلوبكم حتى أشهد منكم حسن الحركة آنا فأنا ، وأعين ما تستحقونه من الخير ، وتقر عيناي بامتياز كل منكم حسب أقصى أدلى (١) .

وواضح من تحليل الخطبة التى اوردنا جزءا صغيرا منها فلسفة حكم محمد على وبروز فكرة الثواب والعقاب ببروزا واضحا ، وهو أمر

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى وآخرون - بناء دولة مصر محمد على دار الفكر العربى ١٩٤٨ ص ٢١ .

لازم لتقدم أى دولة فى أى وقت .

الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧

جرت انجلترا حملتها على مصر بقيادة الجنرال فريزر فى مارس ١٨٠٧ . وكانت انجلترا على اتفاق مع محمد بك الالفى - أحد زعماء المماليك - أن يؤيدها وينسق التعاون معها لانهاء حكم محمد على واعتلاء المماليك السلطة - تحت الوصاية البريطانية .

وهكذا تقدمت السفن البريطانية فى منتصف مارس الى الاسكندرية وبعد مفاوضات صورية استسلم أمين أغا محافظ المدينة ودخل الانجليز الاسكندرية ليلة ٢١ مارس . وأمين أغا كان ضابطا عثمانيا لان الحكومة التركية كانت تعتبر الاسكندرية حتى ذلك التاريخ تابعة لها مباشرة ، فكانت تعين حاكمها .

كانت الحملة الانجليزية مؤلفة من أكثر من ٦٠٠٠ جندي بقيادة الجنرال فريزر ، وتتألف من فرقتين الاولى بقيادة الجنرال ستيوارت والثانية بقيادة الجنرال ويكوب وكان محمد على فى ذلك الوقت بالصعيد يقاوم المماليك ، فلما جاءته انباء الحملة اعتزم العودة الى القاهرة ، وعود الى مفاوضة المماليك حتى لا يحارب فى جبهتين ، وترك لهم حكم الصعيد حتى يتفرغ لمقاومة الحملة الانجليزية الاكثر خطرا .

كانت خطة الانجليز فى القتال هى أن يزحف المماليك على القاهرة فيحتلوها ، وأن يحتل الانجليز ثغور مصر ثم يزحفوا الى الداخل مستعينين بحلفائهم المماليك .

هوقعة رشيد :

عهد الجنرال فريزر الى الجنرال وبكوب بالزحف الى داخل البلاد ، فتقدم وبكوب على رأس ألفى جندي يوم ٢٩ مارس ١٨٠٧ قاصدا رشيد ، فوصلها فى اليوم التالى ، وأخذ يستعد لاقتحامها صباح (م ٤ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر) .

يوم ٣١ مارس . وكان محافظ رشيد في ذلك الوقت هو على بك السلانكلي ومعه قوة من سبعمائة رجل ، فعزم على مقاومة الجيش الانجليزى معتمدا على الحامية التى معه وعلى مشاركة الاهلى . وامر على بك بأن تتراجع الحامية الى داخل المدينة وان تعتصم في المنازل .

وعندما تقدم الانجليز يوم ٣١ مارس ١٨٠٧ ، ولم يجدوا أثرا للمقاومة ، اعتقدوا أن الحامية قد اخلتها وأن المدينة ستسلم كما فعل محافظ الاسكندرية ، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين . ولكن بمجرد دخولهم أمر على بك بإطلاق النار ، مما أدى الى هزيمة الانجليز هزيمة ماحقة وسقط منهم ١٧٠ قتيلًا من بينهم الجنرال ويكوب نفسه هذا بالإضافة الى ٢٥٠ من الجرحى و ١٢٠ من الاسرى .

والواقع أن الاهالى رشيد النصيب الاوفر في هزيمة الجيش الانجليزى لان حاميتها كانت من القلة بحيث لا تستطيع أن تصد الجيش الزاحف . وقد ملا هذا النصر المبين قلوب المصريين حماسة وفخرا وضعضع الهيدة التى كانت للانجليز في نفوس الناس ، تلك الهيبة التى جاءت من انتصاراتهم السابقة على الجيش الفرنسى في مصر وعلى الاساطيل الفرنسية ، كما أن هذا النصر جعل المماليك يفقدون الامل في المساعدة البريطانية كما جعلتهم ينكمشون في معازلهم بالوجه القبلى .

وقد بادر على بك السلانكلي حاكم رشيد بعد الموقعة بأرسال الاسرى الانجليز ومعهم رؤوس قتلاهم الى القاهرة اعلانا للنصر .

معركة الدمداد :

أراد الجنرال فريزر أن يثار من هزيمة جيشه في موقعة رشيد ، فكلف الجنرال ستيوارت بمهاجمة رشيد مرة ثانية . وكان محمد على قد وصل الى القاهرة في ١٢ أبريل سنة ١٨٠٧ ، ودبر احتباطاته من الهجوم الثانى للانجليز ، وعاونه السيد عمر مكرم والعلماء في تدبير نفقات الاستعداد . وكانت فرق المقاومة المصرية تتكون من ٤٠٠٠ مقاتل من المشاة و ١٥٠٠ من الفرسان وسارت بقيادة طبوز أوغلى الى رشيد . أما القوات الانجليزية

بقيادة الجنرال ستيوارت فكانت نحو ٤٠٠٠ مقاتل ومسلحة بالأسلحة
الانجليزية المتطورة .

وتقدم الانجليز من الاسكندرية الى رشيد في ٣ ابريل ١٨٠٧ ،
وادتلوا (الحماد) التي تقع جنوبى رشيد . وفي صباح ٢٠ ابريل
تقدمت طلائع الجيش المصرى من الفرسان نحو مواقع الانجليز في
الحماد .

وفي السابعة صباحا من يوم ٢١ ابريل ١٨٠٧ بدأت المعركة ،
واستمرت ثلاث ساعات حوى فيها وطيس القتال ، وانتهت بهزيمة
الجيش الانجليزى هزيمة ساحقة ، فقد فر الجنرال ستيوارت من الميدان
ومعه بعض الجنود ، وبلغت خسائر الانجليز ٤١٦ قتيلًا و ٤٠٠ أسير .

كانت معركة الحماد نصرا مبينا لمصر ، وأخذ محمد على يعد
العدة للزحف على الاسكندرية وطرد الانجليز منها ، ولكن الانجليز آثروا
الصلح مع القوات المنتصرة ، وتم انسحابهم فعلا من المدينة في
سبتمبر ١٨٠٧ بعد أن مكثوا بها زهاء ستة أشهر .

وكأنت الاسكندرية في ذلك الوقت تابعة تبعية مباشرة
للباب العالى العثمانى ، ولم يكن للوالى المصرى أى نفوذ عليها ، ولكن بعد
جلاء الانجليز عنها سار اليها الوالى العظيم محمد على وبسط عليها
نفوذ الحكومة المصرية لتصبح العاصمة الثانية للبلاد .

الامبراطورية المصرية فى عصر محمد على

محمد على والجزيرة العربية :

ظهرت الحركة الوهابية فى اقليم نجد ، وهو اقليم عربى بعيد عن سلطة
الدولة ، ويمناز أهله بحب الحرية والاستقلال ، وقد رأى الشيخ
محمد بن عبد الوهاب انتشار البدع والمفكرات ، وتعظيم الناس القبور
والأضرحة والأحجار والأشجار ، وابتعادهم عن روح الاسلام الصحيحة
وعن الوحدةانية السليمة التى جاء بها ، اذ كانوا يستغيثون بالأولياء

وتتحون لهم النذور ، ويتشفعون بهم لجلب منفعة أو لدفع ضرر (١) .

والواقع أن من بين العوامل التي أثرت في تكوين شخصية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، شخصية تقي الدين بن تيمية الذي عاش في القرن الثامن الهجري ، ورغم طول الفترة الزمنية التي تفصل بينهما ، فإن الشيخ عكف على آثار ابن تيمية من كتب ورسائل وتنبه لها ، وأخذ عنها ونسخ بعضها لنفسه ، بل إن المبادئ التي نادى بها الشيخ كانت هي نفس المبادئ التي سبقه إليها ابن تيمية بأربعة قرون ، فكلاهما نادى بالعودة إلى الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ومقاومة البدع والخرافات التي الصقت بالاسلام ، فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تعتبر تطورا تاريخيا لدعوة ابن تيمية .

ويطلق بعض الكتاب على هذه الدعوة السلفية اسم المذهب كما يصدق عليها البعض الآخر اسم الوهابية الذي اشتهرت به . والحقيقة أن استعمال هذين الوصفين للدعوة غير دقيق ، فهي ليست بمذهب جديد في الاسلام حتى يصح إطلاق لفظ المذهب عليها ، بل إن صاحب الدعوة نفسه كان حريصا على أن يؤكد للناس أنه لا يدعوهم إلى مذهب في الاسلام ، ولذا نرى أن وصف الدعوة بالمذهب فيه مغالاة ، لأن الشيخ لم يأت بمذهب جديد ، بل دعا إلى تخليص سلوك المسلمين مما علق به من بدع وخرافات .

أما وصف الدعوة بالوهابية ، فقد أطلقه عليها خصوم الشيخ حتى يبرهنوا للناس أن المبادئ التي يدعو إليها بدعة جديدة خارجة على مبادئ الاسلام . أما أتباع الدعوة فأطلقوا على أنفسهم انحباة أو الموحدين أو السلفيين .

وقد أثارت هذه الدعوة السلفية - ولا تزال تثير - جدلا كثيرا ، و"حقيقة أنها لم تأت بجديد في الدين الاسلامي ، ولم تكن خارجة

(١) د . جمال الدين الشيال - الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الاسلامي الحديث ص ٥٠ .

على هبادثه ، بل انها دعوة سلفية سنية ، فمساحيها وأتباعها يؤمنون بمذهب أهل السنة والجماعة • والواقع أن المبادئ التي نادى بها الشيخ كانت كلها مبادئ قديمة وجديدة في الوقت نفسه ، قديمة لكونها لم تخرج عن تعاليم الاسلام ولم تأت فيه بجديد ، وجديدة لان الاسلام الصحيح أصبح غريبا على النفوس في ذلك الوقت فرأى الناس أن انكار أفعالهم التي يقومون بها ، ودعوتهم الى أصول الدين التي أصبحت بعيدة عن نفوسهم ، رأوا في ذلك شيئا جديدا عليهم • ولم تكن رغبة الشيخ تستهدف تعديل العقائد التي جاء بها الاسلام أو اعطاء التعاليم الاسلامية تفسيرا جديدا ، وإنما هدف أولا وقبل كل شيء الى محاربة البدع والعودة بالاسلام الى أصله الصادق •

ويعتبر دخول الامر محمد بن سعود في عام ١٧٤٥ في الدعوة السلفية النواة الاولى في صرح الدولة السعودية الاولى (١) ، التي تمكنت من السيطرة على الحجاز ومدت سيطرتها الى الحرمين الشريفين (٢) ، وتطلعت الى ضم الشام والعراق :

وكان العثمانيون منذ أن استولوا على الحجاز في القرن السادس عشر قد اتخذوا من جدة قاعدة لحكمهم هناك ، واستمر الحجاز تابعاً لهم الى أن استولى عليه السعوديون • ولما وصلت الامور عند هذا الحد ، أيقن السلطان العثماني سليم الثالث أنه ينبغي القضاء على حركة الوهابيين التي أظهرت عداها الصريح تجاه السلطة العثمانية (٣) •

وقد اضمر محمد علي طويلاً رغبته في الاستيلاء على الجزيرة العربية ، إلا أن الباب العالي الذي كان ينسك في الاطماع الكامنة وراء هذه الرغبة ، لم يشجع تحقيق هذا المشروع على بد هذا الوالى الطموح (٤)

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - الدولة السعودية الاولى

ص ٣٠ - ٤٠ •

Playfair R.L. op. cit., p. 127

(٢)

Richard H. Sanger. The Arabian Peninsula p 27

(٣)

H. St. Philby. Arabia p. 92.

(٤)

الا أن خطر الوهابية أخذ في التزايد ، فبعد أن استولوا على مكة والمدينة ، تقدم السعوديون الى أرض اليمن ، وانضمت اليهم بعض القبائل التي خرجت عن طاعة الامام المنصور (١) دعاه الى طلب معاونة السلطان العثماني ووالى مصر لصد هجوم السعوديين فوعده بالمساعدة (٢) .

وقد تبين للسلطان العثماني محمود الثاني أهمية إعادة الاستقرار الى الحجاز والقضاء على تلك الحركة الخارجة على الخلافة الاسلامية . وكحقيقة واقعة ، فان الجزيرة العربية لم تكن في ذلك الوقت من المناطق الغنية التي يجب على السلطنة ان تضحي بالكثير من أجلها ، الا ان بقاء هذه البلاد في يد الخليفة العثماني كان أمرا مرغوبا فيه حتى تتحقق الناحية الروحية لخلافته ، وحتى لا يكون هناك مجال للشك في قدرته على حماية الحرمين الشريفين . الا ان الدولة العثمانية كانت تقاسى في ذلك الوقت من مشكلات داخلية خطيرة (٣) ولم يجد السلطان تحت يده القوة اللازمة للقضاء على تلك الحركة المناوئة للخلافة ، مما اضطره الى ان يلجأ الى والى مصر ، وكلفه بالقيام بتلك المهمة سنة ١٨٠٧ ، ثم كرر طلبه في العامين التاليين (٤) .

وقد قاسى الامام على منصور في عام ١٨٠٤ من وطأة السعوديين للذين سلبوه بضعة من خيرة الاقاليم التابعة له (٥) ، كما نهبوا الحديدة والاحدية ودمعوا دخول بيت الفقيه ، وأرسلوا عملاءهم الى المخا ليخبروا أهلها بأنهم سوف يكونون هناك في مدى أشهر قليلة ، الا أنهم عندما قدموا اليها لم يقدروا على دخولها ، واستعصت عليهم أسوارها ، وبذا لم يتمكن السعوديون من التسلط على الساحل اليمنى كله وبالتالي

(١) عبد الواسع بن بحى الواسعى اليماني - تاريخ اليمن ص ٢٥٥ .

(٢) د . احمد فخرى - اليمن ، ماضيها وحاضرها ص ١٥٩ .

(٣) ساطع الحصرى - صفحة من تاريخ العرب ص ٤٨ .

(٤) Bury, G. Wyman, Arabia Infelix or the Turks in

Yemen p. 13.

(٥) C.U. Aitchflison, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring countris eVol. XI P. III.

على تجارة المنطقة (١) .

ونحن ان ندرس بالتفصيل معارك السعوديين الكثيرة والتي انتهت بهم الى تلك السيطرة على مناطق شاسعة من الجزيرة العربية ، بل اننا تعرضنا لها بايجاز شديد فقط لكي نوضح الاسباب التي أدت بالسلطان الى أن يكرر طلبه الى محمد علي في ١٠ سبتمبر ١٨١٠ بأن يجرد حملة لمحاربة هذه الدعوة الخارجة على الخلافة (٢) .

وقد اضطر السلطان الى طلب تنفيذ هذه العملية من محمد علي رغم شكوكه في نوايا هذا الوالى الطموح - لان التهديد الوهابى كان قد اتخذ شكلا خطيرا حتى أنه أصبح من الضرورى اتخاذ اجراءات فعالة لتلافي حدوث أية نتائج أشد خطورة ، وفي نفس الوقت ، فإن محمد علي كان قد شيد لنفسه في مصر مكانة راسخة ، والباب العالى لزا يضره أن يقحم هذا الوالى القوي في مشروع يستحوذ على كل مجهوداته ويبعده عن طريق الخبائفة . كما أن هذا الوالى اذا منى بالهزيمة ، فإن ذلك سيكون في مصلحة السلطة العثمانية التي يمكنها اخضاعه بعد ذلك ، ومن ثم تطورت الامور ، وصدرت اليه التعليمات باتخاذ الخطوات اللازمة لسحق الحركة الوهابية . وقد اهتم محمد علي بذلك المشروع بعزيمة صادقة (٣) ، الا أن الامر من جانبه لم يكن مجرد طاعة منه لسيده السلطان للقضاء على تلك الحركة الخارجة على الخلافة ، بل ان المسألة كانت أعمق بكثير ، فإن ذلك الوالى كان همه الأكبر موجهها نحو المصرية ، وبصفة رئيسية عن طريق التجارة ، ولما رأى أن انجلترا هي الدولة البحرية الكبرى التي تمر أساطيلها وتجاريتها في كل البحار فإنه تقرب منها وأهدد النقاط الانجليزية في البحر المتوسط بالقمح اللازم لها أثناء الحروب النابليونية . ووصل محمد علي الى محمد علي أبعد من ذلك بأن قدم اقتراحات الى حكومة الشركة في الهند للعمل على تشجيع التجارة معها . وقد كانت هذه الاقتراحات

Playfair R.L. op. cit., p. 128

(١)

(٢) عبد الرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية وتطور نظام

الحكم في مصر - عصر محمد علي ص ١١٥ .

H. Et, Philby. op. cit., p.p. 92-93

(٣)

من الاهمية بمكان ، حتى انها كانت كافية لان يرسل بلزوني كمبعوث بريطاني الى القاهرة ، حيث وقعت معاهدة بين الطرفين في عام ١٨١٠ ، وقد نصت هذه المعاهدة على أنه يجب أن تشكل أسس المعاملة مع الهند ، وأنه في حالة حدوث حرب بين إنجلترا وتركيا ، فإن الباشا لن يقوم تحت أية ظروف باهانة الرعايا البريطانيين أو الاستيلاء على ثروات بريطانية ، وأن يقوم الباشا باعادة الهاربين من السفن البريطانية حتى ولو كانوا ممن يعتنقون الاسلام ، وأن يمر المسافرون معهم اهتعتهم الشخصية في الاراضي المصرية دون دفع ضرائب ، وأن تمر القوافل التجارية بسلام ، وتحت الحراسة من والى السويس ، وأن الضرائب الجمركية لا تزيد عن ٣ ٪ إلا أنه لم يتم التصديق على هذه المعاهدة ، وليس من شك في أن ذلك حدث خوفا من أن يؤدي عقدها الى تدهور العلاقات البريطانية مع تركيا (١) .

فمحمد على بدون شك لم يقم بهذه الحملة ارضاء للباب العالي فقط بل لا نجاز اهداف أخرى ، فقد رأى أنه اذا ما نجح حيث اخفقت السلطنة واستطاع بقوة جيشه أن يقضى على السعوديين ، وأن يستخلص منهم الاراضي المقدسة ، فان ذلك سوف يؤدي الى توطيد مركزه وعلو مكانته حيال العالم الاسلامي والباب العالي فلا يفكر في عزله أو تغييره .

وفي سبتمبر ١٨١١ شقت الحملة المصرية طريقها الى الجزيرة العربية ، فتقدمت قوات الخبالة بالطريق البري عبر العقبة الى ينبع (٢) . ميناء المدينة ، حيث وصلت قوات المشاة بقيادة طوسون نفسه بالطريق البحرى في اكتوبر من نفس السنة . وتم الاستيلاء على ينبع بلا مجهود كبير ، وتابع الجيش المصرى زحفه نحو الداخل وواجه الجيش اول مقاومة له في بدر ، وبدا يعاني من الاقسامة في منطقة قاحلة ، وتقدم الجيش في الوادي حيث تجمع البدو في واحة لمواجهة ، وكان ضيق الرادى وبالاعلى المصريين ، وسيطر السعوديون على الموقف ، وانسحب طوسون وجيشه الى ينبع . ولم يكن أمامه سوى البقاء فيها في انتظار وصول

H. Dodwell op. cit., p. 57

(١)

Philby : op. cit., p. 93

(٢)

امدادات جديدة (١) •

وعلى أية حال ، فعندما شعر طوسون مرة أخرى بقوته ، تقدم الى المدينة وحاصرها مدة شهرين الى أن سلمت في النهاية سنة ١٨١٢ (٢) كما ان عبد الله قائد الجيش السعودي في الحجاز قسام بالانسحاب من مكة التي سقطت في أيدي المصريين بقيادة مصطفى بك صهر محمد علي • وهكذا خرجت المدن المقدسة من سيطرة السعوديين وظلت كذلك أكثر من قرنين من الزمان •

وبدا أنه من الصعب على الدولة السعودية أن تحافظ على تماسكها ، كما أن الزعيم نفسه كان مريضاً ، وكان الوقت ملائماً لاعدائه كي يبذلوا مجهوداً مضاعفاً ضده ، فخرجت مدن الحدود السوربة عن السلطة السعودية ، وتشجعت القبائل الواقعة في الجزيرة العربية ، وانتشرت الاضطرابات في تخوم نجد نفسها ، وعندما بدا أن نهاية السعوديين قد أصبحت قريبة ، قرر محمد علي أن يدير العمليات بنفسه في الحجاز ، وبعد أن ترك مسئولية الحكم لولديه اسماعيل وابراهيم ، ترك القاهرة الى السويس ومنها الى جدة (٣) •

الا أن نفوذ محمد علي لم يكن آملياً تماماً في الجزيرة العربية • حقيقة لقد احتلت قواته المدن الساحلية في الحجاز وعسير بلا صعوبة كبيرة ، الا أن المناطق الداخلية كانت لا تزال في أيدي السعوديين • الا انه في أول ما يو ١٨١٤ مات سعود فجأة في الدرعية ، ومات معه الامل الاخير في بقاء الدولة السعودية التي بذل الكثير من أجل اقامتها والتي استطاع هو وحده السيطرة عليها (٤) • ولم يتفق أبناؤه الثلاثة فيما بينهم على كيفية حكم دولتهم (٥) •

Dodwell : op. cit., p. 43.

(١)

Philby : op. cit., p. 93

(٢)

Playfair : op cit., p. 130

(٣)

Philby p. 95 - 96.

(٤)

Dodwel : op. cit., p. 45.

(٥)

وهاجم طوسون نجد الا ان مواصلاته مع المدينة كانت تقطعها اغارات السعوديين ، وبقي طوسون على غير اتصال بوالده الذي كان في النواجع قد عاد الى مصر . وتحت هذه الظروف وافق طوسون على اجراء مفاوضات ، وتم توقيع معاهدة وافق فيها عبد الله بن سعود على الاعتراف بسلطة السلطان العثماني ، وتعهده بزيارته زيارة ودية ، وكان على طوسون في مقابل ذلك ان ينسحب من كل اراضي الوهابيين ، وان يكون لنجد اتصال حر مع الحجاز (١) .

وقد هاجم محمد علي هذه المعاهدة ، الا أنه في نفس الوقت ارسل تهديدا بأنه سوف يهاجم الدرعية نفسها ، الا اذا تقدم عبد الله الى الاستئانة حسب شروط المعاهدة ، الا ان عبد الله تغاضى عن هذا التهديد وكرس نفسه لتأكيد سيطرته على قبائله وتقوية عاصمته بالأسوار والمدافع والمؤن لمواجهة الحصار (٢) .

وعند وصول محمد علي الى مصر عين ابراهيم باشا لقيادة الجيش في الجزيرة العربية (٣) . وبعد عدة معارك ظهر ابراهيم بقواته في ٦ أبريل ١٨١٨ بالقرب من عاصمة السعوديين ، وارتفع الستار عن الفصل الاخير من نهاية الدولة السعودية الأولى . وتوجه عبد الله ابن سعود بنفسه الى ابراهيم باشا طالبا انتهاء القتال كي يحمي أتباعه ، وقد استقبله ابراهيم باحترام كبير كبطل منافس ساعة الهزيمة ، وأرسله الى العاصمة العثمانية حيث ضربت عنقه في سانت صوفيا ، وضاعت بذلك الدولة السعودية (٢) .

ساعدت الاوضاع الداخلية والقوى الخارجية على اقامة دولة مصر الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر . ونجحت هذه الدولة في توطيد الأمن وصرب الاقطاع ، ومد نفوذها على كل منطقة الشرق الأدنى

Philby : op. cit., p. 98

(١)

Dodwell : op. cit., p. 46.

(٢)

Playfair : p. 133.

(٣)

Philby p. 98 - 102.

(٤)

وكان بعض البكوات المماليك - من الذين نجوا من مذبحة القلعة - قد تمكنوا من الفرار الى شمال السودان ، ومن تدعيم نفوذهم في جنوب مصر ، فنظرت اليهم كخطر يهدد أمنها وسلامتها . ولقد تمكنت مصر بفتحها للسودان من القضاء نهائيا على قوة المماليك واستعدت بعد ذلك لوضع أسس جديدة لبنائها الاجتماعي والاقتصادي .

وقد انتهت الحروب ضد الحركة الوهابية باسناد ولاية الحجاز الى ابراهيم الابن الاكبر لمحمد علي ، وأصبح أبناء الجزيرة العربية يجندون في القوات المصرية ، وساعد ذلك بالتالي على زيادة الاندماج بين أبناء هذين الاقليمين داخل وحدة ادارية واحدة .

السودان وسوريا :

أما تجربة السودان ، فقد سارت مع حملات توغلت في هذه البلاد وضمتها الى مصر . وكما حدث في الجزيرة العربية ، بدأ السودانيون ينسربون في وحدات الجيش المصري ، وزاد التقارب بين أبناء هذين الاقليمين العربيين ، وسهلت الادارة الموحدة شئون التجارة .

أما تجربة سوريا ، فقد دعمت هذه الوحدة الادارية الجديدة في منطقة الشرق الأدنى ، وأصبحت حدود الدولة الجديدة تمتد من جبال طوروس الى أعالي النيل ، ومن حدود لبيبا الى أعالي الفرات . وبدأت هذه الامبراطورية في شكل عربي واحد من ناحية السكان على الاقل . وكان بالمرستون يعتقد ان محمد علي له أطماع واسعة في بناء امبراطورية عربية تضم كل البلاد التي تتكلم العربية ، والغالب أن الوالي كان يعتقد مثل هذه الرغبة ، فان الاستيلاء على سوريا والحجاز والسودان جعله في موقف قد يسمح له بتنفيذ هذا المشروع الضخم ، وبقيت فقط العراق والخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية كي يمكنه أن يحقق مثل هذا التوسع في الشرق العربي (١) .

ومن وجهة النظر البريطانية ، فان أهداف الباشا كانت تتلخص في أن يرسل فرقة من قواته من اليمن للاستيلاء على عدن ومينائها العظيم الذي يتحكم في مدخل البحر الأحمر ، وبعد ذلك تتقدم القوات المصرية الى حضرموت المقسمة بين العبد من الامراء والشيوخ الضعاف ، وبعد ذلك تتقدم قواته الى عمان ، وأخيرا الى مسقط والمنطقة الواقعة في الجانب الجنوبي الغربي من الخليج العربي ، بحيث يصبح بعد ذلك سيدا على كل شبه الجزيرة العربية ، وبعد أن يتم له ذلك ، فان الاستيلاء على بغداد سوف يكون أمرا سهلا (١) . والواقع أن وثائق عابدين لم لم تؤكد هذا التصور البريطاني ، الا أنه بالنسبة لهذا إلى الطموح ، فإن هذا التصور قد يبدو أمرا محتملا .

الا أنه من وجهة نظر أخرى ، فاننا اذا تتبعنا الخطوط التي سار عليها محمد علي ، لوجدنا أنها كانت تهدف القسطنطينية عاصمة الدولة ومقر الخلافة الإسلامية ، بدلا من محاولة اتمام الوحدة العربية بالسير صوب بغداد مثلا .

ولقد كانت تجربة الدولة المصرية الحديثة في العالم العربي تجربة عريقة ، وخاصة بالنسبة للسياسة التي انتهجتها تجاه الرعية من جهة ، ونظرا لما حققته من جهة أخرى في الميادين الثقافية والفكرية . أما السياسة التي سارت عليها الإدارة ، فكانت تتلخص في المساواة بين كل سكان الامبراطورية في الحقوق والواجبات أمام القانون .

وعندما تعقدت الاءور بين محمد علي وسلطان تركيا واستحكم النزاع بينهما وثار الحرب طلبت الحكومة البريطانية من محمد علي

India Office Library Political and Seeret Library B-8 (١)

Confidentiel, Memorandum on the Turkish Claim to reignty over the Eastern shores of the Read Sea and the whole of Arabia, and the Egyptian Claim to the Whole of the Western shores of the same Sea, including the African Coast from Suez to Cape Gurdhui, Printed for the use of the Foreign Office, Hertslet, March, 1874 p. 2.

اجلاء الجيوش المصرية عن الجزيرة العربية ، فاجاب محمد على بأنه
« سيضع هذا الطلب موضع النظر » الا أن الامور تطورت بسرعة ، وانتهزت
بريطانيا فرصة الازمة التركية المصرية (١٨٣٩ - ١٨٤١) فادعت
أنها حامية للسلطان ضد محمد على وانتهت الامر بتدخل
قواتها في سوريا واضطرار محمد على اثر ذلك الى الانسحاب من كل
الأراضي التي ضمها الى مصر .

التعليم في عصر محمد على :

يعتبر الاهتمام بنشر التعليم هو الوجهة المضيئة لعصر محمد على
فقد عني الباشا بالتعليم على اختلاف درجاته ويتبين من مقارنة تاريخ
المنشآت العلمية أنه عني أولا بتأسيس المدارس العالية وايفاد البعثات ثم
اهتم بعد ذلك بالتعليم الابتدائي *

المدارس العالية :

مدرسة الهندسة ببولاق : أنشئت أول مدرسة للهندسة سنة ١٨١٩
بالقلعة ، وهي بذلك أول مدرسة عالية أنشئت في عصر محمد على . وكان
التعليم فيها بالمجان ، كما كانت الحكومة تؤدي رواتب شهرية لتلاميذها .
وفي بادئ الامر كان الاساتذة من الاجانب ، ولكن مع الوقت بدأ الاساتذة
المصريون العائدون من الخارج في المساهمة في التدريس .

وفي سنة ١٨٣٤ أنشأ محمد على مدرسة أخرى للهندسة في بولاق ،
وكانت هذه المدرسة العالية من أجل وأنفع المدارس التي أنشأها والى مصر
العظيم .

مدرسة الطب :

أنشأ محمد على أول مدرسة عالية للطب في مصر سنة ١٨٢٧ في
أبي زعبل على مقربة من المستشفى العسكري هناك ، حتى يمكن تدريب
الطلاب بهذا المستشفى . واختارت الدولة في بادئ الامر مائة من طلاب الازهر
للتعليم بهذه المدرسة ، وتولى ادارة المدرسة والمستشفى الدكتور كلوت
بك ، فأختار لها نخبة من الاطباء الاوربيين ومعظمهم من الفرنسيين . ولما

كان الطلاب يجلبون اللغة الفرنسية لغة الدراسة وتلافي بيثذه المدرسة العالية، فقد عين مدرجون لترجمة المحاضرات من الفرنسية الى العربية . وتلافي هذا النقص ، الحق بالمدرسة قسم لتعليم اللغة الفرنسية للطلاب .

وبعد خمس سنوات من انشاء المدرسة تخرجت (الدفعة) الاولى منها . وتم توزيع الخريجين على المستشفيات وكتائب الجيش . كما ارسل اثني عشر خريجا الى الخارج في بعثات لأكمال دراساتهم العليا في تخصصات الطالب المختلفة ، وعين ايضا ثمانية معيدين بهذه المدرسة العليا .

واخذ عدد طلاب المدرسة في الزيادة عاما بعد عاما لتلبية حاجات المجتمع المصري ، وحاجات جيش مصر العظيم .

وفي سنة ١٨٣٧ تم ثقل مدرسة الطب إلى قصر العيني لتكون في داخل العاصمة ، وحتى تؤدي هي والمستشفى الملحق بها الخدمات للمواطنين . كما ألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة حتى تتعاون المدرستان في تحقيق الخدمات الطبية للمجتمع المصري (١) .

مدرسة اللسن :

وافق محمد علي على اقتراح رفاعه رافع الطهطاوي (٢) . بانشاء مدرسة اللسن ، وتم انشاؤها بالفعل في سنة ١٨٣٦ ، واختير لها سراي الالفي بالازبكية وعرفت في أول الامر بمدرسة الترجمة ثم أطلق عليها مدرسة اللسن . وفي سنة ١٨٣٧ أصبح رفاعه هو ناظر هذه المدرسة،

(١) عبد الرحمن الرافعي - عصر محمد علي الطبعة الثالثة ١٩٥١ - مكتبة النهضة المصرية ص ٤٦٨ - ٤٧١ .

(٢) ولد في عام ١٨٠١ في أقصى صعيد مصر وتلقى العلوم الدينيّة ودخل الأزهر ، ثم تخرج منه ، وصحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد علي ، وارتحل الى معاهد العلم في باريس ، فزادت معارفه ولكنه ظل محتفظا بشخصيته متمسكا بدينه . ثم عاد الى مصر ليضطلع بالنهضة العلمية تألبنا وترجمة وتعلّما ، وتخرج على بديه جيل من خبرة علماء مصر . وعاش حتى عصر اسماعيل . ومن أهم انجازاته انشاء مدرسة اللسن، وإن كانت مبررة انه بحق هو أبو الترجمة في مصر وقدر رجل رفاعه سنة ١٨٧٣ .

وكان عدد التلاميذ في العام الاول خمسين تلميذا ثم ازدادت الاعداد في السنوات التالية .

ويعتبر بعض المؤرخين ان هذه المدرسة هي بمثابة أكاديمية لنشر الثقافة في مصر ، فقد كانت تدرس فيها اللغات الاجنبية وخاصة الفرنسية والاطالية والانجليزية والفارسية والتركية ، هذا بالاضافة للآداب العربية والتاريخ والجغرافيا .

كما نشأ الياسا العديد من المدارس التجهيزية (الثانوية) ، كما أكثر من انشاء المكاتب الابتدائية في الاقاليم ، حتى بلغ عدد هذه المكاتب في عام ١٨٣٦ سبعة وستين مكتبا هذا عدا الكتاتيب القديمة (١) .

البعثات :

الحقيقة أن الاصل في تلك البعثات وأسبابها ترجع كما ذكر أستاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الى أن محمد علي أخذ عن أوروبا علومها ، ونظمها التعليمية والاقتصادية وفنونها الحربية والبحرية ، واستدعى منها المدرسين والنظار لمدارسه والضباط والمدرسين لجيشه وأسطوله والصناع والمهندسين لمصانعه ، ومن ثم اضطر محمد علي الى الاعتماد على الاوربيين الذين أصابوا في ذلك الوقت قصب السبق في التطور الصناعي . الا ان محمد علي كان يرى أنه من الحكمة عدم استمرار الاعتماد على الاجانب وابقاء اهل البلاد من المصريين والأتراك بمعزل عن الاشتراك في انهاء بلادهم فبدأ يرسل الى أوروبا نفرا من التلاميذ الأتراك والمصريين ليأخذوا مباشرة من علوم الغرب وفنونه ويحذقوا لغاته وتجاربه ، حتى اذا عادوا الى مصر كانوا له أعوانا ومساعدين يقلدهم ادارة المصانع والمدارس والدواوين ويجلسهم مجالس التعليم ، ويطلب منهم ترجمة الكتب النافعة ، وبعبارة أخرى يطلب منهم أن يكونوا - كما أصبح كثير منهم فعلا - قادة النهضة الحديثة في البلاد (٢) .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى وآخرون - بناء دولة مصر محمد علي - ص ٩٦ .

(٢) د . أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

ولا شك أن هذه البعثات كانت لها انطباعاتها العميقة على المجتمع المصرى فقد صاحبها نشاط كبير فى نواح ثقافية مختلفة كبده ظهور الصحافة المطبوعة (١) .

ولقد نبغ كثيرون من أعضاء هذه البعثات ، فمنهم على مبارك الذى نستطيع أن نلقبه بأبى التعليم كذلك رفاعة رافع الطهطاوى الذى يمكننا أن نلقبه بأبى الترجمة وغيرهم كثيرون .

ولقد قدم أعضاء البعثات هؤلاء خدمات جليلة للدولة ، ولا شك أن الثمرة الحقيقية التى جناها المجتمع المصرى من هذه البعثات هى الاستغناء عن الاجانب ولحلال أعضاء البعثات فى أماكنهم : لان محمد على لم تكن تعنيه كثيرا ثقافة المبعوثين وجنسياتهم وأعمارهم بقدر ما كانت تشغله فكرة الاستغناء عن الاجانب (٢) .

ولكن سرعان ما خبا ضياء هذه البعثات على يد عباس ، الذى استدعى الطلبة المبعوثين فى بعثات خارجية فور تولية السلطة مباشرة (٣) ، وجاء سعيد ليطفىء للشعلة التى أضاءت على المجتمع المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر ، فأبدى عدم اهتمامه بشئون التعليم وألغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) (٤) ، وزاد الطين بلة باعتماده بصفة أساسية على الاجانب فى كل المجالات .

على أن التعليم فى مصر نال نصيبا كبيرا من العناية والاهتمام على يد اسماعيل فقد أعاد تأليف ديوان المدارس ، كما اهتم بإنشاء المدارس وخصوصا المدارس العليا كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق وغيرها ، ولم يكتف اسماعيل بذلك بل أرسل عددا ضخما من البعثات التعليمية الى

(١) Dodwell : op. cit., p. 239.

(٢) د . أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤٢٣ .

(٣) أمين سامى ، تقويم النيل ، المجلد الاول من الجزء الثالث ص ٧٢

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، الجزء الاول ص ٤٤ -

أوروبا وخصوصا الى فرنسا ، فضلا عن السماح لعدد كبير من المدارس
الاجنبية بممارسة نشاطها التعليمي في مصر .

المطابع والصحافة :

كانت « مطبعة صاحب السعادة » أو المطبعة الاميرية في بولاق اول
مطبعة انشئت في عهد الوالى العظيم ، وقد تأسست سنة ١٨٢٠ . ولكنها
بدأت عملها سنة ١٨٢٢ . وكان الغرض من انشائها هو طبع الكتب
المدرسية والعسكرية . ومع مضي الوقت ازداد عدد المطابع في مصر وصارت
تفشر بالاضافة الى الكتب المدرسية كتباً في الآداب والفنون .

وبالنسبة للصحافة ، فقد اصدر الباشا امره بانشاء الصحيفة
الرسمية (الوقائع المصرية) باللغتين العربية والتركية في ٣ ديسمبر سنة
١٨٢٨ . وكان الغرض من انشائها كما جاء في العدد الاول هو نشر اوامر
وتعليمات ديوان الخديوى وكذلك اخبار (الامبراطورية) المصرية .

واعتياراً من سنة ١٨٤٢ تقرر ان يعهد الى رفاعة رافع الطهطاوى
بترجمة بعض ما يرد في الصحف الاجنبية علاوة على الاوامر الحكومية .

الجيش والبحرية :

رأيتُ فيما سبق كيف أسس محمد على امبراطورية شابهة ضمت
تقريباً كل العالم العربى ماعدا المغرب العربى والعراق . وهذه الوقعة
الشاسعة املت على الوالى الطموح انشاء جيش قوى مدرب للسيطرة على
ممتلكاته . وكان الباشا يدرك تمام الادراك ان انتصارات جيشه انما
ترجع الى رعايته الصارمة والى اشراف ابنائه ومنهم ابراهيم باشا
العظيم ، ولهذا كله لم يكن محمد على راغباً في انشاء جيش كبير فحسب ،
بل كان فى نفس الوفى معنيا بتدريب هذا الجيش على احدث النظم ، ومن
تم سمي الجيش الذى شرع فى تكوينه بالنظام الجديد . ولم يكن الامر
سهلاً أمام محمد على بل كان الطريق مفروساً بالاشواك . فعندما اراد
تطبيق « النظام » عارض العلماء هذا الامر (أغسطس ١٨١٥) رغبة فى

القضاء على « بدعة النظام الجديد » . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل انهم تأمروا على حياة الباشا وفد ذكر الجبرتي كثيرا من اخبصار تلك المؤامرات .

وكانت المشكلة الاولى التي صادفت الباشا هي مشكلة الحصول على المدربين الكفاء واتجه هو مباشرة الى أوروبا ، وكان عدد كبير من الضباط الفرنسيين قد أصبح بلا عمل بعد توقف الحروب النابليونية ، فقرر الباشا استخدام جماعة منهم ، كما استخدم بعض الايطاليين والاسبان . وكان أقدرهم جميعا هو جوزيف سيف الذي اشترك في حروب نابليون العديدة ثم قدم الى مصر سنة ١٨١٩ ليعمل في خدمة محمد علي .

وحوالي سنة ١٨٢٠ أنشئت مدرسة المشاة ووضعت تحت قيادة سيف ، وانتقى محمد علي تلاميذها من بين أفراد أسرته ومن المماليك ، وكان عددهم نحو ٤٠٠ طالب . وفي اكتوبر ١٨٢١ نقلت هذه المدرسة الى أسوان وهناك شرع سيف في اعداد المدرسة من جميع النواحي كانشاء الثكنات الصالحة للايواء والمستشفى . ولما فشلت عملية تجنيد السودانيين ، اعتزم الباشا تجنيد المصريين ولكن الصعاب واجهت هذا المشروع . . لان الطبقة الارستقراطية رأت ان الجندية مهنة نبيلة يحط من قدرها ان تصبح في متناول الفلاحين ، كما زعموا ان وضع السلاح في ايدي الفلاحين انما هو تسليمهم الاداة لطرد « العثماني » ولكن الباشا مضى في طريقه غير عابىء بتلك الآراء ، فأقبل على تجنيد المصريين ، ونجحت التجربة نجاحا لم يكن يتوقعه احد ، وسرعان ما احب الفلاحون الجندية ، وأصبحوا يرون انه من دواعي فخرهم ان يعتبروا أنفسهم من جنود الباشا العظيم . وهكذا تمكن سيف في عام ١٨٢٣ من ان يسكل ستة آليات من المشاة طبقا للتكتيك الفرنسي من هؤلاء الفلاحين . وفي نفس ذلك العام (١٨٢٣) مرر الباشا ان ينتقل الجنود الى مكان قريب من القاهرة .

أما بالنسبة للفرسان ، فان القائد الفاتح ابراهيم باشا العظيم وأحد القادة العظام على المستوى العالمى في التاريخ الحديث كان معجبا تماما بقوة الفرسان الفرنسية وتنظيمها ابان حرب المورة . وعند عودة

القائد العظيم (ابراهيم باشا) الى مصر أبلغ والده ما شاهده من فاعلية تلك القوة فقرر الباشا تنظيم قوة الفرسان المصرية ، وكلف بولان دى تارلبه - وهو أحد قدامى الفرسان الفرنسيين - بإنشاء هذه القوة . وأقبل تارليه على عمله الجديد في همة ونشاط ، وذلك الباشا كل الصعاب فابتاع الخيول من النمام ، وتكفلت المصانع المصرية بتسليح الفرسان .

وفي عام ١٨٣٠ أمكن تشكيل سبعة آليات فرسان مصرية . ولما كانت هذه الآليات في حاجة الى مزيد من الضباط ، فقد انشئت مدرسة الفرسان سنة ١٨٣١ في الجيزة بسرأي مراد بك القديمة .

وقد استدعى تنظيم قوة الفرسان العناية بالطب البيطرى . وأدى هذا الى تأسيس مدرسة الطب البيطرى فيما بعد .

أما بالنسبة للمدفعية ، فان الباشا استخدم ضابطا اسبانيا قديما هو سجويرا ليكون مسئولا عن هذا السلاح . وقد أقنع سجويرا ابراهيم باشا بأهمية اعداد الضباط قبل تدريب الجنود ، وهكذا أسست مدرسة للمدفعية في عام ١٨٣١ . ولكن الخلافات بين سجويرا الاسباني وسليمان باشا الفرنسي أدت الى بعض المشكلات . ورغم هذا كانت المدفعية من أقوى الاسلحة التي استعان بها القائد الفاتح ابراهيم باشا في فتوحاته المختلفة [٥]

هذا بالإضافة الى فرق المهندسين والخدمة الطبية وما الى ذلك . وكان من أثر العناية بالجيش أن ارتفع عدده من ٢٤٠٠٠ سنة ١٨٢٤ الى ١٥٠٠٠ سنة ١٨٣٩ (١) .

البحرية :

من الصعب أن نفصل موضوع البحرية المصرية في عهد محمد على عن معتمات الباشا الاقتصادية والعسكرية التي أوجبت ذلك النشاط الكبير هذا القطاع .

(١) د . محمد فؤاد شكرى وآخرون بناء دولة مصر محمد على ص ١٨٠

الا أنه كان أمام محمد على صعوبات جمة لانتشاء البحرية ، أولها أن مصر لم تكن في تلك الفترة من أوائل القرن التاسع دولة بحرية ، كما أنها كانت تفتقر الى القوة البشرية اللازمة لهذه العملية بصفة عامة من بحارة ومدرّبين وصناع وما الى ذلك كما ان المواد اللازمة لصناعة السفن لم تكن متوفرة ، هذا الى عدم استعداد ميناء الاسكندرية في ذلك الوقت لاستقبال السفن الكبيرة ، ولكن الباشا استطاع بالعزيمة والمثابرة ان يذلل كل هذه الصعوبات متدرجا من شراء سفن اسطوله من الدول الاوربية الى التوصية بصنعها في الخارج لحسابه الخاص الى انشائها في دار الصناعة التي شيدها بالاسكندرية .

وكانت البداية (١٨١٠ - ١٨٢١) عبارة عن تلبية احتياجات الباشا السريعة الى قوة بحرية في البحر الاحمر ، وذلك لتنفيذ حملته الى الجزيرة العربية والتي سبق الكلام عنها . وكان هذا الاسطول صغيرا ، ولكنه كان كافيا لنقل الجنود الى مسرح العمليات .

واذا كان الغرض الاساسي من اسطول البحر الاحمر هو الفواحى الحربية والسياسية ، فان اسطول البحر المتوسط الذي انشئ في نفس الوقت كان الغرض منه اقتصاديا ، لان الباشا كما سوف نرى سيجتكر تجارة الصادر والوارد ، وبالتالي سيطر على كل تجارة النقل النهري والبحري لذلك كان من المتوقع ان يؤدي هذا النشاط التجاري الكبير الى حتمية انشاء اسطول . وفي سنة ١٨١٧ كان الاسطول المصري في البحر المتوسط يتألف من خمسة عشر سفينة كبيرة ثم زادت عليها سفينتان اشتراهما الباشا من النمسا . ويقول ديران فيل مؤرخ البحرية المصرية في عصر محمد على « لو فكر الانسان في حال الاسكندرية قبل عشرين سنة ، حين هبط الفرنسيون مصر ، دهشته النتيجة الباهرة التي انتهت اليها ولم يكن خلق النشاط سوى احد الباشاوات العثمانيين - محمد علي - نجح في ان يجعل اسمه مشهورا وسلطانه ملموسا حتى في بحار نائية كبحر الشمال وبحر البلطيق » (١) .

وانتقل الباشا الى المرحلة التالية من مراحل بناء الاسطول (١٨٢١ - ١٨٢٧) والتي بدأ يطلب فيها من دور الصناعة الاوربية بناء سمن خاصة لاسطوله الحربى ، ويبدو أن السبب فى هذا هو محاولة الباشا معاونة الدولة العثمانية فى اخضاع كريت وقبرص واخماد ثورة المورة .
وعندما خرج اسطول مصر من الاسكندرية سنة ١٨٢٤ للاقاء سفن الثوار اليونانيين فى هياه رودس ، كان يتألف من واحد وخمسين سفينة حربية و ١٤٦ ناقلة جنود تحمّل ١٨٠٠٠ جندى .

على ان الباشا لم يلجأ الى الموانى الفرنسية وحدها فى صنع السفن التى تألف منها اسطوله الاول ، بل لجأ كذلك الى الموانى الايطالية كالبندقية وشكلت هذه السفن الاسطول المصرى الذى تحطم فى معركة نفارين البحرية .

أما الفترة الزاهية من عمر البحرية فى عصر محمد على (١٨٢٧ - ١٨٤٨) فأنها تعد بالفعل الفترة التاريخية للبحرية ، فقد اتفق المؤرخون على ان كارثة نفارين كانت بداية الفوة البحرية الحقيقية فى عصر محمد على ، ذلك ان تلك الهزيمة البحرية لم تنل من قوة شكبة الباشا العظيم ، فبعد عامين من العمل الدائب (١٨٢٩) تكون الاسطول المصرى الحربى من ٢٩ سفينة ونحو ألف مدفع وحوالى عشرة آلاف من رجال البحرية . والجديد فى المسألة ، أن الباشا أيقن أن بناء البحرية يجب أن يتم فى مصر ذاتها حتى لا يقع تحت تسلط القوى الاوربية المختلفة وكذلك لتوفير النفقات لان الدول الاوربية بالغت فى اسعار تلك السفن . لذلك قرر الباشا سنة ١٨٢٨ أن يصنع سفن اسطوله فى مصر . وأولى هذه المسألة عناية فائقة ، لأنها تحتاج الى المهندسين والمدرسين وفن الصناعة والملاحة والاختساب وبدأ الباشا باستقدام بعض الخبراء الفرنسيين للقيام بالتدريب . أما دار الصناعة اللازمة فقد أمر الياسا بأنشائها بالاسكندرية ، وكان يشرف على العمل فى هذه الترسانة الحاج عمر رجل تقدمت به السن واكتسب من الخبرة والماران ما جعله موضع اعجاب الباشا حتى لقد أثنت عليه الوقائع المصرية بمناسبة صنع « سفينة الفرقاطون (الفرقاطة) » ونزولها الى البحر فى ٩ فبراير ١٨٣٠ .

أما الورش والمصانع التي أنشئت بهذه النرسانة البحرية ، فكان عددها ١٠٥ وذلك بالإضافة إلى خمس عشرة ورشة للذخيرة والمهمات الحربية .

أما الأخشاب اللازمة لبناء السفن فقد جلبها الباشا من آسيا الصغرى ورووس وانجلترا وفرنسا وسوريا .

وكان في برنامج الباشا - الى جانب صنع السفن - العمل على توسيع وتطوير ميناء الاسكندرية ، ولهذا أحضر الباشا من الخارج الآلات اللازمة لتوسيع الميناء وتعميقه .

واعتبارا من سنة ١٨٣٣ أوصى الباشا ان يصنع في انجلترا أول سفينة مصرية بخارية وكان استخدام البخار في تسيير السفن لازال اكتشافا حديثا .

ولم يفت محمد علي إنشاء الاحواض اللازمة لاصلاح السفن بالاسكندرية على ان هذا الاسطول أخذ في الضمور منذ عام ١٨٤٢ نتيجة للصعوبات المالية التي أحقت بمصر نتيجة لحروبها مع تركيا .

تطور الصناعة في عصر محمد علي

الصناعة المصرية قبل محمد علي

١ - الصناعة تقليدية :

لم تكن الصناعة المصرية في نهاية القرن ١٨ في حالة متازمة خصوصا وأن صناعة النسيج من القطن والحريير والتي كانت أهم فروع الصناعة كانت في وضع حسن بحيث كان إنتاجها يكفي الحاجيات المحلية بل ويصدر بعضه . الا ان الاسالب الصناعية كانت تقليدية عاجزة عن مجاراة الصناعة الاوروبية مما ادى بالصناعة المصرية الى التصنيع في مطلع القرن ١٩ ابان غزو الصناعة الاوروبية للاسواق المصرية ، وخاصة بعد الحرب النابليونية .

ومع ذلك لم تقم الدولة العثمانية بأية محاولة قصد مواجهة الخطر الذي يهدد صناعيتها - وجاءت المحاولة الجديدة الوحيدة على يد محمد علي الذي حاول أن ينتقل بمصر من اقتصاد الكفاف الى الاقتصاد المركب (١) .

ومما يدلنا على أن مصر عرفت صناعة متقدمة الى حد ما هو ما قام به السلطان سليم من نقل أمهر الصناع الى عاصمته عند فتحه لمصر. إذ لم يبق بها سوى بعض الصناعات البسيطة مثل غزل القطن والكتان بالمغازل اليدوية وضرب الارز وطحن القمح وعصر الزيت ، وحسب ما ورد عند الدكتور محمد فؤاد شكرى (٢) أن أهم الصناعات التقليدية تتمثل في صناعة النسيج وصناعة الحصر وعمل الاواني الفخارية ، ولهذه الاواني في عالم التجارة مكانه ملحوظة بحيث تصنع الجرار الكبيرة كما تصنع آنية صغيرة يطلق عليها اسم « برداق » وتضخ المياه من خواص هذه الجرار وتلك الآنية اتي لا يستغنى عنها أى منزل ، وللبرادق فائدة كبيرة إذ تقوم بتبريد المياه اذا عرضت لتيار الهواء . ولا يقدر هذه الزية حق قدرها الا من عاش في بلد لا ثلج فيه ولا جليد على حد تعبيره .

أما الطريقة المتبعة في صنع الاواني الفخارية في « قنا » فتتمثل في « خلط تراب الفخار بالرماد بنسبة ٤ الى ١ وبفعل المياه تحل الذرات القلوية التي يحتويها الرماد فيؤدي ذلك الى أحداث كثير من المسام لا تراها العين ولكنها تساعد عملية الترشيع » (٣) .

ولم تكن هذه الصناعات اليدوية لتكفي حاجيات البلاد بل كانت الدولة تقوم باستيراد ما يلزمها من الخارج خاصة ما كانت تحتاج اليه الطبقات العليا من كماليات .

(١) دكتور عبد العزيز الدوري - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي - بيروت ١٩٧٨ ص ١٣١ .
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - بناء دولة مصر محمد علي ص ٤٣٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٢٦ .

ولا نهمل جانباً آخر من جوانب الصناعة وكان متقدماً في مصر وضعف أيام العثمانيين إلا وهو صناعة البناء ، فالمحاني صغر حجمها وقلت الزخارف بها ولم تراع الدقة والالتقان في صناعتها ويرجع سبب ذلك الى قلة الثروة من جهة وتقهقر الصناعات من جهة ثانية .

على أي حال ، فقد مارس أرباب الصناعات التقليدية نشاطهم في كثير من النجاح والتوفيق مع أنهم لم يحتلجوا الى كثير من الذوق والمهارة وكان هناك عدد كبير من الصائغين يؤدون عملهم على أحسن وجه وبنحو يدعو الى الفخر والاعتزاز ، فهذه الصناعات موجودة منذ زمن بعيد وتعتمد على استخدام الايدي في صنع المواد الخام دون الحاجة الى الاستعانة بما حدث من تقدم آلي ضخم .

٢ - نظام الطوائف :

كان أصحاب الصناعات يقسمون حسب مهنتهم أو حرفهم الى طوائف، ونقابات وهذه هي القاعدة التقليدية المألوفة في الشرق بأسره في تنظيم أرباب الحرف والصناعات إلا أنهم كانوا يمثلون فئة اجتماعية قليلة الافراد خاصة في ظل حكم المماليك ، وبدأ نطاقها يتسع لكونها كانت ترحب بكل من أراد الانتماء اليها . فالحرفيون في ظل المماليك كانوا من الفئات الاجتماعية القليلة التي كانت مفتوحة لانتماء الافراد من خارجها فالطوائف الحرفية في مصر كانت فعلاً ميداناً لنوع من التحرك الاجتماعي اذ كانت تتفدى الى حد ما من الفقراء المهاجرين من الريف الى المدن أو الذين كانوا يفقدون مركزهم في التجارة أو الادارة أو السلك الديني .

وكان انتماء الحرفيين الى طائفتهم يجعلهم يمارسون نشاطهم كله ويحيون آمنيين ومحميين بظلمها وخاضعين لنظمها وحسب ماورد عند الدكتور احمد عزت عبد الكريم (١) أنه لم يكن من السهل أن يتحول الفرد من طائفته الى طائفة أخرى اذ جرت العادة أن ينشأ ابن الفلاح فلاحاً وابن الصانع

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم - دراسات في تاريخ العرب الحديث - دار النهضة العربية بيروت ١٩٧ ص ٢٢٢ .

صانعا وابن العالم عالما ولبس ثمة ما بدعو ابن الريف ومقنضيانه الى
أن يهجر قرينه لى المدينة .

ولم تكن الدولة العثمانية تتدخل لترسم سياسة معينة لأعمالهم اذ
تقنع ببقاء كلمة السلطان فى مصر واسعة يذكر على منابرهما مما اتاح لهم
ادارة شئونهم وفقا لتقاليدهم ونظم طوائفهم . غير أن ذلك أدى الى انقسام
القطر الى وحدات اقتصادية متعددة تكاد تكون كل واحدة منها تكفى نفسها
حتى لا تضطر الى الاعتماد على ما يرد اليها من خارجها . الا من هذا النظام
سوف يعرف انحلالا وتفسخا بعدما كان قوام النظام الصناعى فى المدن ، الامر
الذى ساعد محمد على على تنفيذ سياسة الاحتكار على الصناعات الصغيرة
عن طريق فرض قيود على ارباب الحرف وترتيب المواد الخام اللازمة لعملهم
ثم وضع يده على انتاجهم بعد اتمامه فأصبحوا مجرد اجراء بعد أن كانوا
أصحاب عمل . فما هو هدف محمد على من نظام الاحتكار ؟ .

٣ - نظام الاحتكار :

بعدما صار محمد على المالك الوحيد لاراضى مصر ثم التاجر الوحيد
لحاصلاتها ، صار الصانع الوحيد لصنائعها . والظاهر أنه رأى الاحتكار
مما يعود بالنفع على الحكومة باعتباره يفتح بابا جديدا للربح فاتجه الى
احتكار الصناعة (١) .

ويذكر الجبرتي طرفا من احتكار هذه الصناعات فى حوادث سنة ١٢٣٢هـ
موافق سنة ١٨١٧ فيقول : « قام الباشا بضبط أنوال الحياكة وكل ما
يصنع بالماكوك وما ينسج على نول أو نحوه من جميع أصناف من أبريم أو
حرير أو كتان الى الخيش والحصير فى سائر الاقليم المصرى طولا وعرضا .
قبلى وبحرى من الاسكندرية ودمياط الى اقصى بلاد الصعيد والفيوم » (٢) .

(١) عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على - ط ٣ ، ١٩٥١ ص ٦٣٢

(٢) عبد الرحمن الجبرتي - المصدر السابق ج ٣ - دار الفارس

بيروت ص ٧٥٠ .

كما وصف أيضا احتكار الحكومة للصابون وتجارتها والبلح بأنواعه والعمل وصناعة الخيش والقطن والتلى الذى ينسج من أسلاك الذهب والفضة للتطريز والمناديل والمحارم وغيرها من الملابس وصارت الحكومة هى المالكة لكل صناعة البلاد .

في الحقيقة إن النظام الاقتصادي المتطور الذى كان محمد على يرغب في تحقيقه وتنفيذه ، اقتضى منه أن يحتكر جميع أنواع الصناعات القائمة في البلاد (١) .

وفي تقرير الكولونيل « كامبل » وكيل الملك البريطانى وتقنصله العام في مصر وملحقاتها والذي ارسله الى الدكتور « بورنج » من القاهرة في ١٨ يناير ١٨٣٨ يقول بأن احتكار الصناعة يتسبب في فقر الصانع وتجربده من املاكه ولر حدث أن اظهر القناصل العامون - الذين كانوا في مصر آنئذ - الحزم في معارضة هذه الاحتكارات واحتجوا بصفة جدية في هذا الموضوع لالغيت جميعها الغاء تاما أو جزئيا غير أن كثيرين منهم كانوا يشتغلون بالتجارة وكان الباشا صاحب الفضل الكبير عليهم (٢) .

وبعد هذه المرحلة أى مرحلة ضبط الحكومة للصناعات القائمة وخاصة الغزل والنسيج بدأت مرحلة جديدة في السياسة الاقتصادية وهى مرحلة الانقلاب الاقتصادي الا ان المشكلة الكبرى التى كانت تعاني منها مصر في النصف الاول من القرن الماضى كانت مشكلة النقص في الايدى العاملة نتيجة لقلة سكان مصر آنئذ ، وانتشار الاوبئة وانعدام العناية بالصحة ، في الوقت الذى احتاج فيه مشروع التنمية والتوسع الاقتصادي الى الاعداد الوفيرة من المصريين^{١٥}

وكان محمد على يرى ان الصناعة الحديثة الكبرى هى مصدر قوة كل دولة اذ ان امداد الجيش والاسطول بحاجتيهما من السلاح والعتاد والملابس والسفن ومواد وغيرها يقتضى حتما الاخذ بسياسة التصنيع

(١) انظر الموضوع الخاص بالتجارة في عصر محمد على .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٧٠٧ .

وفعلا قام بتنفيذ سياسته على الرغم مما اعترضه من العقبات للحيلولة دون ذلك حيث كان يدرك أن مصر كانت تملك كثيرا من المواد الأولية التي تحتاجها الصناعات الأجنبية وكان يعز عليه كما ورد في بعض الوثائق « أن يشتري الأوروبيون قطننا ويدفعون عليه جمركا ونولونا ، ثم يشغلونه ويأتون بالمصنوع منه بنفقات أخرى من النول والجمرك ويبيعونه بأثمان أرخص من مصنوعاتنا » (١) .

الواقع أن سياسة التصنيع أنرت تأثيرا سيئا على الصناعات التقليدية وعجزت هذه الأخيرة عن استعادة نشاطها بعد انهيار النظام الصناعي الكبير نظرا لفقدائها لكثير من مقوماتها وللخبرة الفنية التي كانت معتزة بها ولنظام الطوائف الذي كانت محتمية في ظله .

وأهم من ذلك أنها لم تعد وحدها قادرة على تلبية مقتضيات المجتمع الجديد الذي تطور بسرعة خلال القرن ١٩ وأصبحت عاجزة عن الصمود أمام منافسة المصنوعات الأوروبية باثمانها الرخيصة وافتاجها الضخم . فما هي مظاهر التجديد التي طرأت في الحقل الصناعي ؟ .

محمد علي والصناعة

ادرك محمد علي أن الصناعة الحديثة الكبيرة عماد الدولة القوية ومصدر قوتها السباسبية والعسكرية ولكي يفشي قوة عسكرية ضخمة في البر والبحر كان لا بد له من الأخذ بسياسة التصنيع لاعداد جيشه واسطوله بما يلزم من السلاح والعتاد والملابس والسفن ومواد البناء وغيرها ، وكان يقدر رخص الأيدي العاملة في مصر وقدرة الحكومة على تمويل المشروعات الصناعية الكبيرة من أرباحها في عمليات التجارة . أما ماعدا ذلك من عقبات كصعوبة التعدين والخبرة الفنية فقد تغلب عليها ، وذلك باحضار العمال من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا لقاء أجور عالية ، هذا فضلا عن شراء الآلات من جميع الأنواع ، وتعتبر الصناعات الحربية من أعظم منشآته الصناعية .

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم - المصدر السابق ص ٢٤٩ .

١ - الصناعات الحربية :

أثمرت سياسة التصنيع ثمرتها فأنشئت في القاهرة والاسكندرية وكثير من مدن الاقاليم مصانع لانتاج الاسلحة المختلفة من بنادق ومدافع ورصاص ومصانع الطرايش والجلود ودور الصناعة الحجرية .

ولا يخفى ما في ذلك من المصاعب لضرورة جلب الفحم والحديد والأخشاب والآلات من الخارج ، ولأنه أيضا يلزم المصريين زمن طويل وخبرة فنية كبيرة حتي يصلوا الى درجة يمكنهم معها أن ينافسوا اعمال أوربا ، إلا أنه قاوم كل هذه الصعوبات و « سخر وفقا للعادة الشرقية القديمة ، جميع التجارين والبنائين لينشئوا اسطولا واشترى جميع الخشب المستورد بأسعار محددة » . والحق أن سياسته الجمركية التي استتشر جمهور الاهليين شدة وطأتها بسبب انصبابها على السلع المستوردة من الدار « » لانه الاخرى بأكثر واثقل من انصبابها على السلع الاوربية ما لبثت ان أدت الى ارتفاع لا يطاق في نفقات المعيشة ، (١) .

ان تأسس المصانع في مصر يرجع الى عام ١٨١٦ حيث أنشأ الباشا مصنعا للغزل والنسيج بالخرنقش ، وفي عام ١٨١٨ أقام مصنعا ضخما في بولاق لصنع المنسوجات « وشرع عمال من مصانع فرنسا وبلجيكا يقومون بمحاولات جديدة » . وقد أدى موت البعض وعزوف البعض الآخر عن المشروع الى وقف العمل والكف عن تعليم التلاميذ غير ان الباشا لم يفرغ من اعداد جيش قائم حتى اراد أن يلبس الجنود مما تنسجه بلادهم (٠٠٠) وفي كل قسم من اقسام المصنع ملاحظ يوجه العمال . ويتقاضى العامل اجرة بنسبة ما يقوم به من عمل فبتناول ٧٠ بارة عن الذراع (الاسلامبولي) الذي يتم نسجه بعد أربع وأربعين « طرحة » ونسج العامل ذراعين في الشتاء ونحو ٣ أذرع

(١) كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلامية ط ٦ . بيروت

في الصيف ، (١) .

عمل محمد على على تحويل جزء كبير من قلعة الجبل الى دار
صناعة حيث يشتغل فيها مئات من المصريين في صب المدافع المعدات
للجنود والذخيرة كما أنشأ ترسانة القاهرة لنفس الغرض تنتج
عجلات وعربات للمدافع وكذلك صناديق الذخيرة وحيوات الخيل والسيوف
والبلط وركائب السرج والابازيم والآلات التي يستعملها حملة البلط
والنسافون وغيرهم ويبلغ عدد العمال ٨٠٠ عندما يكون العمل
قائما على قدم وساق . .

وهناك قسم آخر لتصنع المسامير والاقفال والامشاط وعربات
النقل وصناديق الادوية وغيرها ، ثم قسم ثالث لصنع السرج وقرب
الماء واطقم الخيل وصناديق الخرطوش وغيرها . ويشتغل في هذا
القسم الف عامل ويقوم نحو اربعين عاملا بصنع نحو خمسين زوجا
من أحذية الجيش في اليوم الواحد . ولكل قسم مراقب ووكيل
وموظفون كما أن هناك مراقبين ومراجعين للحسابات يمنحون جميعا
رتبا عسكرية .

أما اسطول الباشا فنشأته كشأن مصانعه سواء بسواء
أي أنه كان يفتقره الاساس المتين بمعنى انه لم يكن في الاستطاعة
الاحتفاظ به في حالة الاستعداد الا اذا سهر مؤسسة على مراقبته ورعايته
بنفسه لان الاسطول لم يرق في اعين فئة من الجيش ، وقد وقف هذا
الاسطول مكتوف اليدين في مياه الاسكندرية طيلة فترة الحرب
السيورية القصيرة الاجل وقد حرمه القبطان باشا من فرصة اداء
المهمة التي لم بنشأ الاسطول الا لادائها (١) .

ولقد أنشأ محمد على أول اسطول ايام حربه مع الوهابيين
بغرض نقل الجنود من السواحل المصرية الى بلاد العرب وقد افاده

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٤٣ .
(٢) هنرى دودويل - محمد على مؤسس مصر الحديثة ترجمة
أحمد عبد الخالق وآخر ص ٢٥٥ .

فيمما بعد عندما كان يحافظ به على السفن التجارية الذاهبة الى الشرق من القراصنة . وعلى مر الايام رأى ضروره بقاء الاسطول فى البحر ائتوسط لحماية السفن التجارية من قراصنة اليونان . وقبل نشوب حرب اليونان اشترى بعض للسفن من البندقية ومرسيليا وصنع بعضها الآخر هناك على حسابه ، غير ان معظم أسطوله حطم فى هذه الحرب فى واقعة « نوارين » ولما علم محمد على ما للأسطول من الفائدة يعد هذه الواقعة أسس دار صناعة بحرية بالاسكندرية (١) . وبنى فيها مصانع خاضعة لقتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصوارى والقلوع وكل ما يلزم للسفن وانشأ فيها ايضا مدرسة بحرية اعدىها لتدريب عدد من الشبان المصريين على العلوم والمعارف اللازمة لضباط البحرية ، وكان المنوط به انشاء هذه السفن المهندس البحرى « سيريزى » اما ادارة المدرسة فكانت فى يد المسيو « بيسون » وقد ترقى فيما بعد الى رتبة امير البحر للأسطول المصرى وعمل الرجال على ترقية العمارة البحرية الى درجة جعلتها فى صف سليمان باشا ونظم الجيش البرى . وقد بلغ عدد المراكب البحرية فى عام ١٨٣٢ ثلاثين قطعة تحمل ١٣٠٠ مدفع وفيها من العساكر البحرية ما لا يقل عن ١٢ر٠٠٠ جندى .

٢ - صناعة النسيج والغزل :

لما كانت مصر غنية فى انتاج القطن والكتان والصوف فان الباشا خطط لنسج وغزل هاته المواد لتلبية حاجة البلاد الاستهلاكية خصوصا . وان جوميل الفرنسى كان قد نجح فى زراعة القطن الى جانب انخفاض الاجور وبالتالى التكاليف ، فكانت اولى المصانع التى انشأها مصنع الخرنفس الذى تأسس سنة ١٨١٦ (٢) واستدعى له عمالا فنيين من فلورانس بايطاليا تخصصوا فى غزل خيوط الحرير لصناعة القطيفة والساتان الخفيف . وبعد قليل من الزمن نقلت الانوال الخاصة بصناعة الحرير الى مصنع اخر ووضعت محلها

(١) انظر صفحة ٥٧ وما بعدها .

(٢) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٥٨٨ .

مغازل للقطن وآلات لصنع الاقمشة القطنية فركب بها مائة دولاب
الخيوط السميكة الى تسعة للخيوط الرفيعة وهي النسبة المتبعة عادة
في مصانع الغزل ، والى جانب هذا المصنع كان للقطر ثمانية عشر
مصنعا في المنصورة ودمياط ، رشيد ، المحلة الكبرى ، زفتى ميت غمر ،
بنى سويف فوه ، دمنهور ، السبدة زينب وغيرها ، لكن اهمها
مصنع مالطة الذى اكتسب اسمه نتيجة كثرة العمال المالطيين الذين
كانوا يشتغلون فيه - ويشكل هذا المصنع بالاضافة الى صناعة
الخيوط القطنية - مبيضة ترسل اليها المنسوجات على اختلاف
انواعها لتبييضها .

وعهد بادارته الى جوميل ، وكان فيه من دواليب الغزل ٢٨
دولابا و ٢٤ « عدة » وآلات تجهيز القطن وتدير هذه الآلات كما في مصنع
الخرنفش بواسطة ١٤ طنبررا تحركها عدة يجرها ثمانية من الثيران ،
وكل دولاب يشتغل عليه رجل و ٣ أطفال يعقدون الخيوط التي تقطعها
حركة « العدة » ويبلغ عدد الانوال في مصنع مالطة مائتى نول تنسج
خيوط القطن وبصنع منها البافطة والبصرة والباتست والموسلين وغيرها
ورشة تضم عمالا من مختلف الحرف معدين لاصلال آلاتها واصلاح
مصانع الوجهين البحرى والقبلى .

على اى حال ، يعتبر مصنع مالطة مركز العصب لجميع
المصانع الاخرى ، فادارته معقدة ، فهناك عدد من الكتبة الاقباط
يمسكون الحساب ، كما ان هناك صرافا يقبض الاموال من « الخزينة »
وبدفعها لمن يقومون بالعمل .

والى جانب القطن انشأت الحكومة مصانع لغزل الصوف ونسجه
! لا ان الصوف المصرى كان لا يصلح لاي نوع من المنسوجات الناعمة ،
لان تشبعه بغبار هائل بالبح كان يكسبه صلابة وجفافا ، ولكن ببجو على
الرغم من ذلك ان المنسوجات التي تصنع من هذا النوع من الصوف
مازمنة كل الملائمة للملابس الجند لان صناعتها متينة متداخلة - الخيوط ،
وذلك فضلا عن اتقانها .

وادم مصانع لغزل الصوف مصنع بولاق الذى تأسس سنة ١٨١٨ وبدأت الحكومة تجلب من مديريات المنيا والفيوم والبحيرة حير ما تنتجه مصر من انواع الصوف (١) ، وكانت تعمل منها ملابس البحارة واعطية الذيم ويستعمل لهذا الغرض الصوف السميك الوارد من الوجه القبلى وبنغت انواع الفسيج الصوفي الموجود منها من قبل وما انشئ في ذلك العصر (٤٠٠٠) فول (٢) .

اجتهد محمد على في تربية دودة القز ليستغنى بافتاجها عن الحرير الذى يأتى اليه من الخارج فزرع اشجار التوت بشكل وافر وحفر السواقي لريها فبلغ ما جمع من الحرير سنة ١٨٣٣ عشرة آلاف اقة تقريبا بعد ان استقدم عددا كبيرا من الاخصائيين ، فلقى المصنع الذى اقامه الخرفنش نجاحا كبيرا مما ادى الى تشجيع هذه الصناعة .

كما تأسس مصنع في القاهرة على مقربة من الجهة المعروفة ببركة الفيل ، « حيث استقدم الباشا من القسطنطينية منذ البداية بعض الارمن الذين يجيدون صنع الحرير والمنسوجات الحريرية المشاه بالذهب مما يصنع مثله في تركيا والهند ، (٠٠) واصبح في المصنع في المصنع ١٦٠ نولا ، لنسج الحرير من خيوط بيروت المصنوعة من الذهب والقطن (٣) .

على العموم ، تطورت معامل الغزل والنسيج لدرجة اصبحت معها تصدر جزءا من غزل القطن الى شمال البحر المتوسط والشام وبلاد العرب .

٣ - صناعات اخرى :

وفي سنة ١٨١٨ اسست الحكومة في احد مراكز مديرية اسيوط يدعى « الزيزهون » مصنعا لصناعة السكر يماثل مصانع السكر في حزر الفتيل كما انشأت مصنعين آخرين لنفس الصناعة احدهما في ساقية موسى والثانى في الروضة (مركز ملوى) .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٤٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٥٣ .

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٤٣ .

وبلغ انتاج الزيزمون سنة ١٨٣٣ ، ٢٠١٩٥ اقنطارا من السكر الخام ، لكن استيراد السكر المكرر من معامل أوروبا منذ سنة ١٨٢٦ أضر بانتاج معمل الزيزمون وفضل الناس السكر الوارد من أوروبا لجودته ورخص أسعاره (١) .

أما مصانع النيلة فقد انشئت في شبرا شهاب والعازنة ، ومبت غمر والمنصورة ومنوف والاشمونين وبركة السبع والمحلة الكبرى والجيزة وأبو تيج وملوى ومنفلوط وطهطا واسيوط والفشن ، وهذه المصانع تسنفذ سحس محصول القطن المصري وكانت النيلة ترسل من المصانع الى القاهرة حيث تبيعها الحكومة ، وتصدر منها للخارج بعد استنفاد حاجة المستهلكين .

ولم يقيم الباشا باستيرادها من الخارج لأنها كانت تزرع في مصر ، ولكن الصبغة المأخوذة من مادتها كانت رديئة النوع واضطر محمد علي الى استقدام بعض الصناع لتعليم أبناء العرب ، وسائل الصناعة واساليبها من البنغال بالهند .

ومنذ سنة ١٨٣٥ رأى الباشا ان يترك الاشراف على اعداد النيلة لمشايخ القرى على شريطة ان تتسلم الحكومة جميع المادة المستخرجة منها مهما كان نوعها بثمن قدره ٣٠ قرشا للاقة الواحدة .

أما مضارب الارز فكانت تديرها الثيران ، ومع هذا فقد كلفت الباشا مبلغا يربو على ضعف ما كان يتكلفه انتاج الارز نفسه ، حتى أن توماس جالوى ابن المهندس الانجليزي Gallaway اتفق مع الباشا على أن يستبدل مضارب الارز الموجودة بمضارب غيرها تستخدم البخار ، منها واحد في رشيد وآخر في الزيزمون (٢) .

(١) عبد الرحمن الرافعي المصدر السابق ص ٦٠٠ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المعهد السابق ص ٨٤ .

ولعل متاعب استخدام الثيران والرغبة في توفير النفقات هي التي جعلت الباشا - على ما ذكره الجبرتي في حوادث ذي القعدة ١٢٣١ هـ الموافق لاكتوبر ١٨١٦ - بأن: « يأخذ قبل ذلك بفكرة تقدم بها شخص من أبناء البلد يسمى حسن جلبى عجوة » ابتكر بفكره صورة دائرة وهي التي يحقون بها الارز وعمل لها مثالا من الصفيح تدور باربعة ديران ، وقدم ذلك المثل الى الباشا فأعجبه وأنعم عليه بدراهم وأمره بالسير الى دمياط وان يبني بها دائرة ويهندسها برأيه وبمعرفته واعطاه رسوما بها يحتاجه من الاخشاب والحديد ، ففعل وصح قوله ثم فعل اخرى برشيد وزاج امره بسبب ذلك » (١) .

ولتزويد المصانع بالآلات اللازمة عمدت الحكومة الى انشاء معمل لسبك الحديد في بولاق وضع تصميمه المستر جالويه المهندس الميكانيكي الانجليزى ، الذى كان يشتغل في خدمة الحكومة وكان يقولى رئاسة العمل فيه رئيس انجليزى يساعده خمسة من العمال الانجليز وثلاثة من المالطين وأربعون تلميذا مصريا موزعين على جميع أقسام المسبك ورئيسه القائد أدهم بك ، ونظام الأجور مقيّد بما ينتجه العمال . بل أنهم على اختلاف طوائفهم يقيّدون في المصنع بفئات نابتة ، يحددها الناظر او من يليه في المرتبة ، وقلما تنوم المنافسة بين العمال لان المتفوق لا يلقي على تفوقه جزاء ، اما العقوبة البدنية والسجن فمما يقضى به نظام المصنع ، وتتراوح الاجور بين قرش واحد وثمانية قروش في اليوم . وفد انفق محمد على على بناء المصنع ٥٠٠ ر ٥٠٠ ر ١ قرش . وكان من الممكن صب خمسين قنطارا من الحديد المصهور في اليوم الواحد بخمسين قنطارا من الفحم (٢)

وتجدر الاشارة الى مصنع آخر انشى خصيصا لصناعة الواح النحاس التي تبطن بها السفن وتولى ادارته المستر جالوى الميكانيكي الانجليزى بمساعدة اربعة رؤساء عمل ، اثنان للاسطوانه وثالث

(١) عبد الرحمن الجبرتي - المصدر السابق ص ٥٣٦ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٤٥٩ .

لمراقبة الآلة البخارية ، والرابع للسبك وتنقية النحاس من المواد العزيبية، وكان في المصنع عشرون عاملا مصرياً من العمل الفنيين موزعين على الاعمال المختلفة منهم واحد للسبك وثلاثة للاستطوانة يشتغلون في اخراج الواح النحاس ، وعملية السبك الواحدة تقتضى ٣٥ قنطاراً من النحاس والاستطوانات تخرج كل يوم من سبعين الى مائة لوح من النحاس مختلفة المقاس والسبك ، (١) .

الى جانب هذه الصناعات هناك صناعات اخرى كصناعة الزجاج ودبغ الجلود والصابون والورق والمواد الكيماوية وغيرها .

كان يشتغل في الصناعة من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ عامل ، وبلغ مجموع ما دفعته الحكومة في الصناعة حتى عام ١٨٩٨ حوالي ١٢ مليون قرش ، وحاولت في نفس الوقت اعداد اناس مدربين تدريباً حديثاً ، فعملت على ارسال حوالي ثلثمائة مبعوث الى أوروبا وأدخل اضعاف هؤلاء في المدارس الحديثة التي انشئت لدراسة الطب والهندسة والكيمياء إضافة الى الكلية العسكرية والكلية البحرية .

وهكذا حاول محمد على ان ينفذ برنامج تصنيع محدد وحصل على المال اللازم من ارباح احتكارات التجارة ومن الضرائب والقروض الاجبارية ويعود نجاحه بصفة اساسية الى الحماية الادارية للصناعات .

لكن نجاحه لم يدم بفعل الضغط الاوربي بمعونة الباب العالي الذي ازال هذه الحماية الادارية للصناعات وعرض الصناعة الناشئة الى منافسة الصناعة الاوربية وبالتالي الى انهيارها ، فلم يكن محمد على حراً في فرض الرسوم على الواردات ، بل كان مقيداً باتفاقيات الباب العالي مع الدول الاوربية ونتيجة ضغط بريطانيا في سبيل حرية التجارة وضمناً لسواق لتجارتها عقد الباب العالي معاهدة ١٨٣٨ التجارية « بالتا - ليمن » معها ، وهذه المعاهدة فتحت

(١) عبد الرحمن الرافعي المصدر السابق ص ٥٩٩ .

الباب امام التجارة الاوربية لقاء رسم قدره ٥ ٪ فقط ، فكانت ضربة
تامة لنظام الاحتكار .

وحاول محمد علي تجاهلها اول الامر ، لكن القسوات الاوربية
ضربت قواته بصفة نهائية بعد عام ١٨٤٠ ، وهكذا تعرضت
صناعته للمنافسة الاوربية فبدأت تضعف بعد وفاته .

نتائج حركة التصنيع

في عصر محمد علي

نجحت اصلاحات محمد علي الصناعية نجاحا امكن معه سد
حاجيات الدولة خاصة في الميدان العسكري وعملت على تطوير البلاد
سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا ، غير ان هذه الصناعة كانت
تكلف الحكومة نفقات معتمدة على مرافق الانتاج الاخرى من الزراعة
والتجارة التي كانت تدر عليها ارباحا مكنتها من تعويض خسارتها
في الصناعة في المراحل الاولى .

١ - على المستوى السياسي :

ان مقتضيات الصناعة بمصر ارغمت محمد علي على الاخذ بالحكومة
المطلقة وتنظيم ادارتها تنظيما يساعد على استمرارية خطواته
الاصلاحية ، ومن هنا جاءت ، فكرة تأسيس بعض المجالس او الدواوين التي
كان يرجع اليها محمد علي قبل الشروع في تنفيذ مشروعاته ، ورئيس
هذا الديوان يقلب كتحدا بك او كتحدا باشا وهر بمثابة وكيل الباشا
او نائب وله سلطة واسعة المدي في كافة شئون الحكومة .

وفي سنة ١٨٢٩ الف محمد علي نواة لنظام الشورى وهي مجلس
الشورى ، يتالف من كبار موظفي الحكومة والعلماء واعيان القطر
برئاسة ابنه ابراهيم باشا .

ومن قرارات هذا المجلس انه قرر اخذ ١٠٠ فلام من كل تمين من
اقدان القاهرة وبولاق ومصر الثدبمة وجملتهم ١٠٠٠ غلام لتثنييلهم .

بالاجرة في مصانع الحكومة وكذلك قرر اخذ الصالحين للعمـل من المتسولين للالتحاق بهذه المصانع وأن ترتب لهم أرزاق يومية وبعد تعليمهم الصفاة ترتب لهم اجور يومية ، ولهذا القرار قيمته في تعليمهم الصنائة ومحاربة البطالة (١) .

أدت نشأة الحكومة الجديدة بوظائفها واداراتها وهيئاتها الى ان اصبح الفرد يواجه الحكومة في كل خطوة يخطوها منذ مولده حتى وفاته ، فالحكومة لا تطلب منه المال فقط وانما تسوقه للجيش أو للمدرسة أو للمصنع ، وتنظم عمله في الحقل تنظيماً دقيقاً لا تكاد تدع له حرية في العمل أو التصرف ، وهكذا ذابت في ظل النظام الجديد الهيئات والطوائف المختلفة التي كانت تنظم المصريين في الريف والحضر وفقدت اختصاصاتها وامتيازاتها فتحوّلت الدواوين والادارات الجديدة التي نهضت لسد الفراغ الذي خلفه انهيار الطائفية لتحل محلها فكرة القومية الواحدة ووقف المصريون جميعاً امام الحكم الجديد أحاداً بلتمسون منه التوجيه بل وينتظرون لقمة العيش في المصنع أو الحقل أو فرقة الجيش أو المدرسة أو الديوان (٢) .

ومد ذكر حسين مؤنس في كتابه " الشرق الاسلامي في العصر الحديث " (٣) ان اكثرية الاوربيين كانوا ينتظرون افلاس محمد علي بين آونة وأخرى ولكنه لم يكن يلبث حتى يخيب ظنونهم ويتخلص من اثقال الضائقات التي تهبط عليه ، ففي سنة ١٨٢٧ مثلاً ابهظته تكاليف حرب المورة وهبط النيل سنتين متتاليتين فتبادل القناصل التهاني بالفراغ امزّه فاذا به يضاعف همته في انشاء المصانع والاحواض في الاسكندرية (٠٠٠) وليس ادل على شرقية محمد علي واساليبه من انه لم يضع لماليقه ميزانية أو شيئاً يشبه الميزانية الا بعد زمن طويل - بل كان يضع ما يرد اليه من المال في خزائنه ، وينفق

(١) عبد الرحمن الرافي المصدر السابق ص ٦١٩ .

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم - المصدر السابق ص ٢٦٤ .

(٣) دكتور حسين مؤنس - الشرق الاسلامي في العصر الحديث

ط ٢ ، ١٩٣٨ ص ١٦٢ .

منه بغير حساب مكتوب على أسلوب الحكام الشرقيين من قديم الزمان ولكنه اجتهد دائما في أن يكون منصرفه اقل من ايراده وظل على ذلك حتى وضع له وزير ماليته بوغوص بك حسابا منظما كالتابع في أوربنا بمعاونة الفرنسي « جومار »

ظل محمد على الى اواخر ايامه والنزعة الاوتوقراطية متمكنة من نفسه ولم يكن لايان الاسكندرية رغبة في ارسال اولادهم الى باريس للتعليم فاستعاض عنهم بابناء البوابين وما شاكلهم من أبناء الطبقة الدنيا . ولم يكن الباشا للحاكم الاوتوقراطي بحكم الميراث فقط بل كان كذلك بحكم البيئة أيضا . واذا استثنينا العنصر الاوربي الضئيل العديم الحيثية ويتخل فيه القناصل العموميون ، وبعثض التجار الانجليز والفرنسيون وشرانمة الموظفين الفرنسيين الذين كانوا يعملون في الادارة المصرية - نقول اذا استثنينا هؤلاء لألفينا الباشا انما يعيش في وسط شعب لم يكن يتوسع ولا يرغب في شيء من الادارة الاوتوقراطية . ونحن نعلم ان الحاكم الاوتوقراطي هو دائما بمعزل عن شعبه . على ان محمد على لم تكن تفصله عن شعبه سلطته الغير المحدودة فحسب ، بل كانت تضاف اليها سياسته ونواياه . ولهذا قال مرة للدكتور بورنج الذي هبط مصر لوضع تقرير عن سير الحركة التجارية في سوريا ومصر ما معناه « ارجو الا تحكموا على اعمالى بمقاييس المعارف عندكم بل ينبغي ان تفرقوا بينى وبين ما يخيم حولى من الجهل المطبق ، فبينما توجد لديكم طائفة من الاذكيا النابهى الذكر لا اكاد اجد حولى من يفهمنى ويعمل على تنفيذ اوامرى ، وكثيرا ما يخدعنى الناس وأنا اعلم انهم يخدعوننى . ولست اعدو الحقيقة اذا صرحت اننى كنت وحيدا طيلة حياتى او على الاقل الشطر الاكبر منها . » وكان يظهر فى خلال حكم محمد على من اعمال صالحة من صنع الباشا نفسه دائما وبالعكس كانت الاعمال السبئة فى الاغلب من عميل اشخاص اضطر الى استخدامهم لعدم وجود من يفوقونهم علما وذكاء . وقد كانوا من الموظفين الذين لا يتعففون عن ارتكاب الموبقات لاشباع شهواتهم فى الحصول على المال . والى هذه الحقيقة اشار الباشا مرة فى حديث له اذ قال : « عندما هبطت ارض مصر كانت البلاد بربرية

وهمجية لا قصى حد وهي لا تزال كذلك ليومنا هذا على أننى برغم ذلك ما زلت أرجو أن تكون أعمالي قد حولتها الى احسن مما كانت عليه ، فلا ينبغي أن تجزع اذا لم تجد فى هذه الاقطار شيئا من المدنية المعروفة فى الاقطار الاوربية ٠٠٠ ، (١) .

فى الحقيقة ان ثلاثين سنة من حكمه قد أحدثت فى البلاد انقلابا سياسيا معدوم النظر ولكن لا يفوتنا أن جيلا واحدا لا يكفى لتترك آثار دائمة ونتائج ثابتة .

٢ - على المستوى الاقتصادى :

يقول هنرى دودويل فى هذا الصدد : « ان معظم مظاهر النشاط الصناعى قامت على أساس فكرة سقيمة (٢) مختلفة ولذلك سرعان ما دب ديبب الفشل فى المصانع العديدة فاهملت الاتيا وتركزت اجزاؤها المتحركة (٠٠٠) وأن الباشا انفق ما لا يقل عن اثنى عشر مليوناً من الجنيهات على هذه المصانع وعلى الآلات التى جهزت بها وقد ذهبت كل هذه الاموال سدى ، » .

أما الدكتور محمد فؤاد شكرى (٣) فيقول ان المصانع لم تزد شيئا من موارد البلاد وكان من الأحسن لو استخدم ذلك القدر نفسه من رأس المال فى الزراعة وجهود العمال فى الشئون الفلاحية، وكان محمد على يبرر تصرفاته بما لجأت اليه الدول الاخرى من تقدم ورقى ضاربا الامثال بانجلترا وفرنسا تاييدا لحجته ، هذا الى ان المسبب الذى تفجى عن ادخال الصناعة قسرا اقل فى مصر منها فى بلد آخر لان الخسارة تقع على عاتق الخزانة لا على عاتق المستهلكين .

ويضيف قائلا بأن المصنوعات الاجنبية كانت ترد الى البلاد بعد ان تدفع ضريبة اسمية قدرها ٣ ٪ ولكن الضريبة فى الواقع

(١) هنرى دودويل المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٤٥ .

كانت اقل من ذلك كثيرا مما يفسر ان مصنوعات مصر كانت تباع بنفس السعر المنخفض الذي تباع به المصنوعات الأوروبية .

ولا بد من الإشارة هنا الى ان المنسوجات القطنية هي وحدها التي عادت بالضرر على الواردات حيث ان انجلترا انقصت مقدار ما ترسله من هذه الاصناف والانواع الواطئة منها خاصة ، اما انواع المسلمين الهندي وكانت شائعة الاستعمال فيما مضى أصبحت أنذارك لا برد شيء منها .

وكم حاولت انجلترا بواسطة مبعوثها ان تقنع محمد علي بتخليه عن سياسته الصناعية فيقصر اهتمامه على الارض الزراعية تاركا امور الصناعة ان حذقوا اسرارها . وكان محمد علي يحرك ان مؤسساته الصناعية تكلفه كثيرا لاسباب وعوامل مختلفة منها ما يتعلق باستحالة اتخاذ وسائل الحماية التي عرفتها الامم المستقلة في دور التصنيع ، فقد كان مقبدا بالرسوم الجمركية التي حددتها المعاهدات التجارية بين الباب العالي والدول الاوربية .

على كل ، لا بد من ذكر التأثيرات التي طرات على اقتصاد البلاد بفعل سياسة التصنيع بما في ذلك الزراعة والصناعة التقليدية وكذلك على التجارة ، ذلك لان مشروعات التنمية الاقتصادية في الزراعة والصناعة لا بد ان تكملها سياسة تجارية نشيطة ترمي الى (تنجيز) الزراعة من ناحية وحماية الصناعة المصرية من ناحية اخرى .

فعلى المستوى الزراعي لم تعد الزراعة مقصورة على انتاج المواد الغذائية اللازمة للسكان وانما أصبحت تفتح المواد اللازمة للنهضة الصناعية الحديثة كما تفتح فائضا من المواد يصدر الى الخارج فيجلب النقد الاجنبي الى داخل البلاد مما يعين على زيادة مقدراتها الشرائية وعلى تمويل المشروعات الكبيرة التي بدأ تنفيذها ، وبذلك خرجت الارض المصرية من النطاق المحدود الذي فرض عليها حتى القرن ١٩ وهو اعاشة الناس واداء مرتبات الجند الى نطاق اوسع فتصبح

الدعامة القوية للنجارة الخارجية والصناعات في مصر فنحولت مصر بذلك من النظام الذى يقوم على التخصص والانتاج لسوق أوسع نطاقا ، وهى السوق المصرية عامة والسوق الخارجية ايضا .

ويذكر الجبرتي (١) فى حوادث جمادى الاولى سنة ١٢٣٢ هـ الموافق لسنة ١٨١٧ انجاز الحكومة لعمارة السواقى فى مكان ملائم لغرس اشجار التوت بهدف تربية دودة القز واستخراج الحرير فيقول : « انشأ الباشا عمارة السواقى بالارض المعروفة برأس الوادى بناحية شرقية بلبليس قيل انها تزيد على الف ساقية ، وهى سواقى دواليب خشب تعمل فى الارض التى يكون منبع الماء فيها قريبا واستمر الصنّاع مدة طويلة فى عمل آلاتها عند بيت الجبجى ، وهو بيت الرزاز الذى جهة التبانة بمقرب الحجر وتحمل على الوجه الى الرادى هناك المباشرون للعمل المقيدون بذلك وغرسوا بها اشجار التوت الكثيرة لتربية دود القز واستخراج الحرير كما يكون بنواحي الشام وجبل الدروز » .

وكانت الحكومة تضع يدها على اكثر محصولات البلاد وخاصة محصولات ذات الصلة بالاسواق الخارجية وحركة التصنيع .

أما على مستوى الصناعات الصغيرة فقد اثرت سياسة التصنيع الجديدة عليها تاثيرا سيفا بحيث امر محمد على بضبط وقييد المشتغلين بها ورتب لهم المواد الخام اللازمة لعملهم ثم وضع يده على انتاجهم بعد اتمامه فاصبحوا اجراء بعد ما كانوا أصحاب عمل وكذا النشأان بالنسبة للفلاحين والفلاحات فى القرى الذين كانوا يعملون فى الغزل ، ومما ساعد محمد على على تنفيذ سياسته الضبط بالنسبة للصناعات الصغيرة انحلال الطوائف التى كانت تـؤـم النظام الصناعى فى المدن .

(١) عبد الرحمن الجبرتي - المصدر السابق ص ٥٥٥ .

لم تعد الصناعات التقليدية قادرة على تلبية الحاجات الجديدة والأذواق الجديدة للمجتمع المصري في تطوره السريع في القرن ١٩ ولم تعد قادرة على الصمود لمنافسة المصنوعات الأجنبية بانتاجها "جهمي واثمانها الرخيصة".

٣ - على المستوى الاجتماعي :

جرت تغييرات هامة في الحياة الاجتماعية في مصر بفضل انفتاح مصر على العالم الاوربي أيام حكم محمد علي كما هو معلوم الذي حكم في الفترة ما بين ١٨٠٥ الى ١٨٤٩ حيث كان يتطلع الى الاستفادة من منجزات الغرب العلمية والتقنية في انشاء جيش واسطول حديثين ، الامر الذي كان يتطلب تغييرا جذريا لجمل حياة المصريين ، وقد جرت تحولات معينة تحت التأثير الاوربي واساسا في المعيشة والملبس والاساليب خاصة للذين تسنى لهم اكثر من غيرهم مخالطة الاوربيين، وفي هذا الصدد يقول كلوث بك (١) " منذ وقت معين اخذ الكثيرون من الوجهاء في محاكاة الاوربيين حتى فيما يتعلق بتناول الوجبات الغذائية (٠٠٠) واخذوا يستعملون صحنونا واكوابنا وفي السنوات الاخيرة ظهر الكثير من اثاثنا في بيوت الوجهاء والأثرياء " .

في الواقع ان الاصلاحات عملت على نقص كثير من الامور المألوفة العتيقة والمساس بالعوادات والخزعات المتأصلة وتحميل الشعب اعباء جديدة ، وحسب كلام كلوث بك فان الشعب لم يكن منصرفا عن المساعدة في تنفيذ الاصلاحات وحسب ، بل كان يعارضها بشتى الوسائل ، وكان الناس يسعون الى مقاومة تعليم الاطفال في المدارس العلمانية التي افقحتها الباشا والتي كانت بدعة بالنسبة للمصريين ، وامبا الذين ساعدوا محمد علي في تحقيق الاصلاحات فقد كانوا في غالبيتهم يفعلون ذلك على غير ارادتهم ، وكانوا يخدمون الباشا شخصيا وكانوا خداما له .

(١) آن ريفلين الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث ترجمة بشير السباعي ١٩٧٨ ص ٢٤ .

كان المصريون ينظرون الى تلك المصانع ، كما ينظر الانسار الى كارثة نزلت بساحته ، ولما كانوا يعتبرونها سجوناً لا اقل ولا اكثر ، فقد امتنعوا عن العمل بها واضطر الباشا الى استخدام القوة حتى يجمع العدد الكافي من الايدي العاملة ، كما صار يستخدم في هذه المصانع صغار السن ممن لا يصلحون للخدمة في الجيش ، ولم تكن النساء بمنأى عن الصناعة اذ كانت توزع على القرويات مقادير معينة ويضيق به ذرعهن فقد كن يعمدن الى شتى الحيل للتخلص منه ولو ادى الامر الى احداث عاهات في ايديهن . على ان اشتراك النساء في الجهد الصناعي لم يقف عند حد العمل في المنازل ، فقد كان فريق منهن يشتغل في المصانع الى جانب الرجال تحت اشراف دقيقين .

اما عن حالة العمال في المصنع فقد ذكر محمد فؤاد شكرى (١) . تقريراً لاحد المهندسين الميكانيكيين الانجليز كتبه في فبراير سنة ١٨٣٨ : « اذا رفض الرجال العمل فالسوط حاضر ، ومن ثم كانوا يهضون الى عهلهم والحقدهم يملأ صدورهم ، وفي كل مصنع يشتغل به ٥٠٠ عامل ما لا يقل عن خمسة اشخاص او ستة ينهمكون على الدوام في البحث عن الغائبين ، وعلى الرغم من شدة قيقظهم فقلما يتكامل العدد قط » ويستمر في حديثه قائلاً بان مدير اى مصنع لا يهتم ان تزيد اجور العمال او تنقص كما لا يهتمه توفر المواد الضرورية في المصنع او عدم توفرها ، فكل ما يشغل باله انما هو مرتبته وتفادى توجيه اللوم اليه ، كما ان العامل لا يلقي اى تشجيع لذلك يستوى لديه ان يؤدي عمله اداءً حسناً او سيئاً ، يذهب الى عمله فاتر الهممة وكل ما يعنيه ان يقترب الليل حتى يغادر المصنع .

وفي راي لوتسكى (٢) ان سياسة التصنيع الجديدة عملت على خلق طبقتين متناقضتين ، طبقة متضررة تتمثل في البروليتاريا الصناعية وطبقة مستفيدة منها تتمثل في الطبقة التجارية التي كانت

(١) المصدر السابق ص ٧٣٤ .

(٢) لوتسكى - تاريخ الاقطار العربية الحديث ترجمة دكتور

عفيفة البسماوى ص ٦١ ، ٦٢ .

ملتزمة ابتياع البضائع المحتكرة بالجملة وجباية الضرائب ، يقول لوتسكى : « وكنتيجة لانتشاء عهد كامل من المشاريع الصناعية الكبيرة والمتقدمة بالنسبة لذلك العهد ، ظهرت لأول مرة في مصر البروليتاريا الصناعية » .

وكان العمال المصريون يعيشون في ظروف صعبة جدا عن اخوانهم الاوربيين ، وكان المصنع المصري بتنظيمه الداخلى يذكّر الى درجة ما بالعمل اليدوى الاقطاعى وحتى بالقوى العسكرية ذات النظام الحديدى . وكان العمال المرتبطون بالمصانع منظمين في فصائل وسرايا وكثائب وهم يخضعون الى امراء وملزومين باجراء التمارين العسكرية بعد الانتهاء من العمل وكانوا يعيشون في الككنات ويعملون في الككنات ويعملون في المصانع نتيجة التجنيد الاجبارى ويستلمون اجورا زهيدة ، وتشير معطيات ميزانية عام ١٨٣٢ الى ان مصروفات الجيش كانت قد بلغت ٢٨ مليون فرنك ونفقات محمد على الشخصية ٣٥ مليون بينما دفع لنفقات المصانع واجور العمال ٢٧٥ مليون فرنك لا أكثر

وفي الوقت الذى كانت فيه الاحتكارات تحكم على الفلاحين والحرفيين بالجوع ، كانت تدر بايرادات طائلة على الحكومة المصرية متيححة لها امكانية تشكيل جيش جديد ، كما اغنت التجار الذين التزموا ابتياع البضائع المحتكرة بالجملة وجباية الضرائب .

واصبح الكثيرون من الفلاحين والحرفيين غير قادرين على تحمل الظلم الظالم فتمردوا ولاذوا بالفرار الى سوريا المجاورة الا أن الحكومة المصرية تمكنت من استعادتهم .

في نظرى انه يجب ان نأخذ آراء لوتسكى بكثير من الحذر حيث فراه يبالغ حينما يقول بان مصروفات الجيش ونفقات محمد على تفوق بكثير ما كان ينفقه على المصانع واجور العمال ، صحيح ان حكمه كان مطلقا وهذا عيب كبير في سياسته لكن الدافع الذى دفعه الى اللجوء الى مثل هذه السياسة هو عهدهم وعى الشعب المصرى . بالخدمة الوطنية ونفوره من الاصلاحات .

أما عن الاحتكارات فقد رأى فيها خير وسيلة لتحتين نظام اقتصادى متطور يفتح له بابا جديدا للربح ولم يكن يهدف أبدا إلى تجويع الشعب المصرى وشراء الطبقة التجارية باعتبارها الطبقة الوحيدة التى استفادت من الاحتكارات ، وقد رأينا أن محمد على أنفق كل ما فى الخزينة من أموال بهدف إنشاء المصانع باعتبارها الطريق الوحيد الذى يوصل إلى التقدم والرقى الذى تشهده الدول الأوروبية ففى رأى محمد على أن الشعب الذى يريد الثراء يتعين عليه أن ينتج بنفسه كل ما هو فى حاجة إليه حتى يستغنى عن الواردات الأجنبية .

أما محمد فؤاد شكرى (١) فيقول بأن السياسة الجديدة عادت على المصريين بمكانة رفيعة ومكاسب مادية ولكنهم لم يرتقوا إلى مستوى الفهم لأفكار خدمة الوطن ، ومع ذلك فإن تعزيز اقتصاد البلاد ومبادرات محمد على الثقافية وسياسته التوسعية الفاجحة وما إلى ذلك قد غرست فى أفئدة أنصار الجديد الفزيهين الذين كانوا يتميزون باتساع مداركهم بالنسبة إلى عصرهم والذين لا شك فى أنهم كانوا لا يزالون قلة ، غرست فيهم بذور الوطنية المصرية التى سرعان ما انتجت بولاكير الذريعة القومية .

على أى حال ، جنت مصر من وجود الأوربيين أجل الفوائد ، وليس الأضر مقصورا على ما أتوه من خدمات مباشرة بما لديهم من علم ودراسة ، فإن المأمم الواسع بجميع ما أدخل من ضروب الإصلاح ، أشاع نوعا من التسامح إزاء تلك الآراء التى أخذ أثرها يفتش انتشارا سريعا بين الشعب .

ومحذويع أنه كان عن النتائج التى أسفر عنها إنتشار العلم والخبرة بالآلات بين المصريين أنهم أخذوا يعتقدون أنهم أصبحوا فى غنى عن مساعدة الفرنجة وأن ما تعلموه منهم كان لتمكينهم من السير وحدهم وأن شيئا قط لا يمكن أن يعوق تقدمهم المطرد ولكن ليس هناك ما هو أوهى أساسا من هذه الفكرة ، ذلك بأنه على الرغم من نشوء

(١) حذّور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٨ .

طبقة من العمال تستطيع ان تدير المصانع الهامة تحت اشراف الاوربيين فان حل ما تم سوف يسرع لئيه الخراب والدمار اذا تركوا وشأنهم ، وقد أجريت هذه التجربة في كثير من المصانع انتهت بنتائج وخيمة ذلك بانهم لم يستطيعوا احراز ما تتطلبه الادارة من كفاية واستعداد ، فذهب ذكاء ولديهم استعداد للعمل تحت اشراف من يفوقهم علما ومعرفة ولكنهم يفتقرون افتقارا شديدا الى تلك التفوق العلمى الذى تستلزمه ادارة المشروعات الكبرى ادارة رشيدة .

على كل ، فقد نتج عن الاصلاحات حدوث تغيير فى الآراء المألوفة ويتمثل ذلك فى الموقف الجديد من الفلاح ولذى نجده عند محمد على بحيث أمر المدير العام للمانيفاتورات بتحسين معاملته : « لا ينبغي الاستهانة بالفلاح كما لو كان عدوا ، فاننا كلنا مدينين برفاهيتنا للفلاح وحده ، ولذا ينبغي توفير اسباب الراحة له ورفع اجوره كي يعمل برضى » (١) .

ومحمد على باعرايه عن رايه هذا يبدو انه كان فى مستوى ارقى من مستوى الاقطاعيين المصريين بل وغير المصريين .

وقد ترتب على الاصلاحات ان انجذب الى التعليم الفلاحون والحرفيون فقد كانوا يوفدون الى الخارج للتعليم وكانوا يقبلون فى المدارس فتشكل من بينهم جيش وأسطول حديثان ، وهكذا اتجه العمالة الى المعارف وان كان ذلك على غير ارادتهم .

الصناعة المصرية بعد عصر محمد على

هبطت الصناعة المصرية كثيرا بعد وفاة الالى نتيجة لتغيير الرسوم الجمركية واللى فتحت باب التجارة للمسلع الاجنبية التى غزت الاسواق ونافست الصناعة المحلية حتى قضيت عليها او كادت ، فتحوالت الصناعات

الكبيرة الى صناعات صغيرة ، وهجر العمال مصانع الدولة بعد اغلاقها
وشرعوا بنشئون مصانع صغيرة تفتقر الى رؤوس الاموال .

واستمر هذا الركود في عصر سعيد الذي اهتم بالانتاج الزراعى ،
وبتحسين حالة الفلاح ، والقضاء العبء عن اكتافه برفع الضرائب المتأخرة
عليه وزيادة حقوقه في ملكية الارض . وقد اعرض سعيد باتجاهه
هذا عن الصناعة ، فلم يهتم بها ، ولم يشجعها التشجيع الذى
يبعث فيها الحركة والنشاط .

.. واستمر ركود الصناعة المصرية في بدايات عصر اسماعيل ، ولكن
اسماعيل حاول محاولة ثانية النهوض بها ، وسلك في توجيهاته
طريقاً ساعدت على هذا النهوض ، بيد انه كان محصوراً في دائرة
ضيقة لم تسع كما كان الحال في عصر محمد على . فقد توسع اسماعيل
في زراعة قصب السكر بعد ان هبطت اسعار القطن بعد انتهاء الحرب
الاملاية الامريكية واقام المصانع بالوجه القبلى لصنع السكر وتكريره .
وبذل في بنائها واعدادها اموالا كثيرة ، وجلب لها المهندسين من الخارج ،
ودرب المصريين على ادارتها ، وقد ارتفعت كميات السكر المصدرة
الى الخارج ، غير ان الحكومة وجدت ان هذه المصانع تستدعى انفاق
الكثير من الاموال لانها كانت في طور الانشاء ، وكانت الازمة المالية
قد استحكمت ، فاضطرت الى الغاء كثير منها .

كما لجأ اسماعيل الى احياء كثير من الصناعات التى اندثرت
بعد وفاة محمد على كمصانع دبغ الجلود في الاسكندرية ومصانع
الورق ، الا ان هذا النشاط الذى دب في عصر اسماعيل ظل مقائراً
بالتعريفات الجمركية التى تركت الباب مفتوحاً للمنافسة الاجنبية ،
فقضى على الكثير من الصناعات .

وبعد عصر اسماعيل استمر ركود الصناعة ، حتى اذا ما جاء الاحتلال
البريطانى خضعت الصناعة للسياسة التى رسها الانجليز ، وهى
ان تظل مصر بلداً زراعياً وسوقاً للصناعات البريطانية (١) .

(١) دكتور أمين مصطفى عفيفى - تاريخ مصر الاقتصادية في العصر
الحديث - الانجلو ١٩٥١ ص ١٠٠ .

تطور الزراعة في مصر

في عصر محمد علي

في اواخر القرن الثامن عشر كانت الزراعة في مصر تسير على طريقة الالتزام ، وكان الالتزام عبارة عن ضيعة أو قرية أو عدة قرى تسلمها ادارة الروزنامة بالنيابة عن الحكومة لشخص ما ، بعدما تتفق معه على الثمن ، أو ان يتقدم باكبر عطاء اى بالمزايدة فيعجل الملتزم بدفع ضريبة الارض كلها أو بعضها على سنة أو أكثر ، في حين يتولى هو بنفسه جمع الضرائب من الفلاحين بمساعدة سلطات الحكومة وغالباً ما كانت توجه الروزنامة أيضاً خطاباً الى اعيان وسكان الضيعة تطلب فيها من الفلاحين طاعة الملتزم وان يدفعوا له قيمة الضرائب المحددة في شروط الخطة (١) .

وهكذا يتضح لنا أن ملكية الدولة للارض أصبحت خلال القرن الثامن عشر شكلية فقط ، اذ أصبح الالتزام في الظاهر شبيهاً بالملكية الخاصة ، وان لم يكن في الواقع للملتزمين سوى حق الانتفاع .

أما الفئة التي كانت تحتكر هذا النظام فهم بعض الموظفين الاتراك ومشايخ العرب بالصعيد الا انه في اواخر القرن الثامن عشر كان أكثر الالتزام يعطى لاعضاء من البيوت الموكية ، (٢) فازداد نفوذ هؤلاء وتفاوتت شؤكتهم وكثرت مظالمهم فادى جشعهم المتزايد الى الشطط في فرض الاتاوات وجباية الضرائب دون رقابة أو قيد أو ادنى حماية لحقوق الفلاح ، فغدوا بذلك اصحاب الحكم المطلق في اطار التزاماتهم .

هذا ولم تكن هناك قاعدة اساسية متبعة لتوزيع اراضي الالتزام بين الناس بالقسط ، بل كان الحق لمن كثرت ثروته وعظم جاهه واستطاع ان يقدم أكبر قسط من المال .

(١) دكتور عمر عبد العزيز - دراسات في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ص ١٨٧ .

(٢) دكتور عبد العزيز الدوري - المصدر السابق ص ١١٥ .

وبهذا انقسم الشعب المصرى الى فئتين ، فئة قليلة تمثل الطبقة الحاكمة وتتركب غالبا من المماليك والمتزمين الذين تركزت ثروة البلاد بيدهم ، وفئة عريضة تمثل الطبقة المحكومة ، وتتكون من أبناء الشعب المصرى وقد كانت هذه الطبقة الاخيرة تتألف من عدة فئات اجتماعية اذكر منها التى تهتمنا هنا بالخصوص وهى : طبقة الفلاحين .

وضعية المزارعين والزراعة قبل مجئ محمد على الى الحكم :

لقد كانت حالة المزارعين مزرية جدا نظرا لما كانوا عليه من الفقر والجهل والاضطهاد ، ولما عانوه من جراء نظام الالتزام الذى اصبحوا بموجبيه عبارة عن اداة سهلة بين أيدي المتزمين يسرونهم وفق ارادتهم .

أما حالة الزراعة فكانت هى الاخرى فى تدهور مستمر ، وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت الري والصرف تضمن استخدام مياه النيل وتوزيعها « (١) بصورة جيدة والاهمال دائما يؤدى الى الضياع ، وذلك ما حدث بالفعل ، فقد طفت الرمال وطمست كل ما تبقى من منشآت الري القديمة فجفت الترع والقنوات ، وانطمرت المجارى المائية الصغيرة (٢) فضاعت بضائعها واقتلفت مساحات شاسعة من الاراضى الصالحة للزراعة .

وهما يوضح لنا مدى أهمية هذه المجارى المائية هو ان أرض مصر الزراعية سقوية ، ففلاحتها اذن تتوقف بالخصوص على ميناء نيلها العظيم وعلى مدى وكيفية وطرق استخدام هذه المياه ، فكلما كان استخدامها جيدا كان الانتاج جيدا والعكس بالعكس .

ومما زاد الطين بلة حرمان اهل البلاد من حكومة منصفة تضمن لهم الاستقرار وترعى مصالحهم وتوطد لهم الامن ، اذ بانعدام هذا الاخير لا يمكن لامة ان تزدهر فى ظل الخوف ، فهو اذن شرط اساسى

(١) عبد الرحمن الافعى - المصدر السابق ص ٥٢ .

(٢) دكتور محمد فؤاد نكرى - المصدر السابق ص ٥ .

من شروط التقدم والرقى ، وهذا ما عبر عنه الدكتور عبد العزيز
الدورى بقوله : « وقاسى الفلاحون من عبث القبائل ومن تعديبات عصابات
لجنود الذين عجزت الادارة عن تمويلهم ففرضوا أنفسهم على العلاج
«الملتزم» (١) » .

وادام هذه الاوضاع المزرية والظروف القاسية لم تجد
لغالبية العظمى من الفلاحين بدا من الفرار من الظلم والهجرة الى البلدان
القريبة من مصر أو الى باقى مدن القطر وقد كانت النتيجة المحتمومة
لن اندثرت قرى بكاملها ، واقفرت من سكانها جهات كالفيوم التى
اشتهرت بخصب ارضها ووفرة خيراتها ، (٢) .

كل هذا حدث وعيون الحاكمين والمسؤولين غافلة عما يجرى فى البلاد
وعن الحالة المهيئة التى اصبحت عليها .

ويعصور لنا المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه « عجائب
الآثار ، حالة الفلاح المصرى فى اواخر القرن الثامن عشر نبتقول .
« كان اذا تأخر الفلاح فى دنع الضريبة جزوه من شنبه وبطحوه وضربوه
بالنبايت رجال الملتزم ، هذا عدا ما كان يراه من عسف الصراف النصرانى
من مماطلة فى استخراج ورقة الخلاص ، وكذلك الشاهد والشاويش الذين
كانوا يسومونه انواع العذاب ، فمن خلال تعبير الجبرتى هذا يتضح لنا
جليا الى اى حد بلغت سيطرة الطبقة الاقطاعية على الفلاحين . وبالتالي
يمكننا ان نستنتج دون عناء كيف سيكون رد فعل هؤلاء المزارعين الذين
يقومون بزراعة الارض رغما عنهم فطبعاً سيكون هنا المحصول ضئيلاً
جداً وذلك نظراً لمشاعر الفلاح واحساساته ، لأنه يعلم مسبقاً ان هذا المردود
سهما بلغ فان نصيبه منه لا يكاد يكفى حتى متطلباته اليومية ، بل كثيراً
ما امتدت يد الطغاة حتى الى هذا النصبب الضيل نفسه .

وفوق هذا وذلك فقد اثقل الملتزمون كاهل الفلاحين بالضرائب سواء
هنا المشروعة أو غير المشروعة والمفروضة أو الاختيارية .

(١) دكتور عبد العزيز الدورى - المصدر السابق ص ١١٦ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٥ .

فحتى « المضاف » و « البرانى » التى كانت فى بادىء الأمر ضرائب اضافية اصبحت بمرور الوقت تجبى بانتظام مع الضرائب المقررة (١) .
• أى بصفة رسمية اجبارية ونقدا - اذ فى الاول كانت تجبى عينا .

وكان الفلاحون فى الواقع مرتبطين بالارض وكان يقع على عاتقهم عبء ضرائب كبيرة كالعشر أو الخراج والضرائب مقابل استخدامهم للمراعى الصيفية والشتوية واستخدامهم أيضا للطواحين .

وهكذا ومن خلال كل ما تقدم نلاحظ أن وضعية الفلاح كانت وضعية يؤسف لها ، فهو لا يملك لا حق ملكية الارض ، ولا حق التصرف فيما تنتجه لها ، فهو لا يملك لا حق ملكية الارض ، ولا حق التصرف فيما

فانه كان مطاردا حتى وقت محاولته الفرار أو الهجرة الى حيث ترتاح نفسه ، وقد عانى فوق هذا وذلك من بعض مظاهر نظام الالتزام : كنظام السخرة داخل ارض الوسية « وقد استغلها الملتزم طوال احتفاظه بالالتزام لمساعدته على واجبات الالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وايواء المسافرين والموظفين وضيافتهم فى دائرة التزامه ، وكانت هذه الاراضى معفاة من الضرائب وفرض على فلاحى الجهة أن يعملوا فيها سخرة للملتزم بلا اجر ولا جزاء » .

فبعد أن قضى محمد على اذن على المالك خلا له الجور فبسط سيطرته على جميع الاراضى التى كانت يايديهم .

ثم التجأ الى حيلة ثانية من أجل الغاء الالتزام ذلك أنه قبل أن يكشف عن عزمه فى الغائه طلب من سائر الملتزمين أن « يقدموا له كشوفا بارباحهم من التزاماتهم وهى التى تسمى بالفائض أو فائض الالتزام فظنوا أن الغرض من هذا الطلب عزم الحكومة على زيادة الضريبة التى يلتزمون بدفعها للحكومة فانقصوا قيمة هذه الارباح جهد ما استطاعوا ، فاعتمد محمد على باشا على هذا الحساب » ، (٢) حيث منح للملتزمين

(١) دكتور عمر عبد العزيز - المصدر السابق ص ١٨٧ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على ص ٦٢٢ .

يولتب سنوية تُمنح لهم من إدارة الروزنامة تساوى مقدار ما كانوا يحصلون عليه من الاراضى الداخلية فى حوزة التزاماتهم واسترجع مقابل ذلك جميع الاراضى والاملاك الواسعة التى كانت تحت سيطرة الملتزمين ، معتبرا اياها ملكا له ولحكومتـه .

وان كان هذا العمل يدل على شىء فانما يدل فى الحقيقة على ذكاء ودهاء وعبقريـة محمد على فى تنفيذ مشاريعه ومخططاته بصورة محكمة .

ومما سبق يتضح لنا ان علاقة الفلاحين بالحكومة أصبحت مباشرة دون الاعتماد على الملتزمين وأن سلطة هؤلاء وحقوقهم قد آلت الى محمد على رغما عن انفسهم خصوصا بعد أن وزع منفعة هذه الاراضى على الفلاحين كأطيان مؤجرة وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة أو أربعة أو خمسة أفدنة ، وبهذا تحرر الفلاحون نوعا ما من رق الالتزام ومظاهره السيئة وحق لهم بعد وقت طال أن يقولوا للملتزمين : انتم ايش بقالكم فى البلاد قد انقضت أيامكم احنا صرنا فلاحين الباشا ، (١) .

وهنا يتبادر الى الذهن عدة اسئلة منها : ما موقف الملتزمين من هذا الاجراء ؟ ثم من المستفيد منه ؟ وبالتالى ما هو الهدف منه ايضا ؟ .

هنا سيكون رد فعل الملتزمين سلبيا بانطبع ، كرد فعل أى انسان حرم من أسباب النعمة فجأة كى يعيش عيشة التقشف والكفاف الشىء الذى لم يحلم به الملتزمون يوما ما ، وهذا ما يؤكدـه محمد فؤاد شكرى بقوله : وقد تصاح الملتزمون بالشكوى منذ البداية حين استعانوا ان الباشا بربد ابطال الالتزام والاستحواذ على الارض ، (٢) .

ولتبرير موقفه ، فقد استند محمد على فى دعواه الى قرار او فتوى تقول بأن مصر فتحت عنوة ولم تسلم او تخضع صلحا مما يترتب عليه أن تصبح الحكومة صاحبة الحق فى الملكية . (٣) فلا احد اذن سكر أن

(١) عبد الرحمن الجبرتى - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٣٠

(٣) نفسـه ص ٢٩ .

مصر فتحت بحد السيف شأنها شأن جميع ممتلكات الامبراطورية العثمانية الا ان هذه الحجة ليست قاطعة ، انما اراد محمد علي ان يسكت بها افواه المتزمين ويضع بالتالى حدا لصياحهم وشكاويهم .

ولقد كانت معارضة المتزمين بالوجه القبلى أشد ضراوة من الوجه البحرى نظرا لمكانتهم الاجتماعية ، ونفوذهم المرموق - فمعظمهم من سلالة المماليك ورؤساء العشائر - ولهذا لم يذعنوا الا تحت قوة السلاح .

اما المستفيد من هذا الاجراء أو النظام الجديد فهو محمد علي بالطبع لأنه استطاع أولا وقبل كل شيء أن يقضى على (الطبقة المالكة) آنذاك أى المتزمين ، هذا بالإضافة الى أن تلك الرواتب قد أصبحت ضئيلة اذا ما قورنت بما كانوا يحصلون عليه من قبل من التزاماتهم ، وبما أنها لم تكن وراثية أيضا فقد نقصت وتقلصت قيمتها بمرور الزمن نظرا لتقلص الحاصلين عليها . وعلاوة على هذا فإن بعض ملتزمى الوجه القبلى قد « حرموا من ميزة (الفائض) واضطر بعضهم الى الهجرة ، ونزع محمد علي أملاكهم وأضافها الى مجموع الاراضى الزراعية التى اعتبرها ملكا له ، (١) .

والجدير بالذكر أن الغاء الالتزام لم يمس الا طبقة معينة قليلة العدد أى الطبقة المسيطرة فقط ، لان مجموع الامة أو القادة الشعبية كانت تتألف فى غالبيتها العظمى من الفلاحين ومن باقى الفئات الدنيا الاخرى من أمثال الصناع والحرفيين وغيرهم .

وهناك بعض المؤرخين من أمثال الرافعى يرى « أن الغاء الالتزام مع عدم تقرير حق الملكية لا يمكن أن يعد اصلاحا ، بل هو أبعد ما يكون عن الإصلاح ، ويستشهد على ذلك بقول المسيو مانجان المؤرخ المعاصر وهو صديق لمحمد علي « أن التعديلات التى أدخلها الباشا فى نظام الملكية لم تكن متفقة مع الصالح العام ، فلا هو احترم الملكية الفردية ولا هو اعترف بها ... فالغاء الالتزام مع عدم انشاء الملكية الفردية معناه الغاء الملكية

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٢٥ .

وامتلاك الحكومة جميع الاراضى المزروعة ، (١) .

وعلى العموم فان هذا التغيير الجديد فى نظام الملكية لم يكن فى بادئ الامر مخالفا لنظام الالتزام ، الذى كان يسمح بحق الانتفاع مدى الحياة فقط دون السماح او الاعتراف بالملكية الفردية المطلقة لرقعة الارض المستغلة ، الا انه بعد سنة ١٨٤٢ بدأت الملكية العقارية تحت ظل محمد على تتخذ وجها آخر حيث بدأت تظهر هناك فئة محدودة العدد من الملاك الكبار استولت على اجود الاراضى الزراعية ، وقد كانت تتكون من الاسرة الحاكمة ومن الموظفين السامين الذين تفرغوا فى خدمتها ومن بعض الاثرياء ورؤساء القبائل .

وربما يرجع سبب تأخير ظهور هذا النوع من الملكية الفردية ، الى تانى محمد على ريثما يوطد اركان سلطته كى لا يثير القلاقل حوله ، او ربما انه ايضا لم يسمح فى بادئ الامر بتكوين ضياع خاصة حتى لا يؤدى ذلك الى قيام طبقة مالكة تتحدى سلطته ، (٢) .

ولهذا فهو لم يعترف بالملكية الخاصة الا بعد ان استتب له الامر فى الداخل والخارج وضمن لاسرته حكما وراثيا داخل مصر اثر معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ .

وأيا كان الامر فتبعنا لظهور هذا النوع من الملكية الفردية ، يمكن القول انه الى جانب استفادة محمد على من الغاء الالتزام ، فقد استفادت طبقة محظوظة أخرى من أمثال مشابيح البلاد وأعيانها وكبار الموظفين وفرداد الاسرة المالكية الذين كان يريد من وراء اختيارهم أن تدين له وحده بثرواتها وقوتها مستوحبا فى ذلك تجربة نابليون وبعض الحكام الأتوقراطيين المعاصرين . وهذه الطبقة الصاعدة هى التى سيزداد وضعها الاقتصادى والاجتماعى تحسنا يوما بعد يوم الى أن بدأت تتجه بالنظام الزراعى نحو الرأسمالية . وهى التى سيخلل معها المصريون ابان الثورة

(١) المصدر نفسه ص ٦٢٤ .

(٢) دكتور عمر عبد العزيز - المصدر السابق ص ١٩٣ .

العربية في مراجعة حاسمة ومعركة فاصلة ، نظرا لازدياد نفوذها وامتيازاتها ومشاركتها في شئون الحكم ، بل ومازرتها لكل حكومة جائزة تخضع مصالحها .

وقد كان هدف محمد على الاول والاخير من وراء الغاء الالتزام والسيطرة على كافة الاراضى هو احتكار جميع الموارد الاقتصادية والمواردات التى تغلها هذه الارض ولتسهيل هذه المهمة فقد قام محمد على بعملية هي :

مسح الاراضى وتنظيم الضرائب :

لما صار محمد على باشا المالك الوحيد لاجلبية الاراضى الزراعية (اراضى الالتزام - اراضى الوقف - بعض اراضى الأوسية) لأن بعضها الآخر اضطر محمد على أن يبقيه تحت ايدى عناصر معينة من الملتزمين وأن يسمح لهم باستثماره طيلة حياتهم دون ضريبة يؤدونها ثم ترجع ملكيته بعد مماتهم الى الحكومة وربما يرجع سبب اتخاذه هذا الاجراء الى اقبال بعض الملتزمين على وقف اطيان الوسية حتى لا يحرم خلفهم من ريعها ماداموا لا يملكون سوى حق منفعتها فقط ، قام بمسح هذه الاراضى كلها « وذلك هو (التاريخ) المشهور الذى بدأ بعمله سنة ١٨١٣ وعهد به الى ابنه ابراهيم بك (باشا) ومعه المعلم غالى بصفته رئيس المساحين ، وتعد دفاتر التاريخ التى أمر محمد على بوضعها من أهم أعماله العمرانية وفيها مساحة اطيان القطر المصرى المزروعة وحدود كل اطيان البلاد وأحواضها ومساحة كل بلد ومساحة الاراضى المستعملة للمنافع العمومية كالترع والجسور والطرق والمدافن » (١) .

وقد كان هدف محمد على من هذا المسح هو أولا تثبيت صحة ملكية كل ارض ، ثانيا مصادرة كل قطعة وجد ادلتها بمنفعة أو مشبوهة أو غير كافية . وبعد هذا قام محمد على « باعادة تسجيل الارض باسم أهل القرية وجعلهم مسئولين عن دفع الضرائب للحكومة مباشر » (٢) .

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٢٦ .
(٢) دكتور عبد العزيز الدورى - المصدر السابق ص ١١٦ .

ومن هنا يتضح لنا أيضا أن هدف محمد على الثالث هو تسهيل مهمة جمع الضرائب ، إذ أنه لم يكن لها قبل عهده أى أساس ثابت ، ولهذا فبعد أن راجع هذا النظام ، واعد النظر في شأنه فرض ضرائب جديدة ، وصار الفلاحون اثرها يتعاملون مع الحكومة مباشرة ، وهكذا أخذوا يعرفون على الأقل ما عليهم أن يدفعوه لها من مال سنويا .

وقد « منح مشايخ البلاد عن كل مائة فدان من زمام البلد خمسة أفدنة لا يدفعون عنها ضريبة مقابيل ختماتهم للحكومة وإيواء من يحضر اليهم من الموظفين ، وقد سميت هذه الاطيان (مسموح المشايخ) أو مسموح المصطبة ، على أن معظم هؤلاء المشايخ ساءت تصرفاتهم واستبدوا بتسخير الفلاحين في خدمة اراضيهم وكثرت شكاوى الناس منهم » .

ومسموح المشايخ هذا كثير الشبهة بالاروسية ، الا أن أرض الوسية كانت خدمتها واجبة على الفلاح طبقا لنظام السخرة على حين أن تسخيره اليوم بعد الغاء الالتزام يعد أكثر جورا وظلما .

وقد رتب محمد على الضرائب تبعا لقيمة ونوع كل مساحة ، وبمدى قربها أو بعدها عن نهر النيل ، هذا مع مراعاة العوامل الجغرافية والطبيعية والبشرية أيضا . وهكذا جعل لكل فدان أو قطعة ضريبة خاصة ومحدودة .

وقد كان في البداية « يستشير العلماء فيما يفرضه من ضرائب (١) ، الا أنه لم يحترم هذه المبادئ ، اذ بمجرد أن تخلص من نفوذ العلماء وخصيصا السيد عمر مكرم ، خول لنفسه السماح بفرض ما يشاء من الضرائب والاتاوات كلما شعر بأزمة مالية . وكم كان احتياجه الى المال كبيرا نظرا لكثرة حملاته وحروبه في الخارج واصلاحاته العمرانية في الداخل ، وباسم هذه الظروف وباسم هذه الازمة الاقتصادية أيضا كان يعدل من سعر الضرائب من حين لآخر قصد الزيادة في قيمتها .

وقد كان لنظام الضرائب عواقب وخيمة على الزراعة والزراع ، حيث هرب كثير من الفلاحين فأخلوا قري بأكملها نتيجة لتراكم الضرائب عليهم

(١) عبد الرحمن الراجحي - المصدر السابق ص ٦٢٧ .

وبالتالى عجزهم المستمر عن اداؤها . وللعالجة الموقف فكر محمد على في ايجاد حل له وذلك بفرضه « نظام العهد » ، وذلك أنه عهد الى بعض لاعيان والمأمورين ورجال الجهادية أن يكون في (عهدهم) جباية ضرائب بلاد بأكملها ، على أن يكونوا مسئولين عن الدفع من مالهم الخاص اذا لم يجبوها على أن مركز الفلاح ازاء (المتعهد) لم يكن مما يغبط عليه لأن المتعهد بما التزم به من اداء الضريبة كان يسخر الفلاح لاطماعه لأنه يعتبر نفسه كالدائن الذى يسدد عنه دينه ، ومما لا شك فيه أن هذا النظام الجديد لا يخلو من مخلفات ورواسب الالتزام وذلك لما للنظامين من أوجه الشبه .

ومما سبق يتضح لنا أن الحكومة قد زادت من تعميق شقاء الفلاح وظلمه لا لشيء الا لأنه لا يملك مالا وليس من الاثرياء . وياليت شقاءه وقف عند هذا الحد ، بل لم يكن له حتى حق الهجرة ، وهو ادنى ما يمكن للانسان أن يفعله للهروب من الجور والتعاسة ان ضاق به الحال .

وهذا ما أكده عبد الرحمن الرافعي نفسه بقوله « وكانت الحكومة ملزمة اذا هجر الفلاحون بلادهم أن تعيدهم اليها حتى يستوفى الميعاد منهم ما دفعه عنهم وفي هذا من مطاردة الناس وارهاقهم ما لا يغيب عن البال (١) فبدلا من أن نمد لهم الحكومة - تلك الحكومة التي كانوا بالامس القريب يدعمونها بكل الوسائل وبشتى الطرق يد الرحمة والمساعدة وتخرجهم من محنتهم منها هي اليوم وبكل ما اوتيت من قوة تقتكر لهم ، وتساهم بدورها في زيادة عذابهم ، وحرمانهم . والحديث عن الضرائب يطول اذ لم تكن في عهد محمد على تشمل الاراضى المزروعة فقط ، بل لقد كانت هناك ضرائب أخرى زادت من شقاء الطبقة الكادحة كضريبة الدخل أو الضرائب المفروضة على المواشى ، وقوارب النقل والصيد بل حتى على بعض الأشجار وكالنجيل .

(١) عبد الرحمن الرافعي - المصدر السابق ص ٦٢٩ .

وضعية الفلاح في ظل حكم محمد علي :

على ضوء كل ما سبق نستنتج ما يلي : أن وضعية الفلاح بالمقارنة لما كانت عليه أيام حكم الامراء المماليك لم تتغير تغيرا جذريا ، وانما كان التغير الذي طرأ عليها طفيفا للغاية .

وهذا للتغير الطفيف تجلى بوضوح في سياسة التجنيد ، لأن نوع واسلوب الحياة ظل تقريبا كما كان عليه أيام المماليك حتى اليوم الذي استحدث فيه محمد علي سياسة تجنيد قوات أسطوله وجيشه الجديدين من بين صفوف الفلاحين .

وقد كان لهذه السياسة الجديدة المتعلقة بتجنيد الاهالي أثر بالغ الامة على حياة الفلاحين ، حيث أنهم وجدوا عاملا ومبررا آخر للهجرة الى جانب العامل الاول المتمثل في فداحة الضرائب وقسوة الحكام - وهو ذراهم ثانيا من الانخراط في الخدمة العسكرية .

واذا كنا نعلم أن الخدمة العسكرية واجب وطني مقدس يجب على كل مواطن حر ابي يقوم به ، فاننا ولا شك سنتعجب من هروب المصريين ومن اتباعهم لساليب كثيرة ومتنوعة للتهرب من التجنيد ، وخاصة الفلاحين منهم اذ كان يهجرون بيوتهم أو وطنهم أو قراهم ، بل لقد بلغ بهم الحال الى حد تشويه اجسادهم على أن يخضعوا ويستسلموا لعنف محمد علي وينخرطوا في الجندية .

لكن لا غرابة ولا ملامة في ذلك اذا كنا نعلم ايضا ان « الرشوة والمحسوبية كانت توفر للاثرياء أو ذوي النفوذ فرصا لشراء اعفائهم من التجنيد ، (١) وكان التجنيد هنا ليس بواجب وطني ، وانما هو امر مقصور فقط على طبقة الفلاحين وكافة الطبقات الكادحة ، أي التي لا تستطيع

(١) دكتور ه . ريفلين - الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن ١٩ ترجمة دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٢٩٤ .

تقديم أى بدل نقدى مقابل اعفائها من هذه المهمة . هذا بالإضافة الى الطريقة التى كان يجمع بها هؤلاء .

وهذا ما عبر عنه الجنرال بوليه Boyer أيضا سنة ١٨٢٦ بقوله : « أن وادى النيل هو وادى للصفوة وإن عددا كبيرا من الفلاحين يهاجرون الى سوريا ، وهو الشئ الذى أثر بصورة سلبية على النشاط الزراعى » .

وقد كان والى عكا عبد الله باشا يمنح هؤلاء اللاجئين المصريين ارضا بعد ما حرموا منها داخل وطنهم الأب ويعفيهم من مهمة اداء الضرائب لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات أو أكثر .

وقد طالب محمد على بعودة هؤلاء الفلاحين الفارين الى مصر ، لا حبا فى رجوعهم الى وطنهم وديارهم ، بل لازدياد حاجته الملحة اليهم اذ أنه وجد فى يوليو عام ١٨٣١ أن ربع اراضى الصعيد تقريبا يتعذر زرعها لعدم وفرة العدد اللازم والكافى من اليد العاملة فى هذا الميدان .

فما كان عليه والحالة هذه الا أن يصدر أوامره الصارمة الى بعض موظفى حكومته بمحاصرة جميع الفلاحين الهاربين الى مدينة الاسكندرية وارغامهم بالقوة على العودة الى قراهم تحت حراسة مشددة « أما أولئك الذين لم تكن لهم قرى أو أقارب فكانوا يجندون فى الجيش أو الاسطول أو الورش » . هذا اتخذ الباشا من هجرة الفلاحين الى سوريا ذريعة لغزوها فبما بعد .

وتذكر الدكتورة هلين أن نفور الفلاحين من الخدمة العسكرية قد بلغ مداه حتى أن الامهات على حد تعبيرها كن يشوهن أطفالهن حتى لا يجبرون على التجنيد (١) .

هذا والى جانب عامل الهجرة وعدم الاستقرار والاضطهاد المستمر ، فإن الفلاح المصرى لم يستفد أيضا من الاصلاحات الضخمة والتغبرات

(١) المصدر السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

التي أدخلها محمد علي على الميدان الزراعي بالقدر الذي استغانت منه الحكومة .

فإذا كانت الاراضي قد اقتزعت فعلا من يد عدد كبير من الملتزمين ، فلكي تصبح أخيرا في قبضة ملتزم واحد وهو الباشا ، الذي كان يتصرف فيها كيفما شاء ويسلمها لمن شاء دون أدنى قيد أو رقابة ، حيث بلغت المساحة المعفاة من الضرائب على عهده خلال سنة ١٨٤٤ ، ١٢٠٥٥٩ر ١٢٠٥٥٩ فدان وهي موزعة كالتالي :

الأشخاص المالكين لها	مساحة الاراضي بالفدان
محمد علي	١٢٠٥٥٩
ابنه اسماعيل	٩٨٠٠٠
أفراد أسرة الوالي	٧٥٠٠٠
الضباط الاقتراك وكبار الموظفين والمحاسبين	٢١٢٥٥٩
المجموع	١٢٠٥٥٩ر ١٢٠٥٥٩

وهكذا يتضح لنا أن التغييرات التي استحدثتها محمد علي في حياة الاراضي الزراعية لم تكن اصلاحات حقيقية ، لأنه استولى على الارض من المجموعات المالكة السابقة ، وأعاد توزيعها على مؤيدي واتباع النظام الجديد ، وبهذا اذن كان نظامه الجديد قريب الشبه بنظام الالتزام الذي الغاه من قبل (١) .

وهكذا استغانت فئة قليلة العدد ، أما الطبقة الكادحة من المزارعين فقد بقيت وضعيتها هي هي ، فكما كان الفلاح بالامس القريب يعاني من نظام الالتزام وقواعده الجائرة ، فما هو اليوم في ظل حكم محمد علي يعاني أيضا من سوء تصرف الحكام والمسؤولين ومن فداحة الضرائب والقروض .

(١) دكتور عمر عبد العزيز - المصدر السابق ص ١٩٥ .

وعلاوة على حرمانه من حق ملكية الارض فقد حرم كذلك من حقه فيما تغله ، اللهم الا ذلك النذر اليسير الذى كان لا يكتفى حتى لسد حاجاته ومقتطلباته اليومية نتيجة مساوىء الاحتكار .

ومما يؤكد كل هذا هو وصف المسير مانجان لحالة الفلاح فى ذلك العهد بقوله : « اذا صبح أنه لا يوجد فى العالم بلاد اغنى من مصر من الوجهة الزراعية فليس ثمة بلاد أخرى أتعس منها سكانا ، واذا بقى فيها العدد الذى بها من السكان (سنة ١٨٣٢) فالفضل فى ذلك انما يرجع الى خصوبة ارضها وقناعة فلاحها » (١) .

تطوير منشآت الري :

تأتى مياه النيل فى فصل الفيضان كل عام غزيرة متدفقة وتنساب الى البحر دون حاجز يحجزها او أدنى انتقاع بها ، وهى فى طريقها اليه قد تسبب فى اتلاف المحصولات وهلاك النسل ، بل غالبا ما كانت تكاد تصيب البلاد بالغرق ، ولهذا كانت تهدد القرى والمدن وتزرع الرعب فى قلوب الاهالى ، فى حين انها تأتى فى فصل الصيف من الشحة لدرجة أن الزراعات القائمة قد تحتاج ولو الى قطرة واحدة منها فلا تجدها .

ومن هنا كان الاهتمام بمنشآت الري ومن هنا أيضا نشأت فكرة تشييد القناطر والجسور والخزانات والترع والسدود وغيرها من الوسائل التى من شأنها أن تحافظ على مياه النهر من الضياع . وقد نالت هذه المنشآت اهتمام المصريين القدماء الفراعنة والرومان وغيرهم ممن تعاقب على حكم مصر .

فحياة مصر اذن مرتبطة ارتباطا وثيقا بوادى النيل ودلتاه التى لا تتعدى مساحتها فى المجموع اربعة بالمائة من مساحة القطر المصرى . اذ كل ما يتبقى من الاراضى فهى عبارة عن صحارى جرداء ، الشئ الذى يجعل

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٦٨ .

من مناخ مصر مناخا جافا قليل الامطار شديد الحرارة ، وبهذا كانت هذه الظروف المناخية القاسية من أكبر دواعى الاعتناء بشبكة الري .

ومن الدوافع الاساسية التى جعلت محمد على يعتنى بشبكة الري . هو أن المساحة المزروعة كانت قد تقلصت بصورة ملحوظة قبيل توليه منصبة للحكم فحلت الصحارى محل المزروعات فى مناطق شاسعة ، فأدى ذلك الى تضعف اقتصاد البلاد نتيجة قدهور المردود ، هذا بالإضافة الى انخفاض النقل النهري كما ونوعا .

أما فى عصره فقد نال القطاع الفلاحى على يده عناية فائقة لم يسبق له أن نالها على يد من سبقه من الحكام المماليك .

هذا وإن كان الاعتناء بشبكة الري تراثا مصريا قديما قدم النيل فالجديد فى تلك الحقبة الزمنية هو التوسع الملموس لنوع متطور من التقنية ، ونعنى بذلك الشبكة العميقة التى تمكن من ازدهار الزراعات الصيفية .

ولم يكن غرض محمد على من الاهتمام بالزراعة وما يتعلق بها من وسائل الري تحسين أحوال الفلاحين والرفع من مستواهم المعاشى ، إنما كان يهدف من وراء ذلك الى جعل الانتاج الزراعى السلعى هو السائد على الانتاج الاكتفائى ، أما فيما يخص نمو السوق الداخلى للبلاد فقد جاء كنتيجة حتمية تابعة لهذه العملية فقط اذ وجهت المحصولات الزراعية الجديدة نحو التصدير طبقا لنظام الاحتكار . وهكذا خططت الزراعة المصرية خطوة سريعة نحو المستوى الانتاجى العالمى فى ذلك العصر الذى بدأ فيه تقدم تقنى آخر وهو إيصال الماء أو صرفة بواسطة الترعى والجسور أو السواقى أو الرفع من مستواه عن طريق بناء وتشبيد القنوات سواء منها الصغرى أو الكبرى .

السدود في عهد محمد علي :

لقد أنشأ الشعب المصري في ظل محمد علي عدة جسور منها :

- السدود التي تم انشاؤها على شاطئ النيل من جبل السلسلة الى البحر المتوسط والتي كان الغرض منها حجز مياه النيل في مجراها الطبيعي حتى لا تطفى على الضفتين فتسبب الخسائر للناس .

- السدود التي تم انشاؤها على الحياض ، والتي كان الغرض منها صد الامواج عنها .

- وأخيرا السدود التي أقيمت على الترع ، اذ كان لكل ترعة من تلك الترع جسران لحفظ مياهها .

الترع :

لقد شقت في عهد محمد علي ترع كثيرة في سائر المديريات سواء في الوجه البحري أو القبلي ، وقد كان الباشا يعنى بتطهيرها والحفاظ عليها بالترميم من حين لآخر . وهناك من يقدر هذه الترع بأربعين ترعة منها الكبيرة مثل الفرعونية وترعة المحمدية ، ومنها للصغيرة كترعة الشنهوربة أو ترعة الرمادى .

سد ترعة الفرعونية :

يتفق كل من عبد الرحمن الرافعى ومحمد فؤاد شكرى على أن سد الفرعونية كان من أول أعمال محمد علي والسبب في ذلك أن المياه كانت تتسرب من هذه الترعة أثناء الصيف الى فرع رشيد فيجف فرع دمياط وتقل مياه العذبة نتيجة لذلك فتطفى عليه بالتالى مياه البحر التي تختلط ملوحتها بما تبقى بهذا الفرع من مياه فتفسدها وتجعلها غير صالحة للزراعة . ولو فكر الاهالى في اقامة سدود ترابية على النيل لمنع مياه البحر الملحة من دخول فرع دمياط لهان عليهم الأمر ، ولكن هذا لم يكن شائعا عندهم فكانت النتيجة المحتومة ان تضررت محصولات الارز بهذه الجهات بعدما حرمت من مياه الري العذب « وقد شكوا أهلها على توالى السنين ما

تجلبه عليهم هذه التربة من المصار ، « (١) ولهبذا صدر أمر من طرف الباشا لاجلقتها في عام ١٨٠٥ بسد منيع من الحجارة ليحجز تدفق مياه فرع دمياط الى فرع رشيد .

وقد تابع اهتمامه به فكان يتعهد بالترميم كلما دعت الضرورة ، واقام ترعا أخرى كي تعوض جهات البحيرة ما كان يصلها من ماء من ترعة الفرعونية قبل اغلقتها .

هذا وقد افاد سد قم الفرعونية افادة كبيرة في زراعة محصول الارز الذي كان متقدما بالدقيلية ودمياط والذي كان محصولا تصديرية منذ العهد العثماني .

شقي ترعة الحمودية :

كانت رغبة محمد علي في الحصول على الاموال هي التي جعلته يفكر بجدية في الاستفادة من مركز مصر الجغرافي وموقعها الاستراتيجي الهام ، فأراد بذلك احياء طريق التجارة بين مدينة الاسكندرية وباقي مدن البلاد الداخلية لما في ذلك من أرباح مهمة للخزينة ، فأمر بحفر ترعة الحمودية عام ١٨١٨ .

وترعة الحمودية هي ترعة الاسكندرية القديمة أو خليج الاشرفية ، نسبة الى الاسكندر المقدوني الذي قام بحفرها خلال القرن الرابع قبل الميلاد كي يمد مدينته الجديدة الاسكندرية بالمياه ، أو نسبة الى الملك الاشرف برسباي الذي أعاد حفرها . الا ان هذه التربة لم يلبث تراكم الردم بالرمال ان طمست معالمها من جديد « فجفت فكان لا يدخلها الماء في معظم السفن الا في وقت زيادة النيل ، ثم تجف باقى السنة ، وفي مدة زيادة النيل اى في شهر سبتمبر من كل سنة تصل مياهها الى الاسكندرية فيملا أهلها الصهاريج ليجدوا منها حاجتهم من الماء طول السنة وكان أهل الاسكندرية

(١) لمزيد من التفاصيل : انظر على شافعى بك - أعمال الخافع العامة الكبرى في عهد محمد على الكبير - الجمعية التاريخية ١٩٥٠ .

يحتفلون بمجيء مياه التربة وخزن الماء في الصهاريج ويبتهجون لذلك
ابتهاجا عظيما ، .

وهكذا انعزلت الاسكندرية وانحطت مكانتها التجارية القديمة وتقلص
عدد سكانها نتيجة لذلك ، فذهب الكثير من عمرائها كما فقدت تلك القيمة
التي كانت لها أيام حكم البطالمة ، اذ كانت عروس الدائن من غير منازع ،
ومركز تجارة العالم ، وقد بدأت في التأخر والاضمحلال منذ تحول طريق
تجارة الهند باكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ،
وزاد الفتح العثماني من تعميق هذا التأخر وبقي الحال على ما هو عليه
حتى عهد محمد علي الذي أعاد فتح ترعة المحمودية متخذا من قرية العطف
فتحة لها بعد أن كانت فيما مضى تأخذ مياهها من الرحمانية الواقعة على
النيل وتمر بين بحيرتي مريوط وأبو قير الى ن تصل الى الاسكندرية .

وقد تطلب حفر هذه التربة مجهودات جبارة ومتاعب كثيرة وضحايا
لا تحصى ، وفي هذا يقول عبد الرحمن الرافعي ما نصه « ويكفيك لتعرف مبلغ
الضحايا التي بذلت في هذا السبيل ما كتبه في هذا الصدد المسيو (مانجان)
الذي كان شاهداً عياناً لحوادث مصر في ذلك العصر ، فقد ذكر أنه مات من
الفلاحين الذين اشتغلوا في حفر ترعة المحمودية اثنا عشر ألفاً في مدة عشرة
أشهر وأن هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتي التربة تحت أكداس التراب الذي
كانوا يرفعونه من قاعها ، وقال أن معظمهم مات من قلة الزاد أو المؤونة أو
من الاعنات في العمل وكذلك من سوء المعاملة التي كانوا يلقونها من الجنود
القساة المنوط بهم حراستهم فقد كانوا يجبرونهم على العمل المهلك بدون
انقطاع ولا هوادة من الفجر الى الليل ، (١) .

وقد بلغ عدد المشتغلين في حفر هذه التربة ما يقرب من ٤٠٠.٠٠٠ من
الفلاحين جمعوا من مختلف المديرية ، ووصف لنا المؤرخ المصري الجبرتي
الكيفية البشعة واللا انسانية التي كانوا يجمعون بها من طرف المسئولين
في حوادث شهر شوال ١٢٣٤ هـ في (ربع عشرة) أي في ٦ أغسطس سنة

(١) عبد الرحمن الرافعي - المصدر السابق ص ٥٧٤ .

(م ٨ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

١٨١٩ حيث يقول : « وكان الباشا سافر الى جهة الاسكندرية بسبب ترعة الاشرفية ، وأمر حكام الجهات بالارياف بجمع الفلاحين للعمل فأخذوا في جمعهم فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المركب ، الشيء الذى يدل على أن هؤلاء الفلاحين لم يكونوا يذهبون عن طواعيه واختيار انما كانوا مجبرين على ذلك . وبهذا كانت الزراعة تتعطل ولا تجد من يقوم باعبائها ، لكن هذا لم يعف الفلاحين ولو مرة من تقديم المال للباشا اثر عودتهم لحقولهم وقت الحصاد ، بل بالاصانة الى ذلك المال كان عليهم أن يقدموا له كيلة قمح ومثلها من الفول وحمل بغير من التين . »

هكذا يتضح لنا أنه اذا كان الجندي المصرى هو الذى ساهم فى اعادة بناء دولة مصر بما حققه من انتصارات رائعة وبطولات فى الخارج رفعت من شأن مصر بين الامم ، فان الفلاح المصرى هو الاداة الاساسية واللبنه الصلبة التى ارتكز عليها بنيان صرح مصر ، هذا فى الوقت الذى ظلت فيه حقوقه مهضومة .

فحفر ترعة المحمودية اذن كان الثار التى كان وقودها الفلاح المصرى الصبور ، فى حين حملت التربة اسم السلطان العثمانى محمود الثانى تيمنا به ، وكأنه هو الذى ساهم بدمه وعرقه أو بفلذات كبده فى بنائها .

وقد كانت « جريدة الوقائع المصرية » هى الاخرى بدلا من ان تصف مجهودات الفلاحين وما يقع على عاتقهم من اعباء وما يبذلونه من جهد يفوق طاقتهم الجسمانية فى بناء القناطر والجسور ، وشق الترع ، وما يلاقونه من ظلم تكتفى آخر المطاف بنشر مقالات مزيفة ومشوهة للحتائق تصف فيها كفاح حكومة محمد على وسهرها المستمر على تقدم وعمران مصر . وفى هذا الصدد يقول ابراهيم عبده « والوقائع المصرية ... هى الميدان الفسيح لمدحه « اى الباشا » والثناء عليه ، وهكذا تعطى الوقائع المصرية بمقالاتها واخبارها صورة للحكومة العادلة القادرة المجددة ، (١) . »

(١) دكتور ابراهيم عبده تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ - ١٩٥١) ط ٣ القاهرة ص ٣٣ .

هذا ويبلغ طول ترعه الحمودية ٨٠٢٥٢ مترا ، اما نفقات حفرها فتقدر بـ ٣٠٠ ألف جنيه حسب تقدير كلوت بك ، واما المهندس السدي كلف بانجاز تصميم حفرها فهو المهندس الفرنسي كوست Coste . وقد ذكر الجبرتي انتهاء حفر الترعة في حوادث ربيع الاول سنة ١٢٣٥ هـ (ديسمبر ١٨١٩) وانهى ما كتبه بقوله : « ورجع المهندسون والفلاحون الى بلادهم بعدما هلك معظمهم » .

واحتفل بفتح الترعة لدخول مياه النيل الى الاسكندرية في ٢٤ يناير سنة ١٨٢٠ وذلك بمحضر الباشا وابنه ابراهيم وبعض اقربائه الآخرين .

ولم يكن هدف محمد علي من فتح هذه الترعة تسهيل الملاحة بين مختلف اقاليم القطر وجهة الاسكندرية ، او توفير الماء الكافي لاهالى تلك المنطقة فحسب ، وانما كان الباشا يريد على ما ذكره عبد الرحمن الرافعي « احياء الاراضى الزراعية في مديرية البحيرة » . وقد كانت هذه المنطقة قبل تشييد الترعة عبارة عن صحراء جرداء من منبع الى مصب الترعة ، لا يسودها اخضرار ولا يغبت فيها زرع ، الا انها سرعان ما تحولت بعد تدفق مياه النيل اليها ، فاخذت الحياة تدب في ارجائها طولا وعرضا .

وقد زار المارشال (مارمون) هذه الجهات سنة ١٨٣٤ فاستوقفه ما شاهده من الحقائق الغناء المنشأة بعد فتح ترعة الحمودية ، وكان يعرف حالة الاسكندرية وضواحيها مذ كان قومنداناً للتغر في عهد الحملة الفرنسية فاستطاع ان يدرك الفارق العظيم بين حالتها القديمة وما اوجدته الترعة بها من العمران والتقدم .

فمن خلال هذه الفقرة يتضح لنا انز انه بعدما لم يبق من الاسكندرية القديمة سوى الاسم اواخر القرن الثامن عشر والاطلال والخرائب ، اما آل انبيس سكانها من الفقر والحاجة ، تحولت فجأة بعهد فتح الترعة الى مدينية آهلة بالسكان مسترجعة بذلك نصيبها وعظمتها التى فقدتها منذ قرون خلت .

فمن ناحية المواصلات ، صارت السفن والبواخر المصرية المعدة للملاحة النهرية لا ينقطع جربانها ببن الاسكندرية ودمنهو وبعص المناطق الداخلية عبر هذه القرعة . وهي محملة بمختلف حاصلات البلاد فازدهرت حركة التجارة فتيحة لذلك ازدهارا عظيما ، واصبحت البضائع تصل في مامن من كل خطر من أخطار الملاحة .

أما من ناحية العمران ، فقد اتسعت رقعة المدينة وعمرت مساحات شاسعة وارضى كثيرة على جنابى القرعة ، هذه القرعة التي كانت سببا ايضا في رقى اقليم البحيرة واهياء راضيه اذ ساعدت مياهها على الاكثار من التشجير والحدائق والبساتين الغناء . ومما يؤكد هذا ما ذكره عبد الرحمن الرافعى بقوله : « فحيثما ذهبت تجد معالم العمران المترامى مداه وتلمح دلائل الحياة والنشاط والتقدم مرتسمة على كل ما يقع عليه نظرك من مشاهد الطبيعة والخلائق ، ، ويضيف قائلا وإذا سرحت الطرف في تلك المناظر البهجة فاذكر ان الفضل في ذلك العمران يرجع لمن حفروا بايديهم قرعة المحمودية وبذلوا مهجهم وارواحهم حتى جرى ماء النيل في تلك النواحي حاملا الى ... الناس ... عناصر الخصب والحياة ، (١) » .

ولم يكتف محمد على بانفساء الترع فحسب بل أقام عليها القناطر لضبط مياهها وضمان كيفية توزيعها على احسن وجه ، وقد تعددت هذه القناطر بتعدد الترع واهمها القنطرة الكبرى على بحر مويس بالزقازيق ذات العيون التسع ، لكنها لا تصل كلها الى مكانة القناطر الخيرية التي تعد بحق من اعظم منجزات ذلك العصر (وان كان انجازها لم يتم بصورة فعلية الا بعد ذلك) .

القناطر الخيرية :

لقد كان نظام الري المتبع حتى مجىء محمد على هو ري الحياض الذى يعتمد بالدرجة الاولى على مياه الفيضان . وبهذا كان لا يساعد

(١) على شافعى بك - المصدر السابق ص ٢٨ - ٣١ والرافعى ص ٥٧٦ .

على اقامة الزراعات الصيفية ولا يسمح بزراعة الارض الا مرة واحدة خلال السنة فقط ، وبهذا كانت الزراعة السائدة حتى ذلك الحين هي الزراعة الشتوية ، اما الصيفية فكانت لا تزرع الا على شواطئ النيل أو ضفاف الترع المتفرعة عنها

فعمل محمد على على ادخال نظام الري الصيفى تدريجيا وذلك بالاكثار من حفر الترع وتطهيرها مما كان يرسب في قاعها من الطمي كل سنة ، واقامة القناطر عليها .

هذا وقد كان لهذه القناطر نتائج جد هامة اذ سمحت بانتشار زراعة القطن على نطاق واسع بالوجه البحرى ، وغيره من الحاصلات الصيفية التى كانت تنمو نظرا لوفرة المياه لريها وقت الجفاف كزراعة الأرز وقصب السكر .

فلما رأى الباشا فوائد هذه القناطر أخذ يفكر فى وسيلة أخرى تمكنه من ايصال المياه اللازمة الى الاراضى المزروعة بالوجه البحرى أيام الجفاف ، فاقترح عليه المهندس الفرنسى لينان دى بلفون Linant de Bellefonds اقامة قناطر على فرعى النيل قرب تفرعهما .

والراجح ان مهندسى الحملة الفرنسية كانوا اول من خطرت ببالهم فكرة انشاء القناطر لحجز المياه للاستفادة منها فى رى الاراضى وقت الحاجة . وقد دون ذلك نابليون بونابرت فى مذكراته حيث قال : « انه لو اعطى لى الوقت الكافى لانشأت من الاعمال ما يكفل عدم ذهاب قطرة واحدة من مياه هذا النهر الى البحر دون ان تكون هذه المياه قد مرت من قبل بالارض حتى ترويتها وتهى لها قدرا موفورا من الخصب » (١) .

الا ان الاراء تختلف حول من يكون صاحب الفكرة الاولى فى انشاء القناطر ، فكلوت بك يرى فى كتاب (لمحة عامة الى مصر) انه من المقطوع به ان المهندسين الذين كانوا فى خدمة الباشا اطلعوه على

(١) على شافعى بك - المصدر السابق ص ٤٧ ود . فؤاد شكرى

المشروع الذى جال بحاطر مهندسى الحملة الفرنسية والابحاث العلمية
التي قاموا بها توطئة لتنفيذه .

في حين يرى لينان بافون انه لم يكن لدى محمد على اى علم او
دراسة بما قاله نابليون ، وهذا الراى كما يظهر يناقض ما اعترف به
كلوت بك واكده .

وسواء اكانت الفكرة من وحى محمد على حقا أم لم تكن ، فانه
على كل حال قد أصدر اوامره في أواخر عام ١٨٣٣ للبدء في العمل حسب
التصميم الذى قدمه (لينان باشا) كبير مهندسيه وبانى ومرمم قنطرتي
اللاهون القديمة وقنطرة بحر شبين ، الا ان العمل سرعان ما اوقف
بعد قليل وبقي على تلك الحالة حتى سنة ١٨٤٢ حينما استؤنف من جديد
تحت اشراف المسيو موجيل Mougél الذي قدم للبasha تصميمما
جديدا يختلف عن تصميم المسيو لينان الذى كان يرى اقامة القناطر على
الارض اليابسة بعيدا عن فرعى النيل ، واختار لتطبيق مشروعه
قطعتين بين ملتويين ملتويات من ملتويات فرعى النيل حتى اذا
تم انشاؤها حول الفرعين اليها بحفر مجريين جديدين .

اما مشروع موجيل فيقتضى اقامة القناطر مباشرة في حوض النهر
على القطعة التي بجانب قمة الدلتا المعروفة ببطن البقرة ، حيث يتفرع
فرعا النيل : الاول في اتجاه رشيد ، والثاني في اتجاه دمياط .

والحقيقة انه كان في التخلي عن مخطط لينان وهو العالم والعارف
بأحوال الري في مصر خسارة كبيرة على البلاد لا يمكن حصرها ليس فقط
من ناحية مصاريف اصلاح القناطر من حين لآخر او استبدالها ببذاء
قناطر أخرى جديدة على أحدث الطرق ، بل من ضباغ الفرصة على
مصر للاستفادة من زراعة القطن طويل التيلة ، هذا بالاضافة الى المتاعب
الكبرى اثناء عمليات حفر الاساسات وما يتبعها من مشقة وارهاق
للناس .

هذا وعلى الرغم من أن بعض الباحثين ادعوا أن بناء قناطر كبرى من هذا النوع يتطلب نفقات باهظة في حين تبقى فوائدها ومدى نجاحها أمرا يثير الاستفهام ، فإن القناطر قد اقيمت على النيل وعادت بالنفع العميم على البلاد واهلها ، وتم تنفيذ مشروع موجيل بمساعدة المهندسين المصريين المتخرجين من البعثات التعليمية مصطفى بهجت باشا ومظهر باشا .

ووضع محمد على الحجر الاساسى للقناطر الخيرية في احتفال عظيم يوم الجمعة ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ هـ - ٩ أبريل سنة ١٨٤٧ ، ولكن العمل كان قد بدا قبل ذلك التاريخ ، واستمر العمل في المشروع ولكنه سار ببطء شديد نظرا لما اعترى جهاز الحكومة من ركود أواخر ايام محمد على الذى مات قبل ان يتم المشروع الذى تقلب في عدة ادوار قبل أن يتم في اواخر عهد سعيد باشا عام ١٨٦١ ، وقد أنشئ رياح المنوفية ايضا في عهده (١) .

وبعد ان تم بناء القناطر وجد انها لم تأت مكتملة كما كان يرجى منها ، اذ حدث تصدع ببعض اجزائها ايام حكم اسماعيل فأدخلت عليها عدة اصلاحات طبقا لآراء موجيل وكان قد غادر مصر الى فرنسا - وبهجت باشا وهظهر باشا ثم اعيد اصلاحها مرة ثانية في العصر الحديث لتقويتها وقد رجعت الحكومة الى رأى موجيل في هذا الاصلاح . وجاء مصر وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من سنة تعيينه الحكومة مهندسا ومستشارا للقناطر ، فتم الترميم اذن وفقا لارشاداته ، وبهذا يكون موجيل قد عاصر القناطر منذ نشأتها حتى اتمام بنائها .

وقد بقبت القناطر الخيرية قائمة تشهد على قوة وصلابة ارادة الشعب المصرى وعزمه ، وقد نوه بعض الكتاب بقيمة هذه القناطر ، ومن هؤلاء المسيو تسيو (Chelu) كبير مهندسى السودان المصرى . والمسيو باروا ، السكرتير العام لوزارة الاشغال ، فنقل رئيسا عن

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٥٨١ .

المؤرخ عبد الرحمن الرافعي (١) ويقول المسيو شيلو : « أن مشروع القناطر الخيرية كان يعد في ذلك العهد انه اكبر اعمال الري في العالم قاطبة لان فن بناء القناطر على الانهار لم يكن بلغ من التقدم ما بلغه اليوم ، فاقامة القناطر الخيرية بوضعها وفخامتها كان يعد اقلاما بداخله شيء من المجازفة » .

وقال المسيو باروا (Baroa) : « أن هذه أول مرة اقيمت فيها قناطر كبرى من هذا النوع على نهر كبير » .

فعلى العموم وان كانت القناطر الخيرية آخر ما اختتم به محمد على منجزاته في ميدان الري ، فانها تعد بحق من عظم مشروعاته التي اقيمت في هذا المجال وهي بهذا احدى الاسس الهامة التي يعتمد عليها الري الصيفي بالوجه البحرى حيث ساهمت بقسط وافر في توفير الري الدائم لبعض المحصولات الصيفية كالقطن والارز وغيره ، الشيء الذى سمح بزيادة المساحة المزروعة زيادة ملحوظة ، وهذا ما كان محمد على يهدف للوصول اليه ، اذ قفزت من مليونى فدان في عام ١٨٢١ كما قدرها كلوت بك الى ٣٨٥٦٠٠٠ فدان عام ١٨٤٠ (٢) .

وقد كان الباشا حتى حدود عام ١٨٣٠ يفتخر بانه ادخل ٣٨٠٠٠ ساقية في اراضيه الخاصة ، وابتكر الكثير من الناس سواقي تدار بدون دواب واخرى تدار بقوة الهواء ، نظرا لقلة تكاليفها ، وقد استعمل ابراهيم باشا مضخات تدار بالبخار مما دفع ببعض الملاك الكبار الى تقليده في ذلك (١) . كما دخلت الدورة الثلاثية عام ١٨٣٣ ، وظهرت الآلات الزراعية الحديثة المستعملة في بعض المزارع النموذجية واقترن هذا ايضا بعملية انتقاء البذور الجيدة ، واستعمال الاسمدة المخصبة للأراضي ، واختبار مواسم الحصاد ، والعمل على الاحتياط

(١) المصدر السابق ص ٥٨٢ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٤٧ .

(٣) - دكتور أحمد الحنة تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد على .

الكبير - القاهرة دار المعارف ص ٢٧ .

من الافات والطفيليات التى تقضى على بعض المحصولات كدودة ورقة القطن أو الجراد ٠٠٠ الخ ، وتدعيم الارشاد الزراعى والتوعىة • وعلى العموم فقد ادت هذه الظروف الملائمة والشروط المتوفرة الى زيادة المحصولات الزراعية (٢) •

توسيع نطاق الزراعة

لقد اولى محمد على مجال الزراعة اهتماما بالغاً حيث عنى بهذا القطاع الحيوى عناية تستحق التقدير اذ عمل على ترقيتها وتوسيع نطاقاتها المحدودة وذلك بفضل ما ادخله عليها من تحسينات جذرية تستحق الذكر سواء فى مجال الري كما تقدم أو مجال تطوبر نوعية الانتاج أو المردود • وسنقتصر هنا على الحديث عن القطن •

اكتشاف القطن ذى التيلة الطويلة :

الى حدود سنة ١٨٢١ كان نوع القطن الذى تغله مصر من نوع ردىء وهو النوع الشائع ، الا انه خلال هذه السنة نفسها حدث انقلاب فى زراعته ، وذلك ان رجلاً فرنسيا يدعى جوميل كان محمد على قد استدعاه من بلاده لتنظيم مصانع النسيج ، عثر صدفة فى حديقة احد كبار الحكام وهو محو بك بالقاهرة على شجرة للقطن من الصنف الممتاز ذى التيلة الطويلة ، فنصح محمد على بتعميم زراعته على نطاق واسع بعدما كان زرع حكرى على الحدائق الخاصة ونبيه الى اهمية هذا النوع •

« وبتراوح ارتفاع هذه الشجرة بين ستة اقدام وسبعة وهى قادرة على الانتاج عدة سنوفات متوالية ويزرع القطن فى الربيع ويمتد موسم الحصاد من سبتمبر الى فبراير (١) • وقد كان اكتشاف القطن ذى التيلة الطويلة مهما جداً لمحمد على ولتنفيذ سياسته ، اذ اقترن هذا الاكتشاف بهبوط أسعار القمح فى الاسواق العالمية خلال

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٤٧ •

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٣١١ •

لفترة إمتدة ما بين ١٨١٨ و ١٨٢٠ الشىء الذى جعل محمد على حاجة ماسة الى الاموال التى يسدد بها كل ما تتطلبه البلاد من مشروع اصلاحية كبرى كتعبيد الطرق وتسديد نفقات التعليم والبعث — التعليمية المديرية التى ارسلها الى مختلف دول أوروبا واقتناء الآلات الزراعية والصناعية الحديثة وجلب الاسلحة المتطورة ، هذا بالاضافة الى منجزات الري الكبرى من شق الترع واقامة الجسور وبناء القنا وغيرها .

وقد كان الباشا يعي مدى خطورة هذا الوضع الاقتصادي ، و كان يتمنى ان يصنع القطن فى مصر البلاد المنتج عوضا عن ان يصير خاما للدول الاجنبية ، ثم يعود ثانية الى مصر منسوجات (٢) .

هذا وقد عمل محمد على على تشجيع زراعة القطن بك الوسائل وبشتى الطرق ، فشجعه باعفاء أرضه من ضريبة الميرى أولا برفع ثمن شرائه . وقد اشار عبد الرحمن الرافعى الى هذا بقوله : « وقد اقبل الفلاحون على زراعة القطن بعد ان راوا الحكومة تشتت القنطار من النوع الجيد بـ ١٧٥ قرشا . . . وشجعت الحكومة زراع القطن أيضا بهما أنشأته من السواقي فى القرى ، وبما فتحت من القنا وأقامت من القناطر والسدود ، فتوافرت مياه الري اللازمة لزراعته (٣) .

وهكذا فلم تكد تمض بضعة سنوات حتى انتشر هذا النوع القطن الممتاز فى كافة انحاء القطر المصرى وصار يعرف باسم قطن محدو بك ، نسبة الى صاحب الحديقة التى وجد بها أول مرة أو باسم قطن جومل Jumle نسبة الى مكتشفه .

وقد بلغ أول محصول من هذا القطن عشرين ألف بالة راجت سوء وائتت بربح كبير ، فاقبل الباشا على زراعته حتى بلغ محصه

(١) — دكتور أحمد عزت عبد الكريم — المصدر السابق ص ٢٤٩

(٢) — عبد الرحمن الرافعى — المصدر السابق ص ٥٨٥ .

هذا النوع من القطن في العام التالي مائتي ألف بالة حاست بايراد بلغ ثلاثين مليوناً من القروش .

وقد ارتفعت صادراته ووصلت الى ٢٠٠.٠٠٠ قنطار عام ١٨٢٤ ثم الى ٣٤٥.٠٠٠ قنطار عام ١٨٤٥ . ويقول المسيو مانجان ان الحكومة انقصت سعر مشتري القطن حوالى سنة ١٨٣٧ مما حدا بالفلاحين الى التراخي في زراعته و « علاوة على هذا فقد كان لعملية التجنيد آثارا وخيمة ايضا على محصول القطن ، وهذا ما عبر عنه محمد فؤاد شكرى بقوله : « غير ان محصول القطن الجديد لم يلبث ان اخذ يقل في الاعوام التالية لان الباشا أكثر من تجنيد الفلاحين في جيشه ، فقلت الايدى العاملة في الزراعة ونقص محصول القطن تبعا لذلك حتى بلغ (١٦٠.٠٠٠) بالة في عام ١٨٣١ ، (١) .

ولم يكتف محمد على بهذا النوع وحده ، انما جلب بذورا أخرى من الهند ، ثم من امريكا ، وهو قطن (سرايلاند) ومنذ ذلك الحين اخذ القطن المصرى ينافس قطن البنغال وامريكا وتهافتت على طلب شرائه الدول المصنعة وكافة مصانع النسيج في فرنسا وانجلترا . وقد احتكرت الحكومة بيعه طبقا لنظام الاحتكار الذى سبق ان اشترت اليه . هذا من جهة اما اذا اردنا ان نقيم مجهود وفضل محمد على على مصر في تطوير زراعة القطن ، فمن الواجب علينا ان ندرس اليوم وقد ابتعدنا عن الحقبة الازهرية التى عاش فيها محمد على باكثر من قرن وربع ، المرتبة التى وصل اليها هذا النوع اذ لا احد ينكر ان هذا الصنف اصبح معروفا في عالم التجارة بانه من اجود انواع القطن في العالم من حيث طول الاذيلة وقوة المقاومة ودرجة اللّمعان ، واذا علمنا هذا فلا غرابة اذن ان نعلم ايضا ان مصر اليوم تعد اول دولة منتجة لهذا النوع ، اذ يبلغ انتاجها نصف الانتاج العالمى ، ويمثل القطن بصفة عامة نصف الصادرات المصرية ، وبهذا فهو عماد ثروتها « وذهبها الابيض » كما يسميه البعض .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٣٨ .

الزراعة في مصر

بعد عصر محمد علي

تعتبر فترة حكم عباس وسعيد فترة هبوط مكملة للفترة التي انتكست فيها مصر بعد سنة ١٨٤٠ ، بالرغم مما نال الفلاح من زيادة في الحرية الاقتصادية بامتلاكه غلات الارض وزيادة حقوقه في التمليك وترقية وسائل الري .

وكان عصر اسماعيل مدرسة للأساليب الزراعية التي اصبحت نواة لسياسة زراعية لا تزال خطوطها الرئيسية واضحة الى الوقت الحاضر . كذلك شاهد عصر اسماعيل تقدما في النهضة الزراعية التي ظهرت في زيادة مساحة الاراضي القابلة للزراعة وفي زيادة الانتاج والعناية بالماشية وتقرير اساليب التفتيش الزراعي وفي توجيه التعليم الزراعي .

وقد شجع اسماعيل انشاء الحدائق ، وعلم الاهالي فلاحه لبساتين التي كانت ناقصة في البلاد ، وكذلك ادخل اشجار الفاكهة والزهور .

وقد ادى نجاح حقول تجارب فلاحه البساتين الى انشاء حدائق الجيزة (التي تعتبر الاورمان جزءا منها) وحدائق الجزيرة (التي بقي منها حدائق الاسماك والزهرية) وحديقة الازبكية ، وحديقة النزهة بالاسكندرية ، كما انشأ حديقة الحيوان في مصر وهي نواة حديقة الحيوان الحالية بالجيزة .

واستورد اسماعيل اشجار الموالح والعنب ، فانشأ في الجيزة حديقة الليمون ، وغرس بها اشجار البرتقال والعنب التي جلبها من قبرص وايطاليا واليونان وفرنسا ، واهتم باشجار الغابات وغرسها بالقرب من الاسكندرية في مساحة تبلغ ألف فدان ، كما غرس اشجارا في الطرق الزراعية .

وقد سببت العناية بالقطن والاهتمام بالغلات النقدية التي تدر المال على المزارعين انهم اهلوا علف الماشية ، فنقص عددها نقصا عظيما ،

كما سبب الطاعون الذى كان يتردد من آن لآخر زيادة الشعور بالنقص الكبير فى الماشية .

وفى سنة ١٨٦٤ حل اسماعيل هذه الازمة باستيراد الماشية من الخارج ، وبذلك انفرجت الازمة التى كانت تهدد البلاد والزراعة بالخراب .
عمد اسماعيل الى وضع اثمان هذه الماشية وتوزيعها على المزارعين بالتقسيط ، فسبب هذا ضيقا ماليا للحكومة يقابله نفع للاهالى .

أما فى بداية الاحتلال البريطانى لمصر ، فقد وجه الانجليز البلاد نحو سياسة زراعية خاصة تتمثل فى الاهتمام بالرى ووسائله وزراعة القطن الذى اهتم به الفلاح وزاد من انتاجه لانه اصبح المورد الذى يعتمد عليه دخله اعتمادا كلياً ، ووضع الانجليز سياسة خاصة تزيد من هذا الاهتمام ، فاشتروا من الفلاح محصول القطن بأسعار معقولة ، فاصبح لا يفكر فى تصريفه وتوزيعه والبحث عن أسواقه ، وبذلك فرضت هذه السياسة تبعية القطن امرى واسواقه لانجلترا وبخاصة اسواق لانشكير ومصانعها (١) .

التجارة المصرية فى عهد محمد على

اعتنق محمد على مبدأ السياسة التجارية
أى محاولة المحافظة على الذهب فى الداخل عن طريق الاقلال من الواردات والعمل على زيادة الصادرات . فالاستهلاك من أى سلعة = الانتاج + الاستيراد ، وكلما زاد الانتاج من هذه السلعة قل الاستيراد أى أن الباشا أراد أن يجعل الميزان التجارى دائما فى صالح مصر وذلك بان تكون قيمة الصادرات أكبر من قيمة الواردات . ثم تطور الامر الى سياسة لاحتكار ومراقبة الدولة تماما للتجارة الداخلية والخارجية ، وهذا النظام وان قلل من مكاسب الافراد فانه عاد بالنفع الكبير على الدولة .

(١) دكتور أمين مصطفى عفيقى عبد اللاه المصدر السابق ص ٦٣

ومنذ سنة ١٨١٠ بدأ محمد على في جمع الضرائب الزراعية عينا اى من المحصولات . فكان المزارعون يوردون كميات معينة من الغلات الزراعية الى (شوني) الحكومة . وكانت الحكومة تقرر تسعيرة تنظم بها المعاملات وتضبط حركة السوق ، كما كان مجلس الشورى يتولى تقدير تسعيرة الحكومة لكافة المحصولات .

وبطبيعة الحال ، كانت تسعيرة مشتريات الحكومة من الفلاحين اقل من التسعيرة التي تباع بها الحكومة للاهالى . هذا بالاضافة الى تسعيرة ثالثة تباع بها الحكومة للتجار والمصدرين ، وكانت بلا ريب اعلى من تباع بها الحكومة للتجار والمصدرين ، وكانت بلا ريب اعلى من التسعيرتين السابقتين . وبالتالي امتلأت الخزانة المصرية بالاموال كنتيجة لهذه السياسة .

واختص ديوان التجارة بوضع تسعيرة الصادرات وان كان المسيطر فعلا على هذا الديوان هو محمد على شخصيا . كما تولى الوكلاء التجاريون الذين عينهم محمد على البيع في موانئ الدول الكبرى .

وفي الفترة الاولى من حكم الباشا ، لم يكن هناك قانون لتنظيم ديور التجار ، وان كان الباشا قد شكل بعض اللجان للتحقيق في اسباب خسائر بعض التجار وعجزهم عن دفع ديونهم . وكان محمد على يتخذ اسلوبا حاسما مع المتلاعبين او المتهربين من دفع الضرائب ، اذ يتم القبض عليهم ، كما كان يقرر الجزاء بعد ثبوت التهمة وهو الحبس او الجلد والتعذيب ، وذلك مع الزام التاجر بدفع المبالغ المستحقة عليه . وقد يأمر الباشا ببيع ممتلكات التاجر ليوفى من ثمنها ما على التاجر من ديون ومستحقات .

اما المنازعات التي كانت تقوم بين التجار أنفسهم ، فكانت تعرض على مجالس التجار لدراستها ، ثم تفحص دفاتر التجار ، وتصدر الأوامر والاحكام حسب الأصول المرعية . وهناك عدة مجالس للتجار منها مجلس تجار المحروسة (القاهرة) ومجلس تجار دمياط ومجلس تجار الاسكندرية .

أما ديوان التجار الذى أنشأه الباشا بالاسكندرية سنة ١٨١٥ ، فإنه كان بمثابة همزة الوصل بين التجار والمصدرين والحكومة ، أو هو الادارة الحكومية التى يستطيع التجار أن يتعاقدوا معها لشراء الصفقات وبخاصة محصول القطن والقمح وغيرها من الغلات المصرية التى كانت تصدر الى الاسواق الخارجية ، ولهذا عد هذا الديون الادارة المختصة بحركة الصادرات للمصرية .

والواقع أن (الامبراطورية المصرية) فى عصر محمد على أفادت الباشا كثيرا لأنها كانت بمثابة السوق الواسعة للصادرات المصرية ، فهناك أسواق كريت والشام والحجاز واليمن والسودان ، كما أنه حصل على سلع خاصة من هذه الامبراطورية كالبن من اليمن والصوف والتيلة والاششاب والنصمغ والماشية من السودان والحريير والزيتون والاششاب من الشام والاغنام وزيت الزيتون من كريت .

ولم يتوقف ازدهار التجارة المصريه عند حد الامبراطورية المصرية ، بل امتد الى اسواق تركيا ، فقد توجهت الدولة العثمانية نفسها الى مصر لتحصل على ما تريد منها من انتاج زراعى وصناعى وحربى .

علاوة على ذلك ، فإنه تم تصدير القمح والارز والشعير والفلوالقطن والكتان والمواد المصنوعة الى الدول الكبرى فى العالم كانجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا . وفى المقابل استوردت مصر من هذه الدول الفحم والحديد والمصانع .

وفى جميع الاحوال كان الباشا حريصا على أن تكون قيمة الصادرات اكبر من قيمة الواردات . فكان الميزان التجارى دائما فى صالح مصر . وهذا دليل واضح على أن السياسة التى رسمها محمد على كانت ناجحة تماما . .

ولكن دول أوربا وعلى رأسها انجلترا كانت فى ذلك الوقت قد حققت ثورة صناعية كبرى ، وكانت محتاجة الى أسواق الشرق الأوسط ، وهذا 'والى يابى الا أن يطرد انجلترا من أسواقها السابقة ، مما جعل الرأسمالية

الانجليزية تصيق ذرعا وتشعر بمدى الخسائر التي وقعت لها على يد محمد علي . ولما كان للبasha يابى أن يخضع لأى ضغط انجليزى ، فان الانجليز ضفطوا على تركيا - صاحبة السيادة الشرعية على مصر - وعقدوا معها اتفاقية تجارية (بلطة ليما) سنة ١٨٣٨ تنص على معاملة بريطانيا معاملة خاصة ، وعلى إلغاء الاحتكارات ، وأن تكون الضرائب ١٢٪ على الصادرات و ٥٪ على اللوردات ، ولم يأبه محمد علي لهذه المعاهدة فى أول الأمر ، الا أنه فى أعقاب تسوية لندن ١٨٤٠ واتفاقية ١٨٤١ اضطر الى إلغاء الاحتكار على مراحل اعتبارا من ١٨٤٢ .

ونتيجة لسياسة إلغاء الاحتكار صدرت لائحة ١٨٤٥ لترتيب زراعة الاراضى بطريقة الاشتراك مع « الميرى » على أن يصبح للفلاح جزء من المحصول . ثم أصدرت الحكومة لائحة جديدة سنة ١٨٤٦ خاصة بامتلاك الأرض ، وهى اللائحة الاولى من لوائح تمليك الأرض فى مصر الحديثة ، وابتاحت هذه اللائحة حرية التعامل فى الاراضى التى يزرعها الفلاح ، فله أن يتنازل عنها لغيره أو يرهنها .

والواقع أن الانتاج الزراعى زاد فى هذه الفترة زيادة كبيرة لاسباب منها اطمئنان الفلاح على ما يمتلكه من أرض ، واستطاعته بيع محصولاته ، واهتمام الحكومة بشئون الري . وتحسن أسعار القطن ، وزيادة الانتاج الزراعى بزيادة مساحة الأرض المزروعة .

أما بعد عصر محمد علي ، وبالتحديد فى عصر اسماعيل فقد حدثت ثورة فى عالم النقل ، فانشئت السكك الحديدية ، وأسست شركات الملاحة ، وقد أثر ذلك كله على تجارة مصر الداخلية والخارجية .

الفصل الثالث

عصر اسماعيل

(م ٩ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

أدت الازمة الدولية التي اثارها النزاع بين محمد على والسلطان العثماني ، وتدخل أوربا بين الطرفين الى أن يفتهى الموقف بمعاهدة لندن في ١٥ مايو ١٨٤٠ ثم تسوية ١٨٤١ . وأصبحت مصر بذلك تحت السيادة الفعلية لتركيا حتى سنة ١٨٨٢ ، ثم تحت السيادة الشكلية منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٩١٤ وهو تاريخ اعلان الحماية البريطانية على مصر ، وان كانت تركيا لم تتنازل نهائيا عن ادعاءات السيادة على مصر الا بعد توقيع معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ (١) .

وقد حددت تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ نظام ولاية العرش في مصر بشكل وراثي في أسرة محمد على طبقا لقاعدة السن ولما أحس محمد على بالشيخوخة (٢) تنازل عن الحكم لابنه ابراهيم باشا أكبر أفراد الأسرة سنا . الا أن ابراهيم لم يلبث في السلطة سوى عشرة شهور انتقل بعدها الى جوار ربه في نفس العام (١٨٤٩) .

وقد تولى بعد ابراهيم باشا عباس الاول ابن طوسون ، واستمر يحكم لمدة خمس سنوات ، وبعد وفاته انتقل الحكم الى سعيد باشا سنة ١٨٥٤ ومات سعيد سنة ١٨٦٣ ، وتولى الحكم اسماعيل باشا في ١٨ يناير من نفس العام .

ولم يكن اسماعيل ولبا للعهد ، فقد كانت الولاية لاختيه أحمد الذي

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - مصر والمسألة المصرية (١٨٧٦ - ١٨٨٢) دار المعارف ١٩٦٥ ص ٩
(٢) ولد محمد على سنة ١٧٦٩ . وتوفي سنة ١٨٤٩ .

كان تكبر منه سنا . ولكن حادثا مروعا أودى بحياة هذا الأمير وأدى الى
لحلل اسماعيل محله في ولاية العهد (١) .

علاقته بالدولة العثمانية :

حاول اسماعيل توسيع استقلال مصر وكسب الكثير من الحقوق من
الدولة صاحبة السيادة على مصر حتى يصل بالبلاد الى الاستقلال ، أى أنه
أراد اكمال العمل الذى بدأه محمد على ، وان كان اسماعيل قد اختار سبيل
دفع الأموال ، أما محمد على فقد أراد الاستقلال بمصر باللجوء الى السلاح .

وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية كبيرة للحصول على الامتيازات
التي نالها . فالدولة العثمانية لم تكن لتصدر فرمانا الا مقابل الأموال
الطائلة . وقد بدأ اسماعيل حكمه بالتقرب الى السلطان عبد العزيز .
ونتيجة لهذه السياسة حقق عن طريق دفع الأموال تغيير نظام توارث
العرش الى أكبر أفراد أسرة محمد على سنا . ولكن بأموال اسماعيل
استطاع أن يجعل وريث العرش هو أكبر انجاله طبقا لفرمان مايو ١٨٦٦ .
كما تضمن هذا فرمان أيضا امكان زيادة الجيش المصرى الى ٣٠.٠٠٠
جندي . كما أن اسماعيل حصل على فرمان آخر سنة ١٨٦٧ يخول له
ولخلفائه من بعده لقب خديو بعد أن كان واليا فقط ، وأقر هذا فرمان حق
الحكومة المصرية فى ادارة شئونها الداخلية والمالية . وحقها فى عقد
المعاهدات الخاصة بالجمارك والبريد .

ولكن اسماعيل كان يريد أن يكون له حق تعيين سفراء مصر فى الدول
الاجنبية . . . وهو حق من حقوق السيادة ، وهكذا بدأت العلاقات تسوء
بين مصر وتركيا عندما قام اسماعيل بدعوة ملوك أوروبا الى حضور حملات
افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ دون وساطة الدولة العثمانية .

(١) تفصيل ذلك أنه بعد تولى سعيد باشا ، قرر اقامة احتفال فى
الاسكندرية يحضره جميع أفراد أسرة محمد على ، وكان معظمهم بقيم فى
القاهرة . وقد توجه هؤلاء الى الاسكندرية بطريق البحر . وكان من ضمنهم
أحمد الأخ الأكبر لاسماعيل وولى العهد ، أما اسماعيل فقد كان مريضا ولم
يحضر الحفل ، وعند عودة أحمد وبطانته الى القاهرة بنطار خاص ، سقط
القطار فى النيل لأن جسر كفر الزيات كان مفتوحا ، وغرق أحمد ومن معه
بما عدا الأمير سليم .

على أن اسماعيل لم يفقد الوسيلة للتقرب الى السلطان مرة أخرى مستخدماً الوسيلة المعروفة أى بذل الاموال ، وخاصة أن تركيا كانت في ضائقة مالية في ذلك الوقت ، مما جعله في النهاية يحصل على فرمان ٨ يونيو ١٨٧٣ الذى منحه حقوقاً واسعة ، منها توارث العرش في أكبر أنجال الخديو وأن املاك مصر تشمل السودان وسواكن ومصوع ، وحق الحكومة المصرية في سن القوانين وعقد الاتفاقات التجارية ، وكذلك حق الاقتراض من الخارج وزيادة الجيش وبناء السفن الحربية .

للزراعة :

اهتم اسماعيل بالزراعة اهتماماً فائقاً فشاق الكثير من الترع في الوجهين البحرى والقبلى وبلغ عدد الترع التى حفرت وأصلحت في عصره ١١٢ ترعة وأهمها الترعة الابراهيمية والترعة الاسماعيلبة .

وكان القطن من المحصولات التى وجه اليها اسماعيل كل اهتماماته بسبب توقف تصدير القطن الأمريكى أثناء الحرب الاهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) وأهمية سد حاجات الدول الأوروبية من الاسواق المصرية . والواقع انه مع استمرار الحرب الاهلية الأمريكية ، فان أسعار القطن ارتفعت ارتفاعاً كبيراً ، مما أدى الى اقبال الفلاحين المصريين على زراعته ، وهكذا زادت الأرض المزروعة قطناً في مصر .

وقد كان لعناية اسماعيل باشا بزراعة القطن أثر ظاهر في زيادة انتاحه سواء أثناء الحرب الاهلية الأمريكية أو بعد انتهائها ، حتى أصبح القطن عماد الاقتصاد القومى في مصر (١) .

كما اكثرت اسماعيل من زراعة قصب السكر ، وازدادت عنايته به بعد أن تراجعت أسعار القطن عقب انتهاء الحرب الاهلية الأمريكية (٢) .

(١) د . السيد رجب حواز ، المحل الى تاريخ مصر الحديث ص ٣٤٩ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى - عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٦ .

الصناعة :

أنشأ اسماعيل المعامل الكبرى لصناعة السكر في الوجه القبلى ، ونتيجة لزيادة الرقعة المزروعة قصباً زادت معامل السكر حتى بلغت سبعة عشرة معملاً أنشئت في بنى سويف والمنيا وأسيوط وقنا والفيوم .

كما اهتم اسماعيل بمصانع النسيج ، فعادت للعمل من جديد (٢١) وكذلك الحال بالنسبة لمصانع الزجاج والورق وما الى ذلك .

المواصلات :

اهتم اسماعيل بالمواصلات كوسيلة ضرورية لتنشيط التجارة ، ولذلك أنشأ عدداً من الكبارى والجسور بلغ عددها ٤٣٠ جسراً منها كوبرى قصر النيل .

كما أن اسماعيل اهتم بالسكك الحديدية ، ومدت في عصره ١٠٨٥ ميلاً من الخطوط الحديدية . وارتبط هذا كله بالرغبة في تطوير الموانئ المصرية وإنشاء الخطوط الملاحية . وكان من الأعمال التى سهلت الملاحة للسفن ، إنشاء الفنارات على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر ، بلغ عددها ١٥ فئارا .

وفي عام ١٨٦٣ أصدر اسماعيل مرسوماً لتأسيس شركة مصرية للملاحة البخارية برأسمال قدره ٤٠٠.٠٠٠ جنيه وذلك للعمل في البحر الأحمر وأخرى في البحر المتوسط . وقد تقدمت أعمال هذه الشركة تباعاً ، وصار لها في عام ١٨٦٧ عشر بواخر في البحر الأحمر وأربع عشرة باخرة في البحر المتوسط ، هذا بالإضافة الى ملكيتها لتسع وعشرين باخرة في النيل . وأهم خطوط هذه الشركة كانت في البحر الأحمر بين السويس وحنة وينبع وسواكن ومصبوع . أما في البحر المتوسط ، فان حقوقها كانت تمتد الى الآستانة وأزمير ويافا وحيفا وبيروت ورودى وغيرها .

غير أن الحسائر سرعان ما لحقت بالشركة بسبب أزمة القطن سنة ١٨٦٥ وبسبب الازمات المالية المتتالية ، فقلت أرباحها وساءت حالتها تماماً في عام

١٨٦٩ • واضطر المساهمون في مارس ١٨٧٠ الى التنازل عن هذه الشركة الى الحكومة المصرية في نظير دفع ديون الشركة • وقد انشئت على انقاضها شركة « وابورات البوستة الخديوية » وازدهرت أعمالها من جديد الى أن اشترتها شركة انجليزية بعد الاحتلال البريطاني لمصر (١) •

البريد والبرق :

نظم البريد في عصر اسماعيل ، وانشئت المكاتب البريدية في عصره حتى صار عددها ٢١٠ مكتبا (٢) كما تألفت شبكة تلغرافية في أنحاء مصر ، ومد خط الى السودان ، وبلغ طول الخطوط التلغرافية سنة ١٨٧٢ حوالى ٥٥٨٢ كيلومترا • وبلغ عدد المكاتب التلغرافية ١٥١ مكتبا منها ٨٦ بالوجه البحرى ، ٤٤ بالوجه القبلى و ٢١ بالسودان •

وأشأت شركة انجليزية في عهده خطا تلغرافيا بحريا من الاسكندرية الى مالطة وصقلية فأوربا ، وخطا آخر من الاسكندرية الى السويس معدن والهند (٣) •

العمارة :

دخل اسماعيل الكثير من التحسينات على القاهرة ، فأنشأ الميادين الكبرى ، وردم البرك وأنشأ مكانها القصور والبساتين ، ورصف الطرق حتى سهل الانتقال بين اطراف المدينة •

واعتبارا من سنة ١٨٦٧ ، اهتم اسماعيل « بالازبكية » اهتماما كبيرا وحولها الى مجموعة من الحدائق والجداول ، على غرار الحدائق الفرنسية •

كما قام اسماعيل ببناء الاوبرا ، وأنشأ كوبرى قصر النيل لبصل الجزيرة بالقاهرة • كما سبّد اسماعيل الطريق المعبّد بين القاهرة والاهرام ،

(١) د • السيد رجب حراز - المصدر السابق ص ٣٥٥ •

(٢) عبد الرحمن الرافعى - عصر اسماعيل ج ٢ ص ٢٤ •

(٣) المصدر السابق ص ٢٢ ، ص ٢٣ •

ورصفه بانحجارة سنة ١٨٦٩ بمناسبة زيارة الامبراطورة اوجيبي لحضور حفل افتتاح قناة السويس . وفي عهد اسماعيل ، تم توصيل انابيب المياه الى احياء المدينة لتوزيع مياه النيل العذبة في المنازل بعد ان كان يملؤها السقاؤون في القرب .

كما عنى اسماعيل بنظافة القاهرة ، واناها بغاز الاستصباح ، فاكسبها بالليل رونقا وجمالا ، كما ساعدت الانوار الليلية على حفظ الامن . ويعتبر اسماعيل اول من شرع في اقامة تماثيل المعظماء في الميادين ، فهو الذى امر بصنع التمثالين الكبيرين اللذين يزينان هم ميادين القاهرة والاسكندرية الاول لابراهيم باشا والثاني لمحمد على .

أما الاسكندرية ، فقد اهتم بها الخديو اهتماما فائقا ، وشيد بها عددا من الشوارع الواسعة ، وعهد الخديو الى احدى الشركات الاجنبية لتوصيل المياه العذبة من ترعة المحمودية الى المدينة ونوزيعها بواسطة « وابور مياه الاسكندرية » وانتعشت منطقة الرمل انتعاشا فائقا ، وتم وصلها بالاسكندرية

بخط حديدى ، ويرجع الفضل الى اسماعيل فى جعل الاسكندرية مصنفا للقطر المصرى . كما انشأ الخديو حديقة الفزحة على ترعة المحمودية وجعلها متنزها عاما ، واصلاح ميناء الاسكندرية كما ابطال دفن الاموات فى المدافن الخاصة بجوار المنازل وداخل المساجد (١) .

وبالنسبة للقصور ، نجد ان اهم القصور التى انشأها اسماعيل قصر عابدين ، وقد جعله المقر الرسمى بدلا من القلعة . وهناك قصر الجزيرة وقصر بولاق الدكرور وقصر الجزيرة وقصر القبة وقصر حلوان وقصر الاسماعيلبة وقصر الزعفران وسراى الرمل بالاسكندرية .

(١) د . صالح رمضان الحياة الاجتماعية فى عصر اسماعيل ص ١٨ .

التعليم في عصر اسماعيل (١)

وضح الشعور بالحاجة الى نشر التعليم الابتدائي ، عند حكومه الخديوى اسماعيل ، كما أحس بها مجلس شورى النواب .

وقد وضع مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٧ لأول مرة في تاريخ التعليم المصرى المبادئ والقرارات الخطيرة التالية : -

أولا : التعليم الابتدائي واجب قومى ، ويجب أن تتعاقد قوى الحكومة والامة في سبيل نشره .

ثانيا : ضرورة تدبير موارد للصرف على التعليم خارج نطاق ميزانسة الدولة .

ثالثا : ترتب على ذلك أن دعيت المدارس الابتدائية الجديدة التى أنشئت في ظل هذا النظام بالمدارس أو المكاتب الاهلية ، تأكيدا لصفقتها الاهلية كمعاهد للتعليم الابتدائي الخارج عن ميزانية الحكومة .

رابعا : الاعتراف بالمكاتب أو الكتاتيب الاهلية ، وهى معاهد التعلم الاولى الشعبى التى عاشت دهرا طويلا لا يحفل بها السلطان هذا الى ادراك ضرورة اصلاحها حتى تصبح تحت اشراف الحكومة وسيلة طيبة لنشر تعليم اولى (٢) .

اقتنص على مبارك هذه الفرصة ، وهى تعبئة شعور الامة نحو القيام بالتعليم ، فقام باعداد لائحة لذلك وفي هذا بقول في خطته « وأعملت فكرى فيما حصل به نشر المعارف وحسن التربية ، وكانت المكاتب الاهلية في

(١) لمزيد من التفصيلات انظر :

دكتور أحمد عزت عبد الكريم - تاريخ التعليم في مصر ودكتور
سمير محمد طه - على باشا مبارك مكتبة سعيد رافت ١٩٨٥
جامعة عين شمس .

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر ج ٢ المجلد

الاول ص ٤٥ - ٤٧ .

المدن والارياف جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها الا تعلب القرآن الشريف وأقل من القليل من يتممه منهم ويجيد حفظه ويجود ويحسن قراءته مع رداءة الخط في عامة المكاتب المذكورة فاستحسنتم اجراءه على نسق المدارس المنتظمة فحررت لائحة بتنظيمها وترتيبها « (١) » .

وقدم على مبارك مشروع هذه اللائحة للخديو ، وكان اذ ذاك ناظر لمدرسة المبتديان ، فأحالها الخديو الى لجنة لدراستها ، كما قدم الخديو لهذه اللجنة بيانا بتعداد المكاتب في مصر والتابع منها لديوان الاوقاف والتابع للأهالي (٢) .

وفي ٩ مايو ١٨٦٨ وافق المجلس الخصوصي على ما جاء باللائحة التي وصفها على مبارك ، والتي ناقشتها لجنة خاصة ، واشتهرت بلائحة رجب (٣) .

وصدق الخديو على تنفيذ هذه اللائحة في ٤ صفر سنة ١٢٨٥ هـ .
٢٧ مايو سنة ١٨٦٨ م (٤) .

وبدأت بعد ذلك محاولة تنفيذ لائحة رجب ، وكان من نتائج هذه المحاولة أن أنشئ ديوان المكاتب الاهلية في مارس سنة ١٨٧١ م وقد جعل مستقلا عن ديوان المدارس ثم ألحق به مع احتفاظه بكيانه الخاص ونشد ديوان المكاتب الاهلية لتنظيم المكاتب القائمة وإنشاء مكاتب جديدة (٥) كان ينفق عليها من الاوقاف وما يدفع من الاهالي كل حسب قدرته فظهرت مكاتب كثيرة متعددة .

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥٠ .

(٢) دار الوثائق القومية : دفتر ١٩١٩ (أوامر عربي) ص ١٨٩ رقم ١٢٠ أمر الداخلية في ١٧ محرم سنة ١٢٨٤ هـ - ٢١ مايو سنة ١٨٦٧ م .

(٣) أمين سامي : التعليم في مصر ص ٣٣ - انظر د . سمير طه ص ٧٨

(٤) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر ج ٢ المجلد الاول ص ٥٩ .

(٥) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ .

أما المدارس المركزية فلم تسر على النحو الذى رسمته لائحة رجب ،
فظل النظام الداخلى المجانى أساس الحياة الدراسية فى المدارس المركزية ،
ولكن منذ سنة ١٨٧٢ م فرضت رسوم دراسية بسيطة على التلاميذ (١) .
وبدا بها النظام الخارجى ولكن فى حدود ضيقه (٢) ، وكان عرض على
مبارك السير على نظام المدارس الاوربية . وهو ابطال مدأ المجانية البحتة
بتكليف الاهالى بالانفاق على تعليم اولادهم ولو انفاقا يسيرا فى بادىء
الامر (٣) يقول فى خطته « جعلت المصاريف اللازمة للمدارس والمكاتب
جارية على وجه يستوجب انتظامها مع خفة الصرف على الديوان فجعل
على حسب اقتدارهم من غير تثقيل عليهم واستمالة لقلوبهم واستدعاء
على حسب اقتدارهم من غير تثقيل عليهم واستمالة لقلوبهم واستدعاء
لرغبتهم ، وجعل لذلك استمارة حفظت فى المدارس وفى كل مكتب وباقى
المصروف يصرف من حاصلات الاوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها
من وجوه الخيرات والمبرات واطبان الوادى بمديرية الشرفية وكان الحسن
على المكاتب الاهلية بهذه الاطيان وبعض املاك آلت الى بيت المال من بعض
التركات فكان من هذه الموارد يصرف كل ما يلزم لهذه المكاتب بعد الايرادات
الجزئية المتحصلة من نوى الاقتدار من أهل التلاميذ وكان القصد تعويد
الناس على الصرف على اولادهم بالتدريج شيئا فشيئا حتى لا يبقى مع
توالى الازمان على الحكومة الا ما يختص بالمدارس الخصوصية
كالهندسخانة والطب والادارة ونحوها وأما باقى المدارس فيكون الصرف
عليها من الاهالى والاوقاف والاملاك المذكورة ، اذ بذلك تدوم الرغبة وتتسع
دائرة التعليم ، (٤) .

وتنفيذا لاحكام اللائحة بدأ التفتيش على المدارس لاول مرة فى سنة
١٨٦٩ م (٥) . وعين حماد عبد العاطى متسا على المدارس المكبىة - وطبقا

-
- (١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد
الاول ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ١٩ .
(٣) الياس الايوبى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٠٠ .
(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥٠ .
(٥) وزارة التربية والتعليم : تاريخ وزارة التربية والتعليم ممثلا
فى أشخاص وزرائها ص ٣٥ .

للائحة عين مفتش للوجه البحرى وآخر للوجه القبلى وهما البكباشى على
أفندى فرحات لدارس الوجه البحرى والصاغقول أغاسى محمد أفندى سليمان
مفتسا لدارس الوجه القبلى .

وبدا المفتشون عملهم فى زيارة المكاتب والتفتيش عن أحوالها ومعلميها
وأبنيتها ، وكان ديوان المدارس يكتب الى الجهات الادارية لتعاون مفتشيها
فى أداء مهمتهم وتنفيذ ما يقترحونه من إلغاء بعض المكاتب أو اصلاح
بعضها الآخر (١) .

أما تعليم البنات ، فالواقع أنه لم تكن هناك مدارس لتعليم البنات
قبل عصر اسماعيل . فقد أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات ، وهى مدرسة
السيوفية فى ٣ أغسطس ١٨٧٣ ، وقد ذكر أمين سامى أنها افتتحت فى
يناير سنة ١٨٧٣ - (٢) ، وذلك بعد دعوة رافعة الطهطاوى لتعليم البنات
فى كتابه المرشد الامين للبنات والبنين والمطبوع فى شوال سنة ١٢٨٩ هـ
ديسمبر ١٨٧٢ فقد ذكر فى الفصل الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان
« تشريك البنات مع الصبيان فى التعليم والتعلم وكسب العرفان » أنه
« ينبغى صرف الهمّة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معايشة الازواج
فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فان هذا مما يربدهن
أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويعلمن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى
فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فبهن من سخافة العقل والطبش
مما ينتج من معايشة المرأة الجاهلة لمرأة مثليها ويمكن للمرأة عند اقتضاء
الحال أن تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها
وطاقتها فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه
أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ أديبين عن العمل يشغل السنتهن
بالباطل وقلوبهن بالاهواء وابتغال الاقاول والعمل بصون المرأة عما

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد
الاول ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

لمزيد من التفاصيل انظر دكتور سمير محمد طه المصدر السابق
(٢) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ٢٨ .

لا يليق وبقربها من الفضيلة وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء » (١) .

فلا شك أن الدعوة إلى نهضة المرأة في مصر ترجع إلى رفاعه الطهطاوى (٢) ويرجع انشاء أول مدرسة لتعليم البنات في مصر إلى الزوينة الثالثة لاسماعيل (٣) ، تشما آفت خانم أفندى على نفقتها الخاصة (٤) .

الصحافة في عصر اسماعيل

اهتم المصريون بالصحافة في عصر اسماعيل بعد أن أنفلوها في الفترة بينه وبين محمد على . وأقدم صحيفة مصرية صدرت بعد الوقائع المصرية هي يعسوب الطب وهي مجلة طبية ، ظهرت في القاهرة سنة ١٨٦٥ ، وهي أول مجلة من نوعها بالعربية ، ولكنها لم تعمّر طويلاً (٥) .

وانحصرت الصحافة الشعبية في تلك الفترة في جريدتي وادى النيل ونزهة الافكار .

وجريدة وادى النيل مجلة سياسية علمية أدبية أنشأها سنة ١٨٦٦ م عبد الله أبو السعود ناظر المدرسة الكلية التي أسسها محمد على باشا في القاهرة (٦) ، وكانت تصدر مرتين في الأسبوع (٧) .

والحقيقة أن جريدة وادى النيل كانت جريدة شعبية اسمها رسمية فعلاً يقول في ذلك الدكتور إبراهيم عبده « ازدحمت معظم صفحاتها بأخبار

-
- (١) رفاعه الطهطاوى . المرشد الأمين للبنات والبنين ص ٦٦ .
 - (٢) عبد الرحمن الرافعى . عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ٣٢٧ .
 - (٣) دار الوثائق القومية . محفظة الوقائع المصرية رقم ٥ نعلبم انعد ٥٧٦ بتاريخ ١٢ شعبان سنة ١٢٩١ هـ - ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م .
 - (٤) أنباس الأبوبى . تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩ المجلد الأول ص ٢٠٤ .
 - (٥) دكتور سمر طه - المصدر السابق ص ١١٧ .
 - (٦) النيكوت عيليب دى طرازى . تاريخ الصحافة العربية الجزء الأول ص ٦٩ .
 - (٧) دكتور عبد اللطيف أحمد حمزه . الصحافة المصرية في مائة عام ص ٢٨ .

الخديو، ورجال حكومته . ولولا أنها أعلنت شعبيتها لظن متصفحها أنها صحيفة رسمية ، فهي صورة للوقائع في تفكيرها واتحائها « (١) » .

وفي عصر اسماعيل شعر على مبارك بحاجة الأمة عامة وأبناء المدارس خاصة الى صحيفة علمية أدبية فلم يكن في مصر في ذلك الوقت غير جريدة وادى النيل والوقائع المصرية (٢) مما سبق التنويه عنه فانشأ مجلة روضة المدارس في سنة ١٨٧٠ وكان اذ ذاك مديرا لديران المدارس ، فهي صحيفة ديوان المدارس تنفق عليها الحكومة وكان الغرض من انشائها النهوض باللغة العربية واحياء آدابها ونشر المعارف الحديثة وقد جاء في مقدمة العدد الاول من هذه المجلة ان الغرض من ظهورها هو « أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة وتستضيء بنورها ارباب العقول السليمة واصحاب الطبائع المستقيمة » .

دار الكتب المصرية :

ترجع فكرة تأسيس دار الكتب الى عصر محمد علي . ويقول عبد الرحمن الرافعي (٣) أن محمد علي أنشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة في بيت المال القديم خلف المسجد الحسيني ، وذلك عندما تكاثرت الكتب التي تم طبعها في المطبعة الاهلية .

ونستخلص من الوثائق ان محمد علي كان اول من راودته فكرة انشاء دار الكتب ، بل انه رسم طريقة التحفظ على هذه الكتب وطريقة اعارنها واعادتها الى مكانها .

وقد انشئت هذه المكتبة في تاريخ لاحق لهذه الاجراءات التي امر بها الوالي ، ونقلت الكتب الموجودة في خزانة الامتعة الى هذه المكتبة احده بجوار مسجد سيدنا الحسين ، وأصبحت تابعة لديوان المدارس (٤) .

(١) دكتور ابراهيم عبده - تطور الصحافة المصرية ص ٧٧

(٢) جرجي زبدان : تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع ص ٥٥

(٣) دكتور ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضة الفكرية والاجتماعية ص ٦١ ، ٦٢ .

(٤) د . سمير محمد طه - المصدر السابق ص ١٣٢ - ١٣٣

وقد استمرت دار الكتب القديمة حتى عصر اسماعيل ، وأن أوقف نظام الاعارة بها منذ عصر عباس وقد أضاف اسماعيل الى هذه الدار القديمة أو الكتبخانة كما كان يطلق عليها نحو اثني مجلد من مخطوطات بالعربية والتركية والفارسية ، اشتراها من تركة حسن باشا الموناسترلى أحد كبار رجال عباس الاول (١) .

ومن هذه الكتبخانة القديمة التى قامت فى عصر محمد على واستمرت الى عصر اسماعيل ومن تركة حسن باشا الموناسترلى من الكتب تطورت الفكرة الى انشاء دار عامة للكتب .

على أية حال صدر أمر الخديو بانشاء الكتبخانة الخديوية ، وكلف على مبارك الشيخ راشد افندى شيخ رواق الاتراك ونائب المحكمة الشرعية فى ذلك الوقت بتجميع كتب مساجد الاوقاف وذلك بجمعها من مكاتب المساجد فى مكان واحد ، حتى اذا فرغ من ذلك ، أمر السيد على الببلاوى فقام بتصنيفها وترتيبها ووضعها فى الامكنة التى أعدت لها فى جـخانة (٢) التى اختير مقرها لها الطابق الأسفل (البدروم) من سراى مطفى فاضل بدرب الجماميز ، وهو القصر انذى كان يشغله فى ذلك الوقت (ديوان نظارة المعارف) كما قام على مبارك بجمع المخطوطات التى سبق ان أوقفها السلاطين والامراء والعلماء على المدارس ومعاهد العلم (٣) .

وكذلك ادمجت دار الكتب القديمة فى دار الكتب الجديدة حتى صار عدد مجلداتها نحو ثلاثين مجلد ، كما أقام معرضاً للآلات الطبعية وغيرها من آلات العلوم والرياضة اللازمة للمدارس وصرف لسراء تلك الآلات نحو أربعة الاف جنيه ، (٤) .

(١) الياس الايوبى . تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا - المجلد الأول ص ٢٤١ .

(٢) محمد عبد الجواد . تقويم دار العلوم ص ٤ . انظر د . سمير طه ص ١٣٥ .

(٣) دار الكتب . دار الكتب فى عهد الثورة ص ٥ .

(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥١ .

وبعد أن تم على مبارك إنشاء هذه المكتبخانة الحسامية عرض على الخديوى ما أتمه من اعمال وطلب ، احالة الكتبخانة على عهدة ديوان الاوقاف على أن تبقى تحت نظارة مدير المدارس وذلك حتى لا يطرأ على الكتب الموقوفة على ذمة الاوقاف ادنى تبديل ولا تغيير ، وان لا تكون هذه الكتب قاصرة على كتب الاوقاف وحدها بل جامعة لكافة ما يدخل بها من سائر كتب الكتبخانة القديمة وكتبخانتى الاشغال والمدارس وغيرها مع ما يرد اليها تباعا من الكتب بأى نوع وأى لغة من أى جهة وتكون جميعها تابعة لديوان الاوقاف وموقوفة من طرف الخديوى على المنفعة العامة .

وقد قام الخديوى بزيارة هذه الكتبخانة الجديدة فى شهر ابريل سنة ١٨٧٠ م وذلك قبل افتتاحها بعدة أشهر وسر كثيرا من حسن النظام لاشتمالها على المؤلفات المطبوعة وجميع المخطوطات النفيسة والتي كانت متفرقة فى المساجد القديمة (١) :

ولا ريب ان تجميع الكتب والمخطوطات فى مكان واحد يسهل عمل الباحثين والكتّاب ، ويعد فى هذا الوقت فى حد ذاته عملا يدعو الى الاعجاب (٢) .

(١) دار الوثائق القومية : محفظة الوقائع المصرية (٨) الوقائع المصرية العدد ٣٥٢ بتاريخ ٩ محرم ١٢٨٧ هـ (١٠ ابريل ١٨٧٠ م) .
(٢) د . سمير محمد طه - المصدر السابق ص ١٣٧ .

الفصل الرابع

قناة السويس

(م ١٠ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

اول من فكر في ربط البحرين المتوسط والأحمر بطريق غير مباشر
من طريق النيل سنة ١٨٨٧ ق م هو سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية
عشرة القرعونية . وما زالت آثار هذه القناة حتى يومنا هذا وادسحة
ماما في محاذاة المجرى الحالي لقناة السويس بالقرب من جنيفه ، ويمكن
نتيج سيرها الى حيث حفرت قناة المياه العذبة في مجرى القناة القديم
نفسه ، ثم تختفي بعد ذلك معالم هذه القناة التي كانت تمتد حتى ميفاء
(السويس) .

وقد أهملت قناة سنوسرت الثالث نتيجة لظروف مختلفة حتى امتلات
بالرمال . وفي ٦١٠ ق م أعاد نخاو الثاني من الأسرة السادسة والعشرين
شق القناة ، فنجح في وصل النيل بالبحيرات المرة ، الا انه لم يوفق في
وصل البحيرات المرة بالبحر الأحمر وفي سنة ٥١٠ ق م تمكن الملك
الفارسي دارا الأول (٥٢١ - ٤٨٦ ق م) من إعادة ربط النيل بالبحيرات
المرة بعد ان كانت قد ردمتها الرمال ، ولكنه لم ينجح كالمالك نخاو
الثاني في وصلها بالبحر الأحمر الا بواسطة قنوات صغيرة لم
تكن صالحة للملاحة الا في موسم الفيضان .

وفي سنة ٢٨٥ ق م تغلب بطليموس الثاني على كل الصعوبات التي
اعتترضت سبيل سابقيه فتمكن من إعادة الملاحة الى القناة باكملها
بعد ان نجح في حفر الجزء الواقع بين البحيرات المرة والبحر الأحمر .

وفي سنة ٩٨ م على عهد الامبراطور الروماني تراجان (٩٨ - ١١٧ م)
تم حفر فرع جديد عرف بقناة تراجان بمتد من بابليون عند فم الخليج

بالتجارة حيث بنصل بالفرع القديم الذى وصل بوبست (الزقازيق)
بالبحيرات المرة .

وفي سنة ٦٤٢ م أعاد عمرو بن العاص قناة الرومان الى الملاحة
من الفسطاط الى (السبويس) وأطلق عليها اسم قناة أمير المؤمنين .
وظلت قناة أمير المؤمنين مفتوحة للملاحة أكثر من قرن من الزمان
استخدمت خلالها في التجارة ونقل الحجاج .

وكان شق قناة السويس أحد أهداف الحملة الفرنسية ، ففسد كلف
الجنرال بوناپرت كبير مهندسيه جاك مارى لوبير بدراسة مشروع حفر
قناة تصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، الا ان دراسة لوبير
أسفرت عن أن مستوى البحر الأحمر أكثر ارتفاعا من مستوى البحر
المتوسط بمقدار ثمانية أمتار ونصف ، وواضح خطأ حسابات لوبير .

وفي سنة ١٨٤١ أهتم المهندس الفرنسى لينان بمشروع وصل البحرين
وكان يساوره نفس اعتقاد لوبير في وجود فارق بين منسوب سطحى البحرين

.. وقد أرسل لينان دراساته الى قنصل فرنسا بالاسكندرية وأطلع
عليها ديلسبس الذى كان حينذاك نائبا للقنصل ، والذي فتح ملفا
للمشروع واستفاد من كل الدراسات السابقة .

وفي عام ١٨٤٦ تشكلت جمعية للدراسات الخاصة بقناة السويس
في باريس . وفي سنة ١٨٤٧ أوفدت هذه الجمعية الفرنسية الانجليزية
الامانية أحد الأخصائيين في الطبوغرافيا للقيام بعملية مسح لبرزخ
السويس ، وانتدبت الحكومة المصرية كبير مهندسيها لينان لمعاونته في
أعماله . فثبت الاثنان أنه لا فارق يذكر بين منسوبى البحرين .

ويذكر أنه لما عرض الاقتراح على محمد على أنه رفضه قائلا ، لا أريد
أن تمصر بسفورا آخر ، أى أنه لا يريد أن يفتح للجانب باب الاغارة على
السمر .

وقد عكف فردينان ديلسبس بعد اعتزاله السلك السياسى على
دراسة كل ما يتعلق بحفر قناة تربط البحرين ، فأطلع على كتاب وصف

مصر ، كما راجع تقارير لربير ودراسات أنباج سنان سبيون وجمعية
قناة السويس .

وفي ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ تمكن ديلسبس - مستغلا صداقته للوالي محمد
سعيد باشا - على فرمان الامتياز الاول - وأصدر سعيد هذا فرمان
معطيا لديلسبس حق استغلال القناة لمدة تسعة وتسعين عاما تبدأ من
تاريخ الافتتاح هذا عدا امتيازات أخرى كلها مجففة بحق مصر ، كمنحه
جميع الاراضى اللازمة لتق القناة البحرية وقناة المياه العذبة بدون
مقابل ، واعطائه الحق فى استخراج المعادن فى المنطقة ، وإعفاء كافة
المهمات المستزدة من الخارج لصالح المشروع من الرسوم الجمركية ،
هذا علاوة على إمداده بالمهندسين والموظفين والعمل اللازم للمشروع ، مع
مساعدته وحمايته .

ومن المناسب أن نقدم نص فرمان الاول ، حتى تكون الصورة أكثر
وضوحا :

(مادة ١)

يؤسس المسيو فردينان ديلسبس شركة نعهد اليه بإدارتها تسمى
« الشركة العامة لقناة السويس » تكون مهمتها القيام بشق برزخ
السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى وأنشاء واعداد
مدخلين كافيين أحدهما على البحر الأبيض المتوسط والآخر على البحر
الأحمر وبناء مرفأ أو مرفأين .

(مادة ٢)

يعين مدير الشركة دائما من قبل الحكومة ويختار ما أمكن من
بين المساهمين الذين لهم أوثى الصلة بالنسأة .

(مادة ٣)

مدة الالتزام تسع - تسعون سنة تبدأ من التاريخ الذى تفتتح فيه
قناة البحرين .

(مادة ٤)

تجرى الأعمال التى يقتضى اجرائوها على نفقة الشركة وحدها وتمنح بدون مقابل جميع ما يلزمها من الأراضى التى ليست ملكا للأفراد ولا تكون التحصينات التى ترى الحكومة القيام بها على نفقة الشركة .

(مادة ٥)

تجبنى الحكومة سنويا من الشركة ١٥٪ من صافى الأرباح المستخلصة من ميزانية الشركة وذلك فضلا عن الفوائد والحصص الخاصة بالأسهم التى تحتفظ الحكومة بحق الاكتتاب فيها لدى اصدارها وذلك دون أى ضمان من جانبها لتنفيذ الأعمال أو لقيام الشركة بمهمتها . ويوزع الباقي من صافى الأرباح على الوجه الآتى :

٧٥ ٪ للشركة . ١٠ ٪ للأعضاء المؤسسين

(مادة ٦)

يتم الاتفاق على تعريفات رسوم المرور بقناة السويس ما بين الشركة وخديو مصر ، ويجبى عمال الشركة هذه الرسوم وتكون التعويضات متساوية دائما لجميع الأمم ولا يجوز مطلقا اشتراط امتياز خاص لأحدى دول سواها .

(مادة ٧)

إذا رأت الشركة ضرورة وصل ما بين النيل وممر البرزخ بإنشاء طريق صالح للملاحة أو إذا سلكت القناة البحرية طريقا متعرجا يرويه ماء النيل فتتنازل الحكومة المصرية للشركة عن الأراضى الداخلة فى الأملاك العامة مما لا يزرع اليوم لتقوم بربها وزراعتها على نفقتها أو تحت إشرافها . وتقتفع الشركة بالأراضى المذكورة مع اغنائها من الضرائب مدة عشر سنوات ابتداء من يوم افتتاح القناة وتدفع ضريبة العشر للحكومة المصرية خلال النسخ والثمانين سنة الباقية لانقضاء

مدة الالتزام وبعد ذلك لا يجبر لها المضي في الانتفاع بالأراضي المنقولة.
إلا إذا أدت للحكومة عنها صريحة معادل ما هو مفروض على الأراضي
المماثلة من الضرائب .

(مادة ٨)

نلافيا لكل صعوبة تتصل بالأراضي التي ستتركها الحكومة
للشركة الملتزمة يضع الميسو لينان بك المهندس المنتدب من قبلنا لدى
الشركة رسما يبين الأراضي المفتوحة سواء لإنشاء القناة البحرية
ومؤسساتها وقناة التغذية المتفرعة من النيل أو للاستغلال الزراعي
وفقا لأحكام المادة ٧ .

وفضلا عن ذلك فمن المتفق عليه أن كل مضاربة تتعلق بالأراضي الداخلة
في الأملاك العامة التي ستمنح للشركة محظورة من الآن . وأن الأراضي التي
كانت نخص الأفراد ويريد ملاكها في المستقبل ربيها من مياه قناة
التغذية المنشأة على نفقة الشركة يدفعون اناوة عن كل فدان يزرعونه تحدد
بالاتفاق بين الحكومة المصرية والشركة .

(مادة ٩)

وأخيرا تمنح الشركة الملتزمة الحق في أن تستخرج من المناجم والمحاجر
الداخلة في الأملاك العامة بجميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمباني
التابعة لها مع إعفائها من الرسوم كما أنها تنتفع بهذا الإعفاء
فيما يتعلق بالآلات والمواد التي نستوردها من الخارج لاستغلال التزامها

(مادة ١٠)

عند انتهاء الالتزام تحل الحكومة المصرية محل الشركة فتنتفع
بكافة حقوقها دون تحفظ وتستولي على قناة البحرين وجميع المنشآت
التابعة لها وتؤول إليها ملكيتها الكاملة . ويحدد مقدار التعويض
الذي يمنح إلى الشركة في مقابل تنازليها عن الممتلكات والأشياء المنقولة
باتفاق ودي أو بطريق التحكيم .

(مادة ١١)

بعرض مدير الشركة علينا فيما بعد نظام الشركة ويجب ان يحوز موافقتنا ولا بد من اقرارنا مقدما اى تعديل يدخل عليه فى المستقبل ويجب ان يذكر نظام الشركة اسماء المؤسسين على ان تحتفظ بحق اعتماد قائلتهم وبراءى ان يتضمن هذه القائمة اسماء الاشخاص الذين سبق ان ساهموا فى تنفيذ مشروع (قناة السويس) الكبير سواء بأعمالهم او بأبحاثهم او بجهودهم او بأموالهم .

(مادة ١٢)

وفى الختام نعد بطيب تعصيدنا الخالص وكذا جميع موظفى الحكومة المصرية لتسهيل تنفيذ واستغلال هذا الترخيص .

القاهرة فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٥٤ .

وفى نهاية فرمان يكتب (محمد سعيد) الرسالة التالية الى صديقه ديلسبس الى صديقى المخلص كريم المحتد رفيع المقام المسيو فرديشان ديلسبس .

بما انه تلزم موافقة عظمة السلطان على الرخصة الممنوحة للشركة العامة لقناة السويس فانى ابعث اليكم بهذه النسخة لحفظها لديكم .
اما الأعمال الخاصة بحفر قناة السويس فلن يبدأ فيها الا بعد الحصول على ترخيص الباب العالى .

٣ رمضان سنة ١٢٧١ . (محمد سعيد باشا والى مصر)

وفى ٥ يناير ١٨٥٦ اصدر سعيد باشا فرمان الامتياز الثانى ، وهو تأييد لما جاء فى فرمان الاول وتكملة له ، اذ نص فيه على وجوب اسخدام اربعة اخماس العمال اللازمين للمشروع من المصريين ، وذكر فى كلا فرمانين ان يكون نصيب الحكومة الحربية ١٥٪ من صافى الارباح السفوية للشركة .

ونص فرمان الثانى على ما يلى :

نحن محمد سعيد باشا والى مصر بعد الاطلاع على فرمان الصادر منا بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ الذى رخصنا فيه الى صديقنا فردينان ديلسبس ترخيصا خاصا فى تأسيس وادارة شركة عامة لشق برزخ السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى وانشاء واعساد مدخلين ذوى اتساع كاف احدهما على البحر الابيض المتوسط والآخر على البحر الاحمر وبناء مرفأ او مرفاين .

ولما كان جناب المسيو فردينان ديلسبس قد عرض علينا أن تأسيس الشركة المذكورة وفقا للاوضاع والشروط التى تتبع بوجه عام فى تأسيس الشركات من هذا النوع يحسن أن يسبقه النص مقدما بصورة أسمل وأوفى على التكاليف بالالتزامات والاتاوات التى تفرض على هذه الشركة من ناحية، ومن ناحية أخرى على الامتيازات والاعفاءات والميزات التى تختص بها الشركة وعلى التسهيلات التى تمنح لادارتها .

لذلك قررنا أن تكون شروط الالتزام المشار إليها بهذا فرمان كما يلى:

الباب الأول

الالتزامات

(مادة ١)

على الشركة التى أسسها صديقنا المسيو فردينان ديلسبس وفقا لترخيصنا المؤرخ ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤ أن تقوم على نفقتها ومسئوليتها بجميع الاتساع وأعمال البناء اللازمة للانشاء .

١ - قناة صالحة للملاحة البحرية الكبرى بين السويس على البحر الاحمر وخليج الطينة (بورسعيد) على البحر الابيض المتوسط .

٢ - قناة للرى صالحة للملاحة النهرية فى النيل تصل هذا النهر بالقناة البحرية المذكورة .

٣ - فرعين للرى والسرب مستقيمين من القناة الاخيرة لجلب المياه فى اتحاهى السويس والطينة اليهما .

وجرى الاعمال بحدت تنتهى فى ميعاد غايته ست سنوات الا اذا طرات
حوادث واسباب تأخير ناسئة عن قرة قاهرة .

(مادة ٢)

للشركة ان نفذ بذاتها الاعمال المكلفة بها او ان تعهد بها الى مقاولين
بطريق المناقصة او الممارسة ويجب فى جميع الاحوال ان يكون أربعة اخماس
العمال المستخدمين فى هذه الاعمال - على أقل تقدير - من المصريين .

(مادة ٣)

تحفر القناة البحرية المعدة لمرور السفن الكبرى بالعمق والاتساع
المحدد فى برنامج اللجنة العلمية الدولية ، ووفقا لهذا البرنامج تبتدىء
القناة فى منبعها من ميناء السويس ذاته وتستمر فتجتاز البحيرات
المررة فى بحيرة التمساح وتنتهى فى مصبها فى البحر الأبيض المتوسط
عند نقطة من خليج الطبنة تحددها المشروعات النهائية التى سيضعها
مهندسو الشركة .

(مادة ٤)

تبتدىء قناة الري المعدة للملاحة النهرية وفقا لشروط البرنامج
المذكور بالقرب من مدينة القاهرة وتسير فى وادى الطميلات وتنتهى لتصب
فى القناة البحرية الكبرى عند بحيرة التمساح .

(مادة ٥)

تتفرع القناة السابق ذكرها قبيل مصبها فى بحيرة التمساح
فيتجه فرع من هذه النقطة الى السويس وفرع آخر الى الطبنة بمحاذاة
القناة البحرية الكبرى .

(مادة ٦)

تحوّل بحيرة التمساح الى مرفأ داخلى صالح لاستقبال اكبر السفن
حمولة ويجب على الشركة موق ذلك ، عند الاقتضاء :

١ - أن ندنى مرعاً تاوى اله السفن عند مدخل القناة البحرية فى
خليج الطينة .

٢ - أن تحسن مرفأ وبرغاز السويس بديث تاوى البهما السفن
كذلك .

(مادة ٧)

توالى الشركة دائما القيام على نفقتها بصيانة القناة البحرية
والموانئ التابعة لها والقناة المتصلة بالنيل والقناة المقفرعة
عنها .

(مادة ٨)

لمن يرغب من ملاك الأراضي الواقعة على ضفاف الأقنية التى تنشئها
الشركة فى رى أرضه بالمياه المستمدة من هذه الأقنية أن يحصل على هذا
الامتياز فى مقابل دفعه تعويضا أو اتاوة تحدد قيمتها وفقا للشروط
المبينة بعد فى المادة (١٧) .

(مادة ٩)

نحتفظ بحق انتداب مندوب خاص فى مركز ادارة الشركة يتقاضى منها
مرتبه ويمثل لدى ادارتها حقوق الحكومة المصرية ومصالحها فيما
يتصل بتنفيذ احكام هذا الفرمان وشروطه .

وعلى الشركة اذا كان مركز ادارتها خارج مصر أن تعين وكىلا اعلى
يمثلها بمدينة الاسكندرية مزودا بكافة السلطات اللازمة لضمان حسن
سير العمل وعلاقات الشركة بحكومتنا .

(مادة ١٠)

لانشاء القنوات وملحقاتها ائشار اليها فى المواد السابقة تترك
الحكومة المصرية للشركة الانتفاع بلا ضريبة أو اتاوة بما قد يلزمها
من الأراضي غير المملوكة للأمراد . . كذلك تخول للشركة حق الانتفاع

بجاءه ما مستقوم الشركة بربه وزراعته على نفقتها من الأراضى التى لا تزال بورا حتى اليوم وليست ملكا للأفراد وذلك مع التحفظات الآتية :

١ - تعفى الأراضى الداخلة فى هذه الفئة الأخيرة من كل ضريبة لمدة عشر سنين فقط ابتداء من تاريخ بدء استغلالها .

٢ - بعد انتهاء المدة المذكورة تصبح هذه الأراضى طيلة الباقى من مدة الالتزام خاضعة للالتزامات والضرائب التى تخضع لها فى الظروف نفسها سائر أراضى القطر المصرى .

٣ - يمكن للشركة فيما بعد إما بنفسها وإما بمن تلقى الحق عنها موالاة الانتفاع بهذه الأراضى واستمداد المياه اللازمة لاستثمارها وذلك فى مقابل توفية الحكومة المصرية الضرائب المفروضة على الأراضى المماثلة لها .

(مادة ١١)

يرجع الى الرسوم الملحقه بهذا البيان فى تعيين مساحة الأراضى المنفوحة للشركة وحدودها طبقا للفقرتين (١ و ٢) من المادة العاشرة السابقة والأراضى المنفوحة لإنشاء الأبنية وملحقاتها من الضريبة ووالاتاة وفقا للفقرة الاولى ملونة من الرسوم المذكورة باللون الاسود . أما الأراضى التى تركت للشركة لتقوم بزراعتها على أن تدفع عنها بعض الرسوم وفقا للفقرة الثانية فقد لونت باللون الأزرق .

تعتبر باطلة كل وثيقة لاحقة لفرماننا الصادر فى الثلاثين من شهر نوفمبر سنة ألف وثمانمائة وأربع وخمسين تنشىء للأفراد قبل الشركة ، أما حفا فى المطالبة بتعويض لم يكن قائما اذ ذاك على الأراضى وأما حقا فى المطالبة بتعويضات تفوق القدر الذى كان يجوز لهم المطالبة به فى ذاك الحين .

(مادة ١٢)

تسلم الحكومة المصرية عند الاقتضاء الى الشركة الاراضى التى يملكها الافراد والتى تلزم الشركة حيازتها لتنفيذ الأعمال واستغلال الالتزام على أن تدفع الشركة التعويضات العادلة لمستحقيها .

تسوى التعويضات عن الاستيلاء المؤقت أو نزع الملكية النهائية تسوية ودية بفدر الامكان وفى حالة عدم الاتفاق تحدد التعويضات هيئة تحكيم مباشر عملها باجراءات مختصرة تؤلف من :

١ - محكم تخزينه الشركة .

٢ - محكم يختاره اصحاب الشأن .

٣ - محكم ثالث معين منا .

وتكون قرارات هيئة التحكيم هذه نافذة وغير قابلة للاستئناف .

(مادة ١٣)

ترخص الحكومة المصرية للشركة المتزمتة طيلة مدة الالتزام فى أن تستخرج من المناجم والمحاجر الداخلة فى الاملاك العامة جميع المواد اللازمة لأعمال البناء ولصيانة المنشآت والمباني التابعة لها دون أن تدفع عن ذلك اى رسم أو ضريبة أو تعويض .

شركة فوق ذلك من أداء الرسوم الجمركية ورسوم الدخول وغيرها على الآلات .. والمواد التى تستوردها من الخارج سدا حاجة مخدلف اقسامها خلال مدة الانشاء أو الاستغلال .

(مادة ١٤)

نعلن رسميا باسمنا وباسم خلفائنا أن القناة البحرية الكبرى من السويس الى الطينة والرافق التابعة لها مفتوحة على الدوام بوصفها ممرا محايدا لكل سفينة تجارية عابرة من بحر الى آخر دون تمييز أو

حرمان أو تمصيل بين الأشخاص أو الجنسبات في مقابل دفع الرسوم ومع مراعاة الأنظمة التي تفرضها الشركة العامة الملتزمة فيما يتعلق باستخدام القناة المذكورة وملحقاتها وذلك بشرط اقرار الباب العالى .

(مادة ١٥)

يترتب على المبدأ المقرر في المادة السابقة أنه لا يجوز للشركة العامة الملتزمة في أى حال من الأحوال أن تمنح أية سفينة أو شركة أو فرد أية فوائد أو امتيازات لا تمنح لغيرها من السفن أو الشركات أو الأفراد في نفس الأحوال .

(مادة ١٦)

مدة الشركة محددة بتسع وتسعين سنة تبتدىء من تاريخ انجاز الأعمال وافتتاح القناة البحرية للملاحة . وتتسولى الحكومة المصرية لدى انقضاء هذه المدة على القناة البحرية التي أنشأتها الشركة . وتتسلم الحكومة في هذه الحالة جميع الآلات والمثبوتات المخصصة للخدمة البحرية للمشروع مع توفية الشركة قيمتها محددة وديا أو بواسطة الخبراء . على أنه إذا احتفظت الشركة بالتزام لمدة متتالية كل منها تسع وتسعون سنة ، رفع الاستقطاع المشروط لصالح الحكومة المصرية في المادة الثامنة عشرة المذكورة بعد الى عشرين في المائة في المدة الثانية والى خمسة وعشرين في المائة في المدة الثالثة وهكذا على التوالى بزيادة خمسة في المائة لكل مدة دون أن يتجاوز هذا الاستقطاع بحال من الأحوال خمسة وثلاثين في المائة من صافى أرباح المشروع .

(مادة ١٧)

تعويضاً للشركة عن نفقات البناء والصيانة والاستغلال التي كلفت بها بمقتضى هذا فرمان نرخص لها من الآن وطيلة المدة التي تتمتع فيها بالتزام وهي المدة المبينة في الفقرتين الأولى والثالثة من المادة السابعة في أن تفرض وتتقاضى عن المرور في الأقنية والمرافىء التسابعة

لها رسوما لملاحة والارشاد والقطر والسحب والرسوم ونفسا
لتعويضات لها أن تعدلها في كل وقت مع مراعاة الشروط الصريحة
الآتية :

١ - تحصل هذه الرسوم دون استثناء أو تمييز على جميع
السفن بشروط مماثلة .

٢ - فنشر التعريفات قبل ثلاثة اشهر من العمل بها في عواصم
البلدان التي يعنىها الامر وفي مراغئها التجارية الرئيسية .

٣ - لا يزيد رسم الملاحة الخاص على حد أقصى قدره عشرة فرنكات
عن كل طن من حمولة السفن وعن كل فرد من المسافرين .

ويجزز للشركة أيضا في الحالات التي تمتد الافراد فيها بالمياه
بناء على طلبهم طبقا لنص المادة الثامنة المتقدمة أن تتقاضى منهم وفقا
لتعريفات تحددها رسما بتناسب وكمية المياه المستهلكة ومساحة
الأراضي التي يتم ربيها .

(مادة ١٨)

على أنه في مقابل الأراضي المتنازل عنها والامتيازات الأخرى
المنوحة للشركة بمقتضى المواد السابقة نحتفظ لصالح الحكومة
المصرية بحق استقطاع ١٥ في المائة من صافي الأرباح السنوية التي
تحددها وتوزعها الجمعية العمومية للمساهمين .

(مادة ١٩)

يجب أن تعتمد بقرار منا قائمة الاعضاء المؤسسين الذين اشتركوا
بأعمالهم وبحوثهم وأموالهم في تحقيق المشروع قبل تأسيس الشركة .
وبعد استقطاع الحصة المنصوص عليها لصالح الحكومة المصرية
طبقا للمادة (١٨) المتقدمة ذكرها يخصص جزء من صافي أرباح المشروع
السنوية قدرها ١٠ في المائة للأعضاء المؤسسين أو لورثتهم أو لمن يحل
محلهم في حقهم .

(مادة ٢٠)

بغض الدظر عن الوقت اللازم لتنفيذ الاعمال يرأس صديقنا ووكيلنا
المسيو فردينان ديلسبس الشركة ويديرها بوصفه مؤسساً أول لها
وذلك لمدة عشر سنوات تحرى من اليوم الذى تبدأ فيه مدة التمتع
بالالتزام وقدرها تسع وتسعون سنة وفقاً للمادة (١٦) .

(مادة ٢١)

تعتمد الأنظمة المرافقة للشركة المنشأة تحت اسم (الشركة العامة
لقناة السويس الكبرى) ويعتبر هذا الاعتماد بمثابة ترخيص لتأسيس
الشركة في شكل الشركات المساهمة اعتباراً من اليوم الذى يتم فيه
الاكتتاب في كامل رأس المال .

(المادة ٢٢)

واظهاراً لرغبتنا الأكيدة في نجاح المشروع فانتبا نعهد الشركة
بتعزيد الحكومة المصرية لها تعزيدا خالصا . ونحث صراحة بمقتضى
هذا جميع الموظفين والمأمورين والعمال في أقسام ادارتنا على امدادها
بالمساعدة وحمايتها في كل مناسبة .

ولما كنا قد وضعنا مهندسينا (لينان بك) و (موجل بك) نحت
تصرف الشركة فيما يتعلق بإدارة وتسيير الاعمال التى تأمر بهما
فاننا نعهد اليهما كذلك بالاشراف الأعلى على العمال وعليها تنفيذ
اللوائح الخاصة بمباشرة الأعمال .

(المادة ٢٣)

تلغى جميع الأحكام الواردة في فرماننا الصادر في ٣٠ من نوفمبر
سنة ١٨٥٤ وغيرها من الأحكام التى تتعارض مع نصوص واحكام
شروط الالتزام هذه . . . وهى التى تعتبر وحدها قانوننا للالتزام بالنصوص
على حدوده وشروطه فيها .

صدر بالاسكندرية في ٥ يناير سنة ١٨٥٦ .

الى صديقى المخلص الكريم المحتد والرفيع المقام المسيو فردينان
ديلسبس .

بما انه يجب تصديق عظمة السلطان على الالتزام الممنوح للشركة
العامه لقناة السويس فانى ارسل لكم هذه الصورة الرسمية لتتمكنوا
من تأسيس الشركة المذكورة من الناحية المالية .

اما اعمال حفر البرزخ فتستطيع الشركة مباشرتها حالما يصدر
ترخيص الباب العالى لنا .

القاهرة فى ٢٦ ربيع الثانى ١٢٧٢

الموافق ٥ من يناير ١٨٥٦

وفى ١٥ ديسمبر تأسست الشركة العالمية لقناة السويس البحرية
شركة مساهمة مصرية برأس مال قدره ٢٠٠ مليون فرنك فرنسى
مقسم على ٠٠٠ ر ٤٠٠ سهم كل منها قيمته ٥٠٠ فرنك . وكان نصيب
مصر من الاسهم ١٧٦٦٠٢ سهمًا قيمتها ٨٨٣ مليون فرنك ، أى
ما يساوى نصف رأسمال الشركة . أما باقى الاسهم فقد وزع على عدد
من الدول .

وفى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ بدأ حفر القناة من مدينة فرما (موقع
بور سعيد الحالية) وتقدمت الأعمال بسرعة على ايدى المصريين
المسخرين لهذا العمل ، وفى ظروف قاسية منها نقص الماء
والغذاء وحرارة الشمس ، فضلا عن انتشار الأمراض والابوئة ، حتى
يقدر بعض المؤرخين ان هناك زفات ١٢٠ ألف مصرى طوتهم رمال
الصحراء على طول القناة فى سنوات حفرها أى حتى عام ١٨٦٩ .

وفى ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ تم وصل البحر المتوسط ببحيرة النمساخ
التي تقع فى منتصف الساعة تقريبا بين بور سعيد والسويس .

وفى ٦ يوليئ ١٨٦٤ طالب الخديو اسماعيل بتعديل فرمــانى
الاهتياز الممنوحين للشركة على عهد سعيد باشا ، وذلك بالغاء
(م ١١ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

السخرة في أعمال القناة وتخفيض مساحة الاراضى المنزوعة للشرطة واسترداد قناة المباء العذبة التى تم حفرها في ٢ فبراير ١٨٦٢ لتوصيل المباء من النيل الى مزارع العمل . فوافق ديلسبس على مطالب الخديو مقابل منح الشركة تعويضا قدره ٨٤ مليون فرنك ، وذلك بناء على تحكيم نابليون الثالث امبراطور فرنسا . وكانت الشركة وقتئذ في مسيس الحاجة الى المال لتمويل الاعمال الجارية في المشروع .

وفي ١٨ مارس ١٨٦٩ تم وصل البحر المتوسط بالبحيرات المرة المرة وسط مهرجان كبير حضره الخديو اسماعيل وولى عهد انجلترا .

وفي ١٨ اغسطس ١٨٦٩ تدفقت مياه البحرين المتوسط والاحمر ، وتالف منهما قناة السويس . وهكذا انتهت الاعمال في هذا المشروع الضخم الذى استغرق تنفيذه عشر سنوات . وقد بلغت تكاليف المشروع ٣٦٩ مليون فرنك اى ما يزيد قليلا على اربع عشرة مليون جنيهه وضعف المبلغ الذى كان مقدرا لانجازه .

ومع بدايات شهر نوفمبر ١٨٦٩ بدأت الاستعدادات لاحتفالات افتتاح القناة .

وبدا مركب الملوك والامراء وكبار الشخصيات (نحو ٦٠٠٠ من دول العالم كله) يدخل ميناء بور سعيد يوم ١٦ نوفمبر . وكانت آلاف المصريين في انتظار المركب لحظة دخوله للقناة ، وكانت الباخرة (ايجل) وعلى سطحها امبراطورة فرنسا اوجيني تدخل القنطرة ثم التمساح وهى تلوح بمنديلها للمستقبلين .

وقد شيد اسماعيل من اجل رفاهية ضيوفه قصرا فخما على شاطئ بحيرة التمساح و ١٢٠٠ خيمة لاقامتهم ، وانشأ طريقا من القاهرة الى اهرام الجيزة ، اتمه عشرة آلاف عامل في شهر واحد ، واقام دارا للأوبرا .

وفي ليلة ١٦ نوفمبر ، حين اكتمل وصول سفن المدعوين الى بورسعيد بدأت مراسم الحفل العظيم ، واخذت الموسيقى تعزف بين دوى المدافع .

وأنفق اسماعيل على هذه الاحتفالات أكثر من مليون جنيه ، وهو رقم ضخم جدا بقيمة العملة في ذلك الوقت .

وفي يناير ١٨٧٥ لم تتمكن الشركة من سداد الفوائد المستحقة على الاسهم للمساهمين بسبب ضعف حركة الملاحاة . وهنا لجأ الخديو اسماعيل لحاجته الماسة الى المال الى بيع اسهم مصر في القناة الى انجلترا بمبلغ مائة مليون فرنك (٠٠٠ ر ٨٥٨ ر ٣ جنيه) وكانت انجلترا تهدف من هذه العملية وضع قدم لها في الشركة .

وتوالت الامور بسرعة ، وأحست انجلترا بالقيمة الكبرى للقناة . . ورات أن تستولى عليها بل على مصر كلها تأميننا لطرق مواصلاتها مع جوهرة التاج البريطانى (الهند) . وهكذا تنتهز انجلترا الفرصة ابان الثورة العرابية (١) وتدعى أنها حامية للخديو ضد عرابى وتحتل مصر كلها تأميننا لمواصلاتها الامبراطورية .

الفصل الخامس

الثورة العراقية

تميزت الفترة السابقة للثورة العرابية بسيطرة الاتراك والشراكسة على الحياة المدنية والعسكرية في مصر ، بل ان رياض باشا رئيس الوزارة في الفترة السابقة للثورة كان لا يميل الى ترقية الضباط المصريين ليفسح المجال لأصدقائه من الاتراك والشراكسة للترقى الى أعلى المناصب (١)

وبصف الزعيم أحمد عرابي هذه الحالة في مذكراته « ٠٠٠ لقد تحملت مدة ولاية اسماعيل الجائزة بكل صبر ونبات تحت ضغط الظلم والاستبداد ، ومكثت برتبة القائم مقام مدة نسع عشرة سنة أنظر الى صغار الضباط الذين كانوا تحت ادارتي في عهد سعيد واسماعيل باشا وهم يترقون دوني ، فترقى بعضهم الى رتبة أميرالاي وبعضهم الى رتبة أمير اللسواء وبعضهم الى رتبة الفريق ، لا بعلم علموه من دوني ولا بفهم خارق للعادة ولا بشجاعة أبرزوها في ميادين القتال ، ولكن لكونهم من ممالك أو أبناء ممالك العائلة الخديوية ، فاصطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجوارى الحسان والاراضى الواسعة الخصبة والبيوت الرحبة وحباهم باموال كثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين المساكين وعرق جبينهم » (٢) .

وينسخ من هذا الوصف امران ٠٠٠ اولهما ما كان يلاقيه المصريون من عذت حتى ان ضابطا مصرياً ظل تسعة عشر عاما في رتبة واحدة ، وثانيهما سوء توزيع الارض الزراعية . فقد كانت هذه الارض توزع كما ذكر عرابي على الممالك ، أو أبناء ممالك العائلة الخديوية بينما كان المصريون يتضورون

Newman - Great Britain in Egypt p. 53.

(١)

(٢) أحمد عرابي ، مذكرات عرابي ، الجزء الاول صفحة ٤٥ .

حوعا ، بل انهم كانوا يروون الارض بعرقهم ، ودمائهم لننعم بحيراتها تلك
الطفة المسيطرة المستغلة .

ولعلنا نتساءل كيف ان هذا المجتمع ظل بهذه الصورة بعد ان ارسل
محمد على البعثات التعليمية في مختلف فنون المعرفة الى اوربا منذ أكثر من
خمسين عاما ، وهل ساعدت البعثات التعليمية على ايجاد فئة تحس بالمظالم
الواقعة عليها أم لم تساعد .

وما من شك في ان هذه النهضة التعليمية ، كان لابد وان تؤتى ثمارها
في امداد المجتمع بطائفة من المثقفين والفنيين اللازمين لتطوير المجتمع ، كما
ساعدت هذه النهضة التعليمية على خلق تيارات فكرية عصرية اشجعت
المصريين بمدى الظلم الواقع عليهم (١) .

وكان من أهم مظاهر اليقظة العلمية الجديدة ، تأسيس الصحف على يد
طائفة من العلماء والادباء المصريين ، وقد كان لهذه النهضة الصحفية أثرها
الفعال في تغذية الرأي العام بالآراء والافكار المصرية .

وبدأت أسباب الاحتكاك بين الرأي العام في مصر والحكومة منذ بدأت
أحوال الخزافة تسوء كنتيجة حتمية لسياسة البذخ والاقتراض التي التزمها
اسماعيل ، مما مهد الطريق للتدخل الاجنبي في شئون البلاد .

وتوالى الاحداث بسرعة ، وأصبح التدخل الاجنبي في شئون البلاد
يتفاعل تفاعلا طرديا مع سوء أحوالها الاقتصادية ، فبعد ان رهن اسماعيل
كل موارد الدولة لضمان سداد الديون ، قام ببيع أسهم مصر في القناة لـ إنجلترا
بثمان بحس ، ثم اقترح اسماعيل نفسه حضور بعثة تحقيق انجليزية لفحص
المالية المصرية ، وجاءت بعثة « كيف » بالفعل لانجاز هذه المهمة ووضعت هذه
البعثة تقريرا اقترحت فيه ان تخضع المالية المصرية للمشورة الاوربية ، وذلك
بانشاء هيئة رقابة يرأسها انجليزي على ان يحترم الخديوي قراراتها . الا
ان فرنسا عالت تنفيذ هذا الاقتراح بعد ان رأت فيه استئثارا من جانب
إنجلترا بالسيطرة على مصر .

(١) انظر التعليم في عصر محمد علي وعصر اسماعيل في الفصلين الثاني
والثالث .

ثم اسندت الازمة المالىة . ومن ثم أصدر اسماعيل نفسه مرسوما سنة ١٨٧٦ بإنشاء صندوق الدين ، وكان هذا الصندوق أول هيئة أوربية رسمية لدرء التدخل الأجنبي في شئون مصر .

واضطر اسماعيل تحت الضغط الانجليزى الى قبول نظام المرافة الثنائية وهكذا خصعت المالىة المصرية للرقابة الأجنبية واصبح هناك مراقبان أحدهما انجليزى للايرادات والثانى فرنسى للمصروفات .

ورغم ذلك ازدادت الحالة سوءا ، فاضطر اسماعيل الى اصدار مرسوم بتأليف لجنة أوربية عرفت بلجنة التحقيق العليا لدراسة أسباب العجز ووسائل اصلاح المالىة المصرية . ورات اللجنة ان يحل محل الرقابة الثنائية وزارة مختلطة فيها وزيران أوربيان أحدهما انجليزى للمالىة والثانى فرنسى للأشغال ، وقد قبل اسماعيل هذا الاقتراح .

وقد تقلد نوبار هذه الوزارة ، وهو ارمنى متمصر عرف بولائه للأجانب ، والسير في ركابهم .

وقد استقبل الشعب هذه الوزارة بالسخط الشديد ، وقد ساعد على ذلك شعور الاستنكار تلك التيارات الفكرية الواعية والخصبة ، وذلك الطائفة الفذة من قواد الراى والفكر الذين شحنوا الأذهان بأفكار القومية والحرية ويكفى أن نذكر أسماء جمال الدين الأفغانى ورفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده ، وغيرهم ، حتى نتبين شعور الشعب نتيجة لتشكيل هذه الوزارة الأجنبية .

وقد قامت وزارة نوبار عن عمد باهمال الجيش المصرى اهمالا شديدا ، وكانت سياسة الأجانب تقوم على اضعافه حتى لا يقف في طريقهم حينما تأتى ساعة التدخل العسكرى فكانوا بذلك يمهدون الطريق للاحتلال .

وكان من جملة التدابير التى قامت بها وزارة نوبار ازاء الجيش تسريح عدد كبير من الجنود تحت ستار الاقتصاد في النفقات ، كما أحالت ٢٥٠٠ ضابط دفعة واحدة الى الاستيداع .

وهكذا كان هناك المثير المباشر لحركة عسكرية ضد السلطة القائمة وان كانت هذه الحركة العسكرية تمثل سخط الشعب كله على الوزارة الأوربية ، وعلى اردباد التدخل الاجنبى فى شئون البلاد . وفى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ عقد نحو ٦٠٠ ضابط اجتماعا فى ثكنات العباسية وخرجوا فى مظاهرة ضخمة انضم اليها طلبة المدرسة الحربية ونحو ٢٠٠٠ جندى ، وساروا فى شوارع القاهرة بهذا الموكب قاصدين وزارة المالية ، وفى الطريق قاموا بالقبض على نوبار رئيس الوزراء وكذلك على وزير المالية البريطانى واتجهوا بهم الى وزارة الخارجية وسجنوا رئيس الوزراء والوزير فى احدى غرفها .

وقد قدمت الوزارة النوبارية فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ استقالتها بعد الاهانة التى لحقت بها ، وعهد الخديو الى نجله محمد توفيق تاليف الوزارة الجديدة (١) .

« ولقد كانت مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ اول عصيان عسكرى من نوعه ضد السلطة السياسية (٢) » . وقد استغل الاجانب نقمة الشعب المصرى على الخديو فسعوا لخلعه ، وكانوا ايضا مشتركون فى النقمة عليه لاعتقادهم بعدم اخلاصه للوزارة الأوربية واسرعه فى قبول استقالتها وتاليفه وزارة برئاسة نجله تحل محلها .

وهكذا أرسل الأجانب يقترحون عليه التنازل عن الحكم ، فأجاب اسماعيل بأنه مستعد لاعادة المراقبة الثنائية الى ما كانت عليه ، فرفضوا وعرضوا عليه فى حالة التنازل مرتبا ضخما على أن يتولى السلطة ابنه توفيق فطلب اسماعيل مهلة يومين للتفكير ، وجاءه القنصلان الانجليزى والفرنسى يطلبان الرد فى الأجل الموعود ، فأخبرهم اسماعيل بأنه نقل المسألة الى السلطان .

(١) أمين سعيد : سلسلة كتب تاريخ مصر السياسى الحديث (١٢) ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ١٦٧ .

وفي ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ أصدر السلطان مرسوما بخلع اسماعيل وتولية توميق بدلا منه ، ومن ثم غادر القاهرة في ٣٠ يونيو الى ايطاليا (١)

وفي مدى ثلاثة أشهر نالت ثلاث وزارات هي وزارة شريف ، ثم الوزارة التي رأسها الخديو توفيق بنفسه ٧ ثم وزارة رياض باشا التي تالفت في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ .

وقد تأكد لدى المواطنين أن حكومة رياض باشا قد قبلت المراقبة التي تحولت الى أداة تفويض سيطرة انجليزية - فرنسية على مصر عندما شاهدوا التعاون الوثيق بين رئيس الوزراء والمراقبة . ومن ثم انتشر التذمر ضد « العهد الجديد » وكره الشعب نظاما اعتبره امتدادا للظلم الذي تحمله لصالح الأجانب وسار المصريون بخطى سريعة في طريق الثورة ضد حكومة الخديو الضعيفة المستسلمة للنفوذ الأجنبي ، ولم يجد الساخطون وسيلة لانهاء هذه الحالة (سرى المطالبة) « بتأسيس الحكومة على قواعد الشورى ، ومنح بعض المنتخبين من الأهالي حق المشاركة في كليات أعمال الحكومة » . ومعنى هذا تقييد السلطة التنفيذية كإجراء ضروري لانهاء النفوذ الأجنبي المسيطر عليها ، وكان بسبب هذا التذمر ان نشأ حزب سرى من المثقفين والأغنياء سموا أنفسهم بالحزب الوطنى وجعلوا مركز حزبهم في حلوان . ولم يكن هؤلاء هم المتذمرين فقط من الحكومة ، بل انتشر التذمر كذلك بين رجال الجيش نتيجة للغبن الواقع عليهم واستئثار الطبقة التركية بالمناصب العليا في الجيش (٢) . وهكذا ولد الاحساس بالظلم والشعور بالثورة .

وقبل أن نستعرض في الكلام عن الثورة العربية ، يجب أن نتحرى بايجاز شديد العوامل التي دفعت الى قيام هذه الثورة .

ولالوهلة ، توصف ثوره عرابى بأنها ثورة عسكرية ، لان زعيمها والقائمين عليها هم من ضباط الجيش ، ولأنها قامت وتحركت بقوة الجيش ، ولكن مما لا ريب فيه أنها ليست ثورة عسكرية فحسب،

(١) أمين سعيد (المصدر السابق) ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

بل هي أيضا ذرره وطنية استركت فيها طبقات الأمة كافة ، وإذا اردنا أن نحلل أسبابها وجدناها على نوعين : أسباب خاصة مباشرة ، وهي المرتبطة بفئة الضباط والجنود بموقفهم من الحكومة وموقف الحكومة منهم ، وأسباب عامة وهي التي تتصل بحالة الشعب والعوامل التي دفعتهم الى مناصرة الثورة وتأييدها (١) .

الأسباب المباشرة :

ترجع الأسباب الى الشعور بالظلم بين ضباط الجيش نتيجة لاستئثار الجراكسة - والأتراك - كما قلنا - بالمناصب العليا في الجيش ، ولاستئثار هذه الفئة أيضا بالمرتبات والخدمات والامتيازات في حين ظل الضباط المصريون محرومين من هذا كله .

كما يرجع تذمر الضباط المصريين الى أيام حملة الحبشة سنة ١٨٧٦ ، وذلك لسوء تصرف القيادات وإهمالها الذي أودى بحياة الألوف من الجنود ، فتكونت من هؤلاء عند عودتهم جمعية سرية ، كان من رجالها أحمد عرابي وعلى فهمي وعلى الروبي ، وكان غرضهم في هذا الوقت المبكر الى جانب التخلص من الفئة الشركسية التركية في الجيش وفتح باب الترقى للمصريين ، القضاء على حكومة الخديوي اسماعيل وعزل الخديوي نفسه ثم تعرف أحمد عرابي بالشيخ محمد عبده ومحمود سامي البارودي ويعقوب سامي وغيرهم ، وحدث أول تأزر بين العسكريين والوطنيين في حادث مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ (٢) .

ولا شك أن وجود عثمان رفقي وزيرا للحربية في عهد وزارة رياض باشا - التي شعلت الثورة في عهدها - كان سببا في حد ذاته من أسباب الثورة . فقد كان شركسيا متعصبا للضباط الذين هم من أصل شركسي أو تركي . على أن المظالم التي عانى منها الضباط المصريون ، لم تكن تتوقف

(١) عبد الرحمن الرافعي - الزعيم الثائر 'حمد عرابي - الطبعة الثالثة

ص ١٥ - ١٦ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٠٠ .

عند حد حرمانهم من حقوقهم في الترقى ، بل كانوا هدفا للاضطهاد كذلك .
اذ كان يكفي أن تلصق بأحدهم تهمة ما ولو كانت كاذبة ليكون جزاؤه العزل
أو النفي ، فالثورة العرابية كانت ثروة مشروعة للدفاع عن الحق والدفاع
عن الحياة . ولا جدال في أن ظهور أحمد عرابي على مسرح الحوادث ، كان
من الأسباب المباشرة للثورة ؛ فهو الذي بث في نفوس الضباط روح التضامن
والاتحاد للمطالبة بالحقوق المهضومة .

الأسباب السياسية :

ترجع تلك الاسباب الى تدمير المصريين بصفة عامة من سوء نظام الحكم
القائم ورغبتهم في التخلص منه ، فتمتد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام
واضطهادهم للمواطنين .

فالمصريون اذن كانوا يتطلعون الى التخلص من نظام الحكم القائم ،
وقد أدرك المثقفون من الأمة أن اصلاح هذا النظام إنما يكون بقيام الدستور
وانشاء مجلس نيابي يرطد مبادئ العدل والحرية ويتحقق فيه معنى
الرقابة على الحكام ، ويحول دون ارتكاب المظالم . . . ومن هنا اتحدت
الفئة المثقفة من الامة مع الضباط والوطنيين في الشعور والميول وأجمع الكل
على المطالبة بالمجلس النيابي ، فالثورة العرابية من هذه الوجهة كانت ثورة
على المظالم .

وبينما كانت فئة المثقفين ترتقب اعلان الدستور على يد الخديو توفيق
اذا بهم يرون شريف باشا يستقيل لمعارضة توفيق تشكيل مجلس النواب
واصراره على الحكم المطلق ، ثم تكليفه رياض باشا بتأليف وزارة كان من
مبادئها الأساسية حكم البلاد حكما مطلقا ، وهكذا عارض رياض في انشاء
مجلس النواب وانحاز للنفوذ الاوربي ، وأصر على قمع كل معارضة بالشدة ،
كما انذرت الصحف المعارضة وعطلت بعضها . ولقد كان للصحف المعارضة
دورها البارز ، فما كانت تبثه من روح التبرم بنظام الحكم والتطلع الى
الحرية والدستور وما لقيته من اضطهاد ، كل ذلك كان من الأسباب الممهدة
للثورة والمحرضة عليها .

الأسباب الاقتصادية :

كانت الأحوال الاقتصادية في ذلك الوقت شديدة الوطأة على المواطنين، فان الديون التي امترضها الخديوى اسماعيل ، ألقت على البلاد عبثا جسيما من الأثقال الفادحة ، واضطرت الحكومة الى تخصيص نصف موارد الميزانية لسداد فوائد الديون ، فكان ذلك سببا لتذمر المواطنين ، لأن تخصيص هذا المبلغ الضخم الذى يجبى كل عام من عرق الفلاح وكده معناه حرمان المواطنين من ثمرة جهودهم واضاعتها لحساب الدائنين ، هذا فضلا عن فداحة الضرائب في مجموعها ، وعدم توزيعها توزيعا عادلا واقتضائها بوسائل القهر والارهاق ، فانضم المواطنون "، الثورة وشابعوها آمليين أن تخفف عنهم أعباء الضرائب .

وكان استفحال نفوذ الاجانب عامة واستحراذهم على مرافق البلاد الاقتصادية قد أدى الى تبرم الأهالى بنظام الحكم ، فان الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها وإلذايا التي نالها التجار والمرابون منهم اكسبتهم الأموال الطائلة ، فاثروا على حساب الخزانة المصرية وعلى حساب المواطنين .

ومن مظاهر سياسة الحكومة الاقتصادية انقاص عدد الجيش توفيراً للنفقات وسواء كان هذا الانقاص بسبب الأحوال الاقتصادية أو لضعاف الجيش عمدا ، فمما لا شك فيه أن حالة الكثير من الضباط الى الاستيذاء ، قد أدى الى مشاركة هؤلاء للموظفين الذين راوا مظاهر اتساع سلطة الأوربيين وازدياد نفوذهم في دور الحكومة وتمييزهم بالرواتب الضخمة مما ملا نفوسهم بروح السخط والتبرم .

الأسباب الاجتماعية :

ان حالة المجتمع المصرى كانت تؤهل في ذلك الوقت لتلبية نداء الثورة وذلك كما قلنا - نتيجة لشعور المواطنين بالمظالم الراقعة عليهم ، فانتشار التعليم في عصر محمد على والبعثات التي أوفدها هذا الوالى ، والنهضة الادبية التي صاحبت النهضة العلمية ، والصحافة التي ادلت بحلولها في ترقية الأفكار ، وتأثير جماعة من الممكرين على رأسهم السيد جمال الدين الأفغانى في المجتمع المصرى ، كل ذلك أدى الى زيادة الشعور

بالظلم والى ضرورة التغيير (١) .

أحداث الثورة :

منذ مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ تفشى السخط والقلق في صفوف الجيش المصرى وبعد خلع الخديو اسماعيل أصرت لجنة التصفية على صدور مرسوم خديوى بخفض عدد الجيش وترتب على ذلك تسريح نحو ١٣٠٠ ضابط بحيث لم يبق في الخدمة سوى ٥٠٠ ضابط ، أما المسرحون فقد أصبحوا يتقاضون ما بين ربع مرتباتهم ونصفها . ويضاف الى ذلك ان وزير الحربية عثمان رفقى الشركسى الأصل أمرا عسكريا بقفل باب الترقية في وجه الضباط الوطنيين (٢) .

وفي وسط هذه المظالم ، تطلع ضباط الجيش الى رجل منهم يتولى زعامتهم وتوحيد كلمتهم للمطالبة بحقوقهم ، فوجدوا في أحمد عرابى ذلك الزعيم . ويمكن تحديد سنة ١٨٨١ لبدا زعامته العسكرية على معضد ضباط الجيش ، وفي هذه السنة كان عثمان رفقى يتولى وزارة الحربية وكان وحده من أسباب ظهور الثورة العرابية ، وآخر ما وقع منه ، مما عجل بالثورة أنه أصدر أمرا بنقل الأميرالاي عبد العال حلمى - حد زعماء الثورة فيما بعد - قائد آلاى طره الى ديوان الجهادية (وزارة الحربية) وجعله معاوننا بها ، وفي هذا انقاص من درجته ومركزه .

وكانت هذه الحادثة البسيطة هي القطرة التى أفاضت الاناء ، أو الشرارة التى أوجدت الثورة اذ سرعان ما اجتمع الضباط المصريون في دار أحمد عرابى واتفقوا على كتابة « عريضة » الى رئيس الوزراء رياض باشا يطلبون فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى .

ويعد هذا الاجتماع فاتحة الثورة العرابية ، لأن تعاهد كبار الضباط على مقاومة تنفيذ الأوامر العسكرية والجهر بمناصبه وزير الحربية العداء والمطالبه بعزله واختيارهم عرابى زعيما لهم في هذه الحركة . كل ذلك معناه الخروج على النظام وتحدى الحكومة .

(١) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ١٦ - ٣١ .

(٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - مصر والمسألة المصرية ص ١٣٥ .

وفي ١٧ يناير سنة ١٨٨١ قدم الضباط الثلاثة أحمد عرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي العريضة الى رياض باشا الذي وعدهم بالنظر في الأمر . وبعد اسبوع من هذه المقابلة ذهبوا الى داره وقابلوه ثانية وسألوه عما تم في أمر العريضة فأجابهم مهددا متوعدا . فلم يتراجع عرابي وصاحبه أمام هذا التهديد وأصروا على طلباتهم ، وانتهى الحديث بأن أخبرهم بأنه سينظر في الأمر ، وانصرفوا على ذلك .

لجتمع مجلس الوزراء يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨١ في سراي عابدين برئاسة الخديو وبحت في أمر هذه العريضة . فاستقر الرأي على وجوب محاكمة الضباط الثلاثة والقبض عليهم لتقدمهم الى المجلس العسكري ، وأخذ عثمان رفقي على عهده تنفيذ القرار وأن يخون مسئولا اذا حدث ما يخل بالأمن . ولم يعرف الضباط الثلاثة ما قدره مجلس الوزراء في شأنهم ، ولم يخطرهم عثمان رفقي بأمر القبض عليهم . بل نفذ بطريقة ملتوية لا تدل على شعور الحكومة بهيبتها وسلطانها ، وذلك أنه تحايل عليهم وأرسل اليهم مساء ذلك اليوم بطاقات يدعهم فيها الى الحضور لديوان الوزارة - بقصر النيل - صباح اليوم التالي بحجة المداولة معهم في ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديوي (١) .

وفي أول فبراير سنة ١٨٨١ عقد مجلس عرقي في ثكنات قصر النيل ، ولكن أنباء المؤامرة تسربت الى الضباط الثلاثة عن طريق زوجة رياض - وكانت مصرية - فاستعد الجيش للموقف ، وحين بدأت محاكمة الضباط الثلاثة تصدت كتائب الجيش لاطلاق سراحهم ، ثم توجهت الى ميدان عابدين حيث كررت المناداة بمطالب الضباط . وكان موقف الحكومة مبهوسا منه ، بعد أن انضم الجيش بأسره - باستثناء حفنة الأتراك والشراكسة - الى الضباط الثلاثة . وحين اعترف الخديو لقنصلي إنجلترا وفرنسا بأنه لا نصير له في الجيش ، نصحاه باقالة عثمان رفقي تفاديا لحدوث كارثة ، وتم تعيين محمود سامي البارودي - وكان قد قام بدور الوساطة اثناء هذه الحادثة وحصل على ثقة الضباط الوطنيين رغم أصله الشركسي - وزبرا

(١) عبد الراحمن الرافعي - الزعيم الثائر أحمد عرابي ص ٣١ - ٣٦ .

للحربية بالاضافة الى منصبه السابق كوزير للأوقاف (٢) .

ولم يكن لواقعة قصر النيل أثرها في الجيش فحسب ، بل كان لها أثر بالغ في الأمة . اذ جعلت لعرابي مكانة كبيرة في البلاد ، والواقع أن الحادثة وما قنطوى عليه من الجرأة على الحكومة واطلاق سراح المسجونين وعزل وزير الحربية وتعيين وزير يؤيد الجيش في مطالبه ، كل هذه الأعمال جعلت من عرابي زعيما قوميا اتجهت اليه الأنظار لتحقيق أمانى الشعب .

وكانت المظالم التى شكا منها زعماء الجيش ، تشبه المظالم التى كانت البلاد تشكو منها ، ولم يكن الناس راضين عن الحكومة وسياساتها ، فلا غرو أن اغتبط الناس لتحقيق مطالب الجيش ، وذاع في البلاد اسم عرابي كمنقذ للأمة من المظالم .

ولما اطمأن عرابي الى أن الجيش في قبضة يده والأمة تناصره شرع في احداث الانقلاب الذى كان يرجوه في نظام الحكم ، او بعبارة أخرى اخذ يتأهب لمتابعة الثورة التى بدأها يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ .

وكانت الحكومة من ناحيتها تدفعه الى الثورة دفعا ، بما بدأ منها من الحركات العداائية التى قصدت منها تفريق شمل زعماء الجيش وضباطه تمهيدا للتفكيك بهم ، واخذ الخديوى ينفذ خطته وقوامها تفريق وحدات الجيش ، ونقل الفرق الموالية للحركة الثورية من العاصمة لكي يستبدل بها فرقا أخرى موالية له . . . وهكذا قرر عرابي تحريك الجيش والسير به الى سراى عابدين فى شكل مظاهرة عسكرية لأملأ ارادته على الخديوى ولكى يضع حدا للحالة القلقة التى وصلت اليها البلاد ولاحداث الانقلاب الذى اراده .

وفى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ احتشدت جميع آليات الجيش الرابطة بالقاهرة فى ميدان عابدين لتقديم طلبات الامة الى الخديو ، وقوامها اسقاط الوزارة وتأليف المجلس النيابى وزيادة عدد أفراد الجيش .

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - مصر والمسألة المصرية - ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(م ١٢ تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

وفي هذا اليوم المشهود ، دارت تلك المناقشة الشهيرة بين عرابي والخديو ووصلت المناقشة ذروتها عندما نساءل الخديو عن مطالب الجيش والأمة فأجابه عرابي « هي عزل رياض باشا وتنكيل مجلس النواب وإبلاغ عدد الجيش الى العدد المعين في الفرمانات السلطانية » فقال الخديو ، كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا خديو البلد وأعمل زى ما أنا عاوز ، فقال عرابي جملة التاريخية « ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم » .

وهكذا تراجع الخديو ، وأبدى موافقته على مطالب الجيش والأمة ، وسقطت وزارة رياض ، وكلف شريف باشا برئاسة الوزارة بعد أن وافق عرابي على هذا التعاقب .

وتعد وزارة شريف « وزارة الأمة » وقد ابتهجت الأمة ابتهاجا كبيرا بتأليفها .

وفي مجال الاصلاح الدستوري ، عمدت وزارة شريف الى اجراء الانتخابات العامة ، طبقا لنظام مجلس شورى النواب القديم الذى يجعل انتخاب النواب موكولا الى عمد البلاد ومشايخها في المديرية وجماعة الأعيان في القاهرة والاسكندرية ودمياط . ونم افتتاح مجلس النواب في يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ .

ومن أهم اصلاحات الوزارة بعد الاصلاح الدستوري هو انشاء المحاكم الأهلية ووضع نظامها الجديد ، ففي ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ صدر القانون المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، وهي تتضمن معظم القواعد العامة للنظام القضائى الحالى (١) .

ثم أعد شريف اللائحة الأساسية ، أو الدستور لعرضه على مجلس النواب وكان هذا الدستور يتضمن مبدأ المسؤولية الوزارية أمام المجلس ، ومراقبة أعمال السلطة التنفيذية ، ويعطى للمجلس حق اقرار القوانين ،

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر :

عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابي ص ٥٣ - ٨٧ .

والميزانية والضرائب ، بحيث تعذر على الحكومة فرض أى ضرائب ،
أو استصدار القوانين إلا بعد تصديق المجلس . وكان معنى هذا اعطاء مجلس
النواب حق النظر في الترتيبات اللازمة أو المتصلة بالتسوية المالية ، وذلك
في وقت أشد فيه السخط على أعمال المراقبة الثنائية التي تأسست كما
عرفنا سنة ١٨٧٩ بل على التدخل الاوربي بصفة عامة .

وأزعج فرنسا اعداد هذا الدستور الجديد ، وخصوصا لأن الصحف
المصرية مثل الحجاز والمحروسة ومصر كانت تحمل آنئذ حملات عنيفة
على التدخل الأجنبي ، وعلى الانجليز والفرنسيين على السواء ، فصار
الخوف عظيما من أن تشتد المعارضة ضد هذا التدخل عندما يجتمع
مجلس النواب (١) .

وفي اليوم الثامن من يناير سنة ١٨٨٢ ، توجه السير ادوارد مالت
معتد انجلترا والمسيو سنكفكس المعتمد الفرنسي مجتمعين الى قصر
عابدين وقدا الى الخديو مذكرة مشتركة من الدولتين بتاريخ ٧ يناير
سنة ١٨٨٢ قوامها انهما حيال الحوادث الأخيرة قد اجتمعا على تأييد
سلطة الخديو ، وفحوى المذكرة أن الدولتين انتحلتا لنفسيهما حق القرامة
والرقابة على مصر واقرار الأمن والنظام فيها ، والتدخل في شئونهما
الداخلية . . . وظاهر من عباراتها أن فرنسا وانجلترا كانتا تنظران
بعين الاستياء الى تأليف مجلس النواب ، وقيام النظام البرلماني في مصر
. . . ولم تكتما الاعراب عن هذا الاستياء صراحة في المذكرة اذ جعلتا
من الحوادث الموجبة للتدخل « صدور الأمر الخديوي باجتماع مجلس
النواب » (٢) .

ولقد ثارت ثائرة الرأي العام في مصر على هذه المذكرة بسبب ما انطوت
عليه من معاني التحدى لمجلس النواب أولا ، اى محاولة تعطيل الحركة
الدستورية ، وثانيا تشجيع الخديو على معارضة كل اصلاح . واعتبر

(١) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٠٥ - ٢٠٦

(٢) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٨٨ - ٨٩

المدنيون والعسكريون ان المذكرة تعبر عن خطة عدائية صريحة ضد مجلس النواب لأنها صدرت وقت انعقاده .

وكانت المذكرة تهديدا بالتدخل في وقت لاتدعو فيه حالة البلاد الداخلية الى اتخاذ أية خطوة من هذا القبيل ما دام زعماء الحركة من مدنيين وعسكريين لا يبيغون التعرض للاتفاقيات الدولية التي حددت وضع البلاد السياسي ، أو تلك التي قامت على أساسها التسوية المالية ، وما دام الغرض من حركتهم الدستورية تقييد سلطة الحكومة بأن تصبح مسئولة أمام مجلس النواب .

ولم يلبث أن ظهر التآزر واضحاً بين المدنيين والعسكريين ، أو بين الحزبين الوطني والعسكري داخل مجلس النواب لناواة التدخل الانجليزي الفرنسي ، واصطدم النواب مع وزارة شريف المتعاونة مع المراقبة المالية ، وذلك عندما أصر النواب على أن لهم الحق في تقرير الميزانية على أن لا يتعرضوا للجزء المخصص من الإيرادات للدين العام . وهذا على خلاف ما كان يراه محمد شريف من ضرورة التريث وارجاء البحث في الميزانية حيث أن هذه كان قد صدر مرسوم باعتمادها في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ أي قبل انعقاد مجلس النواب بأسبوع ، ولن يكون هناك بحث للميزانية الا في ختام عام ١٨٨٢ عند النظر في اعداد ميزانية السنة الجديدة (١٨٨٣) .

وكان شريف قيد ارتبط بوعده وعد به المراقبة المالية بعدم تخويل المجلس الحق في تقرير الميزانية بسبب اصرار المراقب المالي الانجليزي والمراقب الفرنسي على حرمان المجلس من هذا الحق بدعوى أنه ولو كان مقصوراً على المصالح التي لم تخصص إيراداتها للدين العام ، فإنه يضر بالضمانات المقررة للدائنين ، إذ أنه كنتيجة حتمية سوف يحل مجلس شورى النواب محل الوزارة في ادارة شئون البلاد فيبطل بذلك عمل (المراقبة) وهو ابداء ملاحظات على تصرفات وزراء مسئولين أمام الخديو وفي وسعه عزلهم اذا أساءوا التصرف ، بينما لا يكون للملاحظات المراقبة أية قيمة عملية أمام مجلس شورى النواب .

وخشى بعض المدنيين مدل الشيخ محمد عبده من أن يؤدي الصدام بين العربيين وبين الوزارة الى اصرار فرنسا على تنفيذ ذلك النعهد بتأييد الخديوية الذى ذكرته المذكرة المشتركة ، مما يخشى منه احتلال البلاد . وكان الخوف من هذا الاحتلال منتشرا من آثار ارسال هذه المذكرة (١) .

وهكذا استقالت وزارة شريف في ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ونألفت وزارة برئاسة محمود سامى البارودى ، وكان من أعضائها أحمد عرابى وزيرا للجهادية والبحرية ، فجاء تأليفها انتصارا ظاهرا للحزب العسكرى (٢) ، واقصاء تاما لسلطة الخديوى وتحديا سافرا للمراقبة الثنائية والتدخل الاجنبى .

ولا شك أن الثورة العرابية بدأت تسلك سبيلا بعيدا عن الحكمة من يوم أن اتفق عرابى وصحبه على اسقاط وزارة شريف وبدأت بذلك مرحلة الشطط ، فان شريف كان بلا نزاع أقدر من البارودى على حسن تدبير الامور فى تلك الاوقات العصيبة ، اذ كان له من ماضيه السياسى ما يجعل له كفاية خاصة فى الاضطلاع بالمهام السياسية .

وقد عظم شأن عرابى بتقلده وزارة الحربية ، فانها الوزارة الوحيدة التى كادت تتطالع اليها الانظار فى ذلك الحين . وفيها كانت تتمثل سلطة الحكم ، فأصبح عرابى الرئيس الفعلى للحكومة ، وزاد من مكانته تقلده رتبة اللواء ولقب الباشورية لما للالاقاب والرتب من الاثر الكبير فى ذلك الوقت وصار له الامر والنهى لا فى وزارة الحربية فحسب بل فى كل وزارات الحكومة .

وقد اقر مجلس النواب الدستور ، وصدر به المرسوم الخديوى فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ وكانت مدة انعقاد المجلس فترة تقدم ونشاط تمتعت مصر خلالها بالهدوء والسكينة ، ولم تكد تنتهى الدورة النيابية حتى اكفهر جو الصفاء ، واخذت الاحداث تتوالى على البلاد . فكان انفضاض المجلس بالانتكاس .

(١) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٢٥ - ٢٢٦
John Marlowe op. cit., p. 119.

(٢)

وأولى الاحداث الداخلية التى انتابت البلاد بعد انفضاض مجلس النواب هى مؤامرة الضباط الشراكسة ٠٠٠ وهى حادثة خطيرة كان لها تأثير كبير فى التطور للثورة العرابية بل فى مصير البلاد قاطبة (١) . فعندما زادت الوزارة من مرتبات رجال الجيش ، ورقّت عددا كبيرا من الضباط الوطنيين ، استاء الضباط الاتراك والشراكسة فتآمروا على حياة أحمد عرابى ورؤساء الحزب العسكرى ، ومن ثم تم القبض على ٤٨ من هؤلاء المتآمرين ومن بينهم عثمان رفقى نفسه وحوكّموا أمام مجلس عسكرى محاكمة سرية ، وفى ٣٠ أبريل سنة ١٨٨٢ صدر الحكم على أربعين منهم بالنفى الى اقاصى السودان (٢) مع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ورفع الحكم الى الخديو للتصديق عليه ، فرآه بالغاً منتهى القسوة ، فامتنع عن اقراره ، وحدث من أجل ذلك خلاف كبير بينه وبين الوزارة اذ اصر على تعديل الحكم وتمسكت الوزارة باقراره ، وانتهى الأمر بان أصدر الخديو (ارادة سنّية) فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى والسماح للمحكوم عليهم بالتوجه ان شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم من رتبهم ونياشينهم ، وقد وقع الخديو هذه الادارة بحضور السير ادوارد والمسيير سنكفكس قنصلى بريطانيا وفرنسا .

على ان هذا التعديل لم يحسم الخلاف بين الخديو والوزراء ، فقد ذهب البارودى الى الخديو عقب توقيع امر التعديل ، ولامه فى لهجة شديدة لنزوله على ارادة قناصل الدول واهماله رأى الوزراء ، وطلب اليه اضافة عقوبة التجريد من الرتب العسكرية الى امر التعديل (٣) .

وقد استعانت الوزارة من تصرف الخديو الذى اجاز تدخل الدول الأجنبية لمحاولة الاستفادة من تعهد فرنسا وانجلترا الذى تضمنته مذكرتهما المشتركة فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ بتأييد الخديوية وقررت الوزارة دعوة مجلس النواب للاجتماع لتعرض عليه الخلاف بينها وبين الخديو .

(١) عبد الرحمن الرافعى الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٩٥ - ٩٩ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٣٣ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٩٩ - ١٠١ .

وذاعت الأنباء عن تصميم العرابيين على خلق الخديو . . وأخير أمكن الوصول الى تسرية ظاهرية فحسب وبعد جهد ومشقة . وذلك على أساس بقاء الوزارة وتعديل الأحكام العسكرية طبقا لما رآه الخديو (١) .

وكان يجهل بعرايى وصحبه أن يقبلوا هذا التعديل من بادى الامر بغير حاجة الى ايجاد هذه الازمة ، وكان الانفع للبلاد ما داموا قد قبلوا التعديل فى النيايه الا يثيروا من أجله حربا بينهم وبين الخديو فى وقت كانت الأخطار نكتنف مصر فيه من كل جانب ، ولم يكن الخلاف الذى شجر بينهم وبين الخديو مما يستوجب عقد مجلس النواب لان عقد المجلس بصفة مستعجلة وبغير الاوضاع القانونية معناه اعلان الثورة على الخديو، ولم يكن بقى من أوجه الخلاف بعد ان اتفقت وجهة نظر الفريقين على تعديل الحكم سوى تجريد الضباط المحكوم عليهم من الرتب العسكرية او عدم تجريدهم والمجالس النيابية لا تعقد بصفة غير عادية من أجل خلاف صغير كهذا .

فى اثناء الخلاف بين الوزارة والخديو ، تواترت الأنباء عن اعتزام فرنسا وانجلترا ارسال أسطولييهما الى الاسكندرية ، وقد تحققت هذه الأنباء . . فقررت الدولتان على اثر ما بلغهما من اشتداد الخلاف بين الخديو والوزارة دعوة مجلس النواب بدون أمره ، ارسال أسطولييهما الى مصر ، اذ عدتا هذه الحالة ثورة تستدعى التدخل ، وقد أفضى اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا بهذه الفكرة يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ الى المسيو تيسيو سفير فرنسا فى لندن قائلا ان الحاجة ماسة الى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الاسكندرية . وقد صادفت هذه الفكرة قبولا من الحكومة الفرنسية . وسوغت الدولتان هذا العمل بأن الغرض منه حماية رعاياهما من الأخطار التى يستهدفون لها ، ولم يكن تمهة خطر ولا خوف من هذه الناحية وانما هى حجة مصطنعة ووسيلة باطلة تستتر الغرض الحقيقى وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح فى شئون مصر (٢) .

(١) د . محمد مؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وقد عز تتابع وصول البوارج الانجليزية الى الاسكندرية الراى العام المصرى هذا شديدا ، وقام القنصل الفرنسى فى يوم ٢٢ مايو اى بعد وصول الأسطول الانجليزى بيومين اثنين بزيارة محمد سلطان رئيس مجلس النواب حاملا اليه مطالب الحكومتين الانجليزية والفرنسية وهى .

١ - استقالة وزارة البارودى .

٢ - اخراج عرابى من القطر المصرى على ان تضمن له انجلترا وفرنسا راتبه ورتبته ، اوسمته .

٣ - تحديد اقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى ريف مصر وتضمن الدولتان رتبتهما ومرتباتهما .

٤ - تسريح الجيش المصرى فلا يبقى منه سوى عدد قليل للمحافظة على الحدود الجنوبية (١) .

وقد رفضت الوزارة هذه المذكرة على اساس انها قد تضمنت مطالب فيها اعتداء على الفرمانات والمعاهدات الدولية ، ولأن الوزارة ترى ان هذه المطالب متعلقة بمسألة داخلية ، فاذا كانت الدولتان تريان أنها متعلقة بمسألة سياسية عمرمية ، فالواجب عرض هذه المسألة على تركيا صاحبة السيادة الشرعية على مصر (٢) وقام رئيس مجلس النظار ومعه وزير الخارجية بزيارة الخديو وابلاغه بقرار المجلس برفض المذكرة وطلبها منه ان يتضامن مع حكومته فى رفضها (٣) فاجابهما الخديو أنه قد قبل مطالب الدولتين بالفعل ، ومن ثم استقالت وزارة البارودى احتجاجا على مطالب الدولتين وعلى قبول الخديو اياها ، فقبل الخديو استقالتها (٤) وقد أدى هذا الموقف بين الحكومة التى تدافع عن حقوق مصر ومكانتها وبين الخديو الى هياج الراى العام واشتداد السخط على الخديو ، وارتفعت الأصوات

(١) أمين سعيد - تاريخ مصر السياسى (١٢) ص ١٤٤ - ١١٥ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٥٤ .

(٣) أمين سعيد - المصدر السابق ص ١١٥ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى - أحمد عرابى ص ١٠٧ .

كل مكان بالدعوة الى خلعه (١) .

وبالرغم من استقالة الوزارة ، فان عرابى بقى على اتصال دائم بضباط الجيش لكى يضمن أن لا يقبل الجيش وزييرا للحربية سواء . . وهذا ظاهر من الخطاب الذى أرسله بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ الى انصاره من الضباط ، فقد أخبرهم فيه أنه مع استقالته من وزارة الحربية فإنه لم يستقل من رئاسة الحزب الوطنى ، ويطلب اليهم أن يأتصروا بأوامره وأن يحافظوا على الأذن ويقول عرابى فى مذكراته أنه أرسل هذه الرسالة تلغرافيا الى جميع المراكز العسكرية . بعد أن قابله قناصل الدول وطلبوا اليه تأمين رعاياهم . ولم يكن من اليسور فى هذه الظروف تأليف وزارة جديدة تخالف الوزارة المستقبلية فى خطتها وتقال ثقة النواب والضباط (١) واضطر الخديو الى ابقاء عرابى فى منصب وزير الحربية ورئاسة الجيش حتى يأمن على حياته (٢) وأصدر أمرا اليه هذا نصه « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظر التى استعفت ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمنية ، استصوبنا بقائكم على نظارة الجهادية والبحرية . وأصدرنا أمرا هذا لكم لتعملوه وتبادروا بإجراء ما فيه انتظام احوال العسكرية بالطريقة الكاملة لحفظ الأمنية العمومية على الوجهة المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا ، (٣) .

وقد بقيت البلاد بلا وزارة منذ استقالة البارودى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ . ومنذ منتصف يونيو اتجهت الأنظار الى وجوب تأليف وزارة تضطلع بأعباء الحكم . وكان الخديو قد بارح القاهرة الى الاسكندرية ، فسعى قنصلا النمسا والمانيا لديه للتقريب بين الخديو وعرابى وترغيبه فى تأليف وزارة جديدة يبقى فيها عرابى وزييرا للحربية . فأخذ الخديو يستشير بعض رجال الدولة فى أمر تأليف الوزراء الجديدة ، فاستدعى شريف باشا ثم مصطفى فهمى باشا ثم عمر لطفى باشا وغيرهم وكلف

(١) أمين سعيد - المصدر السابق ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) عبد الرحمن الراقى - أحمد عرابى ص ١٠٧ .

(٣) د . محمد مؤاد سكرت - المصدر السابق ص ٢٥٥ .

(٤) د . الرحمن الرامعى - أحمد عرابى ص ١٠٩ .

كلا منهم بتأليف الوزارة فأبوا جميعا لما كان بينهم وبين عرابي من جفاء •
وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ، واتصلا بعرابي وتفاوضا معه في هذا
الشأن ، واستقر الرأي على النصيح للخديو باختيار اسماعيل راغب باشا
لتسكيل الوزارة ، وعلى ذلك ألف راغب باشا الوزارة وفيها عرابي وزيرا
الحزبية كما كان • وقد قابلت السياسة الانجليزية هذه الوزارة بجفاء
وعدم ثقة ، وبارح السير ادوارد ماليت قنصل بريطانيا العام الاسكندرية
يوم ٢٧ يونيو ، وغادر المدينة أيضا المستر كوكس القنصل البريطاني ،
وأوعزت الحكومة البريطانية الى السير أوكلن كولفن الرقيب المالي -
الانجليزي بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء ، وكانت هذه
علامات تنذر وتقبيء بما كانت تبقيه السياسة الانجليزية من اثار
الحرب والقتال (١) -

منذ ٢٩ مايو ١٨٨٢ بدأت إنجلترا تعلن عن نيتها في الانفراد بالتصرف
في شئون مصر ، ففي ذلك التاريخ أبلغ قائد أسطولها في الاسكندرية حكومته
بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه إحدى البوارج البريطانية ، وطالب
بارسال قطع بحرية بريطانيا أخرى ، وقد أجابته الحكومة الانجليزية
الى طلبه ، وكان هذا بالفعل اعدادا لعملية الاحتلال •

وقد أثارت هذه العملية شكوك فرنسا ، ومن ثم دعا المسيو
دي فريسيني رئيس الوزراء الفرنسية الدول الاوربية الكبرى الى عقد مؤتمر
للنظر في المسألة المصرية ، فلبى هذه الدعوة كل من إنجلترا وألمانيا
والروسيا وإيطاليا والنمسا • أما تركيا ومصر فأنهما رفضتا
الاشتراك فيه ، وكان من المهازل السياسية أن يجتمع مؤتمر دولي في
الأستانة دون أن تشترك فيه حكومة الأستانة ذاتها ودون أن تشترك فيه
مصر •

ولبس هذا المظهر وحده هو الذي يدل على اضطراب السياسة
العثمانية في المسألة المصرية ، بل أن مسلكها كله كان مجموعة من
المتناقضات ••• فبينما كانت تتظاهر بتأييد سلطة الخديو ، اذا

(١) عبد الرحمن الرافعي - أحمد عرابي ص ١٢٦ - ١٢٧ •

بالسلطان عبد الحميد يعلن عطفه على عرابي ويمنحه نيشانا رفيعا ،
ثم اذا جد الجد ونشبت الحرب بينه وبين الانجليز يطعنه في الصميم
بإعلان عصيانه ، فكان هذا الاعلان من اكبر اسباب هزيمته وخذلانه ،
فهذا التناقض والاضطراب جعل السياسة التركية عامل فساد
استخدمته بريطانيا لتحقيق أطماعها في مصر .

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ أبرم المؤتمر العهد المشهور بميثاق النزاهة
وقد وضعه المسيو دي فريسينية وعرضه على اللورد جرانفيل فقبله وهذا
نصه « تتعهد الحكومات التي يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها
في كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال
أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل
امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعاياها الحكومات الأخرى . وقد
وقع عليه أعضاء المؤتمر جميعا » (١) .

واستمر المؤتمر يعقد جلساته على غير طائل ، وانجلترا تعد المعدات
للقتال . ولم يكن أسهل على القوة الغشوم من أن تخترع الوسيلة لاثارة
القتال . فقد أرسل الاميرال سيمور في ٦ يوليو سنة ١٨٨٢ بلاغه
الأول الى طلبة عصمت قومندان موقع الاسكندرية بالكف عن أعمال
التحصين الجارية في الحصون . فأجابه طلبة في اليوم ذاته بأنه لم يوضع
أى مدفع جديد في الحصون ولم يجر فيها أى عمل جديد (٢) .
وقد ذاع بلاغ الاميرال سيمور في المدينة وتناقله الناس ، فأيقن العارفون
بحقائق الأمور أنه نذير الشر وإن الحرب واقعة لا محالة . واوز
قنصلا انجلترا وفرنسا الى رعاياهما الباقيين في المدينة بالمبادرة الى
الرحيل عنها ، فتسابقوا الى الهجرة والنزول الى السفن الراسية
بالميناء ، وبلغ عدد المهاجرين الاوربيين من الاسكندرية قبل ضربها
نحو ٩٩ ٪ من عددهم الاصلى ، وهاجر كثير من أغنياء المدينة الى داخل
البلاد على أن معظم السكان الوطنيين بقوا بها (٣) .

(١) عبد الرحمن الرافعى - أحمد عرابي ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى - أحمد عرابي ص ١٤٤ .

وفي ٩ يوليو استمرت التحصينات المصرية في الطوابى ، وركبت مدافع جديدة في طابية السلسلة . وفي اليوم التالي أرسل سيمور أخطارا نهائيا الى طلبه عصمت بتسليم الطوابى المقامة على بوغاز الاسكندرية الجنوبي والا ضربها بعد أربع وعشرين ساعة . وفي صبيحة ١١ يوليو ، عندما لم يجب سيمور الى طلبه ، بدأ ضرب الاسكندرية (١) .

ويقول عرابي عن موقعة الاسكندرية - « فاجأتنا مراكب الانجليز وأخذتنا على غرة منا وضربت المدافع مدينة الاسكندرية ، ولما قم عدد الطلقات ٢٠ طلقة ، وكانت المدافعة واجبة شرعا قابلناهم أيضا بالضرب واستمرت الحرب بين الفريقين نحو ١٠ ساعات دمروا في غضونهم أغرب طوابى الثغر المذكور وأحرقوا مساكنه ففر جميع الأهالي من المدينة ولما حصلت المخابرة على الأميرال في الصلح والاكتفاء بما حصل أبى وتجبر وتوعدنا بحرق المدينة وتدميرها بعد ساعة ونصف ان لم تسلم اليه جميع الطوابى . هذا وقد حصل الخذلان ودب الفشل بين قلوب العساكر فتركوا مراكزهم وفروا الى داخل البلاد ، ولذلك توجهنا بمن أمكن حجزهم من العساكر الى كفر الدوار واتخذناه مركزا للدفاع عن البلاد ، وأمرنا بسرعة جمع العساكر الفارين فحضروا عاجلا بواسطة السكة الحديد . ثم أرسلت القطارات الخديوية لنقل الخديو ومن معه الى عاصمة البلاد فما كان منه الا ان التجأ بمن معه من الخدم والذوات وعساكر الحرس الى الاسكندرية . وعند وصولهم الى رأس التين استقبلهم الانجليز بالترحاب ، وفي الحال جردوا عساكرنا الذين كانوا حرسا على الخديو من السلاح وأخذوا خيولهم واستخدموهم خدما لهم ومرشدين في أنحاء المدينة التي ضربوها وكانوا يقتلون كل من قابلوه من الوطنيين ثم صدر أمر الخديو الى رئيس مخبز اسكندرية بارسال الخبز الى عساكر الانجليز ومنعه عن العساكر المصرية ، (٢) .

وبضرب الاسكندرية انتقل تاريخ الثورة العرابية الى دور جديد هو الحرب ، ففي ذلك الوقت تطلع عرابي الى الاستعداد العسكري ، كما دعا

(١) د . محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) أحمد عرابي - مذكرات عرابي الجزء الأول ص ١٨٨ - ١٨٩ .

الى خلع الخديو ، ولكن السياسيين خذلوه في ذلك ، وكشفت هذه الفرقة عن ظهور القوى الرجعية تسير في طريقها المرسوم ارضاء للقصر . وبادر عرابي فارسل الى جميع المديريات والمحافظات يخبرهم بانضمام الخديو الى الانجليز ويحذرهم من طاعة أوامره ويدعوهم الى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال .

وعلى أثر ذلك اذاع الخديو منشورا علق في شوارع الاسكندرية يقضى بعزل عرابي من منصبه وقد فصل المنشور الأسباب التي دعت الى عزل عرابي ، وأعاب عليه اخلاء الاسكندرية دون مقاومة ، ثم دافع عن نيات الانجليز واحتلالهم الاسكندرية وسوغه بأن الغرض منه المحافظة على الأمن . وكان عرابي مرابطا في معسكره بكفر الدوار حين اصدر الخديو امره بعزله من منصبه فلم يكثر له واستمر يعد عدة الدفاع ليصد تقدم الانجليز (١) .

ولم تحفل الأمة بأمر الخديو توفيق القاضي بعزل عرابي وانما زادها ذلك تمسكا به والتفافا حوله . ومن المواقف المشرفة لشعب مصر حقا تبرع البلاد لهذه الحرب التي لم يفتق فيها قرش واحد من خزانة الدولة التي وضعها المراقب المالي الانجليزي كلفن تحت تصرف الانجليز في الاسكندرية ، وانما قامت هذه الحرب على ما بذله الشعب من قوته وماله ، وفي هذا يقول عرابي في مذكراته : . . . جادت الأمة على اختلاف مذاهبها وتحلها بالمال والغلال والدواب والفاكهة والخضروات ، وذلك فضلا عما مدوا به الجيش من الأقمشة والأربطة اللازمة لتضميد جراح العساكر ، ومن الأهالي من تبرع بنصف ما يملكه ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، .

ولقد وجه عرابي كل عنايته الى تحصين مواقعه في الميدان الغربي وأهمل الميدان الشرقي اهمالا تاما مما كان السبب الأكبر في الهزيمة ، وقد نصحه البعض استكمالا لاسباب الدفاع أن يردم قناة السويس ، الا أن فرديناند فيلسبيس غرر بعرابي وأكد له ان انجلترا لن تستطيع استخدام

القناة لأنها دولية ، وانخدع عرابى بوعود ديلسبس ، هذا بالإضافة الى أنه لم يشأ أن يردم القناة لعدم اغصاب الدول الأوروبية الأخرى ، ولكن انجلترا لم تعباً بالقوانين الدولية وكانت القناة هي الجانب الذى دخلت منه الجيوش البريطانية وقد ساعدها فى ذلك بعض الرجعيين ممن أرادوا الاخلاص للقصر ، ودخلت القوات الانجليزية القاهرة بعد عدة معارك ، وبارك الخديو توفيق عرضاً عسكرياً لهذه القوات أقيم فى ميدان عابدين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وعلى هذا النحو احتل الانجليز مصر فسيطروا فى تاريخها صفحة مظلمة استمرت أكثر من سبعين عاماً .

موقف الدولة العثمانية من الثورة العربية

مع أنه يمكن ان نتساءل عن موقف السلطان الفعلى بالنسبة للصراع بين الخديو توفيق وعرابى حتى نفهم خطوات السلطان التالية فى هذا الصدد . وطبقاً لآراء دافرين الممثل البريطانى فى الآستانة فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ فان السلطان قد يحاول أن يكسب هو شخصياً بضرب الاثنين ، فهو رغم أنه مؤخراً أصبح غير متعاطف مع عرابى ، فانه لم يخاصمه كلية ، و على الأقل لم يتخذ موقفاً عنيفاً معه وهو - السلطان - يحتفظ بالامير حليم بين يديه كورقة قد يلعب بها ضد الاثنين اذا ما سمحت له الظروف بذلك .

ويبدو أن السلطان كان يصيّر امكانية الدعم الالمانى له فى هذه المرحلة من العلاقات الوثيقة بين السلطان وبسمارك ولكن الحكومة الالمانية أثرت الوقوف على الحياد بالنسبة للمسألة المصرية وأرسلت للسلطان توضيح بانها سوف توافق بان يكون له صوت عند تسوية هذه المسألة مع بقية القوى الأخرى (١) . مما حدا بجرانفيل الى ان يرسل شكراً فائقاً لبسمارك عن طريق السفير البريطانى فى برلين لرأيه الخاص بالنسبة للمسألة المصرية (٢) . وقد ارسل السفير التركى فى برلين فحوى هذا

(١) F.O. 407 - 20 No. 524 p. 225 The Earl of Dufferin

to Earl Granville No. 102 Telegraphic. Constantinople, may 24— 1882

(٢) F.O. 407 - 20 No. 497 p. 214 Earl Granville to Lord

Amphill (No. 64) Telegraphic F.O. may 23, 1882

الشكر الى الباب العالي (١) .

ويبدو ان الباب العالي قد اصيب بخيبة أمل من سلوك بسمارك تجاه المسألة ، فآثر أن يتصرف وحده عن طريق ارسال بعثه من لدنه الى مصر لتقصي الحقائق برئاسة أحمد عزت أفندي ، والمهم أن نسخة من تقرير أحمد عزت هذا السرى (بالفرنسية) وصلت الى دافرين بطريقة ما ، وقد حوله هو بدوره الى جرانفيل في ١٤ يونيو (٢) . ويعتبرا دافرين أن هذه الوثيقة في غاية الاهمية لأنها توضح غموض سياسة الباب العالي تجاه الانجليز ، فطبقا لهذا التقرير فان السلطان يحاول الاعتماد على اتباعه انصار (السياسة الاسلامية) كما يمثلها عرابي وضد الخديو توفيق الذي يمثل المصالح لاوروبية (٣) .

ورغم توالي الاحداث ... ونزول القوات الانجليزية الى الاسكندرية ، فان دافرين دأب على الضغط على الباب العالي حتى ينال موافقته على هذه الاجراءات الجديدة ، ففي ١٦ يوليو ١٨٨٢ استقبل السلطان دافرين في مقابلة خاصة حيث دار بينهما حديث سرى للغاية ، بخصوص مبدأ السيادة العثمانية على مصر . وقد أوضح السلطان ان غالبية السياسيين في انجلترا يؤيدون الخديو توفيق واقامة حكومة وطنية (عربية) منسلخة عن السلطة العثمانية . كما أورد دافرين انه لسلبية الحكومة العثمانية أمام الفوضى القائمة في مصر ، فانه يمكن ان ينتهي الامر بزوال السيادة العثمانية على مصر . واخذ السلطان في المناورة مع دافرين مذكرا اياه بأنه رغم اعترافه بخطورة الحالة ، فان قيام حكومة وطنية عربية (مصرية) في مصر سيكون لديها الفرصة لاقلاق السلطات الانجليزية في الهند ... وانه تحت

F.O. 407-20 No. 498 p. 214 Earl Granville to Lord
Amphill (No. 212, conf. Extender) F.O. may 23, 1882 (١)

F.O. 407 - 20 No. 978 p. 388 The Earl of Dufferin to
Earl Granvill. (No. 427 Conf.) Constantinople, June 9, 1882. (٢)

F.O. 407-20 Inclosure in No. 978 p. 388 Report by Ahmed
Essad Effendi (Traduction de L'Arabe) 15 Rodjeb, 1299 (Le2 Juin,
1882) (٣)

هذه الظروف ، فإنه توصل الى نتيجة ... هي أنه ما دامت لانجلترا وتركيا مصالح مشتركة ، فإنه من المرغوب فيه للحكومتين الدخول في اتفاق ودي وسري ، ليس فقط لتهدئة الاحوال في مصر ، ولكن أيضا لمنع القوى الاجنبية الاخرى - التي أسست لها مواقع في مصر لا يمكن تجاهلها - من تدعيم مواقعها أو المطالبة بحقوق جديدة للتدخل ، وبطبيعة الحال كان السلطان يقصد فرنسا .

وبعد ان صور السلطان بحماس المزايا التي سوف تعود على كل من انجلترا وتركيا من مثل هذا التفاهم المشترك أوضح سبب ترده في ارسال قوات عسكرية الى مصر ... فقد عادت بعثته للتو من الاسكندرية ، والتي كان على رأسها احمد عزت ولبيب أفندي ، وهما قد أعطياه صورة واضحة عن عدم كفاءة وضعف توفيق باشا ، واقنعاه بأنه لا يمكن اعتباره حاكما معقولا . لأنه طبيعته ليس في امكانه الاحتفاظ بالسلطة ، لأنه - عندما رفع عرابي سيفه في حضوره ، فان أخذ الضباط الجراكسة اراد ضرب عرابي فوراً بالرصاص ، ولكن توفيق الضعيف منعه من ذلك ، وتسأل السلطان عما هو متوقع من شخص هذا هو حاله ؟ وأنه حتى لو أرسلت القوات لتدعيم مكانته ، فإنه موز انسحابها ، فإنه لعدم كفاءته سوف تقوم أزمة أخرى ، وأوضح السلطان ان شخصية الخديو يجب أن تكون موضوعا لا خلاف عليه بالنسبة للحكومتين العثمانية والانجليزية . وأضاف السلطان ان توفيق ليس هو الوريث الشرعي لمنصب الخديوية ، فان احتلاله للمنصب يعد منافيا للتقليد الاسلامي حيث ان حلیم باشا هو اكبر افراد أسرة محمد علي سنا ، وأنه هو الحاكم الشرعي لمصر ، وأوضح السلطان بحماس شديد أن حلیم سيكون حاكما ممتازا ، وأنه معجب به تماما وباخته الاميرة زينب (١) . ولم يوضح السلطان أن حلیم كان مستعدا لان يحكم مصر باعتباره واليا بسيطا طبقا لإفمان ١٨٤١ ، بل انه لم يكن يستنكف ان يحكم مصر لمدة خمس سنوات فقط (٢) .

(١) F.O. 407 - 21 No. 848 p. 335 The Earl of Dufferin to

Earl Granville (No. 611, Conf.) Therapia, July 17, 1882.

(٢) دكتور احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١٤٩ .

وعلى أية حال اضاف السلطان انه اذا كانت انجلترا خائفة من ان حليم قد يؤيد المصالح الفرنسية ، فان هذا هو الخطر الحقيقي الذى يجب على الحكومتين الانجليزية والعثمانية تحاشيه ، وأن كلا من الحكومتين يجب ان تبلغ الاخرى اذا ما حدث ذلك ، وانه بعملها المشترك يمكنها المحافظة على سير الخديو الجديد فى الطريق السليم . كما طالب السلطان بسرعة حسم المسألة المصرية ، وان حليم يمكنه القضاء على كل الصعوبات ، لان تعيينه سيرضى الجميع ، ويمنع المزيد من اراقة الدماء ويؤدي الى سحب القوات غير الضرورية ، ويمنح الامان للمستقبل . كما أورد السلطان بأن الفرنسيين فى مرحلة سابقة لم يوافقوا على هذه الخطة ، وانه لا يعرف حاليا رأى فرنسا بالنسبة لمبدأ تغيير الخديو ، الا انه لو وافقت حكومتا لندن والآستانة على تغيير الخديو ، فان كل القوى الاخرى لن تستطيع معارضة هذا الترتيب .

وقد قدم السلطان طلبه هذا على أنه طلب شخصى منه للحكومة الانجليزية وأنه يرجو بحماس موافقتها عليه (١) .

وفى هذا السياق نشير الى مذكرة درويش (٢) باشا - مبعوث السلطات الى مصر - والتي جاء فيها انه حاول اغراء عرابى باشا بالرحيل على ظهر سفينة عثمانية الى الآستانة (٣) ليمهد الجو لتعيين حليم فى منصب الخديوية فى ظروف هادئة .

على أية حال اجاب دافرين على السلطان بانه ولو انه سينقل هذه الرغبة لحكومته ، فانه متيقن من أن حكومتى انجلترا وفرنسا لا ترغبان فى خلق توفيق ، فهما قد وعدتا بالمساعدة ، وهو قد تصرف طبقا لتوصايتهما ،

F.O. 407. 21 No. 848 op. cit,

(١)

F.O. 407 -22 p. 255 Inclosure in No. 589 memorandum by Dervish Pasha (Conf.) Traduction Le 15 Juillet. 1882.

(٢)

F.O. 407-22 No. 589 The Earl of Dufferin to Earl

(٣)

Granville (No. 791 conf.) Therapia, August 18, 1882

F.O. 407- 23 Inclosure in No. 262 p. 128 Abstract of report from Dervish Pasha to the Sultan, dated July 6, 1882.

وهما قد دخلتا في ارتباطات معه لا يمكن تجاهلها ، وأكثر من ذلك فان تغيير فرمان التوالى على منصب الخديوية سوف يلغى فرمان القائم ومن ثم تغيير الوضع الراهن Status quo . جزريا . فاجاب السلطان بأن مثل هذه الترتيبات لا ترتبط بتوفيق الذى اثبت عدم كفاءته ، وان بقاءه فى السلطة سيؤدى الى خراب مصر ، وعبر السلطان عن اعتقاده بأنه لو وافقت انجلترا ، فان التغيير سيتم بدون صعوبة فان درويش باسا سيضع توفيق على ظهر سفينة ، ويتم وضع حلیم على ظهر سفينة أخرى، وان السفينتين سوف تسيران فى اتجاهين متضادين ، وانه بهذه الطريقة تتم تسوية المسألة ، وألح السلطان كثيرا على وجوب موافقة انجلترا على هذا الترتيب (١) .

الا ان دافريس أوضح - فى نهاية المقابلة - لرشيد بك الذى كان يعمل كمترجم، ثناء هذا اللقاء أن السلطان اذا ما استمر فى تردده ، فسوف تخرج المسألة من يديه وكان حلها بين يديه فعلا . واضاف دافريس انه اذا ما استمر السلطان فى رفضه لممارسة الواجبات المسئول عنها بصفته صاحب السيادة على مصر ، فان البديل الوحيد هو تدخل جنبى ، وانه فى هذه الحالة سيكون من المحتمل تغيير وضعيه مصر السياسية وضد مصالح السلطنة .

ولاحظ دافريس أن السلطان ولادة طويلة كان يحتفظ بحليم فى يده كورقة يلعب بها حين تحين الفرصة . كما أوضح دافريس شكوكه فى ان السلطان قد علم من مبعوثيه الى مصر أن الخديو توفيق ليس مستعدا لأن يكون ألعبوبة فى يد السلطان وأن يسمح له بمد سيطرته على مصر ، بل انه على النقيض من ذلك سيتمنع أى محاولة من جانب السلطان لالغاء الامتيازات والحقوق التى يحوز عليها فى حكم مصر (٢) . ومن ناحية أخرى ، فان حلیم وعد بأن يكون عبدا مطيعا طاعة كاملة (٣) .

F.O. 407 - 21 No. 848. p. 335 op cit.,

(١)

op. cit.,

(٢)

(٣) دكتور احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١٤٩ .

ويمكن أن نضيف الى ما سبق ان عرابي نفسه كان على صلات سرية بالسلطان والصدر الاعظم منذ مارس ١٨٨٢ ، فهو يتوود الى السلطان ، ويطلب معاونته ٠٠٠ ففي تقرير لعرابي (١) بتاريخ ١٨ مارس ١٨٨٢ موجه للسلطان - وقع في يد دافرين - عرض عرابي زيادة جزية مصر السنوية الى ١٥٠.٠٠٠ جنيه واقترح ايضا خلع الخديو توفيق . كما اخبر عرابي السلطان ان القنصل الفرنسي اخبره بأن حكومته تعلم تماما بمخططات انجلترا في مصر ، وان فرنسا رغم اضطرارها في تلك المرحلة للعمل في تنسيق مع انجلترا فانها ستعمل في النهاية على معاونة عرابي ٠٠٠ واقترح عرابي تعيين حليم باشا بدلا من توفيق ، ووضع مصر مباشرة تحت حكم السلطان ، وابعاد الاجانب تدريجيا (٢) . وقد اجاب الصدر الاعظم على عرابي في ١٩ ابريل بالموافقة بطبيعة الحال على اقتراح عرابي بزيادة جزية مصر السنوية وتحديد سلطة الخديو . اما بالنسبة لابعاد الاجانب في مصر ، فان ذلك يجب ان يتم بكل حذر . كما اضاف الصدر الاعظم ان الحكومة العثمانية سوف تسعى لمساعدة عرابي لتنفيذ مقترحاته الخاصة بعزل توفيق ، وان القرار سوف يتخذ طبقا للظروف (٣) .

وقد اعتبر دافرين ان اقتراح عرابي زيادة الجزية السنوية كان مفاجأة له تماما ، وان عرابي قصد من ذلك ان ينال في المقابل تدعيما كاملا من الباب العالي في مواجهته للخديو توفيق (٤) .

— F.O. 407 - 22 No. 297 p. 129 The Earl of Dufferin (١)
to Earl Granville (No. 324). Constantinople, August 10, 1882
Telegraphic.

— F.O. 407 - 22 Inclosure in No. 298 p. 129 Report (٢)
from Arabi Pasha to His Majesty the Sultan. dated 10 Djemaz.
el-Ewel, 1299 (March 18, 1882 Traduction)

— F.O. 407-22 Inclosure 2 in No. 298 p. 130 (٣)
The prime Minister to Arabi Pasha (Traduction). Telegraphic
22 Djemaz-ul-Akhir, 1299 (19 'Avril 1882)

— F.O. 407 - 22 No. 297. op. cit

وواضح من العرض السابق أن هناك نوعا من الاتفاق بين السلطان وعرابي في هذه المرحلة على خلع توفيق وتعيين حلیم بلا منه ، فحلیم أكثر انصياعا للباب العالي من توفيق الذى وقع في قبضة الإجصاب كلیة . كما أن الباب العالي سینال زیادة فی الجرّیة السنویة التى تدفعها مصر ، وفى المقابل سینال عرابی رضاء السلطان خلیفة المسلمین مما یعطیه مكانة کبری فی مصر ، وكذلك سیتخلص هو أيضا من توفیق ، وهذا هو ما لحدث نوعا من التقارب بین السلطان وعرابی فی هذه المرحلة . ولكن هل كانت الدولة العثمانیة حرة فی اتخاذ قرارها ؟ ام ان القرار سیکون انجلیزیا بالدرجة الاولى ، وانه على الدولة العثمانیة أن تعمل فی اطار تحدده لها السیاسة الانجلیزیة ؟

مسألة المشاركة العسکریة العثمانیة فی مصر .

اذا كانت الحكومة الانجلیزیة قد اعارت طلب السلطان بتغییر الخدیو آذانا صماء ، فان هذه الحكومة - من ناحية أخرى - ظلت تسعى الى تأیید السلطان لها فی اجراءاتها بمصر . وكذلك ظلت تحاول ان یشارك السلطان بقوات رمزیة فی مصر متعاونة مع الانجلیز ، مما یعطى لانجلیترا الشکل المشروع بالنسبة لوجودها فی مصر باعتبار ان السلطان هو صاحب السیادة على مصر . وهكذا بدأت مفاوضات مطولة بین السفير الانجلیزی دافرین و بین المسئولین الاتراك بدءا بالسلطان والصدد الاعظم وباقی المسئولین ، وذلك لتنظیم ارسال وتمركز القوات العثمانیة المزمع ارسالها الى مصر وذلك لتنظیم ارسال وتمركز القوات العثمانیة المزمع ارسالها الى مصر على النظام وتحقیق الامن فی قناة السویس .

وكما سنفرد من سیر الحوادث اثناء المفاوضات بین الجانبین الانجلیزی والعثمانی فی الآستانة فان هناك تحدیدات انجلیزیة قاطعة بالنسبة لاعداد القوات العثمانیة المزمع ارسالها الى مصر ، وكذلك تحدیدات بالنسبة لتمرکز هذه القوات فی مناطق بعیده عن جماهیر الشعب المصری وكذلك تحدیدات بالنسبة لتوقیت انسحاب القوات العثمانیة بعد تسوية الازمة المصریة .

ففى ١٨ أغسطس بحث دافرین مع الصدر الاعظم مسألة عقد اتفاق مع حكومتی لندن والآستانة خاص بمسألة ارسال القوة العثمانیة الى

مصر للمشاركة في اقرار النظام وتحقيق أمن القناة . وقدم دافرين مسودة
هذا الاتفاق . واقترح الصدر الاعظم انه بالنسبة للعلاقة
بين القوتين العثمانية والانجليزية في مصر ، ان لا تكون تعاوناً
Cooperation بل أن تعمل القوتان طبقاً لاتفاق d'accord avec

كما وافق سعيد باشا على المادة الاولى مع تعديل الصيغة الى ان الحكومة
الامبراطورية (العثمانية) لديها الرغبة في أن ترسل الى مصر جزءاً من
الجيش يتحدد ما بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ جندي ، وان التوصل للعدد النهائي
سيكون موضوعاً لاتفاق لاحق مع الاطراف المعنية ، *

المادة الثانية : تخصص موانئ الاسكندرية وبورسعيد والسويس
لنزول القوات العثمانية وقد علق دافرين على ذلك بان هذا مستحيل ، وانه
يمكن تخصيص موانئ (أبو قير) ودمياط ورشيد لنزول القوات
العثمانية في مصر . وقد وافق سعيد باشا على ذلك .

المادة الثالثة : ينسق القائدان الانجليزى والعثمانى تحركات وعمليات
القوات العثمانية .

اما بالنسبة للمادة الرابعة ، فقد ارتأى الصدر الأعظم ان يضيف
عبارة ... هي انه عند جلاء القوات الانجليزية عن مصر فانه من المرغوب
فيه مد فترة بقاء القوات العثمانية هناك بعض الوقت . الا أن دافرين علق
على ذلك بان مجيء هذه القوات الى مصر هو لاقرار النظام ، وانه بعد
انتهاء الأزمة ، فانه ليس من المستحب بقاء هذه القوات العثمانية في مصر .
اما المادة الخامسة ، فقد اراد الصدر الأعظم بمقتضاها ارسال ضابط
تركى بنفس رتبة القائد العام الانجليزى لينضم الى قيادة القوات
الانجليزية (١) .

وقد علق دافرين على ذلك بانه رغم هذه التعديلات العثمانية ، فان
الاتفاق مناسب من وجهة النظر الانجليزية ... لانه بالنسبة للمادة

— F.O. 407-22 p. T.V No. 477 p 203 The Earl (٦)
of Dufferin to Earl Granville (No. 350) Telegraphic. Constan-
tinople, August 19, 1882.

الأولى فان القوات العثمانية لن تزداد عن الاعداد المذكورة ، ولن يتم امداد القوات العثمانية بالرجال الا بعد الموافقة الانجليزية المسبقة . وبالنسبة للمادة الثالثة فان القوات العثمانية لا تستطيع القيام باى حركات أو عمليات حربية الا بعد موافقة القائد العام الانجليزى .

كما وافق دافرين على المادة الرابعة ، رغم ابلاغه الجانب التركى بأن الموافقة النهائية ستكون من طرف الحكومة الانجليزية (١) .

ولكن المسئولين الاتراك ظلوا فى تردددهم فى اتخاذ القرار ... هل يوافقون على العمل تحت الوصاية الانجليزية بالنسبة للمسألة المصرية أم يحاولون فرض وجودهم باعتبار أن الباب العالى هو صاحب السيادة على مصر ، أم يرفعون يديهم كلية عن هذه المسألة ، حتى أن دافرين هدد سعيد باشا فى ٢٧ أغسطس بأنه نتيجة للطريقة غير المريحة التى تسير بها المفاوضات من أجل التوصل الى الاتفاق بين الدولتين ، وتلك التعديلات الكثيرة على مسودة الاتفاق ، فان الحكومة الانجليزية قد تصل الى نتيجة مؤداها أن الوقت قد مضى بالنسبة للدخول مع الحكومة العثمانية فى اتفاق « وانى لن أدهش اذا ما وصل قرار بهذا المعنى فى بضع ساعات » (٢) .

مسألة نزول القوات العثمانية (أبو قير - بورسعيد)

كان المسئولون العثمانيون قد وافقوا فى ٢٧ أغسطس على (أبو قير) كميناء لنزول قواتهم ، الا ان الصعوبات بدأت - بالنسبة لدافرين - عندما عبر الباب العالى عن رغبته فى أن تكون الاسكندرية والسويس وبورسعيد هى الموانى المخصصة لنزول القوات العثمانية . الا أنه فى

— F.O. 407 - 22 p. T.V

(١)

No. 478 p. 204 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 796 Conf. Ext. 350) Tharapia, August 19, 1882.

— F.O. 407 -22 p. T.V No 590 p. 257 the Earl

(٢)

of Dufferin to Earl Granville (No. 372 A.) Telegraphic. Constantinople, August 26, 1882. No. 591 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 830 Conf. Ext. 372 A) Tharapia, August 26, 1882

النهاية وافق المفاوضون العثمانيون على (أبو قبر) (١) على أن تصل تلك القوات الى بوقير عبر الاسكندرية . وقد تساءل دافرين عما اذا كانت هذه الاضافة هي على شكل شرط أم طلب . وفي النهاية اتفق الجانبان على أنها ليست شرطا ولا طلبا ولكنها رغبة (٢) . الا أن نورد جرانفيل أبلغ دافرين ان التعديل المقترح ليس مناسباً ، وان القوات التركية يجب أن تنزل في (أبو قبر) التي سبقت الموافقة عليها من الجانب التركي (٣) . ومن ثم أبلغ دافرين سعيد باشا بهذا المضمون .

وواضح أن السلطان ليس في امكانه مجرد اختيار الميناء الذي سوف تنزل فيه قواته في مصر ، بل ان انجلترا خصصت لهذا الغرض ميناء صغيرا منزويا ، حتى لا يحدث لقاء بين العربانيين وبين هذه القوات ، فلا أحد يعرف عاقبة ذلك ، والمطلوب فقط هو تدعيم موقف انجلترا في مصر ، وحيث أن السلطان هو الخليفة ، وطاعته واجبة على المسلمين ، فإن هذا السلطان اذا ما تحالف مع الانجليز ضد الثورة ، فسوف تنفض الجماهير من حولها . فالقصد الرئيسي من الحاح دافرين على وجوب ارسال قوات عثمانية الى مصر - وفقا للشروط الانجليزية - هو لتدعيم موقف انجلترا في مصر ، وليس القضاء على الاضطرابات ، ولا التأمين قناة السويس فانجلترا لم تكن في حاجة الى هذه القوات لتحقيق هذه الامور .

على أية حال استمرت المفاوضات بين الجانبين الانجليزى والعثمانى ، وتسلم دافرين طلبا في ٢٩ أغسطس لمقابلة سعيد باشا لمراجعة مسودة الاتفاق والتأكد من ادخال التعديلات المقترحة . وقد تم هذا الاجتماع بحضور ارتين افندى وكيل الوزارة للسئرين الخارجية وقد وقع دافرين بالاحرف الاولى على مسودة الاتفاق . ولكن لدهشة دافرين ، فإن المسؤولين العثمانيين رفضوا التوقيع المبدئى قبل احاطة مجلس الوزراء بالتعديلات التى دخلت فعلا على مسودة الاتفاق . وهكذا انسحب سعيد

— F.O. 407-24 No. 34 p. 13 Earl Granville to Earl of Dufferin 5, (No. 596 'A.) F.O. Octobre 5, 1882. (١)

— FO. 407 - 23 No. 264 op. cit. (٢)

— F.O. 407 - 24 No. 34 op. cit. (٣)

باشا ومعة ارتين افندى بعض الوقت ، وبعد عودتهما ابلغ سعيد باشا بأن هناك اعتراض على بعض النقط في هذا الاتفاق المبدئى . وقد ابدى دافرين آسفة لأن عملا له اهمية حيوية للباب العالى يستمر هكذا دون انهاء فترة طويلة ، وتناول دافرين ورقة اوضح فيها أنه نتيجة لحدوث عراقيل غير معقولة المفاوضات فان « حكومة جلالة الملكة لها مطلق الحرية في العمل » .

وقد انزعج سعيد باشا لذلك ، وانسحب مرة أخرى من الاجتماع ، ثم عاد بعد نصف ساعة ، وابلغ دافرين بأنه رغم عدم استطاعته التوقيع على الاتفاق المبدئى ، فان ذلك التأخير هو لبعض الامور الشكلية ، وأنه يتعهد بأن يرسل الوثيقة موقعا عليها بالاحرف الاولى في اليوم التالى . ونتيجة لذلك سحب دافرين مذكرته التى كان يرى رفعها للباب العالى على شكل انذار .

الا أنه بعد مضى يومين (٣١ أغسطس) ابلغ سعيد باشا دافرين بأن التوقيع سيتأخر بعض الوقت ، فان مجلسا أعلى قد عقد في القصر شبارك فيه المستشارون البحريون للسلطان . وانهم اوضحوا صعوبات انزال القوات العثمانية في (ابو قير) مما حدا بالسلطان الى ان يطلب دراسات أكثر عمقا بالنسبة لهذه المسألة وان الاسكندرية يجب أن تخصص لنزول القوات . وقد صاحب هذا الكلام ابراز النيات الحسنة والعلاقات الودية مع انجلترا ، وان هناك فقط رغبة في الموافقة على طلب السلطان بجعل الاسكندرية هي نقطة نزول القوات .

ولكن ما هي العلاقة التى ستكون بين الجبشين الانجليزى والعثمانى في مصر ؟ .

أوضح دافرين راية في بضع نقاط منها :

١ - « ان عدد افراد القوات التركية التى سوف ترسل الى مصر يجب ان تتحدد في الوقت الحاضر ما بين الفين وثلاثة آلاف رجل ، وذلك طبعا لرغبة الحكومة الانجليزية » .

٢ - « ان القائد العام التركي يجب ان يعمل طبقا لرغبات القوائد العام الانجليزى بالنسبة للتحركات والعمليات ، أسوة بما كان متبعها أثناء حرب القرم » .

وعندما نقل دافرين هذه الآراء الى سعيد باشا ، علق هذا الأخير عليها بقوله « انه يمكن القول ان القائد العام الانجليزى اذا ما رغب فى ارسال ألف جندي الى هنا فسوف يحضرون ، واذا ما اراد ارسال ألف جندي آخرين الى هناك فسوف يذهبون » .

٣ - « يعين بكير باشا قائدا ثانيا للقوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر ، ويلحق بدرويش باشا ، ويكون لبكير باشا مطلق الحرية فى اختيار بعض المستشارين من الضباط الانجليز طبقا لرغبته » .

ولا ندرى لماذا هذه الرغبة الانجليزية لتعيين بكير باشا بالذات قائدا ثانيا للقوات العثمانية فى مصر ، اللهم الا اذا كان بكير باشا على علاقات وثيقة بهم .

كما أبلغ دافرين جرانفيل أن السلطان تعهد بالدخول فى علاقات ودية مع انجلترا وأن يستبعد بعض مستشاريه الذين وقفوا فى طريق تحسين العلاقات بين الحكومتين (١) .

كما أبلغ دافرين السلطان أيضا أن حكومته لم تنس بعد قرار السلطان بعدم تزويد الجيش الانجليزى بالمؤن والدواب اللازمة له من آسيا الصغرى وسوريا (٢) . وهكذا دأب دافرين على الضغط على السلطان وكذلك على محاولة تحسين العلاقات بين حكومته وحكومة الاستانة لتحقيق الغرض الاساسى وهو اشتراك الدولة العثمانية مع انجلترا فى احتلال مصر ، ولكن على ان يكون الوجود التركى فى مصر وجودا شكليا . وحتى يزيل دافرين العقبة الخاصة بطلب السلطان نزول القوات العثمانية فى الاسكندرية بدلا من (ابرقير) عرض على سعيد باشا - بعد موافقة جرانفيل - انزال هذه

— F. O. 407 - 23 No. - 264 op. cit.

(١)

— F.O. 407 - 24 No. 34 op. cit.

(٢)

القوات بمنطقة القناة بدلا من (أبو قير) وذلك لأن الحكومة الانجليزية وضعت في اعتبارها الاعتراضات المرفوعة من جانب قيادة البحرية التركية بالنسبة لميناء (أبو قير) باعتبار أن السفن لا يمكنها الرسو بأمان في هذا الميناء الصغير ، وأن التعليقات الأخيرة تسمح لقائد القوات التركية بالتقدم الى بورسعيد ثم الى قناة السويس ، وقد بدأ على وجه سعيد باشا بعض الابتهاج امام هذا الكرم البريطاني ٠٠٠ وهنا ابلغ سعيد باشا دافرين عن رغبة السلطان في مقابلته .

وهكذا توجه دافرين الى (يلدز) حيث استقبله السلطان استقبالا وديا الا انه تبين لدافرين أن السلطان قد تصور أن القوات العثمانية سوف تتركز في بورسعيد والسويس ، وليس كما ذكر دافرين من أن القوات العثمانية سوف تتقدم من كريت الى بورسعيد ومنها الى قناة السويس ، فقد اسقطت كلمة « القناة » من الحساب . وهكذا ودائما يضغط دافرين ويراوغ السلطان حتى يكون هناك معنى واحدا لارسال قواته الى مصر ، وذلك بتمركزها وسط الشعب المصري ، والواقع أن السلطان هو ايضا كانت له اهدافه البعيدة من ذلك .

على اية حال ، توقع دافرين بين لحظة وأخرى أن يستدعيه سعيد باشا لانتهاء الاتفاق ، وبالفعل تم الاستدعاء ، وتوجه دافرين في اول سبتمبر الى منزل سعيد باشا ومعه ثلاثة من معاونيه من أعضاء السفارة . كما كان سعيد باشا هو الآخر محفوبا بمساعديه (١) . ولما سأل دافرين عن الاتفاق ، ابلغه سعيد باشا بأنه سيتم نشره في الصحف صباح اليوم التالي . . . وقد اندهش دافرين تماما ، فالوثيقة كانت لا تزال تحت المناقشة ، وهي لا تزال موضوعا للمفاوضات بين الحكومتين ، وكان المفروض أن ترسل الى السفارة الانجليزية قبل نشرها في الصحف . ولكن دهشة دافرين اصبحت بلا حدود عندما تبين له ان الاتفاق المرسل للصحف يختلف كلية عن الوثيقة المرسلة الى لندن (٢) .

— F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(١)

— F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.

(٢)

وعندما بحث دافرين عن الترجمة الفرنسية قرا عليه ارتين افندى وكيل الخارجية التركية الجزء الذى تمت ترجمته من الاتفاق لأنه لم يكن قد اكمل الترجمة بعد .

وعندما تبين لدافرين ان الاتفاق الجديد يختلف عما سبق الاتفاق عليه، لم يخف عدم رضائه وأوضح أن لديه تعليمات من حكومته بالتوقيع على الاتفاق الاصلى الذى اختيرت كلماته وصيغت عباراته بكل دقة من جانب الحكومتين ، وانه لذلك يصعب عليه المضي قدما فى المفاوضات قبل ارسال النص الجديد الى لندن .

وأوضح سعيد باشا لدافرين أنه يمكنه التوقيع بالاحرف الاولى على الاتفاق الجديد فأجاب دافرين انه رغم عدم موافقته على بعض المقاطع، فإنه للظروف مستعد لذلك ، وهكذا بدأت الاستعدادات لذلك التوقيع .

ولكن مرة أخرى طالب المسئولون الاتراك بتعديل ميناء (أبو قير) المشار اليه كنقطة لنزول القوات التركية . فاستخدم دافرين الصيغة التالية « أن القوات التركية سوف تدخل القناة ثم تتقدم الى المراكز المتفق عليها بين القادة الانجليز والاتراك » . ولكن المفاوضين الاتراك اعترضوا على هذه الصيغة ، وابلغوا دافرين بأن السلطان قد أمرهم بالتوقيع مع ذكر بورسعيد كمكان لتمرکز القوات التركية . ومع ثم اقترح دافرين الصيغة الجديدة التالية « أن القوات التركية سوف تتقدم الى بورسعيد ومنها الى مراكزها على القناة طبقا لاتفاق التادة » . وقد وافق سعيد باشا على هذه الصيغة . وشعر دافرين بأن كل العراقيل قد انتهت .

الا ان سعيد باشا سرعان ما دافرين بأن السلطان لم يوافق على هذه التعديلات وقد علق دافرين على ذلك ، بأن هذا الرفض سيؤدي الى عراقيل أخرى فى سبيل توقيع الاتفاق ، كما ابلغ سعيد باشا بأنه سينقل الموضوع كلية الى لندن (١) .

ولكن ما هو رأى جرانفيل بالنسبة لهذا التعديل الخاص بتمركز القوات التركية ؟ .

لقد أبلغ جرانفيل دافرين لابلاغ المسؤولين الاتراك أن حكومة لندن لاتوافق على تمركز القوات التركية في بورسعيد ، وأن هذه المادة من الاتفاق يجب أن تصاغ بحيث لا يعترضها أى غموض ، وأن الإشارة الى بورسعيد يجب أن يكون مفهوما معها أن القوات التركية تعبر بورسعيد فقط لدخول القناة وليس للتمركز فيها ، لأنه يجب التنسيق طبقا للخطة العامة للحملة (١) .

وهكذا اقصل دافرين بسعيد باشا مرة أخرى لابلاغه ذلك ، شارحا له انه رغم أن الاتفاق يشير الى القناة بصفة عامة كنقطة تتقدم منها القوات التركية ، فإن نُقط تمركز القوات سوف تحدد طبقا لترتيبات بين القادة وطبقا للاوضاع الحربية عند نزول القوات .

الا ان سعيد باشا عاد فأبلغ دافرين أن الباب العالي ليس مستعدا للموافقة على الصيغة المقترحة وأنه يفضل كلمة « نزول » القوات الى بورسعيد se rendront à port-Said فأجاب دافرين أنه يجب أن لا يكون هناك أى شك أو لبس بالنسبة للصيغة التى ستكتب بها هذه المادة من الاتفاق وأنه عندما ذكر بورسعيد لم تكن هناك مشكلة انزال القوات التركية بها ، فهى أفضل فقط من ميناء (أبر قير) الصغير ، ولكن على أن تتقدم القوات منها الى القناة ، وأن سعيد باشا نفسه قد رحب بذلك .
الا ان سعيد باشا اجاب بأن هذه هى رغبة الباب العالي (٢) . وبعد بعض المناقشات ، اقترح دافرين تعديلا جديدا على المادة ينص على أنه « يجب أن تتجه القوات التركية الى بورسعيد من أجل دخول القناة » . وقد قوبلت هذه الصيغة بترحيب من جانب سعيد باشا (٣) .

وهكذا وبعد تخطى عقبة نزول القوات العثمانية ، وبعد استبعاد تعبير « التدخل الاجنبى » والمقصود به القوات الاوروبية - من الاتفاق ،

— F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.

(١)

— F.O. 407 - 23 No. 264 op cit

(٢)

— F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.

(٣)

اقتنع دافرين بأن كل الصعوبات قد انتهت . وانتظر بقلق دعوة سعيد باشا له للحصول على الاتفاق هرقعا عليه من الباب العالي .

وفي ١٤ سبتمبر ابلغ سعيد باشا دافرين استعداداه للتوقيع على الاتفاق في صورته النهائية . وهكذا ارسل دافرين أحد أعضاء السفارة وهو السير ساندسون Sandiston الى الباب العالي للتأكد من توقيع الاتفاق .
الا أنه بعد يومين ، ابلغ ساندسون دافرين بأنه لم تصله اجابة من سعيد باشا .

وهكذا توجه دافرين الى « القصر » ، وعلم ان التوقيع لم يتم « رغم التنازلات الكبيرة التي قدمتها الحكومة الانجليزية » واعتقد دافرين ان هناك استحالة للتوصل الى اتفاق مع الحكومة العثمانية . . . ولكنه رغم ذلك ورغم تعليمات جرانفيل له ، فانه - طبقا لكلماته - حاول الاقتراب من خط سعيد باشا (١) .

كما ارسل سعيد باشا برقية لدافرين يوضح فيها التعديل الثاني في الاتفاق بخصوص سلطات المارشال (الفريق) درويش باشا - قائد القوة المزمع ارسالها الى مصر - « ان متير بك سيحمل اليه التفصيلات في القريب العاجل (٢) ، وانه أيضا سيرسل الاتفاق كاملا الى دافرين للتوقيع عليه .

ولكن تبين لدافرين ان الاتفاق قد أصبح بعيدا مرة أخرى عما تم الاتفاق عليه . . . فقد جاء في المسودة ان اعداد القوات التركية ستكون نحو ثلاثة آلاف رجل . وتم حذف عبارة « انزال القوات التركية » . كما حذفت المادة الثالثة الخاصة بأن تحركات وعمليات القوات التركية هي طبقا لتعليمات القائد العام الانجليزي ، وحلت محلها عبارة توضح ان قائد القوات العثمانية يقيم علاقات ودية مع القوات الانجليزية في مصر . كما حذفت عبارة « وتتجه القوات العثمانية الى المراكز المحددة

— F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

- F.O. 407 - Inclosure in 23 No. 264 op. cit.,

136 Said Pasha to the Earl of Dufferin (Telegraphique)
Constantinople le 16 Sep, 1882.

(١)

(٢)

لها طبقا لتعليمات الفائد العام الانجليزي في مصر ، وحلت محلها
« وتوجه القوات العثمانية الى النقط الملائمة لها في حالة الحرب » .

وهكذا اضطر دافرين الى عدم الموافقة على التوقيع على هذه
الوثيقة . وهنا طلب السلطان مقابلة دافرين وقد تمت المقابلة
فعلا ، وقد كرر دافرين على مسمع السلطان انه يرغب في ارضاء الباب
العالى ، ولكنه كسفير فانه يعمل طبقا لتعليمات حكومته . وقبل انتهاء
الاجتماع اشار دافرين الى ان سير الحوادث يتم بطريق سريعة جدا ،
فقد تغير الموقف جذريا في مصر بعد أسر عرابي وتسريح الجيش المصري .
كما اضاف دافرين بأنه « متأكد من ان لندن تود التصرف بطريقة
ودية مع السلطان رغم انه ليست هناك ضرورة ملحة للتعاون العسكري
التركي ، وانه من الافضل للحكومة العثمانية ان تلبي المطالب الانجليزية .
وقد اجاب الباب العالى اجابه ودية ، ولكنها خالية من اي مضمون
بالنسبة لوجهة النظر الانجليزية (١) » .

وقبل انتهاء هذه النقطة ، يمكن لنا ان نتساءل لماذا تمسكت السلطات
التركية بالتمركز في بورسعيد ، بينما تمسك الانجليز بوجوب تقدم القوات
العثمانية من بور سعيد - بعد دخولها القناة - الى مراكز اخرى يعينها
الانجليز في مصر كان درويش باشا قد اوضح في تقريره
للسلطان (٢) ان هناك مركزا حصينا للعرابين قرب بور سعيد ، وان هذا
المركز سوف يفضم الى القوات العثمانية فور وصولها الى بورسعيد ،
وهكذا تنضم بقية المراكز العرابية للعثمانيين .

والواقع ان دافرين كان متلهفا على انتهاء الاتفاق مع العثمانيين ، لاننا
لو تركنا القوات العثمانية تنفرد بحل المسألة فسوف تنضم تركيا لعرابي ،
وان اللهجة المعادية للصحافة التركية تجاه الانجليز توضح ان تركيا
ليست ضد (العصيان) ولكنها ضد الانجليز والاجانب . وقد اوضح
قناصل انجلترا في جهات كثيرة التحمس الديني الاسلامي ضد الانجليز ،

— F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(١)

— F.O. 407 - 22. Incloure in No 589. op. cit

(٢)

وبكفى العراقيل التي بثها الباب العالي أمام امداد الجيش الانجليزي بالمؤن والدواب . ولله يمكن فقط للمحافظة على الشكل - أن تتمركز قوة تركية صغيرة في (أبو قير) وترفع العلم التركي (١) وواضح أن دافرين كان يرسى من وراء ذلك عدم انضمام العربيين للقوات العثمانية .

- انجلترا تنفرد بمصر -

على أية حال ظلت المفاوضات بين انجلترا والدولة العثمانية بطيئة . متعثرة ، الى أن استقر الامر لانجلترا في مصر بعد قضائها على الثورة العربية واستيلائها على قناة السويس وهكذا انفردت انجلترا بمقدرات مصر ، خصوصا لعدم رغبة فرنسا في المشاركة الفعلية في غزو مصر ، الا اذا كان هناك خطر فعلى يهدد قناة السويس ، كما انها حددت عملها عند الضرورة بالعمليات البحرية فقط .

وعندما طلب الباب العالي من الحكومة الانجليزية أن تذكر له الموعد المحدد لانسحاب القوات الانجليزية من مصر طبقا لما اعلنته هذه الحكومة ، ابلغ جرانفيل دافرين لابلاغ السلطان ، بأن الباب العالي « يعلم جيدا بالتضحيات التي بذلتها الحكومة البريطانية من أجل المحافظة على النظام في مصر » (٢) وأضاف جرانفيل « أن هذه التضحيات منحتنا القوة ... وان هذه القوة وضعت على كاهلنا مسئوليات كبرى ... لأن الجيش (المصري) قد تم تسريحه ، ونحن ليست لدينا الرغبة في البقاء في مصر فترة اطول مما تحتمه الظروف » (٣) . واستمر جرانفيل موضحا وجهة نظره للسلطان فان « العمل المنفرد الذي اضطرت الحكومة الانجليزية الى اتخاذه لم يكن مخططا منذ اللحظة الاولى ... الا أنه عندما أصبح واضحا أنه لا يمكن إعادة النظام الى مصر بدون تدخل خارجي ، فإنه كان على السلطان أن يقوم بذلك بنفسه بصفته صاحب السيادة على مصر ، وقد

— F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(١)

— F.O. 407 - 23 No. 34 op. cit.

(٢)

— F.O. 407 - 24 No. 36.

(٣)

p. 20. Earl Granville to the Earl of Dufferin (No. 602)
F.O. October 5, 1882

اقتُرحت الحكومة الانجليزية ذلك الحل ، والسفير الانجليزي في الاستانة لم يتوان عن حث السلطان ومستشاريه على ذلك ، الا أن كل مجهوداته ذهبت أدراج الرياح وغندما بدأ ضروريا التحرك بسرعة لضمان أمن القناة ، اقترحنا أن نتعهد بهذا الواجب بالتعاون مع فرنسا وأى قوى أخرى مستعدة للتعاون معنا ، وذكرنا ايطاليا للمشاركة في الترتيبات . أن نجاح (العصيان) حطم سلطة الخديو ، وحول مصر الى حالة من الفوضى وقد دعونا فرنسا وايطاليا للعمل معنا للقضاء على (العصيان) وعندما تقاعست هذه القوى عن العمل معنا ، ظللنا نضغط على الباب العالي لارسال قواته ، ولكن قبل أن توافق الحكومة التركية على الاتفاق العسكرى ، فإن نجاح قواتنا قد وُضِعَ نهاية (للعصيان) في مصر ، (١) .

وهكذا ونتيجة للضغوط والقيود التي فرضتها إنجلترا على تصرفات الباب العالي تجاه المسألة المصرية وكذلك لتقاعس بسمارك عن معاونة خليفة السلطان ، وكذلك لإخفاق فرنسا عن تفهم المرامي البعيدة للمخططات الانجليزية في المنطقة ، فإن بريطانيا انفردت بمقدرات مصر فترة امتدت أكثر من سبعين عاما .

أسباب اخفاق الثورة :

يرجع فشل الثورة العربية الى عوامل متعددة خارجية وداخلية وأول العوامل الداخلية هو الانقسام الذى وقع فى الصفوف بين العربيين والخديو قريش ، فان هذا الانقسام جعل فى مصر معسكرين متحاربين معسكر الثورة ومعسكر الخديو فوقع الصدام بينهما وتفاقم أمره وانتهز الانجليز فرصة وجوده وتفرعوا الى هذا الاحتلال بدعوى تأييد سلطة الخديو وحماية العرش (١) .

فالانقسام هو أول العوامل فى اخفاق الثورة ، يليه تأثير الزعماء فى تطور الحوادث ، فلقد كانت تنقصهم الخبرة السياسية ، وهذا النقص وحده يكفى لافاق ية ثورة ، وقد امتلأت نفوس زعماء الثورة بالحماس

(١) — F.O. 407 - 23 No.. 34 op. cit.

(٢) عبد الرحمن الرافعى - أحمد عرابى ص ١٦٥ .

والايمان والاخلاص ، وهذه الصفات على أهميتها ليست كافية ، اذ لابد أن يتمتع الزعماء والقادة بسعة اطلاع وحسن ادراك وتقدير سليم للأمور والظروف الداخلية والخارجية ، وقد بدا واضحا افتقار زعماء الثورة العرابية لهذه الصفات (١) .

ويتضح مما سبق أن الثورة العرابية كانت تفتقر الى القيادة الواعية، هذا الى أنها أيضا لم تكن لها الشعبية الكامنة ، حقيقة لقد التفت الكثير من أفراد الشعب حول هذه الثورة خصوصا وقت الخطر وابان الغزو البريطاني، الا أن زعماء الثورة لم تكن لديهم البصيرة ليشركوا معهم في مغامرتهم تلك الفئات الاجتماعية : العمال والفلاحين (٢) حتى يكونوا صك الضمان . فقد اعتمد عرابي في المقام الاول على الجيش والاعيان والمثقفين

« كما كان للعوامل الخارجية أثر كبير في اخفان الثورة العرابية ، واهمها المطامع الاستعمارية الاوربية وبخاصة الانجليزية ، ففرنسا وانجلترا كانتا تطمعان في توسيع نفوذهما في مصر ، ومن هنا جاء سخطها على الثورة وكراهيتهما قيام حكومة دستورية في البلاد . وأعقب ذلك انسحاب فرنسا من الميدان وانفراد انجلترا بالتدخل لتحقيق مطامعها الاستعمارية في مصر . هذا بالاضافة الى سلبية أوربا حيال الاعتداء البريطاني ، وسوف نية تركيا نحو مصر منذ قيام الثورة ، وسعيها الاخرق في استرداد الاستقلال الذي نالته مصر ، وما ظهر منها من التذبذب والتظاهر تارة بمناصرة العرابيين وتارة بتأييد الخديو ، وانضمامها أخيرا الى جانب الانجليز باعلانها عصيان عرابي والحرب قائمة .. فكان هذا الاعلان ضربة شديدة للثورة وعضدا كبيرا للحملة البريطانية » .

الا أنه انصافا للحق ، فإنه يمكن القول انه رغم كل الاخطاء الفادحة ، فإنه لم يكن من السهل على أمة تنثور للحربة أن تتغلب على كل هذه العوامل

(١) عبد الرحمن الراافعي - أحمد عرابي ص ٢١٨ .

(٢) هارولد لاسكي - تأملات في ثورات العصر - ترجمة عبد الكريم

أحمد ص ٥٨ .

(م ١٤ - تاريخ مصر الحديث المعاصر)

مجتمعة ، فالدورة الامريكية لم تدرك ما نالت من النجاح ولم تحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد ان عاونتها فرنسا بجيشها واسطولها وايطاليا لم تتحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد ان عاونتها فرنسا عن تركيا وتحت استقلالها الا بمساعدة اوريا .

اما مصر فانها لم تحرم المعاونة الخارجية فحسب ، بل تالبت عليها العوامل الخارجية وعاونت انجلترا على تحقيق اطماعها الاستعمارية (١) .

النتائج التي ترتبت على فشل الثورة العربية :

(ا) لقد كانت النتيجة الاليمة لفشل الثورة العربية هي الاحتلال البريطاني الذي ظل جاثما على صدر الامة اكثر من سبعين سنة ، ولا شك أن هذا الاحتلال كان نجاحا للثورة المضادة الخارجية ضد الثورة التحررية وهكذا شهدت السنوات الاولى للاحتلال الغاء الدستور وحل مجلس شورى النواب ، وشهدت فوق ذلك استسلام كبار رجال مصر والاعيان لارادة المعتمد البريطاني وتقرب أكثرهم اليه .

وقد عملت بريطانيا على توطيد مركزها في مصر بالنسبة للمصريين من ناحية وبالنسبة للدول الاوربية الاخرى من ناحية ثانية ، وساعدها على ذلك وجود جيش تستمد منه القوة الفعلية لتحقيق اغراضها .

وكانت مصر تعاني افلاساً في ماليتها ، ومع ذلك فقد تكبدت نفقات جيش الاحتلال واتجه الانجليز الى السيطرة على مالية البلاد ، وضمنوا لمصر قرضاً جديداً يسد تلك النفقات ، كما اتجهوا الى الغاء المراقبة الثنائية ، واتبع اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر عدة وسائل لزيادة الميزانية ، منها تحريم صناعة التبغ ، وزيادة العوائد الجمركية على الدخان الوارد والتوسع في مشروعات الري وتقرير البديل النقدي عن الخدمة العسكرية .

(١) عبد الرحمن الرافعي - أحمد عرابي ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(ب) محاكمة العرابيين :

عقب الاحتلال مباشره ، تم اعتقال رعماء الثورة العرابية ، واعتقل ايضا كثيرون من الضباط ، وألقوا في السجن رهن التحقيق والمحاكمة ، وكثرت الوشائيات حتى امتلأت السجون بالمتهمين ، وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من ٣٩٠٠٠ شخص .

واستقر رأى الانجليز على ان يقدم عرابى وصحبه أمام المحكمة العسكرية بتهمة عصيان الخديو ، وحكم على عرابى وسبعة من رفاقه بالاعدام ، مع صدور الامر الخديوى ، بابدال الاعدام بالنفى المؤبد . كما أصدر الخديو أمرا آخر فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بمصادرة ممتلكات الزعماء السبعة وتجريدهم من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التى كانوا حائزين لها (١)

ونتيجة لاحكام النفي والتشريد أمنت بريطانيا من أى ثورة تتهددها فى مصر .

(ج) سيطرة الانجليز على الجيش المصرى :

بادر الانجليز الى إلغاء الجيش الوطنى منذ الساعات الاولى للاحتلال واستعاضوا عنه بجيش هزيل وضع نحت اشراف ضباط انجليز ليكون أداة مسخرة فى أيدي الاحتلال . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل حرص الانجليز على أن يعرقلوا أى سبيل للنهوض بالجيش من جديد ، فبادورا الى إلغاء المدارس الحربية العليا ، كما أغلقت المصانع الحربية وبيعن سفن الاسطول المصرى ، وهبط عدد الجيش الى أقل من عشر آلاف جندي

وكان الضباط المصريون لا يضمنون الحقاء فى مناصب الجيش الا اذا ابدوا ولاءهم : حلال ، أما اذا بدت منهم روح وطب . كان حزاؤهم الاحالة الى الاستبداد ، وبذلك مسح الاحنلال روح الجنس . ونزل به الى مستوى شنيع من الضعف .

(١) عبد الرحمن الرافعى - احمد عرابى ص ٢٠١ - ٢٠٤ .

« ومنذ عام ١٨٨٦ وصح نظام البدل النقدي للاعفاء من التجنيد ، وأدى هذا النظام الى امتحان الجيش واعتبار التجنيد تكليفا تختص به الطبقات الفقيرة التي لا يستطيع الفرد منها أن يفتدى نفسه بدفع البدل العسكرى ، وهذا النظام خرج بالجندي في عهد الاحتلال من معناها السامى في أنها فرض واجب على كل مواطن للدفاع عن بلاده الى اعتبارها عبئا يقع على كاهل الفقراء ، وبذلك حرمت البلاد طلبة عهد الاحتلال روح الجندي الاصيل المبنية على الشجاعة والتضحية ، كما حرم الجيش من الفئة المثقة النى تسنطع ان تنهض بالجيش » .

(د) إلغاء الدستور وحل مجلس شورى النواب :

ألغت بريطانيا الدستور عقب الاحتلال ، وحلت مجلس النواب ، وحرصت على تشكيل هيئات هزيلة مثل مجالس المديرية ومجلس شورى القوانين ، وكان الغرض من انشاء تلك المجالس مجرد التنفيس ، اذ أن الحكومة لم تكن في الواقع تلتزم بقرارات تلك المجالس .

أما في الوزارات والمصالح الحكومية ، فقد عينت الحكومة عددا من المفتشين الانجليز ولم يكن هؤلاء من طراز ممتاز في العلم أو في الكفاية . وكانت كلمة المستشار البريطاني أقوى من كلمة الوزير المصري ، وكان لكل وزارة مستشارها ، وقل نصيب المصريين في الوظائف الكبيرة ، وأصبحت الوزارات المصرية تأتمر بأوامر الانجليز ، واستمر ذلك تقريبا بالنسبة لجميع الحكومات المصرية التي تعاقبت في سنوات الاحتلال ، وذلك منذ أرسل اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية برقيته المشهورة في عام ١٨٨٤ بشأن أزمة السودان وجاء فيها « مادام الاحتلال قائما فلا بد من اتباع النصائح التي ترسلها حكومة جلالة الملك الى الخديو ويجب على الوزراء والمدرسين المصريين ان يكونوا على بينه من ان الحكومة الانجليزية تصر على اتباع السياسة التي قراها ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير يعارض هذه السياسة » .

(هـ) انجلترا والاستغلال الاقتصادي :

كان من أهم أهداف الاحتلال البريطاني الاستغلال الاقتصادي فكان أول ما جاهر به أن مصر بلد زراعى ولا يمكن أن تنهض فيه الصناعة ، ومن

أجل ذلك أغلق الانجليز المصانع التي كانت موجودة بالفعل ، حتى تظل مصر في حاجة دائما الى المصنوعات البريطانية . ونظرا لاهمية القطن بالنسبة لمصانع الغزل والنسيج في لا نكشير ، اهتم الانجليز بزراعته في مصر حتى أصبح عمود اقتصادها القومى ، ثم جعلوه في أيديهم باعتبارهم المستوردين له ، وبذا صار اقتصاد البلاد بين أيديهم تماما .

كما عمل الانجليز على ايجاد طبقة من الملاك ترتبط مصالحتهم بمصلحتهم وشجع الانجليز انشاء الملكيات الكبيرة ، وفعلوا ارتبطت مصالح هؤلاء بالاحتلال لان مصالحهم أضحت في أيدي سلطات الاحتلال . وكان يؤخذ من هؤلاء الملاك ممثلو البلاد في مجلس شورى القوانين وفي الجمعية العمومية لانهم كانوا هم المسيطرين على الحياة في الريف ، وبذلك اختل البناء الاجتماعى في الريف المصرى اختلالا شديدا ، اذ أصبحت غالبية الارض الزراعية في يد قلة من كبار الاقطاعيين ، وهناك بعض الفلاحين ممن يمتلكون مساحات ضئيلة ، بينما الغالبية منهم لا يمتلكون شيئا .

(و) اضمحلال التعليم :

كان هدف التعليم في عهد الاحتلال هو المحافظة على الاوضاع السياسية التي قامت ، ومعنى هذا اقرار الامن وجعل النظام مستتباً بحيث لا تستشرى روح الوطنية في النفوس ، ولذلك كان التعليم في بداية عهد الاحتلال تابعاً لنظارة الداخلية ، ولا شك أن هذه التبعية توضح ما كان يريد الانجليز من التعليم ، وهو ابعاده تماماً عن دائرة التعليم الوطنى الذى يرمى الى تكوين المواطن الحر الصالح .

والهدف الثانى للسياسة التعليمية في عهد الاحتلال ، كان تخرجه الموظفين الصغار الذين تحتاجهم وزارات الحكومة ، وقد انعكس هذا الهدف في السياسة التعليمية ، بحيث أننا نلاحظ أن المدارس كانت تفتح أبوابها وتغلقها بطريقة موسمية وحسب حاجة وزارات الحكومة الى الموظفين .

أما الهدف الثالث فهو تعميق الفوارق الطبقيّة بين أبناء الوطن واتخاذ تعدد نظم التعليم وسيلة لتحقيق ذلك ، فقد شجع الاحتلال المدارس الاجنبية والخاصة لتحقيق هذا الهدف .

أما الهدف الرابع ، فكان نشر الثقافة الانجليزية وجعلها أدوات الاستعمار .

« وكان مجرع ما أنفقه الانجليز على التعليم في الخمسة وعشر الاولى لعهد الاحتلال لم يتجاوز من ١ - ٣ ٪ من الميزانية . والغيت وزيدت مصروفات المدارس الثانوية ، وبذلك خلق الانجليز ما يد بالارستقراطية العلمية ، بل جعلوا من التعليم فجوة بين المتعلمين الشعب وأصبحت اللغة الانجليزية لغة الدراسة في المدارس حتى في الابتدائية ، أما الكتب الدراسية فكانت خالية من كل نزعة وطنية الاهتمام بتاريخ أوروبا وجغرافيتها أكثر من الاهتمام بتاريخ مصر و حتى يفصل الانجليز بين حاضر البلاد وماضيها الثقافي ، » .

« ومما يدل على عدم اهتمام كرومر بالتعليم أنه حين أحس عهده بالمفاداة باستعمال اللغة العربية والاهتمام بالتعليم العالي أبواقه تذيع أن نشر التعليم الاولى بين طبقات الشعب أجدى على انشاء الجامعة وأن الحكومة حينئذ أخذت تشجع انشاء الكتاتيب بالمال ، وترتب على هذا أن أبناء الاثرياء وحدهم هم الذين كان تلقى التعليم الفنى والعالى بالسفر الى الخارج ، » .

الفصل السادس

يقظة مصر بعد الاحتلال

من خلال كفاح الوطنية المصرية منذ الحركة العرابية ، يبرز التيار القومى المصرى الذى ترجع بدايته للمفكر المصرى رفاعه الطهطاوى الذى وهب نفسه لتجديد الحياة فى مصر حتى تلحق بحضارة الغرب التى شاهدها اثناء رحلته الى اوربا ، فقد تناول بشكل بارز تاريخ مصر الخاص بحضارتها فى كتابه « مناهج الالباب » .

وتصدى هذا المفكر لتحليل مقومات الحضارة الاوربية وخاصة فى وضعها السياسى والاجتماعى فى مؤلفه « تخلص الابريز » بشرعية مبادئ الديمقراطية اللابريالية التى تقوم على الديمقراطية ، وحرية الفكر والتعبير ، مع اتجاهه المقارن بين الاوضاع السياسية والاجتماعية فى فرنسا والاضاع السياسية والاجتماعية فى مصر (١) .

واذا تأملنا دعوة الطهطاوى من خلال اعماله نجدتها تركز على ثلاث دعائم ، القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية ، والدعوة الى الأخذ بأسباب الحضارة الغربية فى مصر (٢) .

وعندما جاء الافغانى الى مصر وجد الطهطاوى قد هبأ له القربة الفكرية والسياسية بأولئك الذين شبوا فى مدرسته .

(١) رفاعه الطهطاوى : تخلص الابريز فى تخلص باريز تحقيق وتعليق مهدي علام وآخرين ص ١٧٠ .
(٢) رفاعه الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية فى مناهج الآداب المصرية ص ٩٧ .

واذا كانت مدرسة الافغانى قد اعقبت مدرسة الطهطاوى الا ان المدرستين تختلفان كلبة فى المنهج والاسلوب والغاية وما يسيطر على كل منها من طبيعة رائدها .

وبلورت دعوة الافغانى الاتجاه الثورى الذى كان يتأجج فى صدره عن غريزة طبيعية صقلتها وانضجتها سياحة طويلة فى الاقطار الاسلامية ، واكسبته نجارب عملية واسعة وخبرة بحياة الشرق (١) .

فدعوة الطهطاوى تجديد حضارى ، اما دعوة الافغانى فدعوة تكتنفها ظروف استعمارية مهيمنة من دول الغرب ، ولذلك اتسمت دعوته باساس ومنهج فكرى يمتد فى الجامعة الاسلامية التى كان يعتبرها السلاح البتار امام هؤلاء الطامعين .

ومن هذه المدرسة الاخيرة نجد الفكر العربى يتخذ طريقه وتتشع منه الافكار التى انتشرت خلال نهاية القرن التاسع عشر ، والنصف الاول من القرن العشرين فى العالم العربى .

ولا شك ان المثقفين كانوا ابرز الفئات فى الحياة السياسية فى مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر ، فقد تألفت هذه الفئة منذ مطلع القرن التاسع عشر نتيجة للاحتكاك الفكرى والحضارى بين المجتمع المتخلف فى مصر والحضارة الغربية ، ونتيجة ايضا لحركة النقل والترجمة من الفكر الغربى فى صورة المختلفة (٢) .

ولم تكن الفرصة مواتية لنمو الحركة الوطنية من خلال السطوة الاستعمارية الكاملة من جهة وللذهول الذى اصاب المصريين من جهة اخرى من جراء فشل ثورتهم - العرابية - واحتلال بلادهم ، وادى هذا بالتالى الى فتور الحركة الوطنية . ولكن الشعب بعد ذهوله ونكسة ثورته بدأ

(١) احمد امين - رعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٩٧ .
(٢) د . محمد أنيس - ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها القاربخية ص ١٢٢ .

يفيق من الصدمة على يد صحيفة المؤيد التي تحريرها الشيخ على يوسف .

وتضافرت عدة عوامل لابتزاز الشعب من حديد ، فكانت مما أحدثته السياسة الاستبدادية وما أثاره الحكم المطلق الذي كان بزاوله ممثل الاحتلال من الاستئثار بالسلطة دون الخديو من رد فعل بين المصريين من الاحتلال الى جانب تفاضى سلطات الاحتلال عن منح المصريين النظام النيابى على نمط النظام البريطانى ، وتقاعس الاحتلال عن منح المصريين قسما (من التعليم العالى ، ومحاولة جعل اللغة الانجليزية لغة التعليم .

مصطفى كامل :

وفى وسط هذه الظلمة الحالكة ، ظهر من بين المصريين طراز جديد من المثقفين الذين رفعوا راية الكفاح ضد الاحتلال .

وكان على رأس هذه الجموع الثائرة شاب متوقد الذكاء شديد الحماسة هو مصطفى كامل ، درس المحاماة وتلقى المحاضرات فى مدرسة الحقوق المصرية - ثم أتمها فى مدرسة الحقوق الفرنسية . وكان مصطفى كامل خطيبا مؤثرا يستطيع ببلاغته أن يخاطب قلوب الجماهير ، وأخذ يعبئ شعور المصريين بالمقالات والخطب (١) .

ولا شك أن مصطفى كامل هو باعث الوطنية المصرية بعد الاحتلال ، وهو الذى أعاد الى المصريين ثققتهم بأنفسهم بعد فشل الثورة العرابية . وكان أول ما واجهه من الصعاب هو اليأس الذى ران على نفوس الكثيرين ممن صدمتهم كارثة الاحتلال . لذلك كان أول ما يجب أن يتجه اليه زعيم الحركة الوطنية فى تلك الآونة أن يذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم وما فعله أجدادهم فى القريب والبعيد من أيامهم (٢) ، فهو يقول : ان ثقة الأمة بنفسها هى الأساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد غدها وسؤددما . ترى الأمة اذا اعتنقت الحرية ، والقدرة فى مجموعها وأفرادها تغلبت على

(١) د . جاد طه - الصراع الاستعماري فى حوض النيل ص ٨١ .

(٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٣٠ .

الحادثات والابسام وقهرت ألد أعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة
ولا وجلّة (١) .

وقد ولد مصطفى كامل في ١٤ أغسطس ١٨٧٤ بدرب المبيضة بشارع
شبخون بالصلبة بقسم الخليفة بالقاهرة . ونال شهادة الدراسة
الثانوية في عام ١٨٩١ ، والتحق في نفس العام بمدرسة الحقوق الخديوية ،
كما التحق في عام ١٨٩٢ أيضا بمدرسة الحقوق الفرنسية فجمع بين
المدرستين وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز الفرنسية في عام
١٨٩٤ .

وقد بدأ مصطفى كامل كفاحه الوطني وهو طالب بالمدرسة الثانوية ،
ولم يكن قد تجاوز بومئذ السادسة عشرة من عمره ، إذ أسس في عام ١٨٩٠
جمعية أدبية وطنية أطلق عليها (جمعية الصليبة الأدبية) .

وبعد تخرجه من الحقوق الفرنسية والمصرية ، بدأ مصطفى كامل
يستغل موهبته الفذة في الخطابة والكتابة في بعث الروح الوطنية . . . بدأ
يكتب في الصحافة المصرية والعالمية ، منددا بالاحتلال البريطاني . كما أن
موهبته الخطابية شددت إليه الأذان في عصر كان المصريون فيه يعيشون
اللغة العربية ويفهمون دقائقها ، وفي هذه المرحلة الأولى أرسل خطابات إلى
كبار زعماء العالم وإلى البرلمانات يعرض عليهم تجاوزات بريطانيا في
مصر . واستغل مصطفى النزاع بين فرنسا وإنجلترا ليكتب في الصحافة
الفرنسية .

وسعى مصطفى سنة ١٨٩٥ للتعرف بمدام جوليت آدم ، وكانت من
أعظم الشخصيات الفرنسية في السياسة والأدب ، وكان مشاهير أدباء العالم
برحلون إليها وبجتمع بدارها العلماء والأدباء والشعراء (٢) .

(١) د . جاد طه - الصراع الاستعماري في حوض النيل ص ٨٢ .
(٢) ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦ وتوفيت سنة ١٩٣٦ ، فظلت موضع
احترام مواطنيها طوال سنين حياتها ، وقد وضعت سنة ١٩٢٢ كتابا
بعنوان (إنجلترا في مصر) وقد سعى مصطفى كامل تضم مدام آدم في صف =

وقد فتحت مدام آدم الباب على مصراعية لمصطفى كامل كي يندد بالاستعمار البريطاني في الصحافة الفرنسية .

ولم يتوقف نشاط مصطفى كامل في هذه المرحلة المبكرة من جهاده على مهاجمة إنجلترا في الصحافة الفرنسية بل انه راسل السياسة الانجليزية ، وسافر الى برلين ليرفع صوت مصر في المانيا ، وكذلك فعل في فيينا عاصمة النمسا ، كما سافر الى الآسنانة عاصمة الدولة النمساوية ، باعبار ان هذه الدولة كانت الدولة الوحيدة التي كانت لا تفتأ تطالب إنجلترا رسميا بالجلاء عن مصر .

مصطفى كامل وحادثة فاشودة :

في سنة ١٨٩٨ وقعت حادثة خطيرة كان لها وقع شديد في النفوس ، واثّر بالغ في مصير المسألة المصرية ، ونعنى بها حادثة فاشودة التي اهتزت لها أوروبا بأسرها .

كانت بعثة مارشان هي المظير الوحيد الأكثر جدارة بالنظر والأكثر شهرة بين مظاهر النشاط الفرنسي في أفريقية في السنوات من ١٨٩٧ - ١٨٩٨ (١) وكان مارشان أحد مساعدي مرنى المتحمسين لفكرة الوصول الى النيل ، والذين عملوا معه منذ شهر مايو ١٨٩٥ في باريس .

وفي ٢١ سبتمبر من نفس السنة كتب شوتان Chautemps وزير المستعمرات الفرنسي الى زميله وزير الخارجية شارحا أنه قد طلب من الكابتن مارشان دراسة امكانية امتداد النفوذ الفرنسي في اتجاه النيل ، وكتابة تقرير

= الاماني الوطنية المصرية لما لها مكانة كبرى في عالم الصحافة والأدب والسياسة في فرنسا ، وأرسل لها خطابا في ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ يطلب منها غيه مؤازرة الحركة الوطنية في مصر ضد الاحتلال ، طلبت مدام آدم نداء مصطفى كامل ، وكتبت اليه ترحب بدعوته ، فجاء وقابلها ، واصبحت مدام آدم بمثابة الأم الروحية لمصطفى ، وعرفته بكبار السباسبين والصحفيين الفرنسيين . وقد زارت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ بناء على دعوة مصطفى كامل ، واستقبلت بكل الحفاوة والتكريم .

عن ذلك ، وتابع شوتان خطابه الى هانوتو ذاكرا أنه قد أمر كابتن مارشان بأن بشرح له شخصنا هذه الحطة ، ولكى ستقو زارة ريبـ Robot
تسبب في احباط المشروع ، وأن كان مارشان قد ذكر بأن هانوتو قد وافق عليه .

وفي وزارة ليبرجرا Leon Bourgeois طلب كيسى Quieysse
وزير المستعمرات من مارشان كتابة مذكرة عن الموضوع ، وذكر مارشان فيها أنه يجب تعبئة كل الامكانيات لد النفوذ الفرنسى تجاه النيل . كما كان يهتقد بضرورة تدخل وزارة الخارجية الفرنسية مادام الامر سبؤدى الى حادثة دولية .

ولما كان من غير المعقول أن تعتمد فرنسا ، وهى التى تخدم حقوق خديو مصر ، الى محاولة ضم السودان المصرى ، فان بريطانيا ستضطر الى الموافقة على التدخل الاوربى لبحث مسألة وادى النيل على مستوى دولى وقد ينتج عن ذلك مباحثات تتعلق بحالة الجلاء عن مصر نفسها ، ولذلك فانه يجب ارسال حملة الى النيل على أن لا يكون لها الطابع الحربى ، وأن يقتصر واجبها على مجرد رفع العلم الفرنسى هناك ، اما اذا واجهت حملة خرى معادية فعليها أن تتحاشى وقوع أى صدام بين القوتين أثناء هذه المواجهة وأن تطلب الاتصال بالحكومتين صاحبتى الأمر (١) .

ولم يكن غرض مارشان كما يقول رنوفان هو احتلال السودان المصرى ومنه الى فرنسا ولكن

Prendre des gages de restitution collective a l'Egypte de sterriiores ayant formés le Sudan Egyptien

وكذا وضع انجلترا فى

Dans la necessité d'accepter, sinon de provoquer elle, même, la reunion, d'une conférence europeene, au dein de laquslle serait disauté et fiscé le sort réoervé su Souden. (٢)

Langer The Diplomacy of Imperialism. p. 540. (١)

(٢) المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الاول مايو ١٩٥٠ ص ٢٢٣ مقالة الدكتور محمد مصطفى صفوت عن نقد مقالة الاستاذ بـ رنوفان عن اصول فاشودا .

ولم يكن مقصد الفرنسيين هو احتلال وادي النيل بل خلق وقت يستطيعون عن طريقة اجبار انجلترا على مفاوضاتهم ، وعقد اتفاقية عامة كل الامور المتعلقة بينهما دون أن تفقد فرنسا كرامتها باستحذاء هذه المفاوضات . وكان من شأن اتساع النفوذ الفرنسي في اعالي النيل ، أن يضع حكومة باريس في مركز أقوى ويجعلها قادرة على استمالة الرأي العام بتعويضه عن فقدانها لمركزها في مصر (١) .

وكان كيبس وزير الخارجية الفرنسية يرى في مذكرته في ٣٠ نوفمبر ان هدف هذه البعثة غير الحربية هو محاولة الوصول الى النيل ، وأن وجودها هناك سيجعل فرنسا في موقف يسمح لها بالتدخل بنجاح في حل مسألة السودان المصري (٢) .

كما أن الجنرال مانجن Mangin الذي كان أحد أعضاء الحملة صرح قائلاً بأن الغرض من الحملة هو إزالة كل ادعاءات من جانب الانجليز لاحتلال مصر ، ووضع حد لاحلام أصدقائنا الاعزاء الذين يرغبون في ربط مصر بالكاب وممتلكاتهم في شرق افريقية بممتلكات النيجر الملكية .

كما ان هانوتو نفسه قال لمارشان عند مغادرته باريس و اذهب الى فاشودة .. أن فرنسا سوف تطلق مسدسها (٣) .

هذه اذا هي المناورات الاستعمارية في وسط افريقية ... لقد اندفعت هذه القوى تريد كل منها أن تقتطع لنفسها أكبر مساحة ممكنة من هذه المنطقة ولكن بريطانيا كانت الجانب الاقوى من جميع النواحي ، ورغم ذلك فإنها لم تكن تود اشعال حرب في ذلك الوقت ، حيث كان سالسبورى يرى أنه من المستحسن لبريطانيا وهي مستبكة في أجزاء أخرى من العالم وفي حرب جنوب افريقية أن تتجنب اشتباكات أخرى .

Hoit p. M. The Mahdist State 410

(١)

Shiberka op. cit., p. 348.

(٢)

Langer p. op. cit 538

(٣)

وكان سالسبورى يعلم أن الفرنسيين سيصلون الى النيل قبل أن
تعيد القوات المصرية فتح الخرطوم . وقد ردى سالسبورى على خطاب
لانسدون Lansdowne الذى تبهه الى هذا الخطر قائلا :

« لست شديد التأثر من هذا الخطر لاننا سوف نقابله بطريقة ما »
وأضاف سالسبورى قائلا : « يجب أن نتذكر أننا ، بتحطيم قوة الدراويش
سنقتل مدافعا يحافظ لنا على الزادى الآن » كما كتب سالسبورى أيضا
الى اللورد كرومر على هذا المتوال قائلا : « اننا اذا ما وصلنا الى فاشوده ،
فان الأزمة الدبلوماسية ستصبح شيئا لا ينسى . . . وأن ما بلى ذلك
سوف يكون شيئا مسليا جدا » .

وفي تلك الاثناء حدثت بعض التطورات التى ارغمت الحكومة
انبريطانية على الاسراع فى عملياتها . والتقدم الى الخرطوم قبل ان يتم
استعدادها لهذا الغزو (١) وليس من شك فى أن أولى هذه العوامل انما
يرجع الى ان بريطانيا بعد ان كانت تنظر الى احتلالها لمصر على انه اجراء
مؤقت لم تجد غضاضة بعد ذلك - من التلميح بأنه أمر قد يطول به الزمن (٢)

ولما كان السودان هو مفتاح مصر من الجنوب فلا بد من الاطمئنان
على الحدود الجنوبية لمصر (٣) اذ أن أى دولة قوية معارضة لانجلترا
تستطيع السيطرة على السودان يمكنها تهديد سلامة مصر بسيطرتها
على مياه النيل (٤) . أما اذا حكمت السودان دولة صنيعة فان هذا القطر
سيصبح فريسة للدول الاستعمارية تنهشها بلا رحمة ولا شفقة خصوصا
ونحن هنا فى عصر التسابق على تقسيم افريقية (٥) .

ولا ريب ان بريطانيا قد ارتكفت الى ذريعة الاطمئنان على الحدود
الجنوبية لتنفيذ مآربها الاستعمارية تجاه السودان . وقد قاله بارنج فى

(١) Philip Magwis ~ Kitchener p. 81.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى مصر والسودان ص ٤٧٧ .

(٣) Philip Magnus p. 81

(٤) Alford The Egyptian Sudan p. 40

(٥) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٤٧٧ .

رسالته الى سالسبورى فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٩ « ان اى دولة تملك حوض النيل الاعلى لابد ان تملك السيطرة على مصر بحكم الموقع الجغرافى فحسب ولم يحدث اطلاقا انى انكرت كما لا انكر اليوم ان التخلي عن السودان امر بدعو للانسف الشديد وان هذه البلد انما هى ملك بالطبيعة لمصر . وان الحكمة التى لها الحكم فى دلتا النيل يجب كذلك ان تملك شاطئ النهر وان لم يكن الى مصبه فعلى اية حال الى مسافة بعيدة على طول مجراه » ان منطق بارنج فى هذه الرسالة انما هو منطق استعمارى محض اذ يحتم ان تكون مصر والسودان حكومة واحدة . وما دامت مصر حينئذ محتلة بقوات الانجليز الذين كانت لهم السيطرة على كل شئونها ، فمعنى ذلك ان السيطرة على السودان ستكون لانجلترا ولكننا نستطيع ان نقول ايضا انه ما دامت انجلترا تحتل مصر احتلالا فعليا ، فان احتلال السودان هو المكمل الطبيعى للاحتلال البريطانى فى مصر (١) .

وكان الرأى العام البريطانى شديد الرغبة فى وجوب التقدم الى اعلى النيل . ولا ريب ان فى استعادة السودان ستكون انتقاما للطريفة التى قتل بها جوردون (٢) . الذى كانت الحكومة المصرية قد كلفته باجلاء هواتها من الخرطوم اثناء ثورة المهدي (٣) . ولم يكن فى وسع احد ان يغفل ان مصر اضطرت فى عهد الاحتلال البريطانى لها الى ان تفقد املاكها ، بل وطغت موجة من التأخر والفوضى فى هذه الاملاك المفقودة . . . الأمر الذى اعتبر الانجليز انفسهم مسئولين عنه (٤) . حتى ان لورد سالسبورى صرح فى شهر يونيو ١٨٩٨ فى مجلس اللوردات قائلا : « اننا لن نكون قد اعدنا الى مصر مكانتها التى تسلمناها بها ولن نكون غد نغمناها فى المركز الآمن الذى تستحق ان تكون فيه حتى يرفرف العلم المصرى على الخرطوم » .

ويبدو هنا المنطق الاستعمارى ايضا اذ ان الدولة صاحبة السيطرة على مصر وهى انجلترا سريفا تسيطر بالتبعية على السودان كما قلنا . . .

Magnus, p. 82

(١)

Holt, The Mahdist State p. 205

(٢)

Pedmore Britain's Third Empire p. 246

(٣)

(٤) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٤٨٥ .

(م ١٥ - نارنج مصر 'الحديث المعاصر)

ان سالسبورى لن يعيد الى مصر مكانتها التى تسلمها بها الا بالجلاء عن مصر ذاتها وهو ما كان ياباه ، ان الحقيقة ان سالسبورى كان يعمل على مدالنفوذ الانجليزى من مصر الى السودان .

وهكذا تقدمت حملة مصرية بريطانية بقيادة الضابط الانجليزى كتشفر ، وأعكبنما ان نسحق مقاومة المهديين وان تصل الى اعالى النيل ، ولكن بعد وصول البعثة الفرنسية اليها .

وصلت حملة مارشان الى فاشوده فى العاشر من يوليو عام ١٨٩٨ (١) وعملت منذ ساعة وصولها على تثبيت أقدامها ٠٠٠ مرفعت العلم الفرنسى راعدت المواقع وأبرمت الاتفاقيات مع قبائل الشك وحصلت على وعود بالاحتلال الدائم . ثم أرسلت الباخرة الصغيرة فيدايرب *Faidherbe* مسافة ٢٥٠ ميلا أعلى النهر الى أقرب محطة تموين فى مشرع الرق فى اقليم بحر الغزال لاحضار مواد التموين الضرورية (٢) وكان معنى هذا ان الفرنسيين قد عملوا على اقامة قاعدة حربية يستندون اليها فى عملياتهم المقبلة .

كان كرومر قد افترح على سالسبورى لمراجعة القوى المتنافسة على اعالى النيل فى مذكرة بتاريخ ١٥ يونيو ١٨٩٨ (٣) ارسال حملتين بحريتين نحو اعالى النيل وبمجرد هزيمة الخليفة فى ام درمان ، احداها الى النيل الابيض والاخرى الى النيل الازرق على ان تكون الحملة الاولى اموى من الثانية . وتسائل كرومر فى مذكرته عن واجب قائدى الحملتين فى حالة رفع العلم الفرنسى على أى نقطة على النيل ؟ هل يطالبان بالارض بأسم الخديو ؟ أم بأسم الحكومة الانجليزية ؟ أم باسمهما معا بالاتحاد ؟ وأشار الى أنه يجب وضع تعليمات واضحة بخصوص هذه النقطة الحساسة .

Theobald, The Mahdiya p. 240

(١)

Giffen The Fashoda Incident p. 6

(٢)

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٢٩ .

وفي اول يوليو ارسل سيرادموند مونسون السفير البريطانى فى باريس
آراءه عن الحكومة الفرنسية الجديدة الى لورد سالسبرى • وكان يعتقد
ان مسيود لكاسيه Delcassé وزير الخارجية الجديد (١)
معروف بقوة شكيمنته وان مواطنيه المعادين لانجلترا كانوا يأملون فى أن تثار
المسألة المصرية بقوة كبيرة فى عهده • وفى نفس الوقت كان من المتوقع
ان تلقى فرنسا معاونة الروسية اذا ما حدث صدام بينها وبين
انجلترا بسبب هذه المسألة • فقد توقع الانجليز ان يعتمد الفرنسيون -
الى التمسك بهذه الاراضى التى رفعوا عليها العلم الفرنسى على أساس
ان هذه الاراضى ملك مباح Res Nullius منذ ان اخلاها المصريون •

وعلى ذلك اتخذت الحكومة الانجليزية من مقترحات اللورد كرومر
السالفة الذكر فى ١٥ يونيو أساسا للتعليمات التى أصدرتها الى
كتشنر فى ٢ أغسطس (٢) • وقد تسلم كتشنر هذه التعليمات مشمعة
ومغلقة وصدرت اليه الاوامر بالايض المظروف الذى يحوى هذه
التعليمات الا بعد استيلائه على الخرطوم ••• وتبعاً لذلك فقد ذبح
كتشنر هذا المظروف فى ٣ سبتمبر فوجد ان التعليمات تشير عليه بأن
يقود بنفسه حملة الى اعلى النيل الابيض كى يصل الى معقل
الفرنسيين فى فاشوذه •

ووجه نظر كتشنر بوجه خاص الى الكلمة التى القاها جراى
Sir Edward Gray فى مجلس العموم فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٥ (٣) •

ونأكيدا لنص كلمات سيرجوارى فقد ارسل سيرادموند مونسون
مذكرة فى ١٠ ديسمبر ١٨٩٧ الى مسيو هانوتو تتضمن وجوب فهم موقف
حكومة جلالة الملكة التى لن تسمح لاية اخرى غير بريطانيا بأية
مطالب لاحتلال اى جزء من وادى النيل • وان حكومة جلالة الملكة
تتمسك بنفس اللهجة التى اعلنها سير ادوارد جراى بصراحة بخصوص
نفس الموضوع والتى ارسلتها الى الحكومة الفرنسية فى ذلك

Shibeika p. 392-393

(١)

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٢٩ ، ٥٣٠

Magnus p. 138

(٣)

الوقت (١) .

وكذلك تضمنت التعليمات المرسلة الى كتشنر ضرورة بدل ما في وسعه لابعاد الفرنسيين او الاحباش في حالة وجودهم في اى جزء من وادى النيل . . . وكان على السردار ان يبلغ اى مائد فرنسى ان وجوده في وادى النيل يعتبر تعديا على حقوق كل من مصر وبريطانيا وانه ليس لك البلجيك اية حقوق في اى جزء من وادى النيل سوى اقليم لاود وبصفة استتجار فقط (٢) وكذلك فقد كان على كتشنر في حالة مفاوضاته مع السلطات الفرنسية او الحبشية التى قد يقابلها ان لا يشير في مناقشاته الى اى كلمة يستشف منها اى اعتراف من جانب بريطانيا باى حق لابة دولة اخرى غير بريطانيا في احتلال اى جزء من وادى النيل (٣) .

وكان على كتشنر ان يتلافى اى صدام مع قرائات الامبراطور منليك بل يدرك ذلك للحرمات المختصة (٤) .

راى كتشنر انه من الضرورى التصرف فى الحال وفقا لهذه التعليمات (٥) وكان يعلم تماما ان اقرار السلم او اعلان الحرب يتوقف عليه فى هذه اللحظة وان عليه ان يتصرف بحكمة حتى يحول دون وقوع الحرب التى تكون حربا محلية بل سيمتد اتونها وتصبح حربا عالمية (٦) .

وكان كتشنر لا يزال فى ام درمان فى ذلك الوقت وعلى نحو ٥٠٠ كيلومتر شمالي فاشوده . ولكنه كان يستطيع قطع هذه المسافة فى عشرة ايام او اقل اذ ان النهر كان صالحا للملاحة ٠٠٠ وهكذا وضع ان موقع مارشان فى فاشوده والذي كان يظن بأنه بعيد جدا بعد رحلته

Shibeika p. 393-394

(١)

Arthur Sir George life of Lord Kitchener p. 246

(٢)

Magnus, p. 139

(٣)

Shibeika p. 394

(٤)

Langer p. 551

(٥)

Mangus p. 139

(٦)

التي استغرقت عامين من الاطنطى ، أصبح لا يبعد عن العالم الخارجى بأكثر من اسبوعين أو ثلاثة فى رحلة سريعة من اتجاه جديد من الشمال (١)

وفى العاشر من سبتمبر ١٨٩٨ توجه كتشنر الى اعلى النيل ومعه ونجت واسطول من خمس سفن مسلحة تحمل كتيبتين سودانيتين وبطارية مدفعية مصرية وكمية من المدافع الرشاشة (٢) . وضرب كتشنر معسكر الدراويش عند الرنك وأسر سفينتهم صفية (٣) ثم واصل تقدمه حتى أصبح فى ١٨ سبتمبر على بعد بضعة أميال من فاشوده (٤) وحاول ان يتلاقى عامل المفاجأة الذى قد يؤدى الى عواقب وخيمة (٥) فأرسل رسالة بأسم رئيس البعثة الاوربية يخبره فيها بانتصاره فى ام درمان وبقرب وصوله الى فاشوده (٦) .

وفى اليوم التالى سارت الحملة بحذر نحو فاشوده ، وكانت مستعدة لكافة الاحتمالات والتقت بقارب صغير يحمل علما فرنسيا كبيرا ، وجاء منه أحد الوطنيين برتبة (رقيب) الى سفينة السردار وسلم السردار رد الماجور مارشان على خطابه . وجاء فى هذا أن الماجور مارشان يهنئ السردار بانتصاره على الدراويش (٧) ويحيطه علما بأن القوات الفرنسية قد احتلت فاشوده منذ العاشر من يوليو عام ١٨٩٨ بأسم الجمهورية الفرنسية . وانه بناء على أوامر حكومته قد احتل بحر الغزال الى مشرع الرق والى ملتقى بحر الجبل وبلاد الشلك على يسار النيل الابيض حتى فاشوده (٨) . ثم أخذ يقص قصة اشتباك الدراويش معه فى يوم ٢٥ اغسطس وانتصاره عليهم وذكرانه قد

Giffon p. 7

(١)

Magnus p. 138

(٢)

Giffon p. 8

(٣)

Arthur Sir George, Life of Lord Kitchener p. 246

(٤)

Theobald p. 239

(٥)

Arthur Sir George; Life of Lord Kitchener p. 246.

(٦)

Arthur Sir George Life of Lord Kitchener p. 247.

(٧)

Giffon p. 8

(٨)

وقع معاهدة مع ملك الشلك عبد الفاضل يوم ٣ سبتمبر وضع فيها هذا الملك بلاده الواقعة على يسار النيل الابيض تحت الحماية الفرنسية بشرط التصديق على هذه المعاهدة من الحكومة الفرنسية (١) .
وأضاف أنه قد أرسل الباخرة الصغيرة فيدايرب الى الجنوب لإحضار الامدادات في الوقت الذي انتظر فيه معاودة الدراويش للهجوم ولكن وصول انباء انتصارات كتشنر اعدت احتمال الحرب مع الدراويش (٢) .

المقابلة بين كتشنر ومارشان :

وصل كتشنر الى فاسوده في ١٩ سبتمبر حيث وجد العلم الفرنسي مرفوعا على مبنى الحكومة القديم هناك .

وقرر كتشنر أن يطالب فقط برفع العلم المصري على المديرية لتأكيد المطالب المصرية على كل السودان ولذلك فإنه أمر برفع العلم المصري على كل سفن الحملة الصغيرة . وقرر أن يقابل مارشان وهو مرتد زى لواء في الجيش المصري ولابسا الطربوش الاحمر على رأسه .

وتم اول لقاء بين قائدى الحملتين ، ففي نفس اليوم جاء مارشان الى سفينة كتشنر (٣) بناء على طلب الاخير اذ السردار كان اعلى في الرتبة العسكرية من الماجور مارشان (٤) . واستقبل مارشان بحرس شرف من القوات المصرية البريطانية (٥) .

وبعد المقدمات اظهر كتشنر تقديره العميق للرحلة الشاقة المضنية التي قام بها الماجور مارشان وبعثته (٦) واجتمع لورد كتشنر وكولونيل ونحت وماجور مارشان وكابتن جيرمان حول المائدة في سفينة السردار (٧) . وكان على كل مفهوم أن يكون لبقا وحذرا في مناقشاته

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٣٥

Shibeika p. 396

(٢)

Magnus p. 139

(٣)

(٤) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٣٥

Churchill The river War n 309

(٥)

George Arthur p. 247

(٦)

Theobald p. 240.

(٧)

والفاظه نظرا لاهمية الموضوع والموقف ، فبين فرنسا وبريطانيا منافسة تقليدية في وادى النيل وقد حدثت هذه المراجعة الخطرة بينهما في هذه البقعة النائية واى كلمة او عمل متهور قد يؤدى الى وقوع الحرب ، ليس فقط في فاشوده بل في مباديين وجبهات في مناطق اخرى من العالم .

ويقول كولونيل ونجت نفسه عن هذه الحادثة : وبعد المحن التى لاقوها في رحلتهم الطويلة الشاقة فان السردار ابلغ مارشان ان لديه تعليمات لابلاغه ان وجود الفرنسيين في فاشوده وفي وادى النيل ، يعتبر تعديا مباشرا على حقوق كل من مصر وبريطانيا ولذلك وطبقا للتعليمات الصادرة اليه فانه بحتج اشد الاحتجاج على احتلالهم فاشوده ، وعلى رفع العلم الفرنسى على ممتلكات صاحب السمو الخديو ، (٦) .

فاجاب مارشان ايضا انه بطيع الاوامر والتعليمات الصادرة اليه من حكومته (٢) والتى تأمره باحتلال بحر الغزال ومديرية فاشوده على وجه التحديد وقد أمكنه ان يحقق ذلك ، وعليه ان ينتظر التعليمات من حكومته بصدد اى تحركات او عمليات مستقبلية .

فرد ككتسنر بأن لديه تعليمات من الحكومة بأعادة اقامة الحكم المصرى في فاشوره وتساءل ان كان ماجور مارشان (٣) مستعدا لمقاومة هذه التعليمات ، وان عليه ان يختار قراره الاخير بمهارة بالنسبة لهذه المسألة حتى لا تنشأ حالة من العداء وأشار كذلك انه سيسعده جدا ان تصنع احدى سفنه الحربية تحت امرته كى تنقله هو ورجاله سالمين الى القاهرة (٤) ولم يتردد مارشان في الاجابة مبينا انه اذا استختم السرداد الثقة ، فانه سوف يضطر الى قبول ما يملبه عليه الموقف (٥) وكان يعنى بهذه الاجابة انه هو ورفاقه سوف يموتون

Theobald p. 241

H.D. Traill - Egypt , The Sudan p. 198

Theobald p. 241

Magnus p. 140

Theobald p. 241

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

وهم في مواقعهم (١) ولهذا فانه يرجو السردار ان يقدر موقفه كجندى لا يستطيع البت في الامور دون الرجوع الى حكومته (٢) ، وان يسمح لمشكلة بقاءه في فاشوده ان تنتقل الى حكومته ، لانه بدون تعليمات منها ، فانه لا يستطيع ان يترك فاشوده ، ولا ان ينزل العلم الفرنسى من عليها .
واضاف مارشان انه متأكد من ان حكومته - تحت هذه الظروف - لن ترجىء الاوامر بانسحاب بعثته لوصبر كتشنر قليلا ، وانه يأمل حينئذ ان يتمكن من قبول عرض السردار شاكرا .

فتساءل السردار : هل افهم من ذلك ان الحكومة الفرنسية امرتك بأن تهني مصر من رفع العلم المصرى واستعادة سلطاتها في ممتلكاتها السابقة مثل مديرية فاشوده ؟ (٣) .

فأجاب مارشان بعد تردد بأنه لا يمانع في رفع العلم المصرى على فاشوده وقال : دعنا صرحاء . . . كيف أستطيع ذلك وأنت تملك من الرجال اكثر منى ؟ ، . . . ومن ثم كتشير ان يرفع العلم المصرى في احتفال كبير ، وان يترك العلم الفرنسى مرفوعا أيضا حتى يتم حل المسألة بالطرق الدبلوماسية عن طريق الحكومتين (٤) .

ولم تكن لفرنسا ولا لانجلترا اى احقية في التحكم في مصر أو السودان أو أى جزء من وادى النيل ، غاذا جردت مناقشاتهم من الدبلوماسية والدعاية الصحفية فهى لا تنطوى على شىء الا على روح الاستعمار والاستغلال وهذه لا تستند الى حق بل تؤيدهما القوة .

ومن الواضح ان حجج الانجليز والفرنسيين ومناقشاتهم كانت لا دخل لهما في الرضع النهائى للمسألة ، فكما ذكرنا كان سالسبورى مصمما على عدم الرضوخ أو بحث امتيازات للفرنسيين . . . وازاء هذه الحالة أصبحت المسألة مسألة قوة ، وكان من الميسور طرد بعثة مارشان بقوة كتشنر

Rose Holland p. 505

(١)

(٢) نعوم نسقى ص ٦٥٢ .

Theobald p. 242

(٣)

Magnus p. 140

(٤)

التي نبلغ ٤٠٠٠ ر ٤٠٠٠ جندي ٠٠٠٠ ولكن ذلك كان يعنى وفوق الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وكانت انجلترا تفهم ذلك جيدا ، ولكن الحكومة البريطانية لم تنراجع وكتبت التيمس بعد ان انتهت الازمة فأشارت الى ان البريطانيين قد غنوا في عام ١٨٧٨ قائلين بشجاعة ، لقد حصلنا على السفن كما اننا قد حصلنا على المال ايضا ، وأضافت الصحيفه اللندنية الكبرى تقول انه لم يكن هناك اى غناء في عام ١٨٩٨ اذ ان البريطانيين لم يكونوا محتاجين الى رفع الروح المعنوية وكانت هذه هي المرة الاولى التي تواجه فيها انجلترا ازمة كبيرة دون خوف او فزع

وكانت لهذه الثقة ما يبررها ٠٠٠ فالسنوات الاحيرة شاهدة زبادة عامة في الاسطول ، وتمت لبريطانيا السيادة على جميع البحار بل واصبحت في موضع لا يقبل المنافسة ، اذ كان لانجلترا من السفن الحربية التي يقل عمرها عن عتر سنوات وسرعتها ١٦ عقدة على الاقل ٣٤ سفينة في مقابل ١٣ لفرنسا و ١٧ لروسيا ، وكانت بريطانيا متخلفة فقط في الطرادات والنسائات ٠ وقد كتب سير توماس براسي عشية الازمة قائلا ان الاسطول البريطاني كان مساويا في عدد السفن الحربية لاساطيل كل من فرنسا وروسيا والمانيا مجتمعة ، هذا علاوة على ان السفن البريطانية كانت متجانسة ومتشابهة ولذلك فهي اكثر انسجاما ٠ كما عبر ناقد ايضا عن رايه قائلا انه بصرف النظر عن عدد السفن ، فان الاسطول البريطاني كان يعادى في القسوة اربعة اثال الاسطول الفرنسي واغوى من كل اساطيل ايربا مجتمعة (١) ٠

وكانت حادثة فاشودة رمزا للمنافسة الاستعمارية والعداوة الكامنة بين فرنسا وانجلترا (٢) ٠ فقد هب الأثر لانجلترا ان تترك فرنسا في مشروعاتها واهمالها ٠٠٠ فبونابرت هو الذي وضع مصر على مائدة السياسة الاوربية ، وقد استعان محمد علي بالخبراء الفرنسيين في كل الميادين رجعل من مصر دولة حديثة بمساعدة هؤلاء الخبراء ، وكذلك قام

المهندس الفرنسي ديلسبس بشق قناة السويس، وقد ثاومت انجلترا كلا من نايليون ومحمد علي وديلسبس ٠٠٠ وبعد ذلك نحد ان انجلترا هي التي أصبحت لها السلطة الادارية في القناة - وليست فرنسا - وذلك بشرائها لنصيب الخديو عام ١٨٧٥ في اسهم تأسيس القناة . وانجلترا ايضا هي التي قامت باحتلال مصر منذ عام ١٨٨٢ واصبحت تدير دفة السياسة المصرية من القاهرة (١) وهي تخدع فرنسا بمماطلتها في مسألة الجلاء عن مصر ، وتفعل مثل ذلك أيضا في بحر الغزال ، والفرنسيون قد قاوموا الاحتلال البريطاني . بروهم الآن يقاومونه في بحر الغزال (٢) .

• وكان من الصعب اقناع الرأي العام الفرنسي بان الانسحاب من فاشوده لا يشتمل على امتهان للكرامة الفرنسية (٣) ولعبت الصحافة دورا كبيرا في تعيئة الرأي العام الفرنسي تجاه الحادثة حتى انه لم يكن من لسهل التخلي عن فاشوده (٤) . وقال دلكاسبه في محادثة مع مونسون : ان كل فرنسا سوف تقاوم هذه الاهانة الموجهة الي شرف البلاد اذا ما قامت اى محاولة لاستدعا مارشان ، (٥) .

• وكان دلكاسيه يعتقد ان انجلترا لا تفضل الدخول في حرب من اجل هذه المسألة ولكن فرنسا كانت على النقيض من ذلك تفضل الحرب على التسليم . فرد مونسون على هذه المحادثة بان حكومته قد اوضحت وجهة نظرها وانه لا يتصور كيف يمكنها التراجع عن ذلك .

وردا على الالهجة التي تكلم بها الفرنسيون فان حكومة جلالة الملكة اصدرت تعليماتها الى كتشنر بان يزيد موقف مارشان حرجا على قدر الامكان ٠٠٠ وترى حكومة جلالة الملكة من ناحيتها انه يجب ان يكسرون

H.A.L. Fisher p. 1069

(١)

Theobald p. 245

(٢)

Fisher p. 1072

(٣)

Shibeika p. 399

(٤)

Shibeika p. 400

(٥)

معلوما لدى الفرنسيين انها بموافقتها على ايصال الرسائل الى مارشان فان ذلك لا يعنى تعديل وجهة نظرها السابق تقديمها في عدة مناسبات ، (١) .

وبتتبع الاحوال بين الدولتين واقتربت نحو حافة الحرب (٢) . وسارت الاستعدادات البحرية البريطانية على قدم وساق طوال شهر اكتوبر . ففي بورتسموث اعدت كل القربيات حتى تتمكن القوات الثقيلة من أن تبحر فوراً وقت اللزوم استعدادا لدمار السفن الحربية الفرنسية عنده برست . كما راقبت قوى أخرى مضيق جبل طارق لقمع الاسطول الفرنسي في البحر المتوسط من الخروج منه . أما في البحر المتوسط نفسه فقد وضعت قوة كبيرة بين مالطه وجبل طارق ، وكانت على استعداد لحصارة بنزرت (٣) كما ارسلت قوة أخرى الى ارسلت قوة أخرى الى الاسكندرية لحراسة قناة السويس (٤) .

وهكذا شعر البريطانيون انهم مستعدون لكافة الاحتمالات ، ولكن الفرنسيين اسنولى عليهم زعر شديد . . . حقيقة ان الاسطول الفرنسي كان يلى الاسطول البريطاني أعظم أساطيل العالم ، ولكن الاسطول الفرنسي كان آخذا في التدهور على مر السنين بسبب النزاع الدائم بين قيادة البحرية نفسها . . . وكان للسياسة أيضا دخل كبير في اضمحلال الاستعدادات البحرية الفرنسية ، وليس هناك - أشد واقسى على قوة حربية أو بحرية من ان تنكب بالانقسام بين أفرادها ، فالعسكرية - طاعة ونظام ، وعدم توفرهما يؤدي الى الاخلال بالضبط والربط وحسن الانتظام العسكى الذى هو أساس الفوز في أى معركة .

وعلى أية حال كان واضحا ان الحالة في فرنسا في عام ١٨٩٨ لا تسمح لها بالاشتراك في حرب دولية . فالاسطول الفرنسي في بحر المانش

Shibeika p. 400
Theobald p. 245
Langer p. 560
Theobald 245

(١)
(٢)
(٣)
(٤)

كان مؤلفا عن سفن حربية صنعت عام ١٨٨٥ وغير متجانسة وتصميماتها مختلفة ، ولم تكن هناك خطة للقتال ٠٠٠ فالوانىء البحرية في فرنسا نفسها وفي المستعمرات كانت تعاني نقصا كبيرا في الرجال ، بينما كانت ورش صيانة السفن غير مجهزة تجهيزا كافيا . ولم يكن من السهل امداد فرق المدفعية في برست وغيرها الا بثلاث الرجال في اليوم الاول لاعلان التعبئة العامة . وكانت حكمة باريس على تام باخطار الموقف . فبعد ان اشعل الفرنسيون الثقاب في مستودع البارود في ماشودة استيقظوا مذعورين مدهشين وعاجزين

وانحدث لهجة الصحافة البريطانية الروح المشجعة بالحرب ، وكانت هناك فكرة سائدة في انجلترا بأن الوقت ملائم لتصفية الحساب مع فرنسا ٠٠٠ بل كان من الواضح ان الاصوات قد ارتفعت في مجلس الوزراء نفسه مؤيدة هذا الحل ، وقد قال لورد اشـر Esher ان لورد سالنبورى نفسه ابلغه بأنه « يميل الى الاعتقاد بأن الحرب مع فرنسا ستبسط المشكلات في المستقبل » . وليس هناك من شك في ان الاوساط الحكومية كان يسودها شعور بالحرب الوقائية Preventive War وقد وصلت تقارير عن كل ذلك الى باريس خلال شهر اكتوبر ١٨٩٨ .

وكانت وزارة البحرية الفرنسية تعتقد ان الانجليز قد يثيرون حربا ليتخلصوا من الاسطول الفرنسي . وكان الضباط الفرنسيون على رأى واحد وهو انه لا يمكن للاسطول الفرنسي ان يصمد أميـام الاسطول البريطانى ولا ان يحدد نابقاف التجارة البريطانية بأغارته على السفن التجارية البريطانية . وكان البعض يعتقد ان شرف فرنسا يتطلب منها الحرب حتى ولو كانت الهزيمة مؤكدة الا ان وزير البحرية الفرنسية نفسه كان مقتنعا بأن الحرب ضرب من الـيس . واتفق معه في ذلك رئيس الوزراء بريسون Brison ورئيس الجمهورية فور Faure .

ويبدو ان سياسة دلكاسية كانت تتركز في اكتساب الوقت حتى تتمكن فرنسا من عمل نسيئين : اولهما اتمام الاسنعدادات البحرية الهامة وثانيهما محاولة ضم روسيا الى مساعدتها ولذا طلب دلكاسيه من مونسون

مقابلة معه امهاله بعض الوقت حتى دأننه تقرير من مارشان (١) وكان راضيا ان ذلك سسندفد وقتا قبل ان يصل هذا التقرير الى باريس .
« ولكن حكومة الجمهورية ستكون ممثلة لو انه سمح بارسال برقية من الممثل الفرنسي في القاهرة الى الخرطوم لحملها الى مارشان تأمره بارسال نسخة من تقريره على جناح السرعة عن طريق النيل الأدنى » (٢) . وكذلك طلب دلكاسيه امهاله وقتا آخر حتى يحصل على تقرير شفوى من الكابتن براتبيه Bartier الذى اسندعى الى باريس .

وأخذت فرنسا في تحصين سواحلها في نفس الوقت ، حتى تكون في مركز يسمح لها بالدفاع على الاقل (٣) فصدرت الاوامر للاسطول الفرنسى بالتحرك الى شربورج Cherbourg وكانت هناك حركة دائبة في اوانىء الفرنسية الشمالية ، وعملت الترتيبات لاستقبال الجرحى والقتلى (٤) . ففي برست كان العمل يجرى ليل نهار ، كما الغيت جميع الاجازات واعد كل الاسطول الموجرد في البحر المتوسط ووضع قيادة الاميرال فورنييه Feurnier

ولكن سرعان ما تبين عجز فرنسا عن مواجهة انجلترا ، هذا بالاضامة الى ان الروسيا حليفة فرنسا رقت فحادة طيلة الصراع ، وهكذا لم يكن امام الفرنسيين سوى الرضوخ للامر الواقع . وهكذا ثم استدعاء مارشان من فاذوده تلك المنطقة التى لا تستحق خوض حرب من اجلها من وجهة النظر الفرنسية .

ورأى البريطانيون ان يوجئوا نشاطهم نحو ميدان آخر ، فكان من الضرورى ان تعمل حكومة لندن على تسوية مسألة حقوق المصريين في السودان قبل كل شىء . ويجب ان نشير هنا الى ان استتاد بريطانيا الى حق « الفتح » وهطالبتها بمساواتها بالحقوق في السودان مع مصر عند

Langer 560-562

Shibeika p. 398

Langer p. 562

Theobald p. 245

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

١
افادها كثيرا باعتبار ما سيكون عليه السودان الدولي بعد الاستعادة . فقد
نص البند الثاني عشر من اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا
على ان يرفع العلمان المصرى والبريطانى معا على السودان ، وان السلطة
الحربية والرئاسة المدنية تكون في يد حاكم عام يصدر قرار تعيينه
بمرسوم خدوى وموافقة الحكومة البريطانية ، وان لقراراته سلطة
القانون (١) .

وقد قبل هذا الوفاق الثنائى فى مصر يعاصفة استنكار شديدة ،
وهاجمت الصحف العربية ما اعتبرته سلبا لحقوق مصر الادارية فى
السودان وقالت انه ليس الا مقدمة لاستيلاء جليز على السودان ذاته
اما الصحف الفرنسية فى مصر فقد حملت حملة يفة على هذه الاتفاقية
واخذ كثيرون من رجال السياسة والقانون يبدون فى مشروعية هذا
الوفاق الثنائى نفسه (٢) . وكان من المحتمل ان تناقش بعض الدول
الآخري حق بريطانيا فى هذه الحكومة الثنائية وان تتساءل عن مدى
صحة هذه الاتفاقية من ناحية القانون الدولى ، ولكن استعداد احدى
هذه الدول لمقاومة هذه الترتيبات التى تمت كان امرا مستحيلا (٣) .

وكان المصريون اثناء أزمة فاشوده يظنون ان فرنسا مستمسك
بموقفها وتفتح باب المسألة المصرية وتضطر انجلترا الى الجلاء عن
مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة . واعتقدوا ان آمالهم فى الجلاء
ستتحقق اذ كانوا يظنون ان فرنسا لم تقدم على هذا التحدى
لانجلترا الا وهى مصر على المضى فى سياستها الى النهاية . قويت آمال
المصريين اذا فى الاستقلال ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الامر ،
فكان هذا التخاذل صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية فى مصر لانه
دل على ان فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا فى احتلال وادى النيل
والنصر فى فيه كما تشاء وأصبح على الوطنيين المصريين ان لا ينتظروا
من فرنسا أى مساعدة فى اخراج الانجليز من مصر فازداد تعلقهم بالدولة

Theobald p. 247-248

(١)

(٢) دكتور فؤاد شكرى ص ٥٩١ - ٥٩٢

Langer p. 565

(٣)

العثمانية ، الدولة ذات الحق الشرعى فى حكم مصر وعلى اعتبار أنها أهون الشرين ، وإن كان الواجب عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم قبل كل شئ ، لتحقيق حرية ملادهم .

فقد كان انسحاب مارشال من فاشوده اقتصارا كبيرا للسياسة الانجليزية ، وإيذانا بأصرارها على البقاء فى مصر والسودان ، وتجاهل وعودها فى الجلاء ، فجئح بعض المصريين الى كسب ود الاحتلال البريطانى اذ رأوا فى حادثة فاشوده برهانا واضحا على رسوخ أقدامه فى البلاد .

كتب مصطفى الى أخيه على بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان) كتابا قال فيه :

« . . . أن الأحوال السياسية سبئة للغاية بعد مسألة فاشودة ، وقد أظهر بعض الكبراء الجن وكادوا يخونون بلادا أحسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم ، ولكنى ثابت على خطى حتى الممات ، لأن اعتقادى أن ثمر الدفاع وإن لم يجنه المدافع الاول و الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الايام ، وأننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فاننا على الأقل نضع الحجر الاول لمن يبئى بعدنا ، » .

وكتبت ددام آدم كثيرا عن حادثة فاشودة ، ومنها قولها فى مقالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن اغلاط السياسة الفرنسية :

« ماسودة انها العزبة القاضية ، لقد قلت فى رسائلنى قبلا أن غير واحد من سياسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستدخل لصالح مصر سريعا وبصفة حاسمة وأبانوا لهم أن بعثة مرشان هى الحاملة لرابطة استقلال مصر فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير وطنهم سبأتى من السودان . ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين » .

وقد كان لها كذلك تأثير كبير فى موقف الخديو ، اذا أخذ بذعن للامر الواقع ، ويتوود الى الاحتلال ، وكان اول مظهر لهذه السياسة الجديدة

زيارته للندن سنة ١٩٠٠ ، وفى ذلك بتول مصطفى كامل فى رسالته الى مدام جوليت آدم فى ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ : « أبعث اليك مع هذا بمقالة تنصح لك عن شعورى والشعور الاهلى نحر سياحة الخديو فى لندن ، تلك السياحة التى آلتنا كثيرا ، وما ذلك وأسفاه الا نتيخه فأسودة » .

وواصلت انجلترا مساعيها السياسية حتى تم عقد الوفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ ، وبه حصلت على اطلاق يدها فى مصر على الا تجرى اى تغيير فى نظام مصر السياسى . واقرت المانيا والفرنسا الاتفاق ، وبذلك انهار ركن من اركان سياسة مصطفى كامل ، بل انهار المجهود الذى بذله من قبل فى المجال الدولى حين كان همه التجوال فى عواصم اوربا لاستفزاز دوله ' كى تضغط على انجلترا وتحملها على تنفيذ وعودها بالجلء عن وادى النيل . ويبدو ان الوفاق الودى على مصطفى كامل من خطاب بعث به الى جوليت آدم فى ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ جاء فيه « ليس فى وسعى ان اتعزى امام هذه الاتفاقية الانجليزية - الفرنسية المشنومة التى ستجلب أسوأ النتائج على وطننا القعس . كما أنه ليس فى وسع جميع مدارس المعمورة ان تربط المصريين بفرنسا بعد الآن . ان مواطنى يكرهون اليوم فرنسا أكثر من انجلترا نفسها . انك لا تدريين مبلغ تعاضم الانجليز فى الوقت الحاضر . انهم يبسخرون منا نحن ذرى العقول الصغيرة ، الذين اعتمدنا على فرنسا ، ولهم الحق ان يبسخروا . ان موقفى الشخصى يعد من أصعب المواقف واطرها ، فان جميع اصدقائى المصريين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبى أصبحوا اما اصدقاء للانجليز او يائسين من الكفاح » (١) .

مصطفى كامل وجريدة اللواء :

كانت الاهرام أكثر الصحف ترحيبا بمقالات مصطفى كامل ، يليها المؤيد . وقد رأى باعث الحركة الوطنية أن لابد له من جريدة يومية يفذى بها عقول القراء ، ثم تكون علما للحركة الوطنية ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم اللواء بدعنى الراية التى التف حولها الوطنيون .

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

وقد صدر العدد الاول من اللواء في ٢ يناير ١٩٠٠ . وكان الزعيم يكتب افتتاحية اللواء في أكثر الايام . وكان من الكتاب في اللواء محمد فريد وأمير الشعراء أحمد شوقي واسماعيل صبرى باشا وخبيل مطران ومحمد فريد وحدي وعبد الفادر حمزة وبصا واصف وغيرهم كثيرون .

فباللواء اذن جريدة سياسية وأدبية ، ولكن مصطفى كامل أهتم بالاقتصاد ايضا ، فقد دعا في عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٥ الى احياء الصناعة ونشر التعليم الصناعى ، وقال :

« فايجاد روح الصناعة في البلاد هو بلا مرأى انسى خدمة تقدم اليها واكبر سعادة تجهز لرجال الغد ، وقد الكثير من فصلاء مصر هذه الحقيقة وهذا الواجب ، فتبادلوا الحديث في أمر تأسيس مدرسة صناعية، ولكنهم لم يتعدوا ذلك الى العمل ، وأشد المصريين اهتماما بهذا المشروع هم أعضاء جمعية العروة الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون في تأدية هذه الحقوق فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية « حسوبك محمد » مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيرا ولكنه يعود على البلاد وابنائها بالخير الجليل ، (١) .

كما كتب في عدد ٩ مارس ١٩٠٤ من اللواء مطالبا بالمجلس النيابى قائلا « لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن وحب انشاء مجلس نيابى منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على السنة الكثيرين من أهل القطر ، لانه الانشودة التى يجب ان يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال ، وسواء كان سابقا أو لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال ، فانه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة ، الى أن قال :

(١) عبد الرحمن الرافعى - مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية

ص ١٥١ .

(م ١٦ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

« ليس للاحتلال مصلحة في ايجاد مجلس نيابى لهذه البلاد ، ولكن صوت الامة يعلو على صوته اذا تمسكت به ودعت اليه وطالبت وجاudent بقوة الراى والفكر والثبات التى هى كبر القوى الفعالة فى حياة الامم ، فلتفعل فانما هى نخطو بالوصول اليه أكبر خطوة فى طريق الاستقلال » (١)

مصطفى كامل وحادث دنشواى :

فى يوم ١١ يونية سنة ١٩٠٦ تحركت قوة بريطانية قوتها ١٥٠ جندى من القاهرة قاصدة الاسكندرية وذلك عن طريق البر وبعد يومين وصلت الى منفى ، وقام خمسة من ضباط الكتيبة بأبلاغ مأمور المركز برغبتهم فى الصيد فى بلدة (دنشواى) . وانفصلوا عن الكتيبة فى كمشوش متجهين الى سرسنا ومنها الى دنشواى . وكان بصحبته عريف (أمباشى) من بوليس نقطة الشهداء وترجمان مصرى ، وذهب (الامباشى) ليبلغ العمدة خبر قدوم الضباط لكى يتخذ الاحتياطات التى تكفل عدم احتكاكهم بالاهالى ، ولكن العمدة كان غائبا فلم يفتظره الضباط وأنقسموا فريقين ، فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الاشجار الملتفة هناك وهؤلاء لم يصيبهم أحد بسوء .

أما الفريق الآخر فتوجه مباشرة الى اجران القمح فى دنشواى وكانت تقف بحمامتان على جرن ملك لمؤذن القرية ، فصوب أحد الضباط الانجليز بندقيته على الحمام فصاح به أحد الشيوخ الطاعنين فى السن محذرا اياه من ان اطلاق البندقية قد يؤدى الى اشتعال الجرن وكذلك صاح فيه أخو مؤذن القرية صاحب الجرن ولم يعبا الضابط وأطلق عيارا فأصاب امرأة تدعى أم محمد وهى زوجة المؤذن فسقطت جريحة تتخبط فى دماها ، كما أصاب الجرن فاشتعلت به النيران ، ونحنا صاح أخو المؤذن مستغيثا وهجم على الضابط وحاول جذب البندقية منه ، فى حين أقبل الرجال والنسوة والاطفال وهم فى حالة هياج ومرددين أن الخواجه قتل امرأة وحرق الجرن ، وأحاطوا بالضباط وجاء بقية الضباط لانقاذ زميلهم وكانت جموع الاهالى قد تكاثرت .

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ١٦٧ .

ووصل في نفس الوقت شبخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع وانقاذ الضباط ، فتوهم الضباط أنهم حاءوا يريدون بهم شرا فأطلقوا عليهم الاغيرة النارية فأصاب واحد منها شيخ الخفر في فخذه فسقط على الارض وأصاب عيار آخر أحد الخفراء فصاح الجميع شيخ الخفراء قتل .

وحمل الاهالى على الضباط بالطوب والعصى فأصيب واحد منهم بكسر في ذراعة واثنان آخران بجروح طفيفة وأحاط بهم الخفراء وجردوهم من أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم الى المعسكر الخاص بالقوة في كمشوش .

أما الباقون وهم الكابتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى ففرا من المكان وكان الاول قد أصيب في رأسه وأخذوا يعدوان قرابة ثمانية كيلو مترات في شدة القىظ فتبد كانت الحادثة وقت الصيف .

فلم يكد الكابتن بول يصل الى باب سوف سرسنا حتى سقط من الاعياء ومات متأثرا من ضربة السمسم منركه زميله الطبيب البيطرى واخذ يعدو حتى وصل معسكر القوة بناحية كمشوش على ضفة ترعة الباجورية (١) .

هذا وقد سارع أفراد القوة بالتوجه الى دنشواى بمجرد أن علموا بالخبر عند سرسنا - وقد ظنوا بادىء الامر دنشواى - ووجدوا الكابتن بول ملقى على الارض وأحد الفلاحين يقدم له بعض الماء فظنوه من المعتدين . فطعنوه وهشموا رأسه بالبنادق ولم يحاكم احد بعد ذلك على قتله ووصلت أنباء الحادث الى رجال الاحتلال فى القاهرة وعرفوا ان احد الضباط قد مات عقب الحادث وأصيب ضباط آخرون فأقسموا على الانتقام من أهل القرية انتقاما يبعث الرعب فى قلوب كل من تسول له نفسه مقاومة الاحتلال .

جرى التحقيق بمنتهى السرعة يوم وقوع الحادث على يد مستر متشل مستشار وزارة الداخلية فى ذلك الوقت .

(١) عبد الرحمن الرافعى - مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ١٩٩ .

وتم التنبض على أعداد ضخمة من الاهالى وكانت الاوامر قد صدرت
باعداد المشانق وارسالها الى مكان الحادث قبل انتهاء التحقيق وهذا دليل
على أن المحاكمة ستكون صورية لاعدل ولا قانون بها وأصدار بطرس باشا
غالى قرارا بتشكيل هيئة المحكمة برئاسة وأنها تكون المحاكمة فى شبين
الكوم بوم ٢٤ يونييه .

وبلغ عدد من قدمتهم الادارة لمحاكمتهم فى هذه الحادثة اثنين وخمسين
منهما قدموا جميعا مقبوضا عليهم ، وسبعة من الغائبين .

وانعقدت المحكمة وسط جو من الخوف والرهبه وذلك بمديرية شبين
الكوم . وثبت من سماع أقوال الشهود ومنهم شهادة الطبيب الشرعى
وكان انجليزيا أن وفاة كابتن بول كانت بسبب اصابته بضربة شمس وأنه
لا يوجد تأثيرا للاصابة التى كانت فى رأسه على وفاته .

وقد كان هناك تحامل على المتهمين من قبل المحكمة منذ البداية وفد
استمرت المحاكمة حتى يوم ٢٦ يونيه وفى يوم ٢٧ صدرت الاحكام بأعدام
أربعة أشخاص والاشغال الشاقة المؤبدة لاثنتين ، وواحد لمدة خمسة عشر
سنة ، والاشغال الشاقة سبع سنوات على ستة أفراد ، وعلى ثلاثة
بالاشغال الشاقة لمدة سنة مع جلد كل واحد ٥٠ جلدة ، وبالجلدة ٥٠ جلده
على خمسة .

وقد قوبل الحكم بالدهشة لما فيه من تحامل على المتهمين ولخلوه
من العدل والانصاف وذلك لان الاعتداء كان فى بادى الامر من الانجليز
وأن الاهالى لم يعتقدوا عليهم الا بعد أن أصيبت إحدى نساءهم وأشتعل
جرن لهم وأن الضابط الانجليزى قد مات أثر ضربة شمس كما هو موضح
فى تقرير الطبيب الشرعى الانجليزى .

وقد أظهر هذا الحكم أن العدالة الانجليزية لا يمكن الوثوق بها فى
حالة اذا كانت الخصومة تمس المصالح البريطانية وزاد على الحكم طريقة
تنفيذه التى فاقت التصورات فى وحشيتها فقد جىء بالمحكوم عليهم سواء
بالاعدام والجلد الى دفشواى وكانت قد نصبت المشانق . وعند ظهيرة يوم

٢٨ يونيو ، نفذ الحكم في المشفوق الاول علنا وعلى مرأى ومسمع من أهله ونويه وبين صياح النساء وبقي معلقا بينما نفذ حكم الجلد في اثنين ، ثم شق الثاني بهذه الطريقة ، يليه جلد اثنين آخرين وهكذا حتى تمت المجزرة في منتصف الساعة الثالثة مساء .

وقد أثرت هذه الطريقة التي نفذت بها الاحكام تأثيرا كبيرا على جميع أفراد الامة وأثارتها بكافة فئاتها على الاحتلال وأشعلت فيها روح الوطنية التي كانت قد خمدت . ورغم أن مصطفى كامل كان في أوروبا للاستشفاء ونصح أطباؤه له بالراحة الكاملة فإنه لم تكد تصله أنباء المحاكمة حتى نهض بكل قوته لكي يسمع العالم صوت مصر ، فكتب في جريدة الفيجارو الفرنسية الشهيرة عدد ١١ يوليو ١٩٠٦ مقالا مطولا للامة الانجليزية والعالم المتحضر ما ترجمته :

« لقد حدثت حادثة مؤلمة في قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى دنشواى تحركت بسببها عواطف الانسانية في العالم كله وقام رجال احرار الفكر مستقروا الاخلاق والاطوار في انجلترا رافعين نصوصهم سائلين عما اذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس ؟ »

« وانه لمن الواجب على الذين يشغفون حقيقة بالانسانية والعدل ان يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل ، وهى المسألة الشاغلة لامة بأسرها ! »

« فقد ترك ضباط من الانجليز في يوم ١٣ يونيو الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية ، وقصدوا صيد الحمام في الاملاك الخصوصية للاهالى ، فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بان الاهالى قد استأعوا في العام الماضى من صيد الضباط الانجليز لحمامهم ، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا الى الصيد في هذا اليوم ! »

« ورغما من هذا الانذار فان الضباط أخذوا يصطادون ، وأطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة وحرقت حرن ، فاجتمع الفلاحون من كل مكان ، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانجليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة ن

المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانجليز ، وقد تخلص أحد الجرحين وهو الكابتن « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلو مقترات ، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة ، وسقط بعد ذلك ميتا بضربة الشمس ، وما علم العساكر الانجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواى ، وقتلوا فلاحا بدق رأسه ! •

« هذه هي الوقائع ، وما علمها أصحاب الامر من الانجليز حتى فقدوا للرشد ، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم ! وبدلا من ان ينظروا الى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك ، بالغوا فيها وجسموها ، وعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة ! فلم يكن العدل هو المنشود في المسألة ، بل الانتقام الفظيع ! •

« ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الانجليزى ، قبل المحاكمة بأسبوع بلاغا رسميا أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم ، وقصدت صراحة التأثير في المحكمة والرأى العام ! وبلغ من احتقار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر ارسال المشانق الى دنشواى قبل المحاكمة ، وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتسائل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة •

« وقد اجتمعت المحكمة في يوم ٢٤ يونية ، وأى محكمة ؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها ! لقضائها ان يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال ! محكمة أغلبيتها للانجليز ولا تتألف أحكامها ، ولا تقبل العفو ! وأن المرسوم الذى صدر بتشكيلها في عام ١٨٩٥ - بناء على ضغط اللورد كرومر - ذلك الضغط الذى لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقا باظهار أى مقاومة - يحمل قارئه على الظن بان الجيش الانجليزى الذى ألقى اليه انجلترا أمر تأييد الامن في مصر ، في خطر مستمر ، جعله في حاجة الى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة ارهاب •

« قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام في نظر القضية ، وتبين ن الضباط الانجليز هم الذين هاجموا الفلاحين بصيدهم في ممتلكاتهم ، وبجرحهم احدى نساءهم ، وأن الفلاحين هجموا على الانجليز بوصف أنهم صبادون يختلسون الصبد ، لاضباط بريطانيون ! واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكبتن « بول » مات بضربة الشمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لاحداث الوفاة ! »

« ولم تترك المحكمة الا ثلاثين دقيقة لاكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس ، حيث أكد أن الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الاهالى ، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب في المعركة ، والذين يعتبرهم العدل في كل بلد خصوما للمتهمين ! »

« وفي يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين ، وبالإشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالإشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على خمسة ، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرهاج له خمسة ذيول !! »

« وقررت المحكمة في حكمها تنفيذ الحكم في اليوم التالى ! بحيث لم بمض الا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم . »

« ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الاربعاء ٢٧ يونيه جىء بالاربعة المحكوم عليهم بالشنق ، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لان الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبين مقر مديرية المنوفية الى قرية (الشهداء) التى تبعدربعة كيلو مقرات عن دنشواى ، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع ! وفى الساعة الاولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جىء بهم الى دنشواى ، وكان أصحاب الامر من الانجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم في محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها ! »

« نصبت المشانق ، ووضعت آلات الجلد والتعذيب في وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر ، وأحاطت عساكر « الدراجون » الانجليزية بالحكم عليهم ، والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز ، تولى المستر متشسل مستشار الداخلية ومعه مدير المخوفية أمر التنفيذ ! وقد تقدم اليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة ، فرفض قبول هذا الرجاء الذي هو أعز ما يرجوه الانسان ويحتمه الشرع والعدل ! »

« وفي منتصف الساعة الثانية انتهت الجنود الانجليزية خيولها وشهوت سيوفها وبدى بعد ذلك بحقيقة في الشنق

« فشنق رجل ، ولبت أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالي القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب ، وجلد اثنان أمام الجثة ! وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات ، واستمر ساعة من الزمن ! منظر وحش مهيج للعواطف ، بكى منه بعض الحاضرين الاوروبيين بدموع الحنان، وأبدوا النفور الشديد مما راوا ! وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين:

« لعنة الله على الظالمين ! لعنة الله على الظالمين ! » .

« ان يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦ ، سيبقى ذكره في التاريخ شؤما ونحسا ! وهو خليق بأن يذكر في عداد أيام القناهي في الهمجية والوحشية!

« عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم في دنشواي ، ولقد كان من المستحيل على أعداء انجليتوا أن يصلوا الى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاما ! ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجال من الانجليز ! وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواي اشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التي أهيفت فيها المدنية والانسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضماير والنفوس ! »

« واني جئت اليوم أسأل الامة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن ، اذا كان يصح التسامح في اغفال مبادئ العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحد ؟

« جئت أسأل الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا اذا كانوا يرون بسط النفوذ الادبي والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهجوم ؟ »

« جئت أسأل الذين يجاهرون في كل آن ذاكرين الانسانية ، ماثلين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط اذا حدثت فظائع في بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة أن يثبتوا صدقهم واخلصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لان يسقط الى الابد تلك المدنية الاوروبية في أعين العالم كافة ! »

« جئت أسأل الامة الانجليزية اذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها في مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما الى قوانين استثنائية ووسائل هجمية بل وأكثر من هجمية ، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الانسان ؟ »

« انى معجب بكل اخلاص وشكر وإعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التى مثلت في مصر ! ولكن لما رأى السير ادوارد جراى (وزير الخارجية) أن الراى العام انقاد لهم وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر ، وقف في مجلس العموم ونكلم عن التعصب الاسلامى المزعمر في مصر ، وسأله النواب بكل رحاء والحاح الا يشتغلوا بمسائل مصر ، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، او بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق في مصر ، أما خطر اصرح انا علنا بأنه موهوم ! »

« ان هذا الخطر الموهوم ليس في ايدى أصحاب الامر من الانجليز الا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة ، وفظائع أخرى تقع في المستقبل !! »

« انه لا وجود لهذا الخطر ! وما الغرض من هذه الفظائع الا احداثه ! »

« وانى أوكد بحق أقدم شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى في مصر ، نعم ان الاسلام سائد فيها لانه دين الاغلبية العظمى ، ولكن الاسلام شيء والتعصب شيء آخر ، لقد انخدع السير ادوارد جراى في هذه المسألة ! »

وانى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى : هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة
أكانت تستطيع انجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلما أمام محكمة استثنائية مؤلفة
من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم ؟

« هل ننفذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة اليمجية لم يكن كافيا
وحده لاشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود ؟

« ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لاجراج الشعب المصرى عن
أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقى ؟

« ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذى تكلم عنه السير ادوارد جراى معارك
كمعركة دنشواى أى أثناء مسألة طابة ، حيث كانت الاغلبية الكبرى من المصريين
فى جانب تركيا ، مع أن الجنود الانجليزية كانت تمر دائما فى كل جهة بكل
أمان واطمئنان ؟ .

« لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل افاضة وبيان أنه لادخل
للاسلام فيها ، وأن الضباط الانجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين
مساعدة وتعضيدا !

« انه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقا دقيقا كاملا فى المسألة ، وان
مصر على بعد يومين من أوروبا فليأت إليها الانجليز المحبون للعدل الراغبون
فى عدم ظلم الشرف البريطانى ، وليذهبوا الى الدائن والقرى وليرؤوا
بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين
كافة ، ولبقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصرى ليس متعصبا أبدا ولكنه
شعب كريم أبى ، بنشد العدل والمساواة ، وبطلب أن يعامل كشعب حر
لا كقطيع من الاغنام وان يعمل بكل عز وحر لى يحقق هذا المطلب الاسمى ،
مطلب الحرية والاستقلال ! .

« أجل ، أن الشعب المصرى شاعر الان بكرامته ، وذلك امر لا يمكن
إنكاره بأى حال ، انه بطلب معاملة أبنائه أسوة بالاجانب ، وهو طالب عادل
وغير مبالغ فيه أبدا ! .

« لقد تكلم السير ادوارد جراى فى موضوع حماية الاوروبيين ضد المصريين ! ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين مصر ؟ ألا يعيشون فى أطم صفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيازات الاجنبية ؟ ولكن من يحمى المصريين ؟ ألا نرى فى بعض الاحيان مجرمين من الاجانب - يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم - يعتقدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الانجليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟

« ان اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الاخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا : ان البرلمان والرأى العام فى انجلترا يراقبان أعماله كما ن الصحافة المصرية تراقبها ايضا .

« ولكنها مراقبة باطلة لانه ما كاد البرلمان البريطانى يعترض وبحتج على أعمال وحشية كهذه ، حتى قال اللورد كرومر للسير ادوارد جراى بأن التعصب مخيف على شواطئ نهر النيل ، وأنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت ! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والانصاف !!

« لذلك يقضى شرف الامة الانجليزية عليها بأن توازن بين الاقوال الرسمية وأقوالنا ، وتقوم باجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة امامها الآ بكل استقلال !

« لقد قضى اللورد كرومر الاعسوام الطوال وهو يؤكد بأن الامراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبعوضون للاحتلال ، لانه سلبهم سلطتهم ، أما الفلاحون فانهم بحبونه حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر !!

« وبناء على ذلك فانه لم يكن اعتداء فلاحى دنشواى على الضباط الانجليز الا لانهم رأوا احدى نسايم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا اقصى درجات البساعة . ويحق للعالم كله أن يتقابلهما بمريد

السخط ! وإذا كان الامر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد ديني أو وطني فيتحنم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يقيمون الاحتلال وأن إدارته أدت الى اخفاق ليس له مثيل ! وبحق عندئذ للمستتر « ديلون » أن يقول مؤكدا : « ان خطبة السير ادوارد جراي هي أتعس شرح لمركز إنجلترا وسياستها في مصر » .

« على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة ، يعترفون بأن حادثة دنشواي لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الاوروبيين ، وأن المصريين هم أكثر أهم الارز اعترافا وتسامحا !

« ان الخطة الوطنية التي يجري عليها أصحاب النفوذ والتأثير في الرأي العام المصري واضحة جلية ، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم انهض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته ، وارشاده الى المقام اللائق به في العالم ، وأننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للامم أن تعيش عيشة كرامة اذا لم تسلك طريق المدنية الغربية . وأننا أول شعب شرقي صافح أوروبا وأننا مستمرين على السير في الطريق الذي سلكناه وأننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحربة مصر ، ومقصدا الذي نرمي اليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد الاسمي !

« ان عطفنا على الشعوب الاسلامية لامر طبيعي ولا تعصب فيه ، وأنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الاسلامية في عصابة واحدة ضد أوروبا ، والذين يقولون ذلك اما جاهلون أو راغبون في ايجاد هاوية بين العالم الاوروبي والمسلمين !

« انه لا سبيل لنهضة الشعوب الاسلامية بغير حياة اسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقى !

« وان لمصر مكانا خاصا بها في الشرق ، فهي التي وهبت العالم قناة السويس ، وفتحت السودان للمدنية ، وفيها طبقة راقية الفكر ، وتقدم الامة بالامة يمشي فيها سراعا ، ومن المستحيل أن تحكم مصر وهذا حالها

كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة في أعماق أفريقية وليس بينها وبين أوروبا اتصال ! ألم ير الناس الانجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجرى في جهات الكونجو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون اذن بحدوث أفظع الجرائم في مصر ؟

« انه من الواجب على أوروبا كلها ان تهتم بمصر فان صوالحها غيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها ، وان القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان الا الى هياج الشعب المصرى وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية . »

« اننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية ، نطلب دستوراً ينقذنا من السلطة المطلقة ، ولا شك انه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل في انجلترا الا أن يكونوا معنا رطلبوا مثلنا ألا تكون مصر - تلك التى وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية - أرضاً تفرح ألهمجية فيها ، بل بلاداً تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة (١) . »

« مصطفى كامل »

كان للحادث أثره البالغ في تطور الحركة الوطنية وذلك لما كان له من نتائج قوية الاثر في نفس الوطنين ومركز الاحتلال في مصر .

ويمكن القول أن الفضل الأكبر لتحقيق هذه النتائج في صالح الأمة كان لمصطفى كامل ونتيجة لجهاده .

وقد كان الانجليز يقصدون بما فعلوه في محاكمات دنشواى وكذلك تنفيذ الحكم بث الرعب في نفس الأمة وارهاب كل من تسوله نفسه بمقاومة الاحتلال .

(١) عبد الرحمن الرافعى ص ٢٠٩ ، ٢١٦ .

وهكذا نجد أن الحادث قد أتى بنتائج عكس ما توقع الانجليز فقد عرس الحادث الحقّد تجاه الاحتلال ومن ثم نمت الروح الوطنية .

النتائج

١ - اشتداد ساعد الحركة الوطنية :

كان من نتائج حادث دنشواى اشتداد ساعد الحركة الوطنية فقد نرى شعور بمساوىء الاحتلال .

- ولا مراء فى أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية .
- وكان الاحتلال يدعى بأنه مؤيد من قبل الملاحين .

وجاءت أحداث دنشواى لتكشف كذب مزاعم الاحتلال وأظهرت ان الامة المصرية لا نرضى بالذل والمهانة والتكيل بأبناءها .

٢ - اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية :

أهتمت الصحف الاوروبية بما فيها الانجليزية بالمسألة المصرية فكتبت المقالات والبحوث عن مصر ومطالبها بالاستقلال .

فقد كان سائدا أن مصر بلد متخلف لا يعى معنى الاستقلال ولكن بعد الحادث وأرتفاع صوت مصطفى كامل طالبا بالاستقلال تغبرت نظرة الاوربيين لمصر وعرفوا أن الاحتلال لم يستقر بها وان المصريين ساخطون على نظام الحكم الذى وضعه لورد كرومر ، وقد كبر شأن المصريين فى اوروبا نتيجة عدم رضاهم بالاحتلال ومطالبتهم بالاستقلال .

٣ - تأسيس الجامعة المصرية :

اتفقت الاراء على حادث دنشواى من الاسباب الرئيسية فى تأسيس الجامعة المصرية فقد نبهت الحادث الى وجوب المساهمة فى كل ما يعلى ، من شأن الامة .

فظهرت بعد الحادث بثلاثة أشهر جماعة تدعو لتأسيس الجامعة المصرية وكان على رأسهم سعد زغلول وقاسم أمين ، وبعد أن تحددت الفكرة كان مصطفى كامل أول المتبرعين للمشروع وداعيا له .

٤ - تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف :

كان تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف من النتائج المباشرة لحادث دنشواي ، وكانت الحكومة البريطانية قد رأت أن تعدل سياستها في مصر لتخفيف حدة السخط على الاحتلال ، فأسفدت بعض المناصب الكبيرة الى الأكتفاء من المصريين .

وكان لورد كرومر هو الذي اقترح تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف وقد صدر الامر بالنعين في ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٦ أى بعد دحر أربعة أشهر من وقوع الحادث .

٥ - استقالة اللورد كرومر :

كما كان للحادثة وأظهار سياسة الاحتلال صدى عميق في الرأي العام الاوروبى والبريطانى وما ألقى من تبعات على كاهل لورد كرومر بسبب الحادث وذلك من الوجبة السياسية والإنسانية معا .

فراحت الحكومة البريطانية أعفائه من منصبه انقاذا لسمعتها أمام العالم المتمدن وتخفيفا لهياج الشعور الوطنى في مصر .

وقد قدم اللورد كرومر استقالته في ابريل ١٩٠٧ وعقب تقديمه آخر تقرير له عن شئون مصر سنة ١٩٠٦ (١) .

مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى :

شهد عام ١٨٧٩ أول جمعية اتخذت عن الحزب الوطنى اسما لها ، حيث تجمع بعض كبار المصريين يركنوا هذه الجمعية ، وكان من أعضائها بعض المدنيين وعلى رأسهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب آنذاك ، ثم انضم إليهم بعض العسكريين مثل أحمد عرابى وآخرون ثم أصبح عرابى بعد حادثة قصر النيل في سبتمبر ١٨٨١ لسان حال الحزب .

وثانى حزب حمل هذا الاسم هو الحزب الوطنى الحر الذى تأسس في ٢٦ يوليو ١٩٠٧ برئاسة محمد وحيد بك الايوبى ، وكان

(١) عند الرحمن الرافعى - المراجع السابق ص ٢٣٧ - ٢٣٩ .

مواليا للاحتلال البريطاني وضد الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل .
كما أن هناك حزب ثالث تم تنسيكه في اغسطس ١٩٠٧ واتخذ نفس
الاسم برئاسة حافظ عوض . كما أنه كان أيضا مواليا للاحتلال .

اما الحزب الوطنى - حزب مصطفى كامل - فهو رابع حزب سمي
بهذا الاسم (١) ونرجع نشأة الحزب الى عدة عوامل دفعت مصطفى
كامل ليعلن تأسيسه في ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ، فلقد ظل مصطفى كامل
يعتقد أن تعدد الاحزاب يشتت العمل الوطنى . ولكن ربما لاحتلال
صحة الزعيم فكر في جمع الوطنيين في هذا الحزب المتطرف في عدائه مع
الانجليز .

ولم يكن الاعلان عن تأسيس الحزب الوطنى مفاجأة للقوى السياسية
الآخري في مصر . . . حيث أن هذه القوى كانت قد أحيطت علما بحركات
مصطفى كامل واتباعه وبرنامجه الى ذلك . اذ كان قد نشر مبادئه
العشرة في أكتوبر ١٩٠٧ ، وكن ذلك مقدمة للاعلان عن تأسيس الحزب
رسميا في ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ الذى أعلن فيه مصطفى كامل أن هدفه
الرئيسى سيكون تحقيق جلاء الانجليز عن مصر . وأعلن استقلال الحزب
عن كل الدول والحكومات والملوك وقرر أن الامم لا تنهض الا بنفسها
ولا تسترد استقلالها الا بجهوداتها (٢) .

وعقدت أول جمعية عمومية للحزب الوطنى يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر
١٩٠٧ بدار اللواء ، وكان عدد الاعضاء الحاضرين ١٠١٩ ، كما بلغ عدد
المعتذرين عن الحضور ٨٤٦ وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية
بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطنى من قديم ، ثم أشار الى ضرورة
تنظيمه ، وقال عن أغراض الحزب « اننا لسنا حزبا سياسيا فقط بل
نحن قبل كل شىء حزب حياة للأمة وانهاض لها ، فلا نغفل التعليم بين
سائر الطبقات لحظة واحدة ، وهو يرمى الى الاستقلال أس كل سعادة ،

(١) دكتور زكريا سليمان بدوي - الحزب الوطنى الفاروقية لتوكيلات
الطباعة والنشر ١٩٨١ ص ١٩ - ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ - ٤٤ .

ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مَصرى جاهلا تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الاخرى ، وهو يرمى قبل كل شيء الى أن يكون المصرى انسانا باسمى معانى الكلمة ، واقتصد بالمصرى ليس فقط ذلك الذى نراه فى المدائن يجد ويعمل ، بل اقتصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا ارادة له ، فأسمى عمل يقوم به هو انباض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، فهو هو ممثل السَّطَاطِ المصرى ، ومصدر كل خير ونعيم ، فليحى عصر ينطق فيه التاريخ بان الفلاح الى اثنال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل ابناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته .

« اننا اذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب لاندعورهم باسم سلطة عالية او حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعورهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنيتهم ، باسم كرامة الانسان ، باسم ذكريات آبائهم واجدادهم ، باسم مصالح ابنائهم واحفادهم . »

ربعد المناقشات صدق الحاضرين على القرارات واهمها ان رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة (١) .

ولم يمض اكثر من شهر على تأسيس الحزب الوطنى حتى أصيب بفقد مؤسسة مصطفى كامل الذى مات فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين .

ولا أجد فى هذا المقام سوى بعض الابيات من رثاء أمير الشعراء لباعث الحركة الوطنية :

باصب مصر ويا شجيد غرامها هذا ثرى مصر فقم بأمان
اخلع على مصر شبابك غالينا والبس شباب الحور والولدان
فنعلم مصرا من شبابك ترتدى مجدا يقيه به على البلدان

(١) عبد الرحمن الرافتى - المصدر السابق ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(١٧ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر ،

فلما ان بالبرمين من عزماته بعض المضياء تحرك الهرمان
علمت شنان المدائن والقسرى كيف الحياة تكون في السجان
مصر الأسيفة ريفيا وصعيدها قبر أبر على عظامك حساني
أفسدت لك في التراب طهارة ملك يهاب سؤاله المكان

محمد فريد :

ولد محمد فريد بالقاهرة في ٢٠ يناير ١٨٦٨ ، وهو من أصل
تركي ، وكرس في مدرستي اللسن والحقوق ، وتولى نيابة الاستئناف
سنة ١٨٩٤ . وفي نوفمبر ١٨٩٨ أنشأ مجلة الموسوعات .

وترجع صلة محمد فريد بالزعيم مصطفى كامل الى سنة ١٨٩٣ .
وعقب وفاة مصطفى كامل ، اجتمعت الجمعية العمومية للحزب
الوطني بدعوة من اللجنة التنفيذية يوم ١٤ فبراير ١٩٠٨ بدار اللواء
لانتخاب رئيس للحزب وانتهى الحاضرون الى انتخاب محمد فريد
رئيسا للحزب الوطني لمدة ثلاث سنوات .

ويرى البعض ان الزعيم لم يكن ينتمى الى فئة كبار اعيانك - في ذلك
الوقت - فقد كان كل ما ورثه هو واخوته ٣٠٠ فدان منها ١٥٠ موقوفة
وفصرا كبيرا في شبرا . ورغم ذلك فقد كان فريد مضطرا للانفاق على
الحركة الوطنية وعلى الحزب من ماله الخاص ، حتى لا يبدو الحزب
في صورة هزيلة بعد وفاة مؤسسة ، وعندما عرض الخديو استعداده لمساعدة
الحزب بالمال رفض فريد حتى لاتكون الحركة الوطنية طوع امر
الحكومة (١) .

وفرر انتخاب محمد فريد رئيسا للحزب الوطني ارسل الى
السير ادوارد جراي وزير خارجية انجلترا برقية نصها :

(١) مذكرات محمد فريد - كراسة (١) ص ٤ .
انظر د . زكريا سليمان بيومي - المصدر السابق ص ٨٠ ولزيد
من التفصيلات نظر أيضا أوراق محمد فريد - المجلد الاول .
مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩ مركز وثائق ونريخ مصر
المعاصر - سلسلة المذكرات التاريخية ص ٥٨ وما بعدها .

« الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيسا بدل المرحوم مصطفى كامل باشا ، وكلفتنى بأن اجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق ، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تنجلي انجلترا بوعودها » .

محمد فريد

رئيس الحزب الوطنى

ولم يتوقف محمد فريد عن المطالبة بالدستور ، وعندما اجابت الحكومة على طلب الحزب الوطنى بانشاء المجلس النيابى فى ٨ فبراير ١٩٠٨ بان الوقت لم يحن بعد لتشكل مجلس نواب يرمى منه النفع العام الذى ينتظر من المجالس النيابية ، ولكنها تشتغل الآن فى توسيع اختصاص مجالس المديرىات ، علق فريد بأنها حجة واهية يلجأ اليها الحكام الذين يشتهون استمرار السلطة فى أيديهم .

ومن الغريب ان تتمسك انجلترا بالديموقراطية فى بلادها فقط وتمنع هذه الديموقراطية فى المستعمرات والبلاد التابعة لها ، حتى لا تستيقظ الشعوب وتطالب بالحرية وتسير بالديموقراطية فى طريق الرخاء والتقدم . ان الاستعمار بصفة عامة يتمسك بحاكم ديكتاتورى فى الدولة التابعة على ان يكون مواليا لهذا الاستعمار والامثلة كثيرة على ذلك .

على أية حال اجاب محمد فريد على اهانة الأمة واتهامها بعدم كفايتها للنظام الدستورى فى جريدة اللواء فى ٢٦ فبراير ١٩٠٨ مبينا ان الحزب الوطنى سيجمع توقيعات المواطنين على طلب الدستور حتى جمع ٦١ ألف توقيع .

ثم كتب فى اللواء

« والواجب على حضرات اعضاء مجلس شورى القوانين ان يقرروا فى اول اجتماع لهم طلب الدستور ، وان لا يجتمعوا مرة اخرى الا اذا حصلوا عليه ، . . . ، وانهم يفضلون ترك كراسيهم على ان يشغلوها بلا عمل .

حتى لا ينال فيهم انهم لا يرغبون في هذه المراكز الاسمية الا طمعا في الظهور ، والا فما داموا ودمنا على هذا الجمود وهذه الاستكانة ولم نغير ما بأنفسنا ، فلن يغير الله ما بنا ، فقد قال تعالى (ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

• المؤتمر الوطني للحزب •

وفي ٢٥ ديسمبر ١٩٠٨ تكلم الزعيم في المؤتمر الوطني للحزب مبينا جهود الحزب في العام الاخير والتي تتلخص في :

١ - الاحتفاظ بوحدة الحزب ونضام اعضائه ، واحباط المساعي التي كانت تبذل لحله والتخلص منه .

٢ - انشاء اللجان الفرعية للحزب في اقسام العاصمة وفي البنادر والاقاليم .^٤

٣ - تأليف مدارس الشعب الليلية لتعليم الصناعات مجاناً .

٤ - وضع تقرير سنوي مفصل عن حالة البلاد .

٥ - الدعاية للقضية الوطنية في أوروبا وبخاصة في إنجلترا .

وبالفعل انتشرت مدارس الشعب الليلية لتعليم من فاتهم قطار التعليم والعمال مجاناً ، وانشئت ببولاق أول مدرسة من هذا النوع . وتطوع الشباب من أعضاء الحزب لتدريس المواد المختلفة . وبلغ عدد المدارس التي انشأها الحزب سنة ١٩٠٩ وحدها لتعليم العمال أربع مدارس في اقسام الخليفة وبولاق وشبرا والعباسية (١) .

ثم انتشرت هذه المدارس في عواصم المحافظات . وكان محمد فريد ينادى دائماً بوضع التشريعات لحماية العمال .

فكتب يقول « الى الآن لا يوجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ، ولا قوانين تحديد سنهم ، ولا عدد الساعات التي يجب ان يقضوها في العمل . فتجد العمال مثقلين الكواهل بلا رحمة ،

(١) . أحمد عبد الرحيم مصفى - ص ٤٤ - ٤٦ .

خصوصا في معامل الدخان ومعامل حلج الفطن ، حيث يستغل الأطفال ذكورا وإناثا ، في وسط أردا الأوساط ، من الوجهة الصحية والادبية وقد كتبت الصحافة المصرية كثيرا عن هذه المسائل ، بلا جدوى ولا تأثير في الدوائر الرسمية » .

وسرت فكرة تأسيس النقابات فأنشئت نقابة للعمال بالقاهرة أولا ثم انتشرت الفكرة في باقي عواصم المحافظات .

وفي المؤتمر الوطنى للحزب ، والذي عقد في ٧ يناير ١٩١٠ ، أوضح محمد فريد كيف أن الوطنيين يتعرضون للارهاب من جانب الحكومة ، ثم طالب بمجانية التعليم وهو مطلب فريد من فريد في ذلك الوقت .

وفي نفس المؤتمر صرح :

« ... أما تعديل نظام مجالس المديريات واعطاؤها الحق في وضع ضرائب على الأتبان لا يزيد مجموعها على خمسة في المائة من مجموع الضرائب الاصلية ، وصرفها كلها أو جلها في التعليم ، فيعود على البلاد بالنفع العميم ، فان نشر التعليم الابتدائى بين جميع طبقات الشعب ، من أقوى الوسائل لترقية الأمة ، وأقرب السبل لانالتها الحرية والاستقلال ، ويجب أن يكون قصدنا جميعا الوصول الى جعل التعليم الابتدائى الزاميا ومجانيا ، لكل مصرى ومصرية ، أقول مجانيا لأنه لا يمكن التوفيق بين الالزام ودفع أجرة على التعليم ، ولأن جعله مجانيا للفقراء وبأجرة للأغنياء ، فيه جرح لعواطف الفقراء من التلاميذ ، الذين يرون أنفسهم محتقرين في نظر اخوانهم ومعلميهم ، فالديمقراطية الحققة ، والمساواة الحقيقية ، يقضبان بأن يكون التعليم الابتدائى مجانيا لجميع طبقات الأمة ، فقيرها وغنيها ، بلا تمييز ، حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ، ويعرفون منذ نعومة أظفارهم أن لا تفاوت بين الناس الا بخدمة الأمة ، وأن أقربهم الى الله اتقاهم ، لا أغناهم » .

« ولا ننس أن التعليم الابتدائى وحده غير كاف لحاجات الأمة ، فان الأمم لا ترقى الا بالتعليم الثانوى والعالى ، اللذين يخرجان الطبقة الراقية التى عليها المعول في ادارة أمور العامة والاخذ بيدها الى طريق السعادة . طريق النور ، طريق الحرية الابدية ، فيجب أن نسعى

في أن يكون بكل عاصمة مديرية أو محافظة مدرسة ثانوية على الأقل ، وأن يكون بها محال مجانية لتعليم النابغين من أولاد الفقراء ، لا أن يكون المبلغ المقرر لهم ١٦٠٠ حفيه في كل سنة من سنى التعليم الثانوى الأربعة ، من ميزانية تربو على الستة عشر مليون جنيهه ، أى بنسبة جنيه واحد على كل عشرة آلاف جنيهه ، وهو ما لم يسمع به الا فى مصرنا الاسيفة ، أما التعليم العالى فيجب أن يكون أضعاف ما هو عليه الآن ، حتى يتخرج للبلاد العدد الكافى من المحامين والاطباء والمهندسين والعلماء والمالين وغيرهم ، فتصبح الأمة فى غنى بأبنائها عن يقصدها من علماء الاجانب أو الآفات منهم » .

كما تكلم الزعيم عن فداحة الضرائب التى تقع على كاهل الفلاحين فقال :

« وهناك مسألة اخرى يجب على نواب الامة الاشتغال بها ، وهى تحمل الفلاح المصرى أكبر جزء من الميزانية المصرية ، فكلكم تعلمون أن لجان تعديل الضرائب جعلت أساس تقديرها أن تكون الضريبة بنسبة ٢٨ فى المائة من الايجار ، بحيث لا يزيد ما يدفع عن الفدان عن ١٦٤ مرشاً سنوياً ، وتعلمون أن أصحاب الاملاك المبنية فى المدن المقرر فيها دفع عوائد أملاك كانوا يدفعون جزءاً من ١٢ من ايجار املاكهم أى ٨ ٪ تقريبا ، ثم زيدت بمقدار الربع من أول عام ١٩٠٩ ، ولكن من الغريب أن التجار لا يدفعون شيئاً ، وكذلك المصارف وأصحاب الأموال المنقولة على العموم ، فمن اشترى بجعيص أمواله أسهما من البنك العقارى أو الاهلى مثلاً لا يدفع للحكومة شيئاً ، فى حين أن الفلاح الصغير الذى يملك قيراطاً أو قيراطين يدفع ثلث ايراده ، وإذا نقص المحصول أو أتلفته الدودة باع ماشيته لدفع غائلة الصراف ، ومنعه من بيعه لكه تسدداً لمال الحكومة ، الذى يبذر بالبمن والشمال ، فيجب على الكتاب والخطباء أن يطرقوا هذا الباب ، ويشرحوه شرحاً وافياً ، حتى يقف الراى العام على ما يصيب الفلاح من الظلم الفادح بتحميله ما يقصم ظهره من اهتمامهم وقت درس الميزانية للعام المقبل (١٩١١) ، ودجب على

المشتغلين بتنشكيل النقابات الزراعية أن يهتموا بإيجادها حتى تشتغل بتخفيف الضرائب عن الاطيان وتحسين حالة الفلاح المسكين الذى يكسب طول سنته هو وزوجته وأولاده ولا يحصل الا على القوت الضرورى من الذرة ، واذا نقص محصول الفطن عن سداد ما عليه من الايجار أخذ منه محصول الذرة كله أو بعضه ، فانظروا الى هذا التعس الذى علمه أساس العمران بمصر ، والذى لم تتغير حالته المعاسية بل هى حياة بؤس وشقاء ، وجهل لا بمائله فيها فلاح آخر ، الفلاح المصرى اتعس فلاح فى العالم ، اتعس من الفلاح الروسى ، الذى يضرب بشقائقه المثل ، ولا خلاص له من هذه الحالة الا بنشر التعليم الابتدائى وجعله اجباريا ، وبتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه أمام الحكومة وأمام الملاك الذين يزيدون عليه الايجارات بمناسبة وبغير مناسبة ، وأمام المرابين الذين يأخذون منه ما يبقى لهم بين جشع الملاك وظلم الحكومة ، (١) .

كما تكلم الزعيم فى نفس المؤتمر الوطنى للحزب (٧ يناير ١٩١٠) عن مشروع مد امتياز السويس مهاجما ، كما أن (اللواء) كان قد هاجم ذلك المشروع فى ٢٥ اكتوبر ١٩٠٩ موضحا أن هذا المشروع هو عبارة عن تفازل مصر عن ملكية القناة لاربعين عاما زيادة على عقد الامتياز (من عام ١٩٦٩ الى عام ٢٠٠٨) مقابل الحصول على أربعة ملايين جنيه .

وارسل محمد فريد برقيات الى الخديو والى رئيس الوزراء يحملهما مسئولية ذلك العمل المتناقى مع المصلحة المصرية .

وكان لنداءات الزعيم اثر فى تراجع الجمعية العمومية عن قرارها بحد أجل امتياز القناة ثم رفض المشروع تماما رغم دفاع سعد زغلول نفسه عن وجبة نظر الحكومة .

(١) عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) د . جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو بين النظرية والتطبيق ١٩٦٩

ص ١٠١ .

أنظر أيضا د . جاد طه - الصراع الاستعماري ص ٨٤ .

مقالات الزعيم في اوربا *

مع اوائل مايو ١٩١٠ ، سافر الزعيم محمد فريد الى اوربا للدفاع عن القضية المصرية ، فذهب الى باريس ، وكتب في الصحف الفرنسية مقالات هامة لضم الراى العام العالمى الى جانب الحركة الوطنية المصرية ، كما ألفى العديد من الخطب في المدن الفرنسية الكبرى كما الم بلندن ذاتها ، وهاجم الانجليز في عقر دارهم غير مبال بالنتائج ، ثم حطاب الزعيم في مؤتمر السلام باستوكهلم في ٩ أغسطس ١٩١٠ باللغة الفرنسية ليعرف الاعضاء بالقضية المصرية ، مما ادى بالمؤتمر لان يصعد قرارات مؤيدة لمصر .

وعاد محمد فريد من الخارج وهو محاط بسهالات الحب من الشعب المصرى ، مما ادى الى بغض أعدائه في ذلك الوقت : الاحتلال - الخديو - الوزراء ، وبدأ عام ١٩١١ وهو يفدربما سينال فيه الزعيم من العنت والمكاره .

الزعيم فى السجن

فى ٢٣ يناير ١٩١١ حوكم الزعيم على تقريظه لكتاب وطنيتى للشيخ على الغاياتى وكتابته مقدمة له ، وانتهت المحكمة الى قرار بحبس الزعيم ستة أشهر مع النفاذ .

وقد تلقى فريد حكم المحكمة بهدوء ، وقررت لجنة الحزب الوطنى ان تطلب الى الامة مقابلة هذا الحكم بالثبات . وفى ١٨ يوليو وبعد مضى أشهر الحبس الستة ، تم الافراج عن محمد فريد .

وعند خروجه قال : « مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن ، ولم أشعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب أجل خروجى ، لعلمى انى خارج الى سجن آخر هو سجن الامة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال ، (١) » .

(١) عبد الرحمن الراعى - محمد فريد ص ٢٨٨ .

وهكذا انتشرت الأنباء بأن الحكومة مصممة على ادخال الزعيم الى السجن كلما خرج منه ، وانتهى الامر باقامة الدعوى على الزعيم بتهمة التحريض على كراهية الحكومة . ثم حكمت المحكمة المكلفة بالنظر في هذا الادعاء على الزعيم بالحبس مع الشغل سنة غيابيا .

وهكذا نصح رفاق الزعيم له بالسفر ، فسافر في ٢٦ مارس ١٩١٢ سرا الى الآستانة وأخذ يتنقل من بلد الى بلد داعيا للقضية المصرية . أما أحوال مصر بعد هجرة الزعيم فسوف نناقشها في الفصل التالي .

أما الزعيم نفسه ، فقد قرنى في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ في ظروف بالغة التعاسة والفقر ، وهو الغنى صاحب الفدايين والقصور ٠٠٠ وقال قبل وفاته مباشرة « انى انا واولادى وكل عزيز لى فداء لمصر ، لقد قضيت بعيدا عن مصر سبع سنوات ، فاذا مت ، فضعونى فى صندوق واحفظونى فى مكان أمين ، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتى الى وطنى العزيز الذى افارقه وكنت اود ان اراه (١) .

وفى ١٦ نوفمبر ١٩١٩ شيعت جنازة الزعيم فى برلين فى احتفال مهيب سار فيه المصريون هناك وعدد كبير من الالمان تقديرا منهم لزعيم مجاهد أحب وطنه وقاسى من أجله .

وظلت فكرة نقل رفات الزعيم الى مصر تجول فى خواطر الكثيرين دون ان ينفذها أحد ، الى ان قام تاجر من الزقازيق يدعى خليل عفيفى بالحصول على ترخيص من الحكومة المصرية بنقل رفات الزعيم على نفقته الى مصر .

وفى ٨ يونيو وصل جثمان محمد فريد بالباخرة الى الاسكندرية حيث شيعت جنازته من جديد فى موكب مهيب الى محطة الاسكندرية

(١) المصدر السابق ص ٤٤٤ .

لنقل رفات الزعيم الى القاهرة . وفي محطات دمنهور وطنطا وبنها
احتشدت الجماهير لتحية روح الزعيم .

وفي ٩ يونيو بدأت جنازة جديدة للزعيم الخالد من محطة القاهرة
الى ميدان الاوبرا فشارع محمد على الى مدافن العائلة بجوار السيدة
نفيسة . . وأخيرا آن لمصر الأم أن تحتضن رفات ابنها البار محمد فريد .
وتبارى شعراء وكتاب مصر العظام في ذلك الوقت في تأبين الزعيم .

فقد القى حافظ ابراهيم قصيدة مطولة منها .

آثر النيل على أمواله	وقواه وهواه والولد
يطلب الخير لمصر وهواه	شهوة نحلى من العيش الرغد
ضارب في الأرض يبغى مأربا	كلما قاربه عنه ابتعد
لم يعبه أن تجنى دهره	رب جد حاد عن مجراه جد
يستجم العزم حتى ان بدت	قرصة شد اليها وصمد
فهو لا يئن عنانا عن منى	وهو هجراه (من جد وجد)
فأياديها اذا ما أنكرت	انما تنكرها عين الحسد

* * *

فقدت مصر (فريدا) وهى فى	موطن يعوزها فيه المدد
فقدت مصر (فريدا) وهى فى	لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خيرا حولا	وهى والايمان فى أخذ ورد
لم يكد يمتعها الدهر به	فى ربوع النيل حيا لم يكد
ليته عاش قليلا فتسرى	شعب مصر عينه كيف اتحد
ويح مصر بل فويحا للثرى	انه ابلغ حزنا واشد
كم تمنى أهله	لو يوارى فيه ديساك الجسد

* * *

هف نفسي هل (ببرلين) امرؤ
هل بكت عين فرت تربيته
موق ذاك التبصر صلى وسجد
هل على أحجاره خط أحسد
هافنا قبر شهيد في هوى
أمة ايظها ثم رقد
كما كتب الامير شكيب رسلان قصيدة طويلة أيضا منها .

قد عشت فذا في الرجال فريدا
جاهدت عمرك ثم من مغربا
فقضيت فذا في البلاد فريدا
فغدوت من كل الجهات شهيدا
كانت حياتك حفظ مصر لأهلها
جاهدت نصف العمر في أرجائها
لله وفيت الأمانة حقها
أذنت في حسراتها كبدا بها
لم تدخر في حب مصر وأهلها
ما عز عندك ان تركت لأجلها
ولذا إذا ونفائسا أورثتها
غادرت طفلا وطال بك النوى
لخلاص مصر قد تركت مائسرا
كذت المنيمة والعميد بحبها
فحزمت منظره وصار رشيدا
بيضا سهرت لها ليالى سودا
فلذا لفتيتها غدوت عميدا
وطني وقصرا كالسدير مشيدا
عني صرفت وعيلا ووليدا
فحزمت منظره وصار رشيدا
بيضا سهرت لها ليالى سودا
فلذا لفتيتها غدوت عميدا

أما أمير الشعراء أحمد شوقي فقد كتب قصيدة تليت على ضريح الفقيد
سنة ١٩٢٠ .

ثم عاد شوقي سنة ١٩٢٤ ليكتب شعرا رائعا عن محمد فريد في مناسبة
الذكرى الخامسة لوفاته نقتبس منها .

نجدد ذكرى عهدكم ونعيد
والناس في الماضي بصائر يبتدى
وندني خيال الامس وهو بعبد
عليين غاو أو بسير رشب
تدبر فيها الحى كيف يسود
إذا الميت لم يكرم بأرض نناؤه

ونحن قضاة الحق نرعى قديمه	وان لم يفتنا في الحقوق جديد
ونعلم أنا في البناء دعائم	وأنتم أساس في البناء وطيد
فريد ضحاينا كثير وانما	مجال الضحايا أنت فيه فريد
فما خلف ما كابدت في الحق غاية	ولا فسوق ما قاسيت فيه مزيد
تغربت سرا أنست فيهن بائس	وأنت بافاق البلاد شريـسـد
تجوع ببلدان وتعري غيرها	وترزح تحت الداء وهو عتيد
الا في سبيل الله والحق طارف	من المال لم نبخل بـحه وتليد
وجودك بعد المال بالنفس صابرا	إذا حزع المحضـور وهو يجود

* * *

فلا زلت تمثالا من الحق خالصا	على سره نبني العلا ونشيد
يعلم نشء الحى كيف هوى الحمى	وكيف يحامى دونه ويذود *

* * *

الفصل السابع
ثورة ١٩١٩

الحماية البريطانية على مصر :

عندما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، ظلت الأحوال هادئة في مصر باعتبارها بعيدة عن مسرح هذه الحرب ، إلا أنه في ٥ أغسطس سنة ١٩١٤ ، أصدرت الحكومة المصرية قرارا - تحت الضغط البريطاني - بمنع التعامل في الأمور المالية والاقتصادية مع الدول المعادية للحكومة البريطانية ، وحث القرار المصريين على تقديم كل عون ممكن لبريطانيا في هذه الحرب (١) وقد هاجم الوطنيون فيما بعد حسين رشدي باشا - رئيس الوزراء - على اصدار هذا التصريح دون أن يفتزع من الانجليز في مقابله وعد صريح يحقق آمال المصريين بعد انتهاء الحرب .

وفي ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٤ صدر مرسوم بتأجيل جلسات الجمعية التشريعية الى أجل غير مسمى (٢) ، وفي ٢ نوفمبر أعلن السير جون مكسويث قائد القوات البريطانية في مصر الاحكام العرفية ، ثم صدر تصريح بريطاني أعلن أن انجلترا سوف تتكفل بكل أعباء الدفاع عن مصر وأنها لن تدعو الشعب المصري الى الاشتراك الفعلي في الحرب ، وقد صدر هذا التصريح بناء على طلب رشدي باشا رئيس الوزراء الذي اعترض بمرارة على اعلان الاحكام العرفية .

(١) . John Marlowe, Anglo-Egyptian Relations 1800-1953, p. 212.

(٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٩٠ .

وفي ٦ نوفمبر ١٩١٤ أعلنت الحرب بين إنجلترا وتركيا ، وهكذا كان على إنجلترا أن تختار لمصر وضعاً من ثلاثة أوضاع ، فهي : إما أن تضمها إلى امبراطوريتها ، أو تعلن حمايتها عليها ، أو تترك أمورها على ما هي عليه ، أما ضم مصر إلى الامبراطورية فإنه لا شك سيثير الدول المحايدة ويدفعها إلى نقد السياسة الانجليزية ، أما اعلان الحماية فمن شأنه أن يعطى ممثل إنجلترا وضعاً محدداً يفوق وضع ممثلى الدول جميعاً في البلاد (١) . لهذا اختارت إنجلترا اعلان الحماية في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ (٢) .

واعلان الحماية من دولة على أخرى كان يصحبه عادة اتفاق بين الدولة، الاستعمارية والدولة المحمية ، بقصد تبرير وضع الدولة الاستعمارية من الناحية الشكلية أمام الرأى العام العالمى ، وإن كان مفهوماً أنها حين تعلن حمايتها إنما تفرض نفسها فرضاً بوسائل الضغط السياسى والعسكرى ، ولكن لا الحكومة المصرية ، ولا أى هيئة مصرية أخرى طالبت بالحماية التى أعنتها إنجلترا من طرف واحد مما جعلها غير مقبولة من المصريين جميعاً ، لولا ظروف الحرب التى لم تمكن أحداً من الادلاء برأيه بصراحة ، خاصة وقد أعنت الاحكام العرفية وتحددت الحريات وانتشرت جيوش الاحتلال .

البلاد (٣) .

وبرغم أن فرض الحماية على مصر لا يزيد من فاعلية السيطرة البريطانية عليها ، فإن اعلان الحماية من ناحية تذل شعور المواطن المصرى ، ومن ناحية أخرى تثير القلق والغموض فى المستقبل (٤) ، بل أن كلمة « حماية » نفسها كلمة ذليلة لم يكن ليتقبلها الشعب المصرى بسهولة (٥) .

وبما أن الحماية - من الناحية الدولية - عمل غير قانونى ، فإنه لم يكن مستطاعاً احداث أى أثر على الامتيازات الاجنبية . وعلى الرغم من

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٠ - ٩١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى - ثورة ١٩١٩ - ص ١٨ .

(٣) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩١ .

(٤) د . جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل صفحة ٨٦ .

(٥) John Marlowe, op. cit., p. 216.

(١) د . جاد طه الصراع الاستعمارى فى حوض النيل صفحة ٨٦ .

أن مقتضيات الاحكام العرفية لم يكن لها أى تأثير فى بادئ الامر على الحياة اليومية فى مصر ، فان اعلانها كان معناه أن الجيش البريطانى اصبحت له السلطة العليا فى التشريع والادارة فى مصر واستخدمت الاحكام العرفية استخداما شاملا فيها .

وكان من الواضح أن المصريين لابد من متظرين فتيحة الحرب التى نشب حتى يحددوا موقفهم من المحتل ويطالبوا بانتهاء هذا الاجراء الاستثنائى ، وبحقوقهم فى الحرية والاستقلال ، وبقي وضع مصر شاذا أثناء الحرب كما كان عليه منذ وقوع الاحتلال ، فالحماية لم تلغ السيادة العثمانية ، ولا هى اشرت على الامتيازات الاجنبية (١) ، ومع ذلك فان انجلترا قد افادت من اعلان الحماية ، فالغت وزارة الخارجية المصرية وحولت ملحقاتها الى المندوب السامى البريطانى .

وفى نهاية سنة ١٩١٤ ، وصلت الى مصر اقسام من جيوش بريطانيا ومستعمراتها ، وفى ديسمبر من نفس السنة بدأت العمليات الحربية فى سيناء وقناة السويس لمواجهة الغزو التركى على القناة من جهة فلسطين . وعند بداية عام ١٩١٦ ، كان فى مصر نحو ١٣ فرقة من قوات الجيش البريطانى .

وعلى الرغم من التعهد البريطانى باعفاء مصر من المشاركة فى الجهود الحربية فى هذه الحرب ، فان بريطانيا اخلت بهذا التعهد بعد ايام قليلة من اعطائه بارسمالها الجيش المصرى كى يساعد فى الدفاع عن قناة السويس (٢) .

ثم ما لبثت السلطات الانجليزية أن بدأت عملية قبض واسعة النطاق ، ونفت الكثيرين من الوطنيين الى مالطة ، وكان من هؤلاء عدد كبير من رجال الحزب الوطنى ، واعتقلت وحددت اقامة الكثيرين ، وأخلت بعض المدارس والمستشفيات وأقيمت فيها المنشآت العسكرية ، واستخدمت القوات البريطانية المرافق العامة - كاسكك الحديدية لدرجة تعطيل النقل

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٢ .

(٢) د . جاد طه - المصدر ' استعماري فى حوض النيل صفحة ٨٦ .

(م ١٨ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

المدنى (١) •

كما زادت مطالب الحرب من الاعباء التى فرضتها السلطة البريطانية على الشعب • فجندت العمال والفلاحين لمضاعفة العمل فى خط السكة الحديد بين الاسماعيلية والزقازيق ، كما زادت طلباتها من المؤن ودواب الحمل • وطلبت السلطات البريطانية من الحكومة المصرية أن تمددها بالجنود المتطوعين فكان مدير كل مديرية يطلب من مأمورى المراكز الذين تحت قيادته أن يمدوه بعدد كبير من المتطوعين لتزويد الجيش ، فيعهد المأمور الى كل عمدة مهتدا اياه بالعقوبات الشديدة اذ لم يقدم المطلوب منه • وأخذت السلطة العسكرية فى الاستيلاء على دواب الحمل ووسائل النقل ومواد العلف غصبا ، وأجبر المصريون على التبرع للصليب الأحمر ولاسر الجنود «الحلفاء» المنكوبين وغيرهم • وصدرت الاوامر لرجال الالة بجمع هذه الاموال وجار العمد والموظفون على الافراد العاديين ، كما فعلوا حين جمع المجندين والعمال والاستيلاء على الماشية والمواد الغذائية ، مما أدى الى ازدياد الضغط على الفلاحين وتفشى السخط فى الريف •

على أنه يلاحظ ن الاموال التى دفعها الجيش البريطانى نظير ذلك ثم تكن مجزية ، بل كثيرا ما كانت تتأخر ، بل لم تكن تجد طريقها دائما الى أيدي أصحابها الحقيقيين (٢) ، وعلى أية حال لم يكن قيمة ما يدفع يتكافأ مع فقدان الفلاح لماشيته التى كانت ضرورة تماما لمعيشته

أما سكان المدن فلم يكن ضغط الحرب عليهم بأقل منه على مواطنيهم القرويين ، حقيقة أن سنى الحسرب قد أدت الى انعزال مصر تقريبا عن أسواق التصدير ، مما أتاح للرأسمالية المحلية فرصة محددة للنمو حين قامت بالبلاد بعض الصناعات الصغيرة للوفاء بحاجات الجيوش والسوق المحلية • الا أن الحرب أدت الى الركود الشامل فى السوق التجارية بسبب وقف

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٤ •

(٢) د • جاد طه - المصدر السابق صفحة ٨٧ •

تصدير القطن وهبوط أسعاره هبوطا شديدا وتحديد مساحة الاراضى المزروعة قطناً ، وتأليف لجنة انجليزية لمراقبة تصدير القطن بأسعار مخفضة الى انجلترا وحصر عمليات التصدير في يد فئة قليلة من البيوت الاجنبية . وارتفعت أسعار السلع الاستهلاكية ارتفاعا متواليا وبخاصة أسعار الحبوب والمنسوجات والوقود ، بينما لم تزد أجور العمال والموظفين أية زيادة تتناسب مع زيادة تكاليف الحياة (١) .

وهكذا أصبحت مصر قاعدة للعمليات الحربية في البحر المتوسط ، وخضعت لاوضاع حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل .

وفي وسط هذه الظلمة الحالكة ، أخذ المصريون يتطلعون الى نيل حريتهم بعد أن لمست طبقاتهم جميعا مدى العنف الذى تعرضوا له أثناء الحرب نتيجة لربط البلاد بعجلة السياسة الاستعمارية :

وبمجرد أن أعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، حتى أخذ الساسة المصريون يتشاورون في مصير البلاد ، وكان كبار زعماء الحزب الوطنى منفيين و معتقلين ، فتصدر الموقف المعتدلون ومعظمهم من أعضاء الجمعية التشريعية . ورأى هؤلاء أن يرسلوا وفدا مثل بقية الشعوب التى تأهبت لارسال مندوبيها الى مؤتمر الصلح ، خاصة وأن مصر لم تثر العراقيل في وجه انجلترا أثناء الحرب ، بل عاونتها قدر طاقتها على احراز النصر ، ومما قوى عزمهم صدور التصريح الانجليزى - الفرنسى الذى أذيع في أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ فيما يتعلق بسوريا والعراق ، وقد جاء فيه « ان بريطانيا العظمى وفرنسا تفويان تحرير الشعوب التى أنقذت من الظلم العثمانى تحريرا تاما وان ننشى لها حكومات وطنية تستمد سلطاتها من القوانين التى يسنونها من تلقاء أنفسهم ومطلق اختيارهم » (١) . وكانت مسألة ارسال هذا الوفد هى النقطة التى اندلعت منها الثورة .

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ٩٩ - ١٠٠ .

أسباب ثورة ١٩١٩ :

قد يكون السبب المباشر لثورة سنة ١٩١٩ هو اعتقال سعد زغلول وصحبه ، ولكن أسبابها الحقيقية ترجع الى عدة سنوات مضت ، ولا يمكن القول بأن اعتقال سعد هو السبب الوحيد للثورة ، فقد اعتقل للمرة الثانية في ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وكانت منزلته عند الشعب قد عظمت وعلت ، ومع ذلك لم تقم في البلاد ثورة للافراج عنه ، فاعتقاله في المرة الاولى لم يكن السبب الوحيد لثورة سنة ١٩١٩ ، وانما كان بمثابة الشرارة التي أشعلت النار في بركان الثورة .

ولم تكن ثورة ١٩١٩ ثورة دينية ولا ثورة اجتماعية ، بل كانت ثورة سياسية بكل معانى الكلمة ، فأهدافها سياسية وتطوراتها السياسية ، ومن هنا كانت أسبابها العامة أيضا سياسية ، على أن لها إلى جانب ذلك أسبابا أخرى اقتصادية واجتماعية .

الأسباب السياسية :

« ترجع الثورة الى تذمر الشعب من حالته السياسية وتطلعه الى ما يصبو اليه من حرية واستقلال . وكان الشعب يسمع من الحكومة البريطانية بين حين وآخر وعودا وعهودا بالجلء عن البلاد ، ولكنه شهد على مر السنين نقض هذه الوعود والعهود شهد الاحتلال على تعاقب الاعوام يوطد أقدامه ، ويتغلغل في شئون الحكومة كبيرها وصغيرها ، شهد إلغاء الجيش المصرى والبحرية وتجريد البلاد من كل قوة حربية ، شهد مصرع الحكومة الاهلية ، واهدار الاستقلال ، شهد إلغاء مجلس النواب ، وإبطال النظام الدستورى الذى نالته من قبل ، . »

تعاقبت هذه الاحداث على البلاد . . . وبينما كانت الامه ترنم أن تنجز انجلترا وعودها وعيودها في الجلاء . اذا باحتلال بتفامم ويزداد رسوخا باعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ فصار احتلالا مقررنا بحماية . وبعد أن قامت مصر من وبلاء حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل ، جددت

الحكومة البريطانية المعاونات المصرية لها في هذه الحرب ، فوثقت من الاهداف الوطنية - بعد انتهاء الحرب - موقف التجدى والخصومة ، وتحقن الشعب ما تضرر له ، اذ صمت آذانها عن الاستماع الى مطالبه ، ورفضت الترخيص لمثليه بالسفر الى الخارج لرفع صوت مصر الى مؤتمر الصلح ، ولم تكتف بالرفض ، بل حتمت ان يقدم الشعب مقترحاته في شأن نظام الحكم الى المعتمد البريطاني في مصر ، على ان لا تخرج عن حدود الحماية ، في حين توالى الانباء بالترخيص لوفود الهند والحجاز وسورية ، وأرمينيا وغيرها بالسفر الى المؤتمر ، وتمثيل بعض هذه البلاد رسميا في ساحته ، وتمكينها جميعا من الدفاع عن حقوقها وإعلان مطالبها أمامه ، ولقد ظهر من هذه المقارنة مبلغ ما ببقته انجلترا لمصر من أسوأ النيات ، فلما يئس الشعب من الطرق السلمية في الوصول الى أهدافه لجأ الى الثورة ، يعلن بها سخطه على الحماية والاحتلال ... فتورب سنة ١٩١٩ هي اذن ثورة على الاحتلال والحماية ووثبة على نظام الحكم الذى تفرع عنهما .

وقد أحدثت المبادئ التى أعلنها الدكتور ويلسون الرئيس الاسبق للولايات المتحدة عند دخول أمريكا الحرب تأثيرا كبيرا في النفوس قاطبة . وقد أعلن الرئيس الأمريكى هذه المبادئ في خطبة العديدة ، فاستمع الناس الى قواعد ومعان جديدة في حكم الشعوب وتقرير العدل العالمى ، اذ نادى بحرية الشعوب كبيرها وصغيرها ، والاعتراف بحقها في تقرير مصيرها . كما أعلن في المبدأ الاخير من مبادئه الاربعة عشر التى نادى بها وجوب انشاء جمعية أمم لوضع الكفالات لضمان الاستقلال السياسى وسلامة اراضى جميع البلاد صغيرها وكبيرها على السواء .

وقد كانت هذه المبادئ بمثابة ستور او ميثاق عالمى يحق لكل أمة ان تتمسك به ، وقد استقارت هذه المبادئ روح الاستقلال والحرية في الشعوب ، وكانت الأمة المصرية بذكائها وبصيرتها أسبق الامم الصغيرة الى تمسكها بحقها في تقرير مصيرها ، وزادها تمسكا به أن الحلفاء ومنهم بريطانيها وافقوا على مبادئ ويلسون ، فاستقر في الاذهان أنها بوقوفها ضد الاحتلال والحماية لابد واصلة الى تقرير مصيرها ، وهو الحق المعترف به من

الجميع (١) .

الأسباب الاقتصادية :

ان ثورة سنة ١٩١٩ كانت من الوجهة الاقتصادية هي رد فعل ضد النظم المالية التي عانتها البلاد قبل الحرب وأثنائها ، فقبل الحرب أخذت الأمة تشعر على مر السنين بأن المصالح والمرافق الأجنبية نمت وازدهرت وطفئت على الاقتصاد القومي في ظل الاحتلال وتحت كنفه ورعايته ، وأن النفوذ الأجنبي في البنوك والشركات والمصانع والبيوت الأجنبية عامة قد تغلغل في حياة البلاد الاقتصادية مما أفضى الى استعباد الشعب ماليا واقتصاديا الى جانب ما عناه من الاستعباد السياسي (٢) .

ثم جاءت الحرب العالمية الاولى . فزادت الناس تذمرا من هذه السياسة وأول ما ظهر من هذا التذمر ، الشكوى العامة من موقف الحكومة حيال هبوط أسعار القطن هبوطا جسيما في موسم سنة ١٩١٤ على أثر نشوب الحرب . فلقد نزل سعر القطن تدريجيا الى حوالي عشرة ريالات ، وكان سعره قبل الحرب أربعة جنيهات فعم الكساد واشتد الضيق بالمزارعين من ملاك وفلاحين (٣) .

ثم أخذت أسعار القطن في السنين التالية تصعد تدريجيا ، حتى وصل سعر القنطار الى ٣٩ ريالا ، وهكذا اندفع الزراع الى زراعة القطن ، ومن ثم قل انتاج الحاصلات الغذائية ، هذا بالإضافة الى ان قوات الاحتلال كادت تستولى على غالبية هذه الحاصلات وأصبح من العسير على الفقراء من أهل المدن الحصول على حاجاتهم الضرورية (٤) . واشتدت وطأة الغلاء على الطبقات الفقيرة والمتوسطة ، وهم السواد الأعظم من الشعب ، ففاضت

(١) عبد الرحمن الرافعي - ثورة سنة ١٩١٩ - الطبعة الثالثة ص ٤٠ - ٤٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ٢٠٦ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي - ثورة سنة ١٩١٩ ج ١ ص ٥٤ .

(٤) John Marlowe, Anglo-Egyptians Relations 1800-1953, (٤)

p. 224.

نفوسهم سحطا وحنقا ، وفي ذلك يقول اللورد ملنر في تقريره عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ : « ٠٠ ان اسعار الأشياء ارتفعت في مصر ارتفاعا متواليا لم يسبق له منيل ، ولا سيما اسعار الحاجيات كالحبوب والأقمشة والبقود ، فتقلت وظائفها على الفقراء ، ولا سيما أن أجورهم لم تكن لتكفي النفقات التي يقتضيها غلاء المعيشة ، في حين أنهم كانوا يرون عددا من مواطنيهم ومن الأجانب غير المحبوبين عندهم يجمعون الثروات الكبيرة ، فان عائلة مكونة من أربعة أشخاص ، رجل وزوجته وطفلين ، لم تكن تستطيع في أوائل سنة ١٩١٩ الحصول على ما يكفيها من القوت إلا بثمان يفرق بكثير متوسط الاجر وقتئذ . فهذه العوامل المختلفة فضت ولا ريب في أواخر سنة ١٩١٨ الى الاستياء والقلق بين معاشر الفلاحين » .

واحتكرت الحكومة البريطانية بذرة القطن جميعها من محصول سنة ١٩١٧ بسعر أقل من سعرها الحقيقي ، كما أصيبت مصر بخسارة اقتصادية فادحة في موسم سنة ١٩١٨ ، اذ احتكرت الحكومة البريطانية محصول القطن جديده في ذلك العام . وأصدرت الحكومة المصرية بلاغا في ١٣ مارس سنة ١٩١٨ عن هذا الاحتكار سوغته بقولها : « نظرا الى الأحوال الاستثنائية الناجمة عن الحرب والمثائرة بها الآن تجارة القطن المصري ولا سيما قلة بواخر النقل ٠٠٠ و مراعاة لضرورة الاحتفاظ بما للامبراطورية البريطانية بما للدفاع من المواد الطبيعية سدا لحاجتهم الضرورية ، رأت حكومة صاحبة الجلالة والحكومة المصرية بالاشتراك ان تتخذ التدابير اللازمة لاحراز محصول القطن ابتداء من أول أغسطس سنة ١٩١٧ » .

ويدخل في سياق الاسباب الاقتصادية للثورة ، مصادرة السلطة العسكرية لارزاق الناس وحاصلاتهم ومواشيهم ، ثم تخفيض مساحة الاراضى المنزرعة قطنًا طيلة أيام الحرب توفيرًا لمؤونة الجيوش البريطانية وجملة القول أن الاسباب الاقتصادية كان لها دخل كبير في قيام ثورة سنة ١٩١٩ (١) .

الأسباب الاجتماعية :

لا شك ان المجتمع المصرى سنة ١٩١٩ ، كان - رغم الاحتلال - أكثر تطورا عنه فى السنوات السابقة ، فان النهضة الأدبية والعلمية والصحفية والنهضة النسوية ، كل ذلك جعل المجتمع أكثر تطلعا الى المثل العليا وأشد تبرما بالنظم الاستعمارية . وتجدر الإشارة الى ما كان للأدب والصحافة من فضل كبير فى بث الروح الوطنية فى نفوس الشعب ، فان الأدباء عامة ، والشعراء بوجه خاص ، ناصروا الحركة الوطنية وغذوها بقصائدهم ومقالاتهم ، وسجلوا حوادثها البارزة ، وعبروا أصدق تعبير عن آمال هذا الشعب وآلامه ، ومن هنا صار المجتمع أكثر استعدادا لقبول الدعوة الى الثورة ، فان دعوة مصطفى كامل ومحمد فريد لاقت صدى لها فى بيئات محدودة ، فقد استجاب لها بعض الشباب المتحمس وفريق من المثقفين والأعيان ، ولكن غالبية الشعب ظلت بمنأى عن الحركة الوطنية . أما فى سنة ١٩١٩ ، فقد انضمت الى الحركة الوطنية فئات كانت من قبل بمعزل عنها كالموظفين والفلاحين ، وهذا لا شك راجع الى التقدم الاجتماعى .

حقا قد يكون الباعث المباشر لانضمام الموظفين الى ثورة ١٩١٩ هو استيائهم من احتكار الانجليز للمناصب الحكومية الكبرى ، ولكن هذا لا يحول دون اعتبار هذه البواعث الشخصية من العوامل التى اذكت الروح الوطنية فى نفوس المصريين .

حقا ان اعيان البلاد كانوا - الا النادر - لا يميلون من قبل الى معارضة الحكومة بل كان مهمهم توطيد علاقتهم بالحكومة والحكام ، ثم جرفهم التيار ، فانضموا الى الحركة فى سنة ١٩١٩ ، ومهما قيل من ان انضمامهم اليها لم يخل من قصد الانتفاع الشخصى ورعاية مصالحهم عن طريق مساهرة التطور السياسى الحديدي ، فان انضمامهم الى الحركة كان على أى حال مظهرا من مظاهر التقدم الاجتماعى للأمة .

أما عن الفلاحين ، فلم يكن احد يتوقع ان الفلاح البعيد بفطرته عن السياسة يندمج فى الثورة الى درجة خلع قضبان السكك الحديدية وقطع المواصلات وبذل الروح فداء للوطن .

وبلغ النضج السياسى والاجتماعى خلال الثورة حدا جعل المتظاهرين يحرصون على رعاية مصالح الاجانب حتى لا يستهدفوا لعدواتهم فكانوا يدعون دائما الى عدم التعرض لهم بسوء . ومن مظاهر التقدم الاجتماعى مساهمة النساء فى هذه الثورة ، واشتراكن بأقلامهن فى اذكاء الروح الوطنية ، وحثهن الرجال على التضحية ، وتأييبن المظاهرات والجمعيات للتعبير عن شعورهن والمساهمة فى النهضة الوطنية .

وصفوة القول ان التقدم الاجتماعى كان له اثره فى اندلاع ثورة سنة ١٩١٩ (١) .

احداث الثورة :

لقد خرجت انجلترا منتصرة من الحرب الاولى ، وتزعمت العالم الاستعمارى ولم يكن من المتوقع ان يحقق المتطرفون الكثير من المطالب المصرية عن طريق العنف ، فكان من دواعى الحكمة ان يتقدم الصفوف المعتدلون ، وبخاصة من كان منهم على صلة طيبة بالسلطات الانجليزية قبل الحرب ، ومن هنا كان انفراد سعد زغلول بالزعامة فى اوائل الحركة وتمكنه من جعل الوفد المصرى هو الجبهة الوحيدة التى تبنت القضية الوطنية فى اعقاب الحرب العظمى ، وتسليم الجميع لسعد بالزعامة لم يكن أمرا عارضا ، بل هو نتيجة لاعتبارات كثيرة تقصل بحياة سعد اتصالها بقوة شخصيته وسابق مراسه بالامور السياسية .

نشأ سعد نشأة مصرية صحيحة فى الريف ودرس فى الازهر أيام الافغانى ومحمد عبده ، واشترك فى الثورة العربية وعمل أثناءها محررا للوقائع المصرية مع محمد عبده ، وقد تقلد منصب وزير المعارف منذ عام ١٩٠٦ ، وفى عام ١٩١٠ تولى وزارة الحقانية (العدل) الا ان معارضته الصريحة الواضحة للسياسة الانجليزية لم تبدأ الا بعد انتخابه وكيلا للجمعية التشريعية بعد انتخابه عن دائرتين

لمزيد من التفاصيل أنظر :

(١) تبد الرحون الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ ج ١ ص ٦٤ - ٨٥ .

من دوائر القاهرة لعضوية الجمعية في عام ١٩١٣ (١) .

وعندما أعلنت الهيئة بين الدول المتحاربة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، قدم سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي عضوا الجمعية التشريعية بوساطة وموافقة رشدي رئيس الوزارة حينذاك ، قدم هؤلاء طلبا لمقابلة المندوب السامي البريطاني في يوم ١٣ نوفمبر (٢) ، وذلك للتحدث اليه في طلب الترخيص لهم بالسفر الى لندن لعرض مطالب البلاد على الحكومة الانجليزية .

وفي ١٣ نوفمبر جرت المقابلة الشهيرة (٣) ، بين سعد زغلول وعلى شعراوي وعبد العزيز فهمي من جانب والسير ريجنالد وينجت المندوب السامي البريطاني من جانب آخر ، وقد طلب المندوبون المصريون - بصفتهم نواب الأمة - اعتراف إنجلترا باستقلال مصر ، ولم يشأ ونجت ان يلزم نفسه بشيء ، ولهذا لم يصدر عنه سوى التأييد لسياسة بلاده الاستعمارية والتهوين من امر المصريين والقول انهم غير جديرين بالاستقلال ، ثم أبدى لرئيس الوزراء حسن رشدي عدم اقتناعه بصفة الوكالة التي خلعا سعد زغلول وزميلاه على أنفسهم رغم كونهم جميعا أعضاء في الجمعية التشريعية التي لم تزل قائمة قانونا .

لهذا طلب « الوفد » بعد المقابلة توكيلا من الأمة لمقابلة السعي للاستقلال بالطرق السلمية ، وكان المقصود في اول الامر أن يوقع هذا التوكيل أعضاء الجمعية التشريعية ، ولكن لما كان الشعب كله مهتما بالقضية الوطنية فقد ارسلت نسخ التوكيل (١) الى شتى أرجاء البلاد ليقعها

(١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسي س ١٠٥

- ١٠٦ .

(٢) د . جاد طه - الصراع الاستعماري في حوض النيل ٨٧ - ٨٨ .

(٣) نصر الحديث - عبد الرحمن الرافعي - ثورة سنة ١٩١٩ ص ٦٦

- ٦٩ .

(٤) نصر التوكيل عبد الرحمن الرافعي - ثورة سنة ١٩١٩ ص ٧٣ .

المواطنون جميعا . وساعد حسين رشدي على توقيع نسخ النوكيل حين أصدر التعليمات الى مديري المديرية بعدم التعرض لها ، دون أن ينحني أمام محاولة السلطات الانجليزية احباط الحركة ، بعد أن تبين أنها تؤشك أن تكون أساسا لحركة عامة للمطالبة بالاستقلال التام . لهذا كان موقف حسين رشدي من العوامل التي ساعدت على التفاف الشعب حول « الوفد » .

وكان رشدي قد اعتزم أن يسافر الى لندن مع زميله عدلي يكن لي طرح المسألة المصرية على بساط البحث في العاصمة الانجليزية ، وكان رشدي على تفاهم تام مع الوفد حول الخطة السياسية الواجب اتباعها في ذلك الظرف ، وهي تقضى بتوجه ممثلى الحكومة المصرية القائمة الى لندن ، وتوجه أعضاء الوفد الى حيث شاءوا (١) .

وعندما طالب سعد من القيادة العسكرية الانجليزية في مصر الترخيص له بالسفر الى لندن مع وفده - فقد كان السفر الى الخارج لا يسمح الا باذن من السلطة العسكرية - كى يناقش مع الحكومة البريطانية المطالب المصرية ، ما كلت السلطات البريطانية في قبول مطالب زعماء الوفد واشارت عليه بتقديم مقترحاته الى المندوب السامى البريطانى .

فاقترح رشدي رئيس الوزراء ان يسافر هو وعدلى الى لندن لفرضية الحكومة البريطانية حول مستقبل مصر السياسى فرفضت هذه الدعوة بدورها ، فقضى ذلك على البقية الباقية من صبر رشدي الذى قدم استقالته للسلطات وتبعه عدلى يكن .

وعندما ووجه المندوب السامى باستقالة رشدي وعدلى ، قام بالاتصال بالحكومة البريطانية وحصل على موافقتها على ذهاب رشدي الى لندن ، وقد تحقق رشدي من أن أية امتيازات يستطيع الحصول عليها من لندن ستجعل الفرصة ضعيفة لتهدة عاطفة الوطنيين ما لم يشترك سعد

(١) د . احمد محمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى ص ١٠٧

في مباحثاته مع الحكومة البريطانية (١) ، ولذلك أوصى المندوب السامي
بوجوب السماح لتتعد في مرافقة رشدي الى لندن ، وأن الحكومة البريطانية
تحسن صنعا في هذه المناسبة فتستمع الى نصيحته ، فلم يجب المندوب
السامي الى طلبه ، وعلى ذلك قدم رشدي - الذي كان قد سحب
استقالته السابقة مع على - استقالته مرة أخرى مع حكومته في
أول مارس سنة ١٩١٩ .

وكان قبول استقالة رشدي اذانا بازدياد التوتر السياسي في
البلاد ، فقد شارك رشدي الشعب تسعوره ، آزر الوفد في موقفه ، وقد
أدى قبول استقالته الى تفشي الاعتقاد بأن مصر مقبلة على وزارة جديدة
قد تقبل الحماية البريطانية (٢) .

وقام الوفد في تلك الاثناء بارسال احتجاجات الى معتمد الدول
الاجنبية في مصر وأشهدهم على المعاملة الجائرة التي تعامل بها مصر
ومبلغ الظلم الذي يصيبها من المطامع الاستعمارية . وهكذا رأت
السلطة البريطانية في هذه الاحتجاجات المتوالية تشهيرا بها وبتصرفاتها ،
وفي يوم ٦ مارس سنة ١٩١٩ استدعى الميجر جنرال وطسن قائد القوات
البريطانية في مصر بالنيابة رئيس الوفد وأعضاءه وأذهرهم بالولايات
ان هم استمروا في تقديم هذه الاحتجاجات الى معتمد الدول . الا ان
سعدا لم يتراجع ، بل أرسل في اليوم نفسه برقية احتجاج على
هذه المعاملة الجائرة الى رئيس الوزراء البريطانية (٣) .

وهكذا رأت السلطة البريطانية اصرارا من الوفد على موقفه ،
فنفذت في يوم ٨ مارس ما هددت به ، وألقت القبض على سعد زغلول وثلاثة
من صحبه هم محمد محمود واسماعيل صدقي وحمد الباسل ، وساققتهم
الى ثكنات قصر النيل ثم جزيرة مالطة التي اختارتها السلطة
منفى لهم ومعتقلا (٤) .

(١) د . جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو ص ١١٦ .

(٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١١١

(٣) عبد الرحمن الرافعي - ثورة سنة ١٩١٩ ص ١١٢ - ١١٤ .

(٤) د . جاد طه - المصدر السابق ص ١١٧ .

وكانت عملياته الاعتقالات هذه هي السبب المباشر في اندلاع الثورة ،
ففى اليوم التالى مباشره لعمله الاعتقالات ، ترك الطلية مدارسهم
وتظاهروا فى الشوارع ، وفى ١٢ مارس أصبحت منطقة الدلتا كلها فى
حالة ثورة شاملة ماقتلعت القضبان الحديدية وقطعت أسلاك التليفون ،
واشعلت النيران فى المباني ، واصطرت القوات البريطانية الى اطلاق
الرصاص على المواطنين فى طنطا . وفى ١٥ مارس انتقلت الاضطرابات الى
الصعيد . وفى ١٨ مارس قتل بمائة من الجنود البريطانيين فى قطار
كان متوقفا فى محطة ديروط (١) .

وهكذا عمت الثورة أرجاء البلاد جميعا دون أن تكون هناك لجنة
منظمة لها أو جماعة توجهها وتشرف عليها بل أنها سملت البلاد
فجأة وعلى غير انتظار ، واشتركت فيها طوائف المصريين وطبقاتهم جميعا .
فاشترك فيها الموظفون والطلبة والمحامون والفلاحون والعمال والتجار
والوزراء والاعيان ، بل أن نساء المدن اشتركن فى المظاهرات وفدمن
الاحتجاجات ، مما لم يسبق له مثيل فى بلد اسلامى آخر .

ونتيجة لاحداث الثورة ، اصدر القائد البريطانى العام انذارا يتوعد
فيه كل من يتلف أو يشرع فى انلاف خطوط المواصلات الحديدية أو الدرفية
أو التليفونية بالاعدام رميا بالرصاص ، وأعلن أن كل حادث جديد
من حوادث التدمير لمحطات السكك الحديدية سوف يعاقب عليه باحراق
القريه التى هى اقرب من غيرها الى مكان التدمير (٢) .

وأخذت الداوريات البريطانية المسلحة تجوب البلاد ، كما استخدمت
الطائرات الحربية فى قصف الشعب الاعزل ، ورغم ذلك ، وفى غمرة
قصيره ببتت الثورة اهدامها فى كل نواحي القطر ، واخذت تزداد عنفا
يوما بعد يوم . فقد امتدت حوادث الصدام من ابريل الى اغسطس
ونجددت من أكتوبر حتى بسمبر ، وبلغت خسائر المصريين نحو ٣٠٠٠
قتيل و ١٦٠٠ جريح ، كما حكم على ٣٧٠٠ بأحكام مختلفة .

John Marlowe, op. cit., p. 235.

(١)

(٢) د . أحمد عبد الرحيم عطفي - المصدر السابق ص ١١١ - ١١٢

وفي تلك الاثناء انزعج المستر لريد جورج رئيس الوزارة البريطانية للأخبار القادة من مصر ، فعين الجنرال السير ادموند اللنبى مندوباً سادساً خاصاً بدلاً من السير ريجنالد وبنجت ، فوصل الى مصر في ٢٥ مارس مع لجنة للسيطرة على جميع الشؤون الحربية والمندوبة ، ولاتخاذ جميع التدابير التي يعتبرها ضرورية ومناسبة لاقرار القانون والنظام والاشراف على جميع الشؤون التي تتطلبها ضرورة ابقاء الحماية البريطانية في مصر (١) .

وفي ٧ ابريل اعلن المندوب السامي الجديد في تصريح له ان سعد زغلول وزملاءه سوف يفرج عنهم من معتقلهم .^١ بالطله ، وسوف يسمح لهم أيضا بالتقدم بمطالبهم أمام أية جهة يريدونها (٢) .

وهكذا سافر وفد برئاسة سعد الى باريس لمحاولة التأثير على الدول الاعضاء في مؤتمر الصلح ، الا ان الوفد فوجئ بمجرد وصوله الى باريس باعتراف الولايات المتحدة والمانيا بالحماية البريطانية على مصر . ولذلك وجد زعماء الوفد لدى وصولهم الى باريس جميع الابواب مغلقة في وجوههم خاصة بعد أن اعترف الرئيس الامريكي ويلسون - الذي كان قد اعلن مبادئه الاربعة عشرة وضمنها حق تقرير المصير - بالحماية البريطانية على مصر (١) . ولذلك اقتضت مهمة الوفد عند حد الدعاية لقضية مصر في محيط كان كل من فيه مشغولا بمشاكله الخاصة ، وقد ذكر سعد زغلول في برقية الى عبد الرحمن فهمي - رئيس اللجنة التي كانت قد تألفت في القاهرة لجمع التبرعات لتغطية نفقات الوفد في باريس ، ولجمع معلومات عن الموقف في مصر وارسالها الى الوفد ليستخدمها في الدعاية للقضية المصرية - يقول فيها : « منذ وصولنا الى باريس وجدنا جميع الابواب موصدة في وجوهنا - كل الجهود والمساعى لم تؤد الى نتيجة » .

John Marlowe, op. cit., p. 235

(١)

(٢) د . جاد طه - الصراع الاستعماري ص ٩٠ .

John Marlowe, op. cit., pp. 236-237.

(٣)

وكان على الوفد أن بطرق الأبواب الأخرى غير الموصدة ، كالمجالس والهيئات العامة والجرائد والرأى العام ، كما ظل الوفد يعلق الآمال على موقف برلمانات دول الحلفاء لاسيما الكونجرس الأمريكى بسبب موقفه المعارض بصفة عامة لمعاهدة فرساي ، ولكن كان من المؤكد أن الأمل فى الموقف الدولى قد انقطع تماماً ، وأن المسألة المصرية ينبغي أن تنحل فى أرض مصر وحدها .

ولم يكن يقلق الانجليز وجود الوفد فى باريس نتيجة للأسباب السابقة ، وخاصة بعد أن ضمنوا اعتراف معظم الدول بحمايتهم على مصر ، وانما كان مصدر قلقهم الوحدة الوطنية وكيفية ضرب هذه الوحدة وتشقيتها

ولما قلت مظاهر العنف التى اتسمت بها الثورة فور قيامها ، رأت انجلترا أن الوقت قد حان لتحقيق الشرط الثانى من التعليمات التى خلف اللبى بتنفيذها أى « استمرار الحماية على أساس وطيد مشروع » ولكى يتسنى لها ذلك قررت أن تحقق أسباب سخط المصريين ، فرأت ارسال بعثة يرأسها اللورد ألفرد ملنر وزير المستعمرات للتحقيق فى أسباب الاضطرابات التى نشبت ، وأن تقدم تقريراً عن حالة مصر وعن شكل القانون النظامى الذى يعد - تحت الحماية - خير دستور لقرية أسباب السلام والنس والرخاء فيها ، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيعاً دائماً التقدم والرقى ، ولحماية مصالح الأجانب .

وفى ١٤ نوفمبر ، نشرت دار الحماية بلاغاً رسمياً أعلنت فيه قرب قدوم لجنة ملنر ، وحددت مهمتها بأنها اقتراح النظام السياسى الذى يلائم مصر تحت الحماية ، نرد الحزب الوطنى على ذلك بمبدئه المشهور « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » وأعلن تمسكه بالاستقلال التام .

وعلى أثر صدور بلاغ دار الحماية ، قامت المظاهرات فى القاهرة ، وما لبثت أن عمت أحياء المدينة هاتفة بالاستقلال وبسقوط لجنة ملنر ، وما لبثت المظاهرات أن عمت أرجاء القطر من جديد متسمة بطابع العنف الذى اتسمت به الثورة منذ بدايتها . مما أدى الى ازدياد

عدد الضحايا •

ووصلت لجنة ملنر في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩ الى برز سعيد ، ثم انتقلت بقطار خاص الى القاهرة يتقدمه قطار كشف لحراسته ، كما تحرسه أيضا خمس طائرات حربية • وكان اجماع الشعب بكل طوائفه وطبقاته رائعا في مقاطعة هذه اللجنة • ولم تجد محاولاتها فتىلا للتحدث الى المصريين أو الاتصال بهم أو حتى بقيادة الراى من الرسميين الذين وجدوا لانفسهم مخرجا من الاتصال باللجنة بحجة ان سبيل الاتصال الوحيد بالمصريين هو عن طريق وفد مصر برياسة سعد زغلول والمقيم في باريس ، ومن المستحيل أن يكون هناك اتصال ما بأية هيئة أخرى عداه • ونتيجة لهذه المقاطعة أبحرت اللجنة الى انجلترا في مارس سنة ١٩٢٠ ، وهكذا عاد ملنر الى انجلترا وهو يؤمن بأن لا سبيل للتعلم وبحث المسألة المصرية الا مع الوفد المصرى ، وان لم يشأ أن يدلى برأيه علنا وهو في مصر حتى لا ينقص من هيبة أو كبرياء الامبراطورية في النزول على رغبة المصريين (١) •

وفي محاولة ضرب الوحدة الوطنية ، عمد اللورد اللنبى الى تكليف احد المسيحيين المصريين بتأليف الوزارة في تلك اللحظات التى اجمعت الأمة رايا فيها على مقاطعة لجنة ملنر ، ومصد الانجليز من ذلك ضرب الحركة في اقوى مراكزها ألا وهى وحدة الأمة ، تلك الوحدة التى كانت من اروغ مظاهر ثورة سنة ١٩١٩ ، ورد المصريون على ذلك بأن عينوا احد المسيحيين رئيسا بالنيابة للجنة التى كانت تتولى تنظيم الحركة الوطنية • وفي رسالة من عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٩ جاء فيها : « لقد أراد الانجليز باسناد مركز الرئاسة الى يوسف وهبه باشا معللين النفس أن يكون هذا سببا من اسباب فتور الحائث بين عنصرى الأمة الأصليين ، ولذلك اجمعنا رابعا على اختيار فبطى تسند اليه مركز الريكيل ليترأس اللجنة

(١) عدد الرحمن الرفعى - ثورة سنة ١٩١٩ ج ٢ ص ٩٦ •

رادين بذلك كيد المتسلحين الى نحرهم* ولنثبت ليم ان هذه الاسفاسف أصبحت بعبدة عن ائكارنا ، وان مبادئنا وطلباتنا القومية لا يمكن ان يقف امامها اى عائق ، كما اسرع قادة الحركة الوطنية باتخاذ الكنيسة المرقسية مركزا من مراكز الثورة .

وفشلت مناورات الانجليز في وضع يوسف وعنه في الوزارة في تحقيق آمالهم ، كما فشلت مناورتهم ايضا في تأليف حرب جديد مهمته مقابله لجنة ملنر يتألف من بعض المرتبطين بهم والمعادين للحركة الوطنية .

وما ان وصل ملنر الى بلاده حتى اتصل بالوفد المصرى في باريس وابلغه رغبته في مفاوضاته دون قيد او شرط . وكان سعد زغلول هو الشخص الوحيد في مصر الذى يستطيع الاتصال باللجنة دون ان يعتبر خائنا .

واذا كانت لجنة ملنر قد فشلت في القاهرة ، فان فشل الوفد المصرى في باريس اضطره الى قبول مفاوضاتها بعد عودتها الى لندن (١)

* قام الوفد اذا بتلبية دعوة ملنر لاجراء المفاوضات ، وخلال مجرى المفاوضات اعلن سعد انه غير قادر على الموافقة على اية مقترحات دون استشارة الراى العام في مصر ، وبناء على ذلك وضعت مذكرة تحقوى على رؤوس الموضوعات التى سنكون بريطانيا مسنعة للمفاوضة على اساسها من اجل عقد معاهدة . وعندئذ غادر لندن اربعة من أعضاء الوفد الى مصر ومعهم المذكرة لعرضها على الراى العام الوطنى . وكان من المتفق عليه ان تنص المعاهدة المرجوة على النقاط الآتية :

١ - حق مصر في ان يكون لها تمثيل سياسى في البلاد الأجنبية .

٢ - حق انجلترا في ان تبقى قوات على الاراضى المصرية .

- ٣ - موافقة انجلترا على اختبار مستشار مالي .
- ٤ - موافقة انجلترا على اختبار مستشار قضائي .
- ٥ - حق انجلترا في التدخل لحماية الاجانب من تطبيق القوانين التي كانت الامتيازات الاجنبية تحمى موافقة الاحزاب عليها .
- ٦ - ان يكون لمنزل انجلترا مركز خاص في البلاد .
- ٧ - موافقة انجلترا على انتهاء خدمات الموظفين الانجليز والاجانب خلال عامين من تطبيق المعاهدة (١) .

ارسل سعد مشروع الاتفاق الى الأمة كما ذكرنا ، كما ارسل بياناً ذكر فيه انه مع اعتقاده ان المشروع غير واف بالمطالب المصرية الا انه « يشتمل على مزايا لا يستهان بها » وان زملاءه في المفاوضات لم يشاءوا رفضه على اعتبار ان الظروف الدولية قد تغيرت ، وأن مصر لم يشاءوا رفضه على اعتبار ان الظروف الدولية قد تغيرت ، وأن مصر على الهيئات اصر الحزب الوطني على رفضه رفضاً تاماً ، ولكن الاتجاه العام كان اهيل الى قبوله بعد تعديله على أساس « تحفظات » تحد من تدخل انجلترا في شئون مصر بعد عقد المعاهدة ، ويلغى كل ما تشتمل عليه من تقييد استقلال مصر بمجرد زوال الاسباب الداعية الى ذلك .

ورفضت لجنة ملنر هذه التعديلات على اعتبار انها نسخ لباب المفاوضات من جديد وتمسك الوفد بعدم الدخول في المفاوضات الا على أساس التحفظات التي أبدتها الأمة ، لأن المفاوضين المصريين شاعوا ألا ينتحروا على تعبير سعد نفسه ، وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد . وعاد اعضاء الوفد الى باريس حيث لم تلبث ان نسبت بينهم الخلافات التي تطورت الى ما لا تحمد عقباه وترك انطباعاتها السيئة على الحياة السياسية المصرية .

على أن الحكومة الانجليزية لم تشأ أن تتوقف المفاوضات عند الحد الذي انقضت اليه ومن ثم طلبت من المندوب السامي في مصر في يناير سنة ١٩٢١ أن يبذل جوده لارسال وفد مصرى الى لندن المفترضه حول شروط المعاهدة ، فأجاب اللورد اللبى أنه من الصعب تكوين وفد دون تصريح خاص عن نوايا الحكومة البريطانية من أن الحماية يجب أن تحل محلها معاهدة تحالف . وفى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١ ابُلغت الحكومة البريطانية السلطان فؤاد برغبتها في تبادل الآراء حول اقتراحات ملفر مع وفد يعينه السلطان للوصول الى استبدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الانجليزية ، وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الاجنبية ، وتطابق الامانى المشروعة لمصر والشعب المصرى . وفى منتصف مارس عرضت الوزارة على عدلى فقبلها على أن يكون هدفه المباشر استئناف المفاوضات .

وبتشكيل وزارة عدلى بدأ الانقسام في صفوف المصريين ، وهكذا ابتعدت الحركة القومية عن اهدافها ، ودخلت المسألة المصرية في غمار المنازعات والخصومات الشخصية . وثار الخلاف بين سعد وعدلى على رئاسة وفد المفاوضات ، وظلت معركة المهاترة محتدمة بين الوزارة وسعد قرابة شهرين ، انقسمت الامة أثناءهما الى سعديين وعدليين ، ولما كان سعد اقرب الى قلوب الجماهير ، بينما عدلى وزملاؤه تفصل بينهم وبين الشعب حواجز عدة فقد كسب سعد الجولة وحررت اليه قلوب عامة المصريين ، ولكن يعاب عليه اسرافه في الخصومة ، ولما كان هو معبود الجماهير وشيخ الساسة المصريين لجيل كامل ، فبإمكاننا أن نحمله مسئولية قدر كبير مما شاب السياسة المصرية على يديه من اسفاف كانت له آثاره الوخيمة على الحركة الوطنية .

وأخطأ عدلى في الاخر في السفر مع وفد مفاوضات الى لندن في هذا الجو المشحون بالخلاف ، وتمادى سعد في خصومته ، فأرسل مكرم عبيد وحامد محمود الى انجلترا لنشر الدعاية في الصحف الانجليزية ضد المفاوضات المصريين ، وتزويد أعضاء البرلمان الانجليزى بمعلومات تحريج مركز عدلى بقصد اثارتها في المناقشات البرلمانية . ثم لم يلبث

سعد أن دعا أعضاء البرلمان الانجليزى من العمال للحضور الى مصر والنزول في ضيافته حتى يتأكدوا من التفاف الشعب حوله (١) .

وكان لا بد من فشل مفاوضات عدلى - كيرزون في هذا الظروف ، فقد استغل الانجليز الخلاف الناشب بين سعد وعدلى واستنظروا في شروطهم . وكان من الطبيعى أن تنقسم الامة الى سعديين وعدليين ، ولم يتردد سعد في أن يصف عدلى وزملاءه من أعضاء التفاوض بأنهم « برادع الانجليز » وترددت الهتافات بأن الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى .

وقد استقال عدلى بعد رجوعه من لندن ، وفي ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ اعتقل سعد زغلول وبعض صحبه ونفوا الى عدن ومنها الى سيشل . وبقيت البلاد بدون وزارة قرابة شهرين حتى وافق عبد الخالق ثروت على قبول الوزارة بشرط أن تعترف بريطانيا بمصر كدولة مستقلة (٢) وأنشأ برلمان ، وأن يستبدل بالموظفين الاجانب موظفون مصريون ورفع الاحكام العرفية والدخول في مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان لحل مسألة السودان .

أصبح الطريق مفتوحا حينذاك امام الحكومة البريطانية لاعلان انهاء الحماية والتمهيد للحكم الدستورى طبقا للتعهدات المعطاة لعبد الخالق ثروت .

وبعد نفى سعد زغلول ، كانت أمام المندوب السامى مشكلة كبرى تقوم على اقناع الحكومة البريطانية بتقبل جميع النتائج السابقة ، وبعد تبادل البرقيات - التى فى احدها عرض اللنبى استقالته - غادر المندوب السامى مصر الى انجلترا لتوضيح الموقف شخصيا لحكومته . وفى آخر فبراير عاد اللنبى الى مصر بعد أن استخلص من الحكومة البريطانية تصريحاً وضع نهاية رسمية للحماية وجاء فى تصريح ٢٨ فبراير سنة

(١) لمزيد من التفاصيل انظر د . احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١٢٤ - ١٣١ .

(٢) John Marlowe, op. cit., p. 246.

١٩٢٢ : « حيث أن حكومة جلالة الملك وطبقا لنواياها التي أعلنها ترغبا غورا في الاعتراف بمصر دولة مستقلة - ذات سيادة وحيث أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك ومصر أهمية عظيمة للإمبراطورية - لذلك تعلن الجهاد الآتية :

١ - انتهاء الحماية البريطانية على مصر ، وتعلن مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ - إنهاء الأحكام العرفية التي أعلنت في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ .

٣ - وإلى أن يحين الوقت الذي يتسنى فيه إبرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية في الأمور الآتية بيانها بالمفاوضات الودية بين الفريقين تحتفظ حكومة جلالة الملك بتولى هذه الأمور بصورة مطلقة :

(أ) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر .

(ب) الدفاع عن مصر ضد أي عدوان أجنبي أو التدخل المباشر وغير المباشر .

(ج) حماية المصالح الأجنبية وحماية الاقليات .

(د) السودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقيات بظل الجبال فيما يتعلق بهذه الأمور على ا هو عليه الآن ، .

وآلف عبد الخالق وزارقه في أول مارس سنة ١٩٢٢ ، وبعد ذلك تألفت لجنة برياسة حسين رشدي لوضع الدستور ، ونتيجة للخلاف بين ثروت من ناحية والقصر والانجليز من ناحية أخرى قدم رئيس الوزراء استقالته وخلفه نسيم في رئاسة الوزارة . وفي أبريل عام ١٩٢٣ صدر الأمر الملكي بالدستور في عيد وزارة بحبي إبراهيم بعد أن أقرت الحكومة البريطانية عن سعد وصحبه (١) .

وهكذا وعلى حد قول الرئيس جمال عبد الناصر « ٠٠٠ ضاعت ثورة سنة ١٩١٩ ولم تسد طمع ان تحقق النتائج التي كان يجب ان تحققها ، الصفوف التي تراصت في سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها افرادا وطبقات ، وكانت النتيجة فشلا كبيرا ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة او بصنائع الاحتلال المقتعة التي كان بتزعمها في ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ولم يحصد الشعب الا الشكوك في نفسه ، والكراهية والبغضاء والاحقاد فيما بين افراده وطبقاته ، وشحب الامل الذي كان ينفطر ان تحققه ثورة ١٩١٩ (١) . ان ثورة سنة ١٩١٩ ألتى ولدت لجلاء المستعمرين عن أرض الوطن ترضى بدستير ١٩٢٣ بديلا عن اهدافها الكبرى .

تقييم ثورة ١٩١٩ :

اذا كانت ثورة ١٩١٩ قد وقفت عند ذلك الحد من اصدار تصريح ٢٨ فبراير او وضع دستور سلكي للبلاد ، فانه من الانصاف ان نعرض لبعض النواحي التي تميزت بها تلك الثورة وهي :

١ - كانت ثورة ١٩١٩ اول حركة ثورية في مصر تتخذ طابعا عثيفا منذ ثورة عرابي ، فقد تميزت الحركة الوطنية منذ الاحتلال حتى قيام ثورة ١٩١٩ باقتصرها على الوسائل السلمية التي شملت برامج الاحزاب السياسية او عقد الاجتماعات والقاء الخطب وكتابة المجلات او الدعاية للقضية الوطنية في اوروبا ، ولكن لجأ المصريون في ثورة ١٩١٩ الى أسلوب جديد تميز بالعنف والثورة لتحقيق الاهداف .

٢ - اجبرت الثورة بريطانيا على ان تسلم للمصريين بحق المفاوضة معها راسا بينما كانت قبل ذلك لا تأبه بالمصريين ، وتقرر وضعها في مصر عن طريق التفاوض مع الدول الاجنبية .

(١) جمال عبد الناصر - فلسفة الثورة ص ٢٨ .

٣ - كانت الثورة سبباً في انتقاء الشعب بكل طوائفه وطبقاته على هدف واحد ، زمن ثم كانت الثورة سبيلاً الى الوحدة الوطنية .

٤ - تميزت ثورة ١٩١٩ بأنها مست بعض الفواحي الاجتماعية فقد خرجت المرأة المصرية في مظاہرات ١٩١٩ ، ١٩٢٠ مما دفع بقضية تحرير المرأة دفعة قوية الى الامام وبدأت تدخل في مجال الحياة العامة .

٥ - أسفرت ثورة ١٩١٩ من الناحية الاقتصادية عن أهم حدث اقتصادي في تاريخ مصر حينذاك وهو انشاء بنك مصر ، وقد تأسس البنك بأسهم اسمية لا يحملها سوى المصريين ، وكان ضربة للاحتكارات الاجنبية .

٦ - لقد انارت ثورة ١٩١٩ فما يلي مصر من البلاد العربية ، فقد كانت اول ثورة تقوم في بلد عربي ضد الاستعمار الاجنبي هذا على الرغم من انه لم يكن لتلك الثورة برنامج واضح نحو التعاون مع الحركات الثورية في غير مصر من البلاد العربية .

٧ - ساعدت ثورة ١٩١٩ على نمو الطاقة العاملة ، فقد تألفت بعد الثورة الكثير من النقابات العمالية التي أسهمت به بدور كبير في حركات الكفاح الوطني .

هذه هي الجوانب التي للثورة ، اما ما نأخذه على ثورة ١٩١٩ ،

هي انما بدأت والبلاد متماسكة الصفوف ، ثم لم يلدث ان دب الشقاق وتكونت في البلاد احزاب عديدة لا برامج ولا اهداف لها ، وقد تكونت هذه الاحزاب نتيجة لنازعات شخصية ، فأصبحت عبارة عن جماعات ملتفة حول أشخاص لاهم لهم سوى الوصول الى الحكم بأية وسيلة .

٢ - لقد كان من نتائج ثورة سنة ١٩١٩ حقيقة اصدار دستور ١٩٢٣ ، الا ان هذا الدستور كان دستوراً شكلياً ، وليست العبرة باصدار الدساتير ، ولكن بالروح التي تنفذ بها ، فلم يحدث لاي برلمان أن أكمل دورته البرلمانية ، وعلى الرغم من ان صدير الدستور كان يعتبر خطوة تقدمية

هامة ، الا ان الشعب لم يستفد منه شيئاً ، بل استفاد منه الانجليز ، لانهم خرجوا من المعركة التي كانت بينهم وبين الشعب مباشرة ، وبدلوا من الخلف يراقبون مجرى الامور ، اى انهم بمعنى آخر تحولوا من أسلوب الحكم المباشر الى أسلوب الحكم غير المباشر . كما استفادت العناصر الجديدة التي كانت تقطع الى الحكم والى كراسى النيابة فى مجالس النواب والشيوخ أو مناصب الوزارة ، كما استفاد الافطاع بتثبيت حقوق الملكية الخاصة ، واعطائها قداسة دستورية تمكنها من ممارسة الاستغلال ، والذي لم يستفد من هذا الدستور هو الشعب الذى لم يتحقق له شئ بالرغم من أنه هو صاحب الثورة وصانعها . ومنذ اصدار الدستور سنة ١٩٢٣ حتى عام ١٩٥٢ لم يتح للنسب ان يختار حكومة شعبية منتخبة الا لفترات قصيرة لا تتجاوز فى مجموعها ثمانى سنوات ، أما المدة الباقية فكانت تحكمه خلالها احزاب الاقلية عن طريق تعطيل الدستور أو حتى الغائه أو تزيف الانتخابات .

الفصل الثامن

تطور مصر ١٩٢٢-١٩٥٢

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

ظلت مصر رغم اندلاع ثورة ١٩١٩ تحت الحماية البريطانية ، ورغم حوادث العنف والاغتيال والمظاهرات ومقاطعة البضائع البريطانية ، ورغم الانقسات داخل حزب الوفد نفسه ، فقد ظل الاحتلال والقصر الملكي هما المسيطرين على الموقف لقوة الوسائل التي يمتلكها الطرفان في ذلك الوقت . فالقدرة على القمع بالنسبة للاحتلال والقصر كانت أكثر فاعلية من حركة الجماهير .

وضع نهاية عام ١٩٢١ ظلت مصر بلا وزارة أكثر من شهرين الى أن فوَّض عبد الخالق ثروت في مهمة تأليفها ، فاشتراط لقبولها عدة شروط .

لقد كان صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ثمرة للاتصالات التي أجراها ثروت وزميله صدقي مع السلطات البريطانية في مصر ، وإن كان الأساس في ذلك يعود الى فكرة طرحها عدلي على كيرزون في الجلسات الأخيرة من مفاوضاتهما وهي أن تسلم إنجلترا لمصر بالحقوق التي أبدت استعدادها لأن تسلم لها بها ، وعلى أن يعلق ما بقي من خلاف بين الدولتين لمفاوضات مماثلة ، على أن عدلي وإن كان لم يتلق من كيرزون ما يفيد قبولها ، فإنه قام بإبلاغها الى السلطان وزميله ثروت بعد رجوعه مصر ، فكان أن اقنع بها الأخير اللبى وبأنها وحدما سخرة النجاة لمصر وإنجلترا من موقف يتعذر الحكم بما يتمخض عنه من نتائج ، إذا لم يعالج بالحكمة والسياسة وبالتسامح من جانب بريطانيا (١) .

(١) محمد حسن هبكل : مذكرات في السياسة المصرية ، ج ١ ص

وليس هناك من شك في أن ما ساعد على اقتناع اللنبي والمستشارين الانجليز في الحكومة المصرية هو ما لحسوه من أعراض المستورزين عن تولي الوزارة الجديدة تحقيقا لما طالبتهم به الأمة ، مما جعل البلاد تبقى بغير وزارة مدة تزيد على شهرين ، حكمت فيها بريطانيا حكما مباشرا تحت ظل الأحكام العرفية ، وتحملت بالتالي المسئولية عن أعمال رجال الوفد وضربات الفدائيين (٢١) . فضلا عن ذلك نرى أن تعرض حياة الموظفين الانجليز في مصر للخطر كان في حد ذاته يضعف مركز بريطانيا في مصر أمام الدول ، اذ يدل على عجزها عن حماية أرواح رعاياها في مصر ، فما بال يكون الامر فيما يتعلق بأرواح الأجانب (٢) ، يضاف الى ذلك أن السلطات البريطانية في مصر ، قد رأت أن الأعراض عن الوزارة بعد استقالة عدلي بصفتها الوطنيين قد امتد ليشمل بعض الزعامات المعتدلة ، فضلا عن رفض عدلي الاستمرار في الوزارة بعد فشله في مفاوضاته مع كيرزون . أعرض ثروت في بادئ الامر عن قبول تشكيل الوزارة بعد ان كانت السلطات البريطانية قد نفت سعد زغلول ، ليخبر له السبيل لتحقيق هذه الغاية ، اذ يذكر ابراهيم الهلباوي في ذلك أن الانجليز عد نفوا سعد زغلول مرة ثانية الى جزائر سيشل مع ثمانية من أصحابه ، ثم نقلوه وحده الى جبل طارق ، ليسعى صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا لان يشكل وزارة ، فرفض بقاتا وبعد الحاح متكرر ، وتوالى الالبام والاسباب والاشهر عرض شروطا لقبوله الوزارة (٣) . على أنه ما نراه هنا أنه اذا كان ثروت قد رفض في بادئ الامر عرض تشكيل الوزارة تحت وطأة ذلك الضغط الشعبي المناوئ لتشكيل وزارة ، إلا أن هذا الالباء لم يطل به طويلا ، على نحو ما يستفاد من الذي ذكره الهلباوي ، بل ان الامر كان معذرا لتولي الوزارة خلفا لعدلي فاذا كان الاخير قد قدم استقالته في ٨ ديسمبر . فقد كان الراح ان خلفه ثروت ، وقد يتأكد ذلك من تلك البرقبة التي بعث بها اللنبي الى كيرزون يشير فيها الى حديث دار له مع عدلي في ٧ ديسمبر ١٩٢١ بخصوص اعتزام الاخير تقديم استقالته الى السلطان ، وفي اليوم التالي

(١) حسين مؤنس : دراسات في ثورة ١٩١٩ مسلسل افراء ع ٤١٨ -
دار المعارف ١٩٧٦ ص ٢٧٦ .
(٢) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .
(٣) مذكرات ابراهيم الهلباوي ، ص ٤٧٠ .

لهذا الحديث عرض السلطان في هذه الحالة رئاسة الوزارة على ثروت ، والذي يقول عنه أنه كان يعاني من صعوبة من حيث البرنامج الذي يستطيع أن يتولى هذا المنصب ويؤلف الوزارة (١) . أى أن الاستعداد - كما هو واضح - كان موجودا لدى ثروت ، ولكن كان البرنامج الذي يمكنه من تولي المنصب ، هو وجه الصعوبة الوحيد ، ولعل مسألة القوات العسكرية البريطانية ، ووضع البريطانيين والأجانب في مصر ، كانت أهم ما يواجهه من عقبات في سبيل تقديم برنامج يقوم من خلاله بتشكيل الوزارة ، وهو ما قد يتبين مما نذكره جريدة الاجيبسيان مايل في برقية لمراسل التيمس بالقاهرة والتي يقول فيها « ان ثروت واصدقاءه لا يطلبون الآن تغييرا في الموقف العسكرى ، أو في الوضع الحالى للبريطانيين والأجانب في مصر ، لأنهم يعلمون أنه ليس في استطاعتهم اعطاء ضمانات يمكن أن ينفذها الشعب المصرى ، اذ أن سعد زغلول باشا نفسه في عام ١٩٢٠ حينما تحدث من منطلق الشرعية التى كانت له ، شعر بأنه غير متيقن من امكان قبول الشعب المصرى مقترحات لسورد ملنر » (٢) ، على أن مشروع كيرزون كما وضع كان على ما يبدو أهم تلك العقبات ، اذ صرح ثروت لوفد من الطلبة بأنه لن يوافق على الاطلاق على مشروع كيرزون كما هو قائم ، ولقد رأت جريدة الاجيبسيان جازيت انى وردت ذلك بأنه كان يتطلع الى ضمان تعديلات مرضية وتضيف بأنه نبعثا للشائعات المستقاة من دوائر سياسية وطنية ، فانه يود الغاء الحماية فعلا واقامة برلمان للبلاد (٣) .

وعلى أية حال فان الامر لم يطل بثروت أمام ما كان يواجهه من صعوبات فيما يتعلق ببرنامج وزارته ، اذ لم يلبث أن عرض عليه اللبى في ١١ ديسمبر البرنامج الذى صرح باستعداده لتولى الوزارة بناء عليه . ولقد كانت النقطة الجوهرية فيما يقترح من الخطة السياسية كما يشير اليها اللبى في برقية بعث بها الى كيرزون كالتالى :

(١) 407 / 191, No. Allenby to Curzon, December 7, 1921. Tel. No. 659, p. 80

(٢) The Egyptian Mail, No. 2870, February 20 th. 1922, p. 7.

(٣) The Egyptian Gazette 42nd Year, No. 120274, December 19, 1921, p.3

١ - الاقتصار من مذكرة ١٠ نوفمبر التي سلّمت الى الوفد المصرى الرسمى على تعهد الحكومة البريطانية بانهاء الحماية والاعتراف بمصر كدولة ذات سيادة ، ومع عدم استطاعة قبول المذكرة أو الاشارة على البلاد بقبولها ، فسيكون هم الوزارة معتمدة فى ذلك على موقف البلاد - أن تثبت لبريطانيا العظمى أن لا حاجة بها الى زيادة الضمانات ، أو كثرتها ، اذ كان حسن نية مصر ومصلحتها التى تتطلب احترام التعهدات المقدمة ، هى خير الضمانات للمصالح البريطانية والاجنبية الاخرى .

٢ - ولهذا الغرض تعتمد الوزارة - ليس فقط على عدل القضية الوطنية - بل كذلك على روح الانصاف بين الامم البريطانية ، وعلى التقدير العادل للمصالح المتبادلة بين البلدين .

٣ - والوزارة مقتنعة بأنه لن يكون ثمة عقبة فى المستقبل القريب فى سبيل اعادة النظام العادى فى مصر ، الذى يسمح بدفع دستور البلاد ، بضمن التعاون الجدى والفعال بين الحكومة وممثلى البلاد المنتخبين .

وتنوى الوزارة بفضل تاييد عظمتكم أن تضع مشروعاً للاصلاح الدستورى ، لكى تعتمد فى مهمتها السياسية على تمثيل وطنى صحيح ، وتقوم سلسلة من الاصطلاحات الضرورية .

٤ - ترى الوزارة أنه قد حان الوقت لاعادة وزارة الخارجية التى عطلتها ظروف الحرب مؤقتاً .

٥ - وأخيراً ، لما كانت الوزارة تدرك التبعية المترتبة على مهمتها ، فستقف نفسها على حمل ذلك العبء وإدارة شئون البلاد وفق ما تقتضيه المصالح الوطنية وحدها .

٦ - واذا كانت الوزارة تعلم من عظمتكم النيات التى تنطوون عندها لخير البلاد ، فهى لا تترقب فى أنها ستلقى من عظمتكم التأييد فى انفاذ هذا البرنامج وهى تعمل كذلك على ثقة البلاد فى مهمة كهذه تدرك كل صعوباتها (١)

(١) F.O. 407/191, No. 45, Allenby to Curzon, December 12, Tel. No. 665, pp. 93,94.

وإذا كان ثروت قد جعل الأساس الأول لهذا البرنامج إلغاء الحماية وإعلان الاستقلال ، إلا أنه وعلى الرغم من أن مشروع كيرزون قد سمح بهما ، قد حاول أن يجعل من ذلك المطلب أمراً مقبولاً للحكومة البريطانية ، وهو ما يتبين مما يذكره اللنبى عن النقطة الأولى من برنامجيه من أنه « يرجو أن تجد حكومة جلالة الملك طريقة لإلغاء الحماية في المستقبل القريب ، ون كان لا ينتظر أن تفعل هذا حالا ، . وكذلك فيما يتعلق بالنقطة الرابعة لم يبد أى اعتراض على تعيين من يخلف المستر كريج في وزارة الخارجية ، ولا على أن تكون العلاقات بين الحكومة المصرية وممثل حكومة جلالة الملك على النحو الذى كانت عليه بينها وبين المعتمدين البريطانيين قبل الحرب (١) .

ولقد كان ثروت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة - وعلى نحو ما يرى أحد الأقوال - على استعداد لقبول ظل من الاستقلال ، وذلك بالعودة للوضع الذى كان سائداً في العلاقات الانجليزية المصرية المبكرة . ورأى أن في ذلك يكمن الخلاف الجوهرى بين رؤية سعد زغلول لاستقلال مصر ، كما تطورت بعد عام ١٩٢٠ ، وتلك التى كانت للمعتدلين ، كما مثلت من خلال ثروت ، إذ كان الأول يرغب في رؤية مصر حرة في إدارة شئونها الداخلية والخارجية ، بدون أى تدخل من بريطانيا (٢) . على أن ثروت كان يرى مع ذلك أن هناك ما يشوب برنامجيه إذ يذكر اللنبى أنه (ثروت) كان واثقاً من استطاعته تأليف وزارة على قاعدته ، ويصر على أن توافق عليه حكومة جلالة الملك مقدماً (٣) . فكان أن جاء رأى هذه الحكومة بالموافقة ، على أن كيرزون طلب إلى اللنبى - فيما يتعلق بالنقطة الأولى ، تفادياً من كل سوء تفاهم - ملاحظة أن الحكومة البريطانية لم تقدم تعهداً بإلغاء الحماية والاعتراف بمصر كدولة ذات سيادة ، وإنما عرضت فقط انتهاج هذا السبيل باعتبار ذلك جزءاً من مساومة رفضها الطرف الآخر (٤) . ولعل هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية في مسألة الحماية ، من عدم اتخاذ قرار فعال في شأن الغائها ، قد

(١) الكتاب الأبيض ، المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٢) Zayid, M., Egypt Struggle for Independence, p. 106.

(٣) الكتاب الأبيض ، المرجع السابق ، نفس الصفحات .

(٤) الكتاب الأبيض الانجليزى ، المصدر السابق ، ص ١٧ .

يُفسر فبولينا ما اقترحه عدلى من طريقة توصل الى الغاية المقصودة . من وراء مشروعهما ، دون ان تتعرض للمسئولية عنه ، ان لم تكن بأزيد منه (١) .
أنه لب يكن هناك ما يضرها من وراء انتهاجها هذا السبيل ، بل انها - وكما رأينا - كانت حريصة على اعفاء نفسها من أى تعهد يلزمها .

وعلى أى حال يمكننا القول أن ثروت قد مضى في اتصالاته من أجل تشكيل وزارة جديدة ، وكان الهدف الأساسى له هو أن يكسب لبلاده شروط معينة يحدد بها موقف السياسة البريطانية من القضية الوطنية تحديدا صريحا . وان كانت هذه الشروط قد نظر إليها من جانب متطرفى الوفد على أنها مساومة غادرة بين الاتجليز والسلطان وثروت باشا (٢) .

وكانت الشروط كالتالى :

أولا : عدم قبول مشروع كيرزون والمذكرة التفسيرية الملحقه .

ثانيا : تصريح الحكومة البريطانية بالغاء الحماية ، والاعتراف باستقلال مصر بداءة ذى بدء .

ثالثا : اعادة وزارة الخارجية وتمثيل خارجى من سفراء وقناصل .

رابعا : انشاء برلمان من هئئتين (مجلس نواب ومجلس شيوخ) تكون له السلطة العامة على أعمال الحكومة وتكون الحكومة مسئولة أمامه .

خامسا : اطلاق يد الحكومة بلا مشارك في جميع أعمال الحكومة .

سادسا : لا يكون للمستشارين في الوزارات الا رأى استشارى ، وأن يبيض ما للمستشار المالى من حق حضور جلسات مجلس الوزراء .

سابعا : حذف وظائف المستشارين ما عدا مستشار المالية ومستشار الحنابلة ، فانهما يغلان الى ما بعد ظهور نتيجة المفاوضات الجديدة .

(١) مذكرات سعد زغلول محفظة ٥ كراسى ٤٩ ، ص ٢٨٢١ - ٢٨٢٢ .

(٢) Richmond, Egypt, 1798- 1952, Her Advance towards.

a Modern identity, Great Britain, 1977, p. 186.

ثامنا : استبدال الموظفين الأجانب بموظفين مصريين وأخذ العدة من الآن لتعيين وكلاء مصريين للوزارات (المالية ، والصحة ، والزراعة ، والأشغال ، والمواصلات ، والخارجية) .

تاسعا : رفع الأحكام العسكرية ، والسعى من جانب الوزارة اعتمادا على حسن موقف الأمة ، في سحب كل ما اتخذ من الاجراءات بمقتضى الأحكام العرفية ، بما في ذلك فك اعتقال المعتقلين وإعادة المبعدين .

عاشرا : الدخول في مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان مع الحكومة الانجليزية بواسطة هيئة يعتمدها البرلمان ، للنظر فيما لا يتنافى مع استقلال البلاد ، من الضمانات لانجلترا والاجانب ولحل مسألة السودان ، بشرط ألا تكون هذه المفاوضات مقيدة بقيد أو شرط مما جاء في مشروع كيرزون ، ويكون القول الفصل في ذلك للأمة الممثلة ببرلمانها .

حادى عشر : يكون قبول هذه الشروط ثابتا بمقتضى وثائق مكتوبة من الحروف الانجليزية (١)

ولقد كان وضع ثروت لشروط لتأليف الوزارة ، واشتراط قبولها قبل أن يؤلفها كما يقول الرافعى ، سمة حميدة تدل على التقدم السياسى فى ولاية الحكم ، اذ كانت الوزارات فى عهد الاحتلال والحمايه بل وفى عهد الثورة تؤلف غالبا بغير برنامج ، لمجرد الرعبه فى تولي الحكم ، والتهافت على المناصب ، مما يجعل اشتراط ثروت أن يكون لوزارته برنامج يتقيد به ، ويضمن تحقيقه فى ذاته عمل محمود ، وهو الذى تمثل فيه بخطة عدلى ، اذ كان قد سبقه الى وضع برنامج لوزارته قبل أن يؤلفها (٢) . على أن أحد مصادرها يطالعنا بما يفيد أن شروط ثروت هى من وضع بريصانيا ، اذ يقول فى ذلك أن الانجليز قالو أنهم هم الذين استدرجوا العدلين ، الى هذه الشروط التى يؤلف أحدهم (ثروت) ، على أساسها الوزارة (٣) .

(١) الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ، ص ١ ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) المرجع السابق ، وللصفحة .

(٣) محمد صبيح : كناه شعب مصر فى القرنين التاسع عشر

والعشرين ، ص ٦٤٩ .

(م ٢٠ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

ويشير آخر بما يقترب من نفس المعنى حين يذكر أن الشروط التي اشترطها ثروت تكشف عن مدى استعداده للتعاون مع الخطة البريطانية ، وأنه بذلك عبر « عن اتجاهاته السياسية ، بما يمثل محور تعبير الرجعية » (١) كذلك رأت جريدة الأمة في صدد تلك الشروط أن جملتها تعطى لانجلترا ما يعطيها مشروع ملنر ومشروع كيرزون ، من القواعد التي تصحح مركزها في مصر (٢) . أما جريدة وادي النيل فقد لاحظت تأييد اللنبي للوزارة التي كان ثروت يشرع في تأليفها ، وأن هذا التأييد كان مبنيا على الاتفاق في الخطة والغرض ، وإن غرض اللورد هو اقامة التسوية على قاعدة مشروع ملنر (٣) . على أن جريدة الاهرام قد أطلت بنغمة مغايرة اذ قالت عن الشروط أنها شروط سياسي مصري محنك ، مخلص لبلاده يريد بالفعل أن يصل الى حل المسألة المصرية خلا مرضيا اذ عدتها أقل شروط يسكى اشتراطها للمحافظة على كرامة مصر من غير أى مساس بشرف بريطانيا العظمى وكرامتها (٤) .

وفي صدد شروطه ، نفى ثروت في حديث له مع أحد محرري جريدة الليبرتيه ما قيل عن ابقائه بعض عباراتها طي الكتمان ، والذي أيده بعدم وجود مصلحة له في ذلك . على أن ما أضافه يؤكد بالفعل صحة ما قيل ، وهو ما يتبين من قوله أن « كل رجل سياسي يدرك أن التزام الكتمان انما كان أمرا لازما لنجاح المحادثات ، التي كنت قائما بها ، ولقد كنت أعلم أن هذا الكتمان يفرض لشكوك بعض الناس ولحماقة آخرين ، ولكن رغبتى الخالصة في تحقيق أمانى بلادى جعلتني أعرض نفسي لتلك الضنون ، ولا أبالي بالمخاطر ، أم الآن فأننى أرى أنه قد حان الوقت لايقاف بنى وطبى على ثمار جهودى ولهم أن يحكموا بما يرون »

وعن سؤال للمحرر عن امكان التوفيق بين استقلال مصر البام وبني

(١) عبد العزيز رفاعى : ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٢) الأمة عدد ٥٧٠ ، في ٥ فبراير ١٩٢٢ ، ص ٣ .
(٣) وادي النيل ، عدد ٣٧٩٩ ، في ٣ فبراير ١٩٢٢ ، ص ٢ .
(٤) الاهرام : عدد ١٣٦٥٧ ، في ٣١ يناير ١٩٢٢ ، ص ١ .

إبقاء الاحتلال ، أحوال ثروت المحرر لرجال القانون (١) ، ولاحظ بما ينبغي أن الدور الذي تعينه البلاد لا يعدو أن يكون دور انتقال ، حتى تنص بنا المفاوضات إلى إبرام اتفاق ، ثم أضاف إلى ذلك قوله ، ولا أخالك نحن أن الاحتلال من الضمانات التي تطلبها بريطانيا العظمى للمحافظة على مصالحها ومصالح الأجانب . وقد رفضت صراحة أن ترتبط بأي التزام فيما يحتص بهذه الضمانات أو بالضمانات الأخرى . واسترطت أن مسألة الضمانات بحذافيرها تكون محلا للمفاوضات بين الحكومة المصرية وبين بريطانيا العظمى ، وأن تكون الكلمة الأخيرة في نتائج هذه المفاوضات للامة ولمثليها .

« وفوق هذا فأنتى لم أنرد في المجاهرة في كل الأحاديث الرسمية ، بأنه ليس من مصرى يسمح لنفسه أن يوقع اتفاقا يؤيد احتلال البلاد ، أنتى لما اشتترطت انشاء برلمان مصرى تنتخبه الامة ، أوضحت بصورة واضحة أن الغرض الذى أرى إليه هو أن يكون هذا البرلمان مستقلا تمام الاستقلال ، وأن تكون له الرقابة على الحكومة التي تكون مسئولة أمامه » . ومعنى هذا أن تكون حرية البرلمان في العمل مطلقة من كل قيد ، وأن لا يكون خاضعا لاي نفوذ اجنبى .

ثم أشار فيما يتعلق بمسألة الامتيازات إلى تضمنها مع المسائل التي تقنأولها المفاوضات المقبلة ، وقال عن المذكرة البريطانية : أما ما يقولون من أنه يلوح أن المذكرة البريطانية الأخيرة صورة لا تكاد تخفى عن مشروع كيرزون ، فما شأن هذه المذكرة إذا أجيببت شروطى ؟ : ، أن ما أطلبه صريح جلى ، ماذا سلمت وزارة الخارجية البريطانية فقد زال بذلك اثر المذكرة بطبيعة الحال » وعندى أن سمر اللورد اللنبى قد يؤثر في السياسة الانكليزية في مصر ، على ما أظن ، إذ أنه سافر إلى لندن مدعوا لابداء رأيه في الحالة الحاضرة في البلاد ، ويلوح لى مما نبينته من أحاديث محامه المندوب السامى ، أنه يؤيد شروطى ، بل هو في جانبى تماما ، ولكن لا يخفى

(١) أخذت جريدة الامة على ثروت ذلك وهو في طعة رجال القانون .
الامة . عدد ٥٧٤ ، في مبرابر ١٩٢٢ ، ص ٥ .

عليك أن الكلمة الأخيرة في هذا الشأن للندرة » (١) .

وعلى أى حال ، يمكننا القول أن ثروت كان مقتنعا تمام الاقتناع بشروطه ، ويرى فيها على ما بدا لنا السبيل الى الخروج من الازمة الوزاريه، اذ يذكر الهلباوى في مذكراته أنه : « قنع مستشارى الوزارات الست بمهارمه وحسن أساليبه السياسية ، وكانوا قد اتصلوا به » بأنه لا يمكن اخضاع مصر وسير الحكم فيها على ما يرام بغير اجابة هذه الشروط ، فكان أن بذل أولئك المستشارون جهدهم في اقناع اللورد اللنبى بصحة هذه السياسة التى يشير بها ثروت باشا ، وطلبوا اليه أن يكتب لوزارة الخارجية الانجليزية بقبولها . (٢) وحينما اقتنع اللنبى بذلك انراى كتب لوزارة الخارجية التى اثار الحاحه فى القبول استغرا بها (٣) .

على أن يفسر موقف اللنبى قول أحمد شفيق أنه لما رأى أن لا مناص له من الاعتماد على ثروت باشا دعمه وأيده (٤) ، هذا فى الوقت الذى كان يرى فى شروط ثروت أقل ترضية للأمة المصرية فى ثورتها على الحماية والاحتلال ، (٥) . وعلى أى حال انتهى الامر بالخارجية البريطانية الى الخروج من جمودها وأن كانت قد ظلت فى تردد ، اذ طلبت من اللنبى ومن معه أن يضعوا الصيغة التى تعلن بها بريطانيا تصريحا من جانبها ، يحتفظ بكافة مصالحها الجوهرية ، وتبيح لحكومة مصرية أن تقوم بعد أن يتحقق لمصر شئ من مطالبها ، ثم يبقى الباب مفتوحا للتفاهم على ما تبقى من مطالب ، وكان كل من ثروت وصديقى على اتصال باللورد اللنبى ومن معه ، فكانا « يعاونان فى وضع الصيغة التى تخرج بمصر وبانجلترا من مأزق لم يكن له غير هذا المخرج ، الا أن تلجا انحلترا للقوة المسلحة ، وتعود من جديد لتجربة الوزارات الادارية التى اخففت من قبل اخفاقا ذريعا » . على

(١) أحمد شفيق ، حوليات مصر السياسية ، تمهيد ٢ ، ص ٧٤٦ - ٧٤٩ .

(٢) مذكرات ابراهيم الهلباوى ، ص ٤٧١ .

(٣) المصدر السابق ، والصفحة .

(٤) أحمد شفيق ، المرجع السابق ، تمهيد ٣ ، ص ٧٠١ .

(٥) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٢ .

أن الخارجية البريطانية استمرت في ترددها بعد أن كان قد تم الاتفاق بين اللنبي والمستشارين البريطانيين من ناحية ، وثروت باشا وصدقائه السياسيين من ناحية أخرى « على صبغة التصريح الذي تعلنه بريطانيا » وهنا سافر اللنبي الى لندن وقال لمن كانوا في توديعه عند سفره : إذا لم أعد بالنتيجة التي اتفقتا عليها ، فلن أعود الى مصر ، (١) • ولقد صحب اللنبي في سفره الى لندن والذي كان في ٣ فبراير ١٩٢٢ كل من مستشاري الداخلية والحقائية ، جنرال كلبتون وسير شلدون اموس ، وكانا يتفقان معه في الرأي بقبول شروط ثروت ، ثم كان أن قابل اللنبي في لندن المستر نوبد جورج رئيس الوزارة البريطانية ، واللورد كرزون وزير خارجيتها ، وقد تم تباحثهم في الاتجاه الذي تتخذه السياسة البريطانية تجاه مصر ، وكان أن انتهت مباحثاتهم الى قبول شروط ثروت وإعلان التصريح المعروف في ٢٨ فبراير ١٩٢٢ (٢) على أن مهمة اللنبي في هذا السبيل لم تكن على ما بدا لنا بالمهمة السهلة ، وهو ما يتأكد لنا من قول محمد حسين هبكل أنه أي اللنبي قد بقي « أياما في العاصمة البريطانية » استطاع في أثنائها أن يقنع وزارة الخارجية البريطانية ، (٣) ولعل ما ساعد اللنبي في مهمته ما كانت تخشاه لندن من مقاطعة التجارة البريطانية ، فيذكر الرافعي « أن التهديد بمقاطعة التجارة البريطانية ، كان له « الأثر الأكبر في صدور هذا التصريح ، لأن هذا أزعج أقطاب التجارة والصناعة ورجال السياسة في إنجلترا ، وخشوا إذا عمت حركة المقاطعة أن تضرب التجارة والصناعة البريطانية بالبور في مصر ، فعمدوا الى التسليم لمصر ببعض حقوقها المفتصبة ، (٤) وليس هناك شك في أن كافة العوامل السابقة كانت دافعة ببريطانيا الى طريق يوصل الى حل للامنة القائمة في البلاد ، وهو ما قد يتأكد من قول كازون في برقية أرسل بها الى اللنبي أن الحكومة أشد ما تكون رغبة في الوصول الى حل سلمي للامنة الحاضرة باتامة وزارة مصرية برئاسة وزير له وطنية ثروت باشا ، واقتداره ، وهي لا ترى أن هذا يكون مستحيلا إذا كان رائد الأحزاب كلها في عملها التقدير الواجب

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ •

(٣) الرافعي : المرجع السابق والصفحة •

(٤) محمد حسين هبكل نفس المرجع والصفحة •

(١) الرافعي : المرجع السابق ، ص ٤٣ •

لا حساسات الغير واعتقاداته ، ومع الرغبة الوطيدة في ايجاد حل شريف لكل من مصر وبريطانيا العظمى على السواء (١) .

وجملة القول أن اللورد اللنبي حينما أنهى مهمته في لندن غادرها في ٢٢ فبراير ١٩٢٢ الى مصر ، فكان أن وصلها في الثامن والعشرين فقابل السلطان عقب وصوله مباشرة ، وقدم له وثبقتين رسميتين ، أولاهما كتاب منه اليه ، والثانية التصريح المذكور سابقا ، موضوع حديثنا والذي بمقتضاه أعلنت بريطانيا انتهاء الحماية البريطانية على مصر ، وأن تكون دولة مستقلة ذات سيادة ، والغاء الاحكام العرفية التي أعلنت في ٢ نوفمبر عام ١٩١٤ ، حالما تصدر حكومة السلطان قانون التضمنات (اقرار الاجراءات التي اتخذت باسم السلطة العسكرية) لينفذ على جميع ساكني مصر ، واحتفاظها بأمر أربعة الى أن يتسنى ابرام اتفاق بشأنها مع الحكومة المصرية ، وقد تمثلت تلك الامور في النص على تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية في مصر ، والدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات ، و الواسطة ، وحماية المصالح الاجنبية في مصر ، وحماية الاقلات ، والسودان .

فأثارت ابقاء هذه الامور على ما هي عليه ، حتى تبرم هذه الاتفاقات (٢) .

وقد تبين لنا من بنود التصريح أنها لم تخرج عن المبادئ التي كانت سياسة الحكومة البريطانية متمسكة بها أثناء وجود الوفد الرسمي للمفاوضات برئاسة عدلي بلندن ، حيث نرى أن الشروط التي طلبت الحكومة البريطانية الوفاء بها لترفع عن مصر حمايتها والاعتراف بها دولة ذات سيادة و ايجاد البرلمان واعادة وزارة الخارجية قد تم الاحتفاظ بها لمفاوضات مقبلة بين مصر وبريطانيا اللهم ما أضيف من الاعتراف بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة ، وليس الاقتصار على القول بسيادتها فقط ، ولقد كان محي التصريح على هذا النحو ما جعل سعد زغلول يرى فيه مشروع كرزون « ان لم يكن أقل مزية منه للمصريين » .

(١) الكتاب الأبيض (الانجليزي) : ص ٤١ - ٤٣ .
(٢) الوقائع المصرية ، العدد ٢٠ ، غير اعتيادي « في ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، محمد علي علوية : ذكريات اجتماعية وسياسية ، ص ١٧٦ - ١٨ .
انظر نص التصريح - الراجعي في أعقاب الشريعة المصرية ج ١ ط ٢ ١٩٥٩ ص ٤٣ ، ٤٤ .

واكتفى بالقبول الضمني ولبس الصريح (١) . كذلك برى سعد زغلول في صدد انتقاده لما اشتمل عليه التصريح بأنه لا يصلح أن تكون نقطة الارتكاز في المفاوضات إلغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال لأن التصريح وقد نص على حربة المفاوضة بين الطرفين ، مما لا يتأتى معه لمفاوض المصرى أن يتمسك بهذا الإلغاء ، ولا بهذا الاعتراف كذلك المفاوض الانجليزى لا يتأتى له أن يتمسك بالتحفظات ، (٢) .

أما ثروت فقد كان برى التصريح خطوة لها ما بعدها ، واستقلالاً يتطلب الاستكمال (٣) . كذلك برى زميله في استصداره - اسماعيل صدقى - أن مصر اجتازت بمقتضاه طورا جديدا من أطوار حياتها السياسية ، وقطعت مرحلة من مراحل جهادها الوطنى كان لها ثراها ، وأن الحوادث دلت فيما بعد على أن التصريح ساعد مصر على دخول المفاوضات ، وأتاح للوزارة أن تبدأ عهدا جديدا ، وأن تضع لنفسها دستوراً على أحدث المنادى الدستورية ، وأن تقتصر في إدارة شئونها كدولة مستقلة ذات سيادة (٤) .

على أن الأمر كان - بطبيعة الحال - مختلفا فيما يتعلق بحزب الوفد والحزب الوطنى ، إذ استنكره الوفد وعده نكبة وطنية (٥) ، ولم يكن هذا الموقف غريبا من الوفد بعد أن صدر التصريح في غيبة زعيمه ، هذا فضلا عن الهيئة التى كانت تمثل الوفد في غياب الزعيم ، والتى كانت مؤلفة من حمد الباسل ، ووبصا واصف ، وعلى ماهر ، وجورج خباط ، ومرقس حنا ، وعلوى الجزار ، ومراد الشربعى ، وواصف غالى ، كانت قد رفضت شروط شريطة مما يعنى أن الوفد « قد رفض مقبدا تصريح ٢٨ فبراير » (٦) .

-
- (١) المذكرات ، المصدر السابق ، ص ٢٨٢٢ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ٢٨١٨ - ٢٨٢٠ .
 - (٣) الاهرام : عدد ١٤٣٤٢ ، في ٢١ ابريل ١٩٢٤ ، ص ١ .
 - (٤) اسماعيل صدقى : مذكراتى ، ص ٢٧ .
 - (٥) عبد العزيز رفاعى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .
 - (٦) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

ولقد ظل الوفد على رفضه الاعتراف بالتصريح ، كما أن زعيمه بعد الافراج عنه وعودته الى مصر لم يري ما يمنع من دخول الانتخابات على أساس الدستور ، الا أن ذلك كان دون قبوله للتصريح (١) .

كذلك لم يكن من الغريب للحزب الوطني ، والذي يفتتح سياسة اللامفاوضة الا بعد الجلاء أن يقف موقف الرفض من التصريح ، فيعلن عن هذا الرفض في ٢ مارس ١٩٢٢ ، ويلتزم بمبدأه المعروف الذي يقوم على الجلاء أولا ثم المفاوضات .

كذلك يتعرض ثروت ، وبسبب التحفظات التي اشتمل عليها التصريح ، لمفاوضة الغالبية الساحقة من الامة (٢) . وتظل تسوية تلك التحفظات مسألة المسائل في السياسة المصرية ، وتوالي عليها عدة مفاوضات رسمية يبدأها سعد زغلول في صيف عام ١٩٢٩ ، فمصطفى النحاس في ربيع عام ١٩٣٠ ، وكان أن انتهت الى نتيجة حاسمة بوضع مشروع محمد محمود - هندرسون ، ثم المشروع المعدل له الذي انتهت اليه مفاوضات ربيع ١٩٣٠ ، على أن الاتفاق بشأنه لم يتم بسبب الخلاف على تأجيل مسألة السودان ، وبعض مسائل ثانوية أخرى (٣) . أما عن ثروت فبمكنا الانتهاء الى القول بأنه قد تطلع من وراء المفاوضات التي أجراها مع الجانب البريطاني وانتهى اليها التصريح الى ايجاد مخرج للمسألة المصرية البريطانية في مصر ، تحقيقا لهدفين في آن واحد : ايجاد مخرج للأزمة بها بعد فشل مشروع كيرزون ، والاثار السيئة التي أحدثته في البلاد المذكرة التفسيرية التي ألحقت به في الوقت الذي وجدت فيه السلطات البريطانية تسعى للاتفاق خروجاً من الازمة الوزارية التي حدثت بالبلاد ، فلعل ثروت قد رأى في تلك الخطوة ، خطوة المفاوضات مع السلطات البريطانية ، من ذلك الجمود الذي تردت فيه ، والذي كان بتوقع له أن يطول

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق والصفحة .

(٢) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، تمهيد ٣ ص ٣٠٣ .

(٣) محمد حسين هبكل : السياسة المصرية والانقلاب الدستوري ،

الوزارية بتشكيل وزارة تتولى أمور الحكم والادارة في البلاد ، ونفع المسألة المصرية البريطانية خطوة الى الامام من خلال ما قد ينفج عن التفاوض ، هذا فضلا عما كان يترتب على تحقيق الهدفين من استتباب الامن والهدوء في البلاد ، على انه اذا كان الهدف الاول قد تحقق بأن تشكلت وزارة برئاسته بعد أن ظلت البلاد أكثر من شهرين بغير وزارة بعد استقالة عدلى ، واذا كان الهدف الثانى قد حقق لمصر اعتراف انجلترا لها بالغاء الحماية المفروضة عليها واستقلالها فان تقييد ذلك الاعتراف بالمسائل المتنازع بها قد أفقده قيمته في أعين غالبية المصريين ، وجعل منه محلا لمطاعن الوفد وحملاته عليه (٥) .

الدستور المصرى ١٩٢٣

أخبرا وبعد محاولات مستمرة صدر الامر الملكى بالدستور في ١٩ أبريل ١٩٢٣ في عهد وزارة يحيى لبراهيم باشا .

ولم يكن يتوقع أحد صدور الدستور في ذلك الوقت لمعارضة الملك فؤاد لهذا الامر ، ولكنه وقع تحت ضغط الحوادث . وقد لخص الرافعى قسما من ذلك الدستور فيما يلى : -

(١) قرر في أول مواده أن مصر دولة ذات سيادة وهى حرة مستقلة وملكها لا يتجزأ ولا ينزل عن شئ منه ، وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابى ، وفي المادة (٣٢) : أن عرش الملكة المصرية وراثى فى أسرة محمد على وتكون وراثه العرش وفق النظام المقرر بالامر الكريم الصادر فى ١٥ شعبان سنة ١٣٤٠ (١٣ أبريل سنة ١٩٢٢) .

(٢) جميع السلطات مصدرها الامة (المادة ٢٣) .

(١) لمزيد من التفاصيل : انظر رسالة ماجستير غير منشورة ومحفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة عين شمس بعنوان عبيد الخالق ثروت للباحثة مشرفة محمد أحمد الميجى وتحت اشراف د . جواد طه ١٩٨٤ .

(٣) قرر مبدأ المساواة بين المصريين فهم لدى القانون سواء وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة (المادة ٣) .

(٤) حق ولاية المناصب مقصور على المصريين ولا بولى الاجانب من هذه المناصب الا ما يعينه القانون في أحوال استثنائية (المادة ٣) .

(٥) الحرية الشخصية وحرية الاعتقاد وحرية الرأى مكفولة ولا يجوز القبض على أى انسان ولا حبسه الا وفق أحكام القانون (المواد ٤ و ٥ و ١٢ و ١٣ و ١٤) .

(٦) كفل حرية الصحافة وحظر الرقابة على الصحف ، ومنع انذارها او تعطيلها أو الغاءها بواسطة الادارة (المادة ١٥) .

(٧) لا حربمة ولا عقوبة الا بناء على قانون (المادة ٦) .

(٨) حظر نفى أى مصرية من الديار المصرية (المادة ٧) وحظر تسليم اللاجئين السياسين (المادة ١٥١) .

(٩) قرر حرمة المنازل (المادة ٨) .

(١٠) قرر حرمة الملكية فلا يفرع عن أحد ملكه الا للمنفعة العامة في الاحوال المبينة في القانون بشرط تعويضه عنه وحظر عقوبة المصادرة للأموال (المادة ٩ و ١٠) .

(١١) التعليم الاولى الزامى ومجانى للمصريين من بنين وبنات (المادة ١٩) .

(١٢) قرر حق الاجتماع وتكوين الجمعيات (المادة ٢٠ و ٢١) .

(١٣) القضاة مستقلون لا سلطان عليهم فى قضائهم لغير القانون وليس لأنة سلطة فى الحكومة التدخل فى القضاة (المادة ١٢٤) .

(١٤) يتكون البرلمان من مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب . وبؤلف مجلس الشيوخ من أعضاء ينتخب لمدة أحماسيم وبعين الباقون

(الخمسان) ، ويؤلف مجلس النواب من أعضاء جميعهم منتخبون ، وعدد الشيوخ المنتخبين يكون بنسبة عضو عن كل مائة وثمانين ألفا من الإقليم ، وعدد النواب بنسبة نائب عن كل ستين ألفا ، ومدة عضوية الشيوخ عشر سنوات يتجدد نصفهم كل خمس سنوات ، ومدة عضوية النائب خمس سنوات (المواد ٧٤ وما بعدها) .

(١٥) يشترط في النائب زيادة على الشروط المقررة في قانون الانتخاب (١) أن تكون سنة ثلاثين سنة ميلادية كاملة على الأقل (المادة ٨٥) ، ويشترط في عضو الشيوخ زيادة على الشروط المقررة في قانون الانتخاب أن تكون سنة أربعين سنة ميلادية كاملة (المادة ٧٧) وأن يكن من الطبقات الآتية (أولا) الوزراء ، الممثلين السياسيين ، رؤساء مجلس النواب ، وكلاء الوزارات ، رؤساء ومستشاري محكمة الاستئناف أو أبة محكمة أخرى من درجتها أو أعلى منها ، النواب العموميين . نقباء الحامين ، موظفي الحكومة من درجة مدير عام فصاعدا - سواء في ذلك الحاليون والسابقون (ثانيا) كبار العلماء والرؤساء للروحانيين ، كبار الضباط المتقاعدين من رتبة لواء فصاعدا ، النواب الذين قضوا سنتين في الغيابة ، الملاك لذبح الذين يؤدون ضريبة لا تقل عن مائة وخمسين جنيا مصريا في العام ، من لا يقل دخلهم السنوي عن ألف وخمسمائة جنيا من المشتغلين بالأعمال المأبأة أو التجارية أو الصناعية أو بالمهن الحرة ، وذلك كله مع مراعاة عدم الجمع بين الوظائف التي نص الدستور أو قانون الانتخاب على عدم جواز الجمع بينها (المادة ٧٨) .

(١٦) الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب فإذا قرر مجلس النواب عدم الثقة بها وجب عليها أن تستقيل وإذا كان القرار خاصا بأحد الوزراء وجب عليه اعتزال الوزارة (المادة ٦١ و ٦٥) ، وللملك حق حل مجلس النواب ، وإذا حل في أمر فلا يجوز حل المجلس الجديد من أجل ذلك الأمر (المادة ٣٨ و ٨٨) .

(١٧) الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه (المادة ٤٨) .

(١٨) لا يصدر قانون الا اذا قرره البرلمان بمجلسيه وصدق عليه الملك (المادة ٢٥) واذا لم ير الملك التصديق على مشروع قانون اقره البرلمان رده اليه في مدى شهر لاعادة النظر فيه فاذا لم يرد القانون في هذا الميعاد عدا ذلك تصديقا من الملك عليه وصدر . واذا رد مشروع القانون في الميعاد المتقدم واقره البرلمان ثانية بأغلبية ثلثي الاعضاء الذين يتألف منهم كس من المجلسين صار له حكم القانون وأصدر ، فان كانت الاغلبية أقل من الثلثين امتنع النظر فيه في دور الانعقاد نفسه ، فاذا عاد البرلمان في دور انعقاد آخر الى اقرار ذلك المشروع بأغلبية الآراء المطلقة صار له حكم القانون وأصدر (المواد ٢٥ و ٣٥ و ٣٦) .

(١٩) لا يجوز لأية حال تعطيل حكم من أحكام الدستور الا أن يكون ذلك وقتيا في زمن الحرب أو أثناء قيام الاحكام العرفية وعلى الوجه المبين في القانون (المادة ١٥٥) .

(٢٠) يختص كل مجلس بالفصل في صحة نيابة أعضائه ولا تعتبر النيابة بإطلاة الا بقرار يصدر بأغلبية ثلثي الاصوات (المادة ٩٥) .

(٢١) يدعو الملك البرلمان سنويا الى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر فاذا لم بدع الى ذلك بجتمع بحكم القانون في اليوم المذكور (المادة ٩٦) (١) ، .

وهكذا وبعد صدور الدستور ، انزعج عن المعتقلين وصدر قانون الانتخابات ، وانتهت الاحكام العرفية . وأجريت الانتخابات ، وانتجت هذه الانتخابات بفوز حزب الوفد بأغلبية كبيرة وكان طبيعيا أن يعرض الملك على سعد زغلول تأليف الوزارة في ٢٨ يناير ١٩٢٤ .

وتم افتتاح البرلمان في ١٥ مارس ١٩٢٤ ، واقسم الملك النمين الدستوري ، وألقى سعد خطاب العرش طبقا للدستور .

(١) نص الدستور - الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية ص ٣١١ - ٣٢٧ .

أزمة ١٩٢٤ في مصر والسودان

كونت جماعة من الشباب المتحمس جمعية سرية أطلقت عليها اسم جمعية الغدائيين ، ورأت أن استقلال مصر لا يمكن تحقيقه إلا بالاعمال العنيفة والاعتداءات السياسية . وبدأت هذه الجمعية أعمالها بقتل السير لى سستاك سردار الجيش المصرى (١) الذى قُومى فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤ متأثرا بجراحه الناتجة عن إطلاق الرصاص عليه .

واحس سعد زغلول رئيس الوزراء حينذاك ، بخطورة الموقف فأعلن عن أسفه وأسف حكومته لما حدث ، وفعل الملك فؤاد نفس الشيء (٢) .

وقد رأت بريطانيا أن تستغل هذه الحادثة لتنفيذ أدوارها المرسومة فى وادى النيل . . فرأت أن تتخلص من الوجود المصرى فى السودان على أساس أن هذا الوجود هو الذى سبب المتاعب للبريطانيين فى السودان فى ذلك الوقت ، فممنذ ٨ مايو ١٩٢٤ أرسل حاكم عام السودان الى المندوب السامى فى مصر يخبره بعرامة الدعاية المصرية فى السودان ضد الانجليز حتى أن العناصر الوطنية السودانية نفسها أصبحت تنادى بأن مصر والسودان وطن واحد .

وكان على رأس الحركة الوطنية السودانية بعض العسكريين السودانيين كالملازم أول على عبد اللطيف الذى أسس جمعية اللواء الابيض فى بداية سنة ١٩٢٤ فى الخرطوم ، والتي كانت ترمى الى اشتراك السودانيين فى كفاح وادى النيل ضد الاستعمار البريطانى كما كان من زعماء هذه الحركة ايضا اليوزباشى محمد صالح جبريل والملازم أول على زين العابدين وضباط آخرون .

(١) أحمد شفيق - حليات مصر السياسية - الحولية الثانية

(١٩٢٥) ص ٤١٢ .

(٢) المصدر السابق - الحولية الاولى (١٩٢٤) ص ٣٦٦

وقد استثار الحاكم العام الانجليزى للسودان الحركة الوطنية السودانية عندما استكتب بعض الشخصيات السودانية عرائض النأييد للحكم الانجليزى ، وأدى هذا الاستفزاز من جانب الحاكم العام الى قيام جمعية اللواء الابيض بمظاهرات كبيرة فى أم درمان وعطبرة وبور سودان وغيرها . وقد واجهت السلطات البريطانية هذه المظاهرات بالقمع المشديد ، وقدم زعيم الجمعية على عبد اللطيف للمحاكمة ومعه بعض الضباط المصريين بتهمة التحريض على المظاهرات (١) .

وفى يوم ٢٩ يوليو ١٩٢٤ تجمع عدد من الضباط المصريين والسودانيين وهم فى حالة هياج شديد لعدة أسباب منها الفبد على الملازم أول على زين العابدين وسجنه فى السجن المدنى ، وفى هذا ما فيه من مخالفه للقوانين العسكرية التى تحتم وضع الضابط المتهم بأى جناية تحت الايقاف فى وحدة عسكرية تحت حراسة ضابط أقدم منه فى الرتبة ، وذلك ، وذلك حفظا للسرف العسكرية .

ومن الاسباب التى أدت الى هياج الضباط أيضا منع الهتاف بحياة ملك مصر ، رغم أن العلمين المصرى والانجليزى كانا يرفرفان فوق مبانى الحكومة السودانية ، مما أرمص الى النية البريطانية المبيتة للانفراد بحكم السودان ، وهو ما كان يآباه الضباط المصريون والسودانيون . كذلك أثار أحد الفصاة البريطانيين مشاعر الضباط عندما عرض بالملك فؤاد عند نطقه أحد الاحكام . لكل ذلك قرر الضباط الاحتجاج على هذه التصرفات لدى نائب السردار فى الخرطوم اللواء هدلستون باسا ، واجتمعوا لهذا الغرض فى ليلة ٣٠ يوليو ١٩٢٤ ووقعوا جميعا على هذا الاحتجاج ما عدا القائمقام محمد بك يحيى قائد الكتيبة الرابعة مشاه (٤ جى اورطة) الذى امتنع عن التوقيع . وقدم هذا الاحتجاج القائمقام أحمد بك رفعت قائد المدفعية فى الخرطوم بحرى - والذى سيبرز على المسرح فى السودان كمتزعم للمقاومة المصرية ضد اخلاء السودان بعد ذلك ببضعة شهور - ، وقد نص هذا

(١) دكتور عبد العظيم رمضان - الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ ١٩٣٦) ص ١٧٢ - ص ١٧٣ .

الاحتجاج الموقع من الضباط على أنه قد تكرر حصول حوادث أخيرا من بعض تصرفات السلطة المحلية أدت الى اهانة الجيش . وعلاوة على ذلك قد حصل أخيرا في محاكمة أحد المتهمين الذي كان يؤدي سعائره الدينية بالجامع حيب عرض القاضي الانجليزى بجلالة الملك عند النطق بالحكم .

« وبما أن الجيش لا يرضى بهذه الاهانة ، ولا يقبل التعريض بمليكة الذى أدى لجلالته قسما بأن يكون مخلصا له حاميا لعرشه نود أن تتخذ اجراءات عادلة نحو ايقاف تكرار مثل هذه الاهانات ، (١) » .

لم يتفهم الانجليز عرامة هذه الحركة ، فتركوها تنسقد وتمتد . . . ٩ اغسطس انفجر الموقف في السودان حين تظاهر طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم في سوارع المدينة بأسلحتهم وهم يرفعون العلم المصرى ويهتفون بحياة ملك مصر وبسقوط الاستعمار . . . الا أن الانجليز امكنهم الاسنيلاء على الذخائر الموجودة في مخازن المدرسة في غيبة طلابها ، وانتهى الامر بانتهيار المقاومة ومخول الطلاب السجن العمومى في كوبر .

وفي نفس اليوم الذى تظاهر فيه طلبة المدرسة الحربية ، حدثت ثورة خطيرة أخرى في كتيبة السكة الحديدية المصرية بالعظيرة ، مما أدى الانجليز الى اطلاق النار على المتظاهرين ، ونتج عن ذلك مقتل أربعة واصابة الاضطرابات تجددت في اليوم التالى وبشكل أعنف ، مما أدى بالجنود الانجليز الى اطلاق النار على المتظاهرين ، ونتج عن ذلك مقتل أربعة واصابة أحد عشر شخصا باصابات بالغة (٢) . ولم تلبث الاضطرابات أن عمت م درمان وملكال وغيرها ، مما أدى بالساسة البريطانيين الى الاقتناع بوجوب طرد المصريين من السودان والانفراد بحكمه ، بعد أن تأكد لهم ذلك التلاحم المصرى السودانى ضد الاستعمار البريطانى في وادى النيل .

وهكذا يمكن أن نقول أن حادثة مقتل السردار لم تكن هي السبب الاساسى لتقديم ذلك الانذار المشهور الى الحكومة المصرية وانما هي قد

(١) مذكرتان للواء محمد باشا لبيب الشاهد والاميرالاي أحمد بك رفعت عن اعمال الجيش المصرى في السودان وماساة خروجه ص ٢٨ - ٢٩ .
(٢) دكتور عبد العظيم رمضان - المصدر السابق - ص ١٧٥ - ١٧٦

منحت الظروف المناسبة لتقديم هذا الانذار (١) .

المطالبة بأخلاء السودان :

في يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ اتجه المندوب السامي اللورد اللنبي في مظاهرة عسكرية الى دار رئاسة الوزراء ، وسلم سعد زغلول نسخة من الانذار (٢) . وقد جاء في المذكرة الاولى منه طلبات محددة هي : -

- ١ - أن تقدم الحكومة المصرية اعتذارا كافيا وافيا عن الجناية .
- ٢ - أن تتابع بأعظم نشاط البحث عن الجناة ، وأن تنزل بالمجرمين أشد العقوبات .
- ٣ - أن تمنع من الآن فصاعدا وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية .
- ٤ - أن تدفع في الحال غرامة قدرها نصف مليون جنيه الى الحكومة البريطانية .
- ٥ - أن تصدر خلال ٢٤ ساعة الاوامر بارجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصري المتجهة الى السودان .
- ٦ - أن تبلغ المصلحة المختصة ان حكومة السودان ستزيد مساحة الاطيان التي تزرع في الجزيرة من ٣٠ ألف فدان الى مقدار غير محدود تبعا لما تقتضيه الحاجة .
- ٧ - أن تعزل عن كل معارضة لرعبات الحكومة البريطانية في الشئون المتعلقة بحماية المصالح الاجنبية .

وجاء في المذكرة الثانية التي قدمت في نفس اليوم مزيد من الطلبات بتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصري الى قوة سودانية مسلحة

Wavell, Viscount - Allenby in Egypt. vol. 2 of
Allenby : A study of Greatness. p. 116.

(١)

(٢) محمد شفيق غربال - تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج ١

ص ١٥٦ .

تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وتحت القيادة العليا للحاكم العام ، وبإعادة النظر في القواعد والرشوط الخاصة بخدمة الموظفين الاجانب الذين لا يزالون في خدمة الحكومة المصرية طبقا لرغبات الحكومة البريطانية

وقد أجاب سعد زغلول على مذكرتي المندوب السامى في نفس اليوم بمذكرة وافقت فيها الحكومة المصرية على المطالب الاربعة الاولى ، ولكنها لم توافق على باقى المطالب ، فأجاب المندوب السامى على ذلك في اليوم التالى (٢٣ نوفمبر) بمذكرة جديدة أبدى فيها تمسكه بكافة المطالب ، وأنه قد أرسل التعليمات الى حكومة السودان لإخراج القوات المصرية من السودان ، ومنحها حرية زيادة الاراضى المروية في الجزيرة (١) .

وفي اليوم التالى (٢٤ نوفمبر) أجابت الحكومة المصرية باحتجاج على تصرفات الحكومة البريطانية ، وارفقت بالخطاب تحويلاً بمبلغ الغرامة . وكان سعد زغلول قد قدم طلباً باستعفاء الوزارة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ ، ثم أعاد التماس قبول استقالته في اليوم التالى فقبلها الملك (٢) .

ولكن ما هو مصدى هذه المسألة على السودان ؟ وما هو رد الفعل المصرى والسودانى تجاه المد الاستعمارى البريطانى الذى أخذ في الانفراد بالسيطرة على السودان واحتواء حركته الوطنية الوليدة ؟

لقد وصلت التعليمات بالفعل الى الخرطوم . بإجلاء القوات المصرية من السودان مساء يوم ٢٣ نوفمبر ، فعقد على الفور اجتماع في مكتب الحربية ، لوضع خطة الاخلاء ، وأثناء ذلك وصلت برقية من المندوب السامى بالسماح بإجلاء القوات المصرية بسلحتها ولكن بدون ذخيرتها (١) .

(١) دكتور يونان لبيب رزق - السودان في عهد الحكم الثنائى الاول (١٨٩٩ - ١٩٢٤) ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

(٢) محمد شفيق غربال - المصدر السابق ص ١٥٨ .

(٣) د . يونان لبيب رزق - المصدر السابق ص ٤٧٧ .

(م ٢١ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

ويوضح القائم مقام أحمد بك رفعت قائد المدفعية (الطوبجية) في ذلك الوقت الخطة التي اتبعها الانجليز في اجلاء القوات المصرية عن السودان ، فيذكر انهم تكتموا الامر الصادر اليهم من المندوب السامي ، حتى يمكنهم السيطرة على الموقف بهدوء وبأقل خسائر ممكنة ، الا أنه منذ ٢٢ نوفمبر جاءت بعض الانباء الى الضباط المصريين بالخرطوم عن ارسال اذار من الحكومة الانجليزية الى الحكومة المصرية بمطالب قاسية . وفي مساء ذلك اليوم ظهر ملحق لجريدة الحضارة السودانية موضح به مواد الاذار .

ويوضح أحمد بك رفعت الخطة التي اتبعها الانجليز في اجلاء القوات المصرية عن السودان . فيذكر انهم داهنوا المصريين حتى استولوا على مفاتيح الذخيرة منهم ، ثم حاصروا الوحدات المصرية في كل مديرية وافرادها عزل من السلاح والذخيرة ، ثم أجبروهم على الانسحاب الى مصر . وهكذا تم ترحيل معظم الوحدات المصرية في السودان الى مصر . ولكن الامر كان مختلفا بالنسبة لوحدات منطقة الخرطوم البحرية ، وكانت هذه الوحدات مؤلفة من ثلاث بطاريات مدفعية والكتيبة (الاورطة) الثالثة مشاة . فقد استطاع جنود المدفعية (الطوبجية) المصرية أن يستولوا على الذخيرة من منفذ خاص بعد أن استحوذ الانجليز على المفاتيح الاصلية لمخزن الذخيرة . وبعد ذلك هددنا ثيربورن بك بحصارنا بالجنود الانكليزية من جميع الجهات وبظننا ذلك بأعيننا حيث كنا قبل الآن لم نلتفت الى الحصار فأخذنه الى المكتب وهو مطمئن بوجود مفتاح الجبة خانة (مخزن الذخيرة) في جيبه بعدم تمكن الجنود من كسر باب المخزن وصيرت الاطفة واصبره داخل المكتب وكان قد تم حصول الجنود على الذخيرة بأكملها من المخزن دون أن يشعر أحد بذلك من منفذ صغير ثم يكن يعلم بمكانه ثيربورن بك ولا يدركه الناظر لبناء المخزن المذكور . وهذا المنفذ ينفذ الى محل المدافع من جهه واحدة مرتفعة ، وسرعان ما تسلحت البنادق والمدافع واصبح القشلاق خارجا وداخلا موزعا فيه جماعات من الجنود كأنهم نظموا تنظيما بترتيب سابق . في الحقيقة كان هذا النظام صادرا من تلقاء أنفسهم وقد رأوا بأعينهم امتداد الحصار حولهم بالعساكر الانجليزية والمدافع الماكينة العديدة (١) .

ومن موقف القوة الناجم عن تسليح هذه الوحدات المصرية وحصولها على ذخيرتها - على قلتها - رفضت هذه الوحدات المصرية الانسحاب من السودان بأمر صادر من حكومة السودان ، وكان هدلستون باشا نائب السردار - ونائب الحاكم العام قد أصدر أمرا كتابيا الى قادة وحدات الجيش المصرى برحيل الضباط والجنود في ٢٤ نوفمبر ، وواضح أن هذا الامر صادر من نائب السردار بناء على طلب المندوب السامى بالرغم من اعتراض الحكومة المصرية (١) .

وفي هذه المرحلة العصبية ، تتضح صورة من الصور المشرفة للعسكرية المصرية ... فعندما طلب نائب السردار من أحمد بك رفعت تنفيذ الامر الكتابى بالانسحاب ، جاب الاخير بانه لما رآه من نفسية عساكر الطوبجية لا يمكننى أن أنفذ هذه الاوامر عليهم ، وخير لى أن تحاكمونى بمجلس عسكرى أو تكبلونى بالحديد من أن أنفذ هذا الامر وأكون عنه مسئولا .

الا ان هدلستون باشا طلب من زعيم المقاومة المصرية فى السودان أحمد بك رفعت عرض الامر على الوحدات المصرية فى الخرطوم البحرية ، فقام رفعت بك بالفعل بالمرور على هذه الوحدات ، فكانت الاورطة (الكتيبة) الثالثة مشاء هي اولى التشكيلات الراضية بقتا لعملية تسليم ذخائرها والانسحاب من السودان مهما كانت النتائج ، وكان هذا هو موقف بطاريات المدفعية الثلاثة اذ قال ضباط هذه الوحدات انه « خير لنا أن نذافع حتى نموت ولا نترك السودان الا بأمر من مليكنا وحكومتنا » . وقد تم ابلاغ نائب السردار بهذا الموقف المصرى المتصلب .

وبدأت القوات البريطانية فى تدعيم حصارها للوحدات المصرية البطلة ، وبدأت هذه الوحدات بالمقابل فى الاستعداد تحسبا لكل مفاجأة ، هذا رغم الفارق الهائل فى التسليح بين الجانبين ، وطبقا لكلمات القائمقام أحمد بك رفعت فان « كل رصاصة من رصاص بنادقنا العشرين لكل بندقية تقابل

(١) الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٢٠٣ .

أكثر من عشرين ألف طلقة عندهم بما في ذلك الإحتياط بالطابية العامة ، أما ذخيرة المدافع فعندهم أنواع كثيرة لمدافع مختلفة ، وعلى العموم ما عندنا هو قليل جدا ، وعلى ذلك أصدرت أمرا قويا بعدم إطلاق أى طلقة الا بأمرى وحضورى شخصيا مهما كان الضرب من جانبهم شديدا وذلك حتى اقتصد فى الذخيرة للحظة الأخيرة » (١) .

وفى ٢٥ نوفمبر وصل هدلستون باشا نائب السردار الى مواقع الدفاعات المصرية فى الخرطوم البحرية وكرر أوامره بانسحاب الوحدات المصرية ٠٠٠ الا ان احمد بك رفعت قائد الوحدات هناك طالب بوصول مندوب مصرى من قبل الملك ومعه أمر بانسحاب المصريين من السودان ، فان هذا الانسحاب سيكون « بالاسلحة والذخائر وجميع المهمات وبالشرف العسكرى ، » .

وفى نفس الوقت ارسل احمد بك رفعت برقية الى الملك فؤاد اوضح فيها ان القوات الانجليزية تحاصر القوات المصرية من جميع الجهات وان الذخائر المصرية لا تكفى لمجابهة القوات البريطانية ، ورغم ذلك فان « الضباط والصف ضباط والعساكر مصممون على عدم ترك السودان بدون أمر جلالتكم يرسل لهم مع مندوب مصرى او يموتون عن آخرهم فى قشلاقتهم » .

ونرى ان هذه البرقية ايضا بالصيغة التى كتبت بها توضح العسكرية المصرية الاصيله ، وهى لا تحتاج فى الواقع الى أى تعليق .

وعلى اية حال ، يصل فى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٤ المندوب المصرى النكباشى امين هيمى الذى انتقل الى مقر الوحدات المصرية الصامدة فى السودان ، وأوضح للضباط حقيقة الموقف السياسى فى مصر ، وسلم احمد بك رفعت خطاب وزير الحربية الفاضل بانسحاب الوحدات المصرية من السودان (٢) ٠٠٠ وهكذا كان على الوحدات المصرية البطالة المتمركزة

(١) مذكرتان ص ٤٦ - ٥٢ .

(٢) مذكرتان - مصدر سبق ذكره / ٥٣ - ٦٥ .

في الخرطوم البحرية والتي رفضت الانسحاب من السودان الا بعد صدور قرار مصرى خالص لهم بذلك ، كان على هذه الوحدات ايضا وبمفنتهى العسكرية اطاعة هذا الامر المصرى بالانسحاب .

وقد انتهى خطاب وزير الحربية الموفى كله ، فقد جمع احمد بك رفعت ضباط المدفعية والمشاة وأخبرهم بوجوب اطاعة امر الملك بالانسحاب (١) . وقد جاء في هذا الخطاب الوجه لضباط وضباط الصف والجنود بالجيش المصرى بالسودان من وزير الحربية المصرى « عهدنا فيكم الشجاعة والولاء ولا يداخلنا أى شك في انكم مستعدون جميعا لاراقة آخر نقطة من دمائكم في خدمة جلالة الملك وفي سبيل الوطن على اننا نأمركم بان تكفوا عن مقاومة الاجراءات التى اتخذها نائب حاكم السودان العام لاجراكم بالقوة من الاراضى السودانية . فانه لبس من وراء هذه المقاومة سوى سفك الدماء بغير جدوى ، وبما أن الحكومة المصرية قد احتجت صريحا على هذا العمل الذى نفذ بالقوة القاهرة فعودتكم لا يترتب عليها أى مساس لباحقون الوطن ولا بشرفكم العسكرى ، (٢) . وهكذا أذعن الضباط والجنود للامر أسفين محزونين (٣) وقامت الوحدات المصرية البطلة بالسفر من الخرطوم في أيام ٢٩ ، ٣٠ نوفمبر و ١ ، ٢ ديسمبر ١٩٢٤ على خمسة قطارات خاصة « خلاف البوستة » حيث وصلت الشلال يوم ٥ ديسمبر ، وعلى هذا النحو تم اخلاء السودان من الجيش المصرى (٤) .

والواقع أن تنفيذ الانذار البريطانى كان نصرا بريطانيا كاملا على الحركة الوطنية سواء في مصر أو في السودان . ففى مصر سقطت وزارة سعد زغلول وخلفتها وزارة أحمد زور بانسا (٥) الذى لم يكن ليستطيع بماضيه السياسى غير الواضح ان يملا الفراغ الذى أحدثته غيبة شيخ السياسة المصريين عن رئاسة الجهاز التنفيذى في مصر .

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(٢) مذكرتان ص ٨٢

(٣) الرافعى ص ٢٠٤

(٤) د . عبد العظيم رمضان الجيش المصرى والسياسة ص ١٨٧ .

(٥) محمد حسين هيكل - مذكرات في السياسة ج ١ ص ٣١٢ .

أزمة الجيش المصرى سنة ١٩٢٧ :

أدى انسحاب وحدات الجيش المصرى من السودان وعودتها الى مصر ، الى زيادة عدد أفراد هذا الجيش ، مع ما واكب ذلك من اتجاه مصر الى محاولة تدعيم قواتها المسلحة بالأسلحة المتطورة . وكانت وجهة النظر البريطانية هى ان الجيش المصرى هو اقل كما وتسليحا من قوات الاحتلال فى مصر . . . الا أنه مع ذلك الاتجاه المصرى الرامى الى زيادة حجم الجيش المصرى وتطوير تسليحه وتمصير قيادته ، « فان خطورة المواجهة بين القوتين ستكون أمرا بالغ الخطورة - بالنسبة لقوات الاحتلال - فى المستقبل القريب » .

ولكن المصريين مضوا فى سياستهم الوطنية نحو بناء جيش مصرى قوى يمكنه انهاء الاحتلال البريطانى لمصر ، أو على الاقل كى يكون عامل ضغط فى أية مفاوضات قادمة بين الدولتين .

ومع الشهور الاولى من عام ١٩٢٧ ، بدأ المقدوب السامى البريطانى فى التحقق من أن أمورا هامة تحدث فى مسألة الجيش المصرى ، وأن هذه الامور تتطلب من الحكومة البريطانية اتخاذ اجراءات سريعة ، وعلى حد قوله « . . . ان مكانتنا الآخذة فى التناقص منذ عام ١٩٢٢ أصبحت تسير بمعدل سريع ، مع مصاحبة ذلك باقتراحات لزيادات ضخمة فى الجيش المصرى عددا وعدة ، وعلى الرغم من اشاراتى الواضحة بأن حكومة جلالة الملك لن توافق على مثل هذه المقترحات ، فان الحكومة المصرية تسير فى طريقها ، ونحز فى خطر المراجعة بعد فترة بأمر واقع *Faits accomplis* »

وفى مذكرة مطولة ، يوضح لويد المراحل الرئيسية لتفلس السيطرة البريطانية على الجيش المصرى كالاتى :

١ - عندما عين عزمى باشا كوزير للحربية فى نوفمبر ١٩٢٢ ، فانه أنشأ قسما خاصا فى وزارته وتحت اشرافه لادارة بعض الامور التى كان يشرف عليها السردار قبل ذلك ، (١) وهكذا اتخذ الوزير سسباسة معاديه

(١) P.R.O. F.O. (40 7-204) b. Egyptian Army Crisis No, 76

(J. 530/184/16) No. 61. Lord Lloyd to Sir Austen

Chamberlain. Cairo, March 3, 1927.

للمصالح البريطانية ، (٢) وهذا (التجاوز) بدأ في الزيادة حتى سبتمبر ١٩٢٣ ، عذوها وصل الى حد اصداره لاوامره وعلى مسؤوليته بطرد عدد من طلبة المدرسة الحربية لعدم كفاءتهم ٠٠٠ ولم يقم السردار البريطاني بالاعتراض على هذا الامر استمرارا في سياسته الرامية التي القمصير التدريجي للجيش ، وبأدئا في استخدام الوزير كفناة في اتصالاته مع الملك .

٢ - وفي يناير ١٩٢٤ - وطبقا لهذه السياسة - عين ضابط مصري في منصب قائد منطقة القاهرة ، مما أدى الى ضرورة استحداث منصب المفتش العام وتقليده لضابط بريطاني ، الا أنه في نفس الوقت تم تعيين ضابطين مصريين لقيادة كتبتين مصريتين كانتا تحت القيادة البريطانية .

٣ - وفي مارس ١٩٢٤ ، أحبل شاهين بك الى التقاعد - وهو احد الذين هاجمهم الوفد - لقيامه بكبح جماح الجماهير الثائرة اثناء ثورة ١٩١٩ - بأوامر من السردار ، وطبقا لطلب من سعد زغلول باشا ، وذلك لرغبة بريطانيا في عدم احداث ازمة في المفاوضات التي كانت دائمة بين الحكومتين المصرية وبريطانية في ذلك الوقت . والمهم ان تأثير هذه العملية كان عميقا على الجيش المصري .

٤ - بعد مقتل السير لو سناك ، اقترح وزير الحربية المصري أن يتحمل مسئولية تدبير أمر الضباط المصريين العائدين من السودان .

٥ - في يناير ١٩٢٥ تم تشكيل مجلس الجيش بناء على اقتراح من الملك فؤاد ٠٠٠ وكان تشكيله أساسا لبرث السلطات والاختصاصات التي كانت مخولة للسردار قبل ذلك .

٦ - في ابريل ١٩٢٥ تحولت تبعية ادارات ومصالح الحدود والتموين والتجنييد الى الجيش المصري ، وفي يونيو تبعثها الادارة المالية .

٧ - عندما عين موسى فؤاد باشا وزيرا للحربية في مارس ١٩٢٥ ، فإنه بذل جهودا مكثفة لتحويل ولاء الضباط المصريين اليه بدلا من تبعيتهم للقادة البريطانيين ، وعقد اجتماعات مستمرة في منزله للعديد من الضباط المصريين لتحقيق هذا الغرض (١) .

وبتضح من مذكرة لوبد السابقة ذلك التسلسل في المحاولات المصرية (لتمصير) الجيش المصرى .

وعلى اية حال فإنه منذ اعلان تصريح ١٩٢٢ ، واعلان الملك فؤاد نفسه ملكا مستقلا في ١٥ مارس من نفس السنة ، ساد المصريين شعور وطنى جارف بأنهم قد انتزعوا استقلالهم بأنفسهم ، رغم أن التحفظات الأربعة الواردة مع التصريح تسلب هذا الاستقلال جوهره ولبه . ووصل الامر بأى وزارة مصرية تتولى السلطة مع برلمان قوى بأنها تجد نفسها (بين الشيطان والبحر) على حد قول لوبيد الذى استرسل موضحا أن « الوزراء الحاليين يخافون قبل كل شئ من استجابات البرلمان ، وهم رغم تصلبهم فى الماضى ، غير قادرين الآن على القيام بعمل ضئيل ، كما فعل أسلافهم ، وكنتيجة طبيعية فان الحكومة من أجل ارضاء البرلمان ، مع عدم الوصول الى صدام مفتوح معنا ، فانها وقعت فى بعض التورط ضحنا ، والواقع أنها ستصبح أكثر جرأة ضحنا ، اذا لم نحرك ساكنا . واسترسل لوبيد مخصصا فى كلامه انه « بالنسبة للجيش المصرى ، فان الارتباك والتورط قد وصل الى الحد الذى لا يمكن ايقافه الا بأسلوب عنيف ، وأذا لم نفعل ذلك ، فان المسألة سوف تتحول الى أزمة بالغة الخطورة » .

وفى هذه المرحلة من الازمة ، أوضح لوبيد ان الحكومة البريطانية اذا ما قاهت بالضغط على الحكومة المصرية لكى تتخذ أى عمل عنيف ضد رغبات البرلمان طبقا لتصريح ١٩٢٢ ، فان الحكومة قد تستقبل . هذا بالاضافة الى ان رئيس الوزراء كان يعاني كثيرا فى هذه المرحلة من الضغط الشديد عليه من جانب حزب الوفد ، وأنه اذا ما اتسعت

الهوة بينه وبين حزب الأغلبية ، وقدمت بريطانيا في غضون ذلك الوقت مطالب عنيفة ، فان مجلس الوزراء قد يتخذ من هذه المطالب فرصة لتقديم استقالته .

الا ان لويد بعد ان طرح الافتراض السابق ، عاد وأورى انه يمكن جعل الحكومة المصرية القائمة في ذلك الوقت (ثروت باشا) مسئولة عن تحقيق المطالب البريطانية ، « وان هناك فرصة في صالحنا في المحافظة عليها في السلطة ، فهي نظريا تمثل الدولة » ، والوزراء الحاليون هم بلا شك يرغبون تماما في البقاء في السلطة ، وهم سيوافقون على مطلبنا بالنسبة للجيش المصرى ، طالما كانت هذه المطالب معتدلة ومصاغة في شكل مستساغ ، وعلى أية حال ، فان أى تأخير من جانبنا ، فانه بطبيعة الحال سوف يزيد من مصاعبنا ، لانه ليست هناك فرصة أفضل من الفرصة الحالية في اعتقادي ، (١) .

ومن الاهمية بمكان - من وجهة النظر البريطانية - الاشارة الى تعاطف وزير الحربية المصرى مع الحملة البرلمانية بعد مواجهته لاستجابات عنيفة في البرلمان ، ووصل به الأمر الى تبني بعض موضوعات منها تخفيض الخدمة الاجبارية للمجندين من ٥ الى ٣ سنوات بهدف زيادة أعداد الاحتياط المدرب ، وكذلك العمل على تدعيم ٩ كتائب مشاة حتى تحقق مستوى رفيعا ، وبناء ثكنات جديدة في مناطق مختلفة ، ومنع أى قيود على تسليح الوحدات المصرية ، وتشكيل قوات جوية مصرية ٠٠٠ ورغم تدخل المندوب السامى الصريح ضد هذه المطالب ، ورغم أن كل المقترحات السابقة كانت تتطلب موافقات مالية ، فانه قد تم تضمين كل هذه البنود في مشروع الميزانية الجديدة لتقديمها الى البرلمان (١) .

أما بالنسبة لمنصب المفتش العام الانجليزى ، فقد بذلت مجهودات مصرية متتالية قوية لسلب كل اختصاصاته وسلطاته . وقد قام خشبة بك

P.R.O. F.O. (407-204) b. No 78 (J 844/184/16)

(١)

No. 183 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March 28. 1927

P.R.O. F.O. (407-204) b. No 76 op cit

(٢)

- وزير الحربية في عام ١٩٢٦ - بمحاولات خطيرة في هذا الصدد ، وأول محاولة له مع المفتش العام سبنكس باشا وقعت في ربيع ١٩٢٦ ، عندما حاول إعادة عدد من الضباط السودانيين الى الخدمة ، والذين كانوا قد أحيلوا الى الاستبعاد لاشتراكهم في الحركة الوطنية في السودان في نهاية عام ١٩٢٤ .

وبعد ذلك ، وفي أثناء غياب الجنرال سبنكس في اجازته الصيفية في نفس العام ، حاول الوزير قلب النظام الذي كان ساريا في المدرسة الحربية في القاهرة ، ووضع مجلس الجيش وبتعليمات منه مشروع قانون لخراج المدرسة الحربية عن التبعية للسردار . ولو لم يعد الجنرال سبنكس مبكرا من اجازته في ذلك الوقت ، لكان البرلمان قد وافق على هذا الاقتراح .

هذا بالإضافة الى ان خشبة بك أمضى صيف ذلك العام (١٩٢٦) في لقاءات شخصية بالعديد من الضباط من كل الرتب مستمعا الى شكاياتهم وواعدة اياهم حولا لمشكلاتهم .

وأخيرا بدأ خشبة بك في القيام بالتفتيش على الوحدات العسكرية برفقة اثنين من العسكريين من أعضاء البرلمان ، وهما صالح بك حرب وعبد الرحمن بك عزام ، والاول كان قد انضم الى السنوسي وتحت قيادته ٦٠ من جنود خفر السواحل ، وكلاهما حارب مع السنوسي .

ولم يكتف خشبة بك بهذه المحاولات ، بل حاول أيضا جعل وزارة الحربية هي المسيطرة على ترقية وتعيينات الضباط وعن طريقه هو شخصيا ، وهكذا عدلت لجنة الضباط ومجلس الجيش من توصياتها بالنسبة للترقيات والتعيينات ، حتى لا تتعارض هذه التوصيات مع رغباته ، ووصل الامر بالوزير في بعض الحالات الى رفض توصيات المفتش العام . ونتيجة لتدخل الوزير ، اقترح البرلمان توسيع اختصاصات لجنة الضباط ومجلس الجيش على حساب السردارية والمفتشية العامة بهدف جعل وظيفة المفتش العام بلا فاعلية (١) .

كما أنه تقرر - طبقا لمشروع الميزانية الجديدة - ادماج مصلحة الحدود مع خفر السواحل في إدارة واحدة ، وهذا القرار يبدو أنه إداري بحسب ، ولكن الحقيقة هي أن وزير الحربية كان يرغب في إعفاء خمسة من الضباط البريطانيين السبعة العاملين في المصلحة ، وأن يحل محلهم في نفس الوقت *Paris Passu* ضباطا مصريين ممن شاركوا في الحرب مع السنوسي أو من الذين أعيدوا من السودان بعد مقتل السردار ، كما أنه أصدر تعليمات كتابية بالفعل بالنسبة للعائدين من السودان ٠٠٠ إلا أن المنحوب السامي تدخل في الأمر ، مما أدى إلى استبقاء الضباط البريطانيين في مصلحة الحدود ، (١) وأن كان الوزير قد أوضح أنه قد وضع شروطا جديدة للتعاقد معهم في الميزانية القادمة وذلك لاستبعادهم ، (٢) كما أنه خصص بندا في الميزانية للضباط العائدين من السودان لتخصيص وظائف لهم (٣) .

وأكثر من ذلك ، اقترح الوزير تحويل قوافل الجمال ودوريات السيارات - بالنسبة لمصلحة الحدود - إلى قوة بوليسية بدون سلطة مركزية كما أنه في نفس الوقت قامت الحكومة بدراسة مشروع لتطبيق القانون المدني والإدارة المدنية على القبائل النائية ، بدلا من سريان التقاليد القبلية . (٤) وكان الغرض من هذه الخطوات هي بطبيعة الحال لفرض السيطرة المصرية على القبائل العربية التي تقطن الحدود ، وفي نفس الوقت *Pro Tanto* إلغاء النفوذ البريطانية عليها . (٥) ويصور لويد خطورة الموقف بالنسبة للمصالح البريطانية بقوله : أن نائب المدير العام لمصلحة الحدود - وهو في الوقت نفسه القوة المحركة للمصلحة - مشهور ببغضه للإنجليز ، وهو يعمل في اتصال وثيق مع الوزير ، وقد قام بمحاولات عديدة للحد من مكانة وسلطة الضباط البريطانيين العاملين في المصلحة . ويمكن القول بإيجاز أن موقف حاكم عام سيناء - الإنجليزي -

P.R.O. F.O. (407-204) b No. 76 op. cit

(١)

P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٢)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No 76 op cit

(٣)

P.R.O. F.O. (407-204) b No 78 op cit

(٤)

P.R.O. F.O. (407-204) b No. 76 op. cit

(٥)

بوجه خاص قد ازداد صعوبة . ولا ننسى ان مصلحة الحدود هي مصلحة كبيرة ، ولئلا تلعب دورا هاما في خطة الدفاع عن مصر ، وان نجاحها الحالى فى التعامل مع البدو الذين لا يخضعون لاي قانون انما يرجع الى الضبط وحسن الانتظام العسكرى والادارة المركزية ، (١) .

واعتبر لويد ان من بين الاساليب العدائية ايضا قيام البرلمان المصرى بدناقشة اقتراح لبعض النواب فى ٢ مارس ١٩٢٧ لتغيير نظام الخفراء القائم وجعله يسير طبقا لقانون التجنيد الاجبارى ، وان يقوم ضباط من الجيش بتدريب الخفراء ، وعلق لويد على ذلك بقوله « اننا لا يمكننا اغفال مغزى هذا الاتجاه » (٢) .

والواقع ان الاقتراحات المصرية بتخفيض مدة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣ سنوات ستزيد من قوات الاحتياط المدربة على استخدام السلاح ، والتي يمكن استدعاؤها فى اى وقت ، وامكان مضاعفة القوات المسلحة بهذه الأعداد من قوات الاحتياط ، كما ان تدريب الخفراء على ابدى ضباط من الجيش المصرى سيزيد ايضا من قوة حملة البنادق ، ولا تدخل كل هذه الأعداد فى الاحصاء الرسمى لعدد افراد الجيش المصرى رغم انها بالفعل تشكل قوة لا بأس بها .

تطور الجيش المصرى حجما وتسليحا :

يمكن بتحليل تطور الجيش المصرى فى هذه الفترة ان نستخلص ان هناك مخططا مصرية لزيادة فاعلية هذا الجيش كما وتسليحا ، مما قد يؤدى فى النهاية الى اتخاذ سياسة معادية لبريطانيا . . . والتقرير التالى الذى ارسله اللورد لويد الى المستر تشمبرلين فى ٣ مارس ١٩٢٧ مع التحليل الخاص به يوضح هذه الحقيقة :

P.R.O. FO. (407-204) b No 87 op cit

(١)

P.R.O. F.O. (407-204) 76 op cit

(٢)

١٩٢٦	١٩٢٢	١٩١٤	
١١	٧	٣	كتائب المشاة
٤	١	١	بطارية مدفعية
٢	١	١	س حراسة مدفعية
٢	١	١	اورطة خيالة
١٠٥٨١	٤٨٠٠	٢٥٠٠	اعداد الافراد

والزيادة السابقة هي عبارة عن :

(ا) المشاة : في عام ١٩١٤ كانت هناك ٦ كتائب مشاة في السودان ، منها ٤ كتائب أعيدت الى مصر أثناء الحرب العالمية الاولى ، وبعد الحرب بقيت منها اثنتان في مصر وأعيدت اثنتان الى السودان . ولكن لم تلبث ان أعيدت هاتان الكتبتان الى مصر في نوفمبر ١٩٢٤ بعد مقتل السردار .

وفي عام ١٩٢٥ ، زاد الجيش المصري بكتيبتى مشاة مـ ، تدعيم افضل ، وبصفة رئيسية لاستيعاب العائدين من الكتائب السودانية .

(ب) المدفعية : بعد مقتل السردار ، أعيدت ٣ بطاريات مدفعية وسرية حراسة مدفعية الى مصر .

(ج) الخيالة : تم تشكيل اورطة خيالة جديدة لاستيعاب العائدين من السودان .

هذا بالاضافة الى ان الحرس الملكى الذى شكل اعتباراً من عام ١٩٢٢ اصبح في عام ١٩٢٧ يتكون من ٣٩ ضابطاً و ٩٧٦ من رتب أخرى (ا)

ونستخلص مما سبق أن الزيادة الحقيقية في الجيش المصرى في مصر - ما عدا الاستثناء الخاص بالحرس الملكى - كانت نتيجة لعجلة

P.R.O. F.O. (407-204) b No 77 (J, 529/184/16) (١)
No. 62 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March 3, 1927.

اخلاء الجيش المصرى للسودان (١) .

وكان الجيش المصرى فى عام ١٩١٤ تحت القيادة البريطانية ، وكان السردار مفيما فى السودان ، وكانت كل الرئاسات والقيادات وهيئات المصالح والادارات بريطانية ، أما فى عام ١٩٢٧ ، فكان هناك فقط ٩ ضباط انجليز بخدمون فى الجيش المصرى ، واحدهم هو المفتش العام الذى من افروض انه يمثل السردار ، ولكن الحكومة المصرية رفضت اعطاءه لقباً اعلى من مفتش عام له اختصاصات تنفيذية .

واذا قارنا بين تسليح الجيش المصرى فى عام ١٩١٤ وعام ١٩٢٦ لوجدنا ان التسليح فى العام الاول كان عبارة عن ٦ مدافع ٢٩٥ بوصة و ٤ مدافع مكسيم ٤٥٠ وبنادق ٣٠٣ . أما فى عام ١٩٢٦ فقد تم تدعيم المدفعية والمشاة حتى أصبحتا تضمان ٢ مدفع ٣٧٥ بوصة هاوتزر ، و ١٢ مدفع ٢٩٥ بوصة ، ٦ مدافع ١٠ بوندر ، ٤ مدافع فيكرز آلى وبنادق ٣٠٣ .

أما الحرس الملكى فقد تم تسليحه بعدد ٦ مدافع فيكرز آلية ، ٢ مدفع آلى هوتشيكس ، ٦ مدافع لويس عدا البنادق (٢) .

واستخلص لويد من الملاحظات السابقة بالنسبة لزيادة الجيش المصرى كما وتسليحها ، انه لابد من اتخاذ موقف بريطانى صلب تجاه مخططات الحكومة المصرية الرامية الى اقامة الجيش المصرى القوى مهما كانت النتائج ، لان هذه النتائج مهما كانت ستكون شيئاً قليلاً بالمقارنة بما يمكن أن تجابهه بريطانيا فى وقت لاحق . « فالبرلمان المصرى سوف يطلب فى المستقبل القريب تنفيذ المسائل الآتية :

(١) تدعيم كتائب المشاة ، مع تشكيل كتيبتين جديدتين ، وهذا يؤدى الى زيادة المشاة بعدد ٣٦ ضابطاً و ١٦٢٠ من رتب اخرى .

P.R.O. F.O. (407-204) b No 86 (J, 841/184/16) Memo on (١)
the Egyptian Army by the secretary of State for Foreign Affairs. April
I, 1927.

P.R.O. F.O. (407-204) b No 77 op cit

(٢)

(ب) تخفيض مدة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣ سنوات ، ويعنى هذا زيادة قوات الاحتياط ، وأن هذا المشروع هو لارضاء الفلاحين الذين تأتى منهم غالبية الجنود ، وليست هناك خطورة من هذا الاجراء لأن استدعاء الاحتياط فى وقت الطوارئ هو امر بالغ الصعوبة فى مصر .

(ج) شراء ٢٢ مدفع رشاش للكثائب المشاة . وهذه المدافع هى اضافة خطيرة الى تسليح الجيش المصرى .

(د) اقتراح ادماج الحدود مع السولحل بهدف وضعهما تحت الادارة المصرية .

(هـ) البدء فى تشكيل قوات جوية مصرية ، (١) .

ومن النقاط السابطة اعتبر لويد أن (ا، ب) هما نسبيا غير مرفوضين فى حد ذاتهما ، بينما (ج، هـ) لا يمكن تنفيذهما بدون المساعدة البريطانية . أما النقطة (د) فهى فى درجة اقل من الأهمية بالنسبة للمشاكل الرئيسية . كما اُضيف لويد أنه كلما مضى الوقت، كلما زادت الصعوبات أمام بريطانيا ، وأن الحسم السريع هو افضل من الانتظار لفترة تالية (٢) .

كما أوضح لويد أنه لم تفهم حكومة مصرية واحدة حقيقة تصريح ١٩٢٢ بالنسبة للجيش المصرى ، فالتصريح لم يضع تحديدا ولا فيودا على الوحدات العسكرية المصرية ، مما أدى الى تشجيع العمل على تبعية هذه الوحدات للسيطرة الوطنية ، ومحاولة تدعيم الجيش المصرى عددا وعدة . واضاف لويد أن البرامج العسكرية التى وضعها وزراء الحربية المتتابعون تتعارض مع اثنين من التحفظات . . فزيادة القوة الحربية المصرية تيسد المواصلات الامبراطورية وخصوصا بالنسبة لقناة السويس كما أنها تعقد الدفاعات البريطانية عن مصر ضد العدوان الخارجى ،

كما ان هذه الزيادة « ستجعل دفاعنا عن المصالح الاجنبية في مصر أكثر صعوبة » واسترسل لويد موضحا أن بريطانيا بالاضافة الى ما سبق ، سوف تواجه بعض الاقتراحات القوية والمحاولات الذكية لاضعاف مكانة المفتش العام والضباط الانجليز الذين يعملون معه ، وكذلك الذين يعملون في مصلحة الحدود وخفر السواحل ، كما تواجه الاقحام التدريجي للجيش المصرى فى السياسة » .

خطة لويد لحل الازمة :

حل لويد الموقف بأن أمامه ان يختار أسلوبا من ثلاثة أساليب مطروحة للتعامل مع المصريين : أولا ان يترك الامر تسير فى طريقها بأمل ان الاعتبارات المالية سوف تمنع الحكومة المصرية من السير بعيدا فى هذا المضمار ، وثانيا أن يقوم بعرقلة هذه الاتجاهات باستخدام الضغط الشخصى وغير الرسمى ، وثالثا ان يقدم مطالب محددة للحكومة المصرية (على شكل انذار) .

وأوضح لويد أن السبيل الاول لا يمكن ان يكون فعالا ، لان الحكومة المصرية قد صرح عزمها على اقامة الجيش المصرى القوى مهما كلفها الأمر . أما السبيل الثانى فان نتائجه غير مضمونة ، وهكذا لم يتبق من سبيل لحل الازمة سوى السبيل الثالث . وأردف لويد انه من الواضح « أنه ليس لدينا خيار سوى ارسال المطالب البريطانية الى الحكومة المصرية بدون تأخير وبشروط حاسمة وبصيغة ودية .. على أن ندعم مطالبنا بكل قوة ممكنة .. واذا ما فعلنا ذلك ، فان هذا التدعيم سوف يحقق كل الظروف الممكنة لحل الازمة دون عنف ، وذلك بالمقارنة بما قد نضطر الى أن نفعله فى وقت لاحق » (١) .

وقد وافق تشمبرلن على آراء لويد السابقة ، مع التأكيد على ان أى سياسة يتم اختيارها بالنسبة للعلاقة مع الحكومة المصرية ،

يجب أن يكون معقولة وبناءة طبقا لما تسمح به الظروف (١) .

ويبدو أن لويد كان يحاول في هذه المرحلة وضع حل شامل للزمة ،
لانه في ٩ مارس ١٩٢٧ أوضح أن مخططاته لا ترمى فقط الى منع الارهاب
القائم في السياسة البريطانية تجاه زيادة الجيش المصرى عددا وعدة ،
بل أيضا لتقديم أسس نسوية نهائية ، عندما نكون هذه التسوية
محتملة الوقوع .

وبدا لويد في ابراز خطته القادمة لحل الازمة مركزا على أن أسس
الحل الشامل انما تستند على مبدأ (الأخذ والعطاء) اما الأخذ البريطاني
فانه يركز على الاسس الآتية :

١ - المحافظة على سلطات ومكانة المفتش العام ، مع التذكير بأنه
عند تأسيس قوة الدفاع السودانية في يناير ١٩٢٥ ، فإن هدستون
باشا - طبقا لتعليمات اللورد اللنبى - فوض كل سلطانه الى المفتش
العام وأنه قد تم ابلاغ الحكومة المصرية بذلك . . . الا أن هذه
الحكومة لم تعتبر المفتش العام أبدا ممثلا للسردار ، رغم اضطلاعه
باختصاصات منصب الأخير منذ ذلك الوقت . كما اقترح لويد منح
المفتش العام رتبة الفريق وزيادة مناسبة في راتبة ، كما أوضح أن
استجابة الحكومة المصرية لهذه المطالب تعنى اعترافها بأن وزير
الحربية هو فقط التناة الرسمية الادارية لرفع توصيات لجنة الضباط
الى الملك (٢) .

٢ - تعيين ضابط بريطاني عظيم في القيادة المصرية ، ليحل محل
المفتش العام أثناء غيابه . (٣) ويمكن أن يلعب هذا الضابط بمساعد
المفتش العام ، لانه لا يمكن عمليا الاعتماد على ضابط تنفيذى واحد .

P.R.O. F.O. (407-204) No. 80

(١)

(J. 601/ 184/16 No. 67 Sir A. Chamberlain t. Sord Sioyd
F.O. March 11/ 1927.

P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٢)

P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 (J 601/184/16)

(٣)

No. 75 Lord Dioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March, 9, 1927.

(م ٢٢ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

واستخلص لويد أن المفتش العام سيسعده بطبيعته الحال الاعتراف الرسمي بالسلطات المفوضة له من قبل هدلستون باشا ، وكذلك تعيين مساعد له ، وأنه يمكنه بهذا الأسلوب تحقيق الأهداف البريطانية بالنسبة للجيش المصرى لفترة غير محدودة ، باعتبار أن مدانة سبنكس فى الجيش المصرى هى - من وجهة النظر البريطانية - اهم نقطة فى المسألة كلها .

٣ - وضع مصلحة الحدود - التى سوف يتم ادماجها مع خفر السواحل - تحت السيطرة المباشرة للمفتش العام ، مع استمرار (الوضع الراهن) بالنسبة لهذه المصلحة لأنه سيكون على حسابنا تحولها الى الإدارة الوطنية ، على أننى لا أتح على ضرورة إعادة تعيين مدير عام بريطاني لها ، بشرط أن لا يعمل ضابط بريطاني تحت امره ضابط مصرى الا كمستشار ، (١)

كما اعترض لويد على اقتراح تشبرلن الخاص بفصل مصلحة الحدود عن وزارة الحربية لان هذا الاقتراح - فى رأيه - اذا ما تم تنفيذه ، فإنه سيؤدى بالسلطات البريطانية الى أن تفقد رقابتها على الحدود المصرية ، وتحول هذه المصلحة الى وضع جديد كلية ، هذا بالاضافة الى أن القبائل فى المناطق النائية هى أسس قيادة للانجليز تحت الحكم العسكرى عن الحكم المدنى كما أوضح لويد انه من الخطورة بمكان معاملة مصلحة الحدود وكأنها منفصلة عن المشكلة كلها (٢) .

وكان هذا - فى رأى لويد - هو (الأخذ) البريطانى الذى يركز على البنود الثلاثة السابقة وأنه فى مقابل موافقة الحكومة المصرية على تلك البنود ، او بالاحرى على ذلك (الأخذ) البريطانى ، فإنها تستحق (العطاء) البريطانى أيضا ، وذلك على شكل حصولها

P.R.O. F.O. (407-204) b Nò 87 op, cit

(١)

P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

(٢)

على تدعيم بالاسلحة المتطورة لكتائب المشاة التسعة ، وتخفيض فترة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣ سنرات ، والبدء فى تشكيل قوة جوية مصرية (١) . الا ان لويد - من ناحية أخرى - عبر عن اعتقاده فى أنه يجب عدم السماح للحكومة المصرية - فى تلك المرحلة - بالحصول على ٢٢ مدفع آلى (رشاش) والتي كان قد وعد بها اللورد اللنبى ، لأن مثل هذه الزيادة فى تسليح الجيش المصرى - فى رايه - سنؤدى ببريطانيا الى ضرورة تدعيم جيش الاحتلال ، وعدم تتركز اى قوات مصرية على طول قناة السويس ، أو على خط مواصلات القاهرة - الاسماعيلية (٢) . وعلاوة على ذلك ، وطبقا لراى قائد عام قوات الاحتلال ، فان اى حكومة (انسانية) تستبعد استخدام الاسلحة الآلية ، « لأنه اذا ما قام صراع ضد الاسرة الحاكمة - والذي نرغب بعض قطاعات من حزب الوفد فى القيام به - فان الجندى الوطنى قد ينضم الى الثأرين ، وأنه اذا كان مسلحا بسلح آلى ، فإنه سيصبح من الصعب كثيرا على قرائتنا المحافظة على النظام دون ارافة دماء كثيرة » (٣) .

الا ان لويد - لاعتبارات كثيرة - عاد واقتنع بوجهة نظر تشمبرلن بخصوص بيع المدافع الآلية الى الجيش المصرى ، فى مقابل تنفيذ المطالب البريطانية ، وان كان قد وضع بعض الاجراءات الوقائية لتنفيذ هذه العملية . « فهذه الاسلحة يمكن تقديمها فقط للجيش المصرى فى مقابل تعيين ٤ ضباط بريطانيين كخبراء ، وبراى ضابط واحد لكل لسواء من الرية المشاة الاربعة ، وان الحكومة المصرية ستجد نفسها مضطرة الى قبول هذه الخبرة » .

واضاف لويد ان المقتش العام بحصوله على السلطات الفعالة سيشعر بالثقة ، ويستطيع بذلك ان يسيطر على استخدام هذه المدافع الآلية ، والتقليل من خطورة استخدامها (٤) .

P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 op cit

(١)

P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

(٢)

P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٣)

P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

(٤)

وقد وافق الجنرال هوكنج - قائد قوات الاحتلال - بالتالى على تدعيم الجيش المصرى بهذه المدافع الآلية ، بشرط ان توافى الحكومة المصرية على الترتيبات السادقة كاجراء وقائى بالنسبة لامن قوات الاحتلال فى مصر .

واتفق أيضا كل من لويد والمفتش العام وكذلك قائد قوات الاحتلال فى أن الطريق المؤكد لابعاد الجيش المصرى عن السياسة فى تلك المرحلة من التطور ، هو تحقيق السيطرة البريطانية على الترقيات والنعيينات والاوزمة على خطط سليمة أما العمل على استبعاد الضباط البريطانيين عن الجيش المصرى - وهو المبدأ الذى كان يعتنقه السير لى ستاك - فأمامه اعتراضات قوية من وجهة النظر البريطانية :

١ - أن تعهد مصر بالضمانات التى تطالب بها بريطانيا سيصبح من الصعب تحقيقه .

٢ - أن الجيش المصرى سيتحول بسرعة الى جهاز سياسى

٣ - أنه بالنسبة لمصلحة الحدود ، فان بريطانيا ستفقد بموذهما على القبائل فى المناطق الغائية بدون الحصول على أى تعريض فى مقابل ذلك (١) .

وأكد لويد - فى هذا السياق - أن بريطانيا تتعامل مع حكومة رفضت السماح بشرعية التحفظات الاربعة ، وأنه يمكن التعامل مع أى حكومة مصرية تتمسك بالإوافة على هذه التحفظات « لا أنه مع وجود برلمان معها فانه لا يمكن لى حكومة مصرية اتخاذ سياسة 'إيجابية مع بريطانيا' » (٢) .

وفى ٢٢ مارس ١٩٢٧ اقترح لويد كعملية (تكنيكية) الاتصال بالحكومة المصرية على الخطوات التالية :

« نحن ندألب تسوية ودية مع مصر ، وأيا كانت هذه التسوية ، فانها سوف تساعدنا في حماية مصالحنا الحيوية ، ومن بين هذه المصالح حماية مواصلاتنا الامبراطورية ، وحماية مصر من العدوان الاجنبى ونحن نتمنى أن يتحول الجيش المصرى الى قوة حديثة ذات كفاءة ، وتشكل جزءا مكملًا لحطاطنا الدفاعية ، ونحن مستعدون ان نمنح مصر كل المعاونات لتشكيل مثل هذه القوة طبقا لشروط خاصة طالما هى متعارضة معنا . ويجب أن يتم تدريب هذه القوة المصرية الحديثة على الخطوط البريطانية ، مع توافر العدد الأدنى من الضباط (الخبراء) البريطانيين اللازمين .

« ونحن قد جذبنا الانتباه مؤخرا - أكثر من مرة - الى اتجاه غير مريح من جانب الحكومة المصرية لجعل الجيش المصرى أداة سياسية ، وهذا ما أدى الى انهيار جبرش عديدة فى مناطق كثيرة . قد صاحب ذلك مجهودات لالغاء سلطات المفتش العام والضباط القليلين الذين لا يزالون يعملون فى خدمة وزارة الحربية . وهذه الاتجاهات سوف تقضى على فرض التسوية الودية للمسألة . وأنا أرجو مخلصا التوفيق فى دفع أساس الحل المرضى لكلا الدولتين ، ولذلك اطلب من مصر إعادة النظر فى موقفها .

« ومن أجل التوصل الى تسوية مؤقتة *Modus Vivendi* فنحن بمن جانبا مستعدون للموافقة على اقتراحات معينة فى صالح مصر ، على أن تقوم مصر بالمقابل بمراعاة مصالحنا .

« واذا لم توافق الحكومة المصرية على هذه المقترحات ، فلا بد أن أن يكون واضحا أنه ليس أمامنا خيار ، بل إعتبار الجيش المصرى كعدو محتمل لنا ، وفى هذه الحالة سوف نضطر الى اتخاذ اجراءات ومائية بدون تأخير لحماية حقوقنا ومصالحنا » (١) .

الا ان هذه السياسة - في رأى لوييد - لا يمكن ان تكون سوى حل مؤقت لان الحكومة المصرية سوف تفضل في النهاية ان تقدم استقالتها . الا ان مستشارى لوييد ابلغوه ان قسما كبيرا من رجال حزب الوفد لن يعارض المطالب البريطانية ، ومع ذلك سجل لوييد ان سعد زغلول هو حجر الزاوية في الموافقة او الرفض بالنسبة لهذه المطالب (١) .

كما اضاف لوييد : انه من المحتمل ان يتحقق سعد زغلول من ان مصر قد تفقد أكثر بالمخاطرة باثارة أزمة مع بريطانيا في هذه الفترة ، لانه من المتوقع ان تجد مصر نفسها لفترة غير قصيرة بدون وزارة وفي مثل هذه الحالة ، فان تسلط القصر على مجريات الامور السياسية سيكون امرا محتما ، (٢) .

وعبر لوييد عن اعتقاده بأنه في امكان تسميرلن الدفاع عن مقترحاته في مجلس العموم رغم أنها بعتابة تسوية مؤقتة للمسألة ، (٣) وأنه يمكن تلخيص المسألة امام الحكومة البريطانية ببساطة ، بأنه لا يمكن التعامل مع أى حكومة مصرية مهما كانت متعاطفة مع الانجليز مع وجود برلمان معها ، وأنه لا بد من وقفة بريطانية صلبة ضد المشروعات المصرية لاقامة الجيش المصرى القوي (٤) .

كما عبر لوييد عن استيائه بالنسبة لعلاقاته مع رئيس الوزراء المصرى (ثروت) فبعد ان كانت هذه العلاقات ودية ، فانها ساءت كنتيجة حتمية لتمسك المذدوب البسامى بالدفاع عن المصالح البريطانية ، وان الجيش المصرى هو أخطر نقطة في هذه المصالح (٥) .

-
- | | |
|--------------------------------------|-----|
| P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit | (١) |
| P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit | (٢) |
| P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit | (٣) |
| P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 op cit | (٤) |
| P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit | (٥) |

وقد تلق تشمبرلن على آراء لويد بأنه من المهم - من وجهة النظر البريطانية - جعل الحكومة المصرية توافق على ممارسة الجنرال سبنكس وغيره من الضباط البريطانيين لسلطاتهم ، وأن الحصول منها كتابة على هذه الموافقة بعد أمرا ملزما في انتظار عقد اتفاق نهائى بالنسبة للتحفظات الواردة في تصريح ١٩٢٢ .

كما ركز تشمبرلن على أهمية تنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى للدفاع عن مصر ، وأن « مزايا ذلك واضحة ... فاننى اقلل من المخاطرة التى قد فواجهها لو أن مصر نجحت في دخول عصابة الهم » . والواقع أن ضعف موقفنا يرجع بصفة رئيسية الى أن منظمة دولية مثل محكمة العدل لن تعترف بأن التحفظات الاربعة تجعل وجرد جيش الاحتلال في مصر أمرا مشروعاً (قانونياً) ، الا أنه باتفاق عسكري مكتوب يمكن وضع أسس للمشاركة وبموافقة كلا الطرفين . كما أن مثل هذا الاتفاق بطبيعة الحال سيدعم شيئاً ما مسألة ابعاد الجيش المصرى عن المسرح السياسى » (١) .

كما عبر لويد عن قلقه من أن يصدر البرلمان المصرى في هذه الفترة قرارات خاصة بالجيش المصرى يضع بها بريطانيا أمام الامر الواقع *Faits accompli* . وأوضح أن مثل هذا العمل سوف يجعل اتصالاته مع الحكومة المصرية أكثر صعوبة ، وسلم بأن أملة الوحيد يتركز في محاولة اقناع رئيس الوزراء بالعمل دون أن يستسلم للضغوط من جانب الوفد والبرلمان .

كما طلب لويد من تشمبرلن أن بمنحه السلطة في اتخاذ أية اجراءات ضرورية في حالة فشله في اعاقه لبرلمان عن اتخاذ قرارات متطرفة من وجهة النظر البريطانية - وأنه في مثل هذه الظروف « ... فاننى سأقدم الى مجلس الوزراء فرصة للتعاون اليردى على الخطوط العامة للمذكرة

التي سبق ان اقترحتها في ٢٦ مارس « (١) واسترسل لوييد موضحا
« ان رفضه لهذا العرض البريطاني سوف يساعدني في اتخاذ الحل
الذي اراه » (٢) .

وقد وافق تشمبرلن على مقترحات لوييد السابقة ، كما أكد على
لوييد بأن لا يصور للمستولين المصريين بأن المدافع الآلية هي مرتقبة الوصول
الى مصر (٣) .

والواقع ان خطط لوييد ومقترحاته وآراءه في كيفية حل أزمة الجيش
المصري في هذه المرحلة ستكون أساسا للطريقة التي عالج بها هذه المسألة
الشائكة - من وجهة النظر البريطانية - وستكون كذلك أساسا
لاتصالاته المكثفة في هذا الصدد ، عملا على حل الازمة بأقل قدر من
الخسائر في جانب بريطانيا وبأقل قدر من التدخل في الشؤون المصرية .

اصالات لوييد لحل الأزمة :

في أوائل مايو ١٩٢٧ ، بدأ لوييد اتصالاته المكثفة مع المسئولين
المصريين لاجهاض تلك الفورة الوطنية من أجل بناء الجيش المصري القوي ،
فهو بعد الدراسات التي أعدها ، والمراسلات العديدة التي تبادلها
مع المسئولين في وزارة الخارجية البريطانية ، بدأ خطة العمل بهذه
الاتصالات . فبدأ في بداية مايو ١٩٢٧ بمقابلة مع الملك فؤاد ، وتطرق
الحديث بينهما عن أزمة الجيش المصري . وقد امتدح الملك التدخل
الانجليزي في شئون جكشه ، وأوضح ان هذا التدخل ليس فقط خطوة متعقلة
بل انها متأخرة ايضا . واعتبر لوييد ان آراء الملك معقولة ومعتدلة .
ثم سعى المندوب السامي بعد ذلك - واثناء مقابلته مع الملك - في

P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit (١)

P.R.O. F.O. (407 204) b No. 85 (J. 743/184/16 (٢)

No. 98 Lord Liyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, March 27, 1927.

P.R.O. F.O. (407-204) b No. 88 (J, 922/184/16) (٣)

No. 101 Sir Austen Chamberlain to Lord Liyd (Cairo) F.O. April 13, 1927.

تعميق الهوة بين الملك وحزب الوفد بأشعارته الى أن من اهداف الوفد الاطاحة بالاسرة المالكة . وفي النهاية استخلص لويد من الملك وعدا بأن يبذل جلالته كل مساعيه لضمان الموافقة على المطالب البريطانية ، كما اوضح بأن ثروت باشا (رئيس الوزراء) سوف يسعى للموافقة عليها ، ولكنه شكك في موقف سعد زغلول .

أما ثروت فقد اوضح - اثناء مقابلة له مع المندوب السامي في نفس الفترة - عن امله في أن يكون قادرا على تلبية الرغبات البريطانية ، الا انه طلب جعل هذه المسألة شخصية وغير رسمية حتى يجد الفرصة لمناقشتها مع الملك وفي اجتماع مجلس الوزراء ، وقد وافق لويد على ذلك ، ولكنه علق بأنه سوف يؤكد بأن الحكومة البريطانية لن توافق على سياسة التسوية بأن موقف المفتش العام يجب أن يتحدد في القريب العاجل (١) .

ويبدو أن ضغط ازمة الجيش كان كبيرا على الحكومة البريطانية ، حتى انها قامت بعدة اتصالات دولية بخصوص هذه الازمة ، ففي ١٠ مايو ١٩٢٧ استدعى المندوب السامي السفير الفرنسي في القاهرة ، المسيو جيلارد Gaillard وابلغه باتجاهات الحكومة البريطانية بالنسبة لازمة الجيش المصري ، وقد ابدى الممثل الفرنسي موافقة حكومته الكاملة على السباسة البريطانية ، كما عبر عن وجهة نظره في أن الحكومة المصرية قد تفضل الموافقة على المطالب البريطانية على المخاطرة برفضها (٢) .

كما أن السنيور موسروليني ارسل الى سفيره في القاهرة في نفس الفترة ، يطلب ابلاغ المندوب السامي تعاطفه واستعداده لبذل أي مساعدة بالنسبة للصعوبات التي تواجه بريطانيا مع الحكومة المصرية بالنسبة

P.R.O. F.O. (407-204) b. No 90 (J. 1217/184/16) (١)

No. 172 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 9, 1927.

P.R.O. F.O.(407-204) b No 91 (J. 1222/184/16) (٢)

No. 175 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 10, 1927.

لأزمة الجيش (١) .

واستمر لويد في اتصالاته المكثفة مع المسئولين المصريين ، فقابل ثروت باشا مرة أخرى في ١٢ مايو ١٩٢٧ وعرض عليه خطة للتعاون الودى في الامور الحربية بتعليمات من الحكومة البريطانية . الا أن رئيس الوزراء أوضح بأن المطالب البريطانية غير معقولة ، وأبرز شكوكه بالنسبة لمساعدة سعد زغلول في الموافقة على هذه المطالب . وأضاف رئيس الوزراء أنه سوف يزور سعدا في مزرعته بالريف ويناقش معه تطورات الازمة . كما تساءل ثروت عما إذا كانت بريطانيا متوافقة على مقترحاته الخاصة بجعل الضباط الانجليز في الجيش المصرى على شكل بعثة عسكرية ، فأجاب لويد بأن الحكومة البريطانية مستعدة للموافقة على هذه المسألة الشكلية لمسيئته أمام البرلمان وأمام الراى العام المصرى ، ولكن مع ضمان السلطات والاختصاصات الضرورية للمفتش العام . ولم يستطع لويد ان يستخلص شيئا من كلمات ثروت باشا ، ولكنه استنبط أن ثروت سوف يزور سعد زغلول في منزله الريفى ومعه كل أعضاء مجلس الوزراء لمناقشة الازمة (٢) .

وبدا أن سعدا هو حجر الزاوية في الموافقة او عدم الموافقة على المقترحات البريطانية .

ولم يهدأ لويد ، بل قابله الملك، فؤاد مبرة أخرى في منتصف مايو ١٩٢٧ ، وأوضح الملك أنه يبذل قصارى جهده لاقناع رئيس وزرائه بالموافقة على المطالب البريطانية . . . الا أن لويد سجل بأنه قد تبين له مدى تقييد الدستور المصرى للملك . . . هذا بالإضافة الى أنه لى قام الملك بتدعيم موقف البريطانيين فإنه سوف يتهم بالخيانة العظمى وقد يمنعه المقطوفون من السفر الى لندن لى لا يزيد من هذه الخيانة ،

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No No 95 (J, 1346/8/16)

No. 195 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain, Cairo, May 22, 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 92 (J, 1268/184/16)

No. 80 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 13, 1927.

هذا بالاضافة الى ان الملك نفسه - طبقا لكلمات لويد - كان متمسكا بعدم اجراء اى عمل مناصف للدستور .

وفي المقابلة التالية مع ثروت ، فهم لويد ان ثروت لم يقم بزيارة سعد في منزله الريفي ، وان كل رجال الوفد كانوا في بيت سعد ما عدا وزير الحربية الجديد . وفسر رئيس الوزراء سبب عدم زيارته لسعد ، بأنه لم يرد ان يفهم العامة بان الزيارة تمت بناء على استدعاء سعد له . هذا بالاضافة الى ان موقفه سيكون صعبا عند مناقشة أزمة الجيش وهو في قبضة رجال حزب الوفد ، وانه يفضل اتخاذ قراره مستقلا .

ومع ذلك ، أكد ثروت باشا أهمية مقابلة سعد زغلول بوصفه رئيس الأغلبية في البرلمان ، وانه سيدعوه الى مقابلته عند عودته من منزله الريفي الى القاهرة . وترجع أهمية ذلك - في رأى رئيس الوزراء - الى انه سوف تثار في البرلمان مناقشات حامية ضد المقترحات البريطانية ، وكذلك ستثار مناقشات بالنسبة للعلاقة بين هذه المقترحات وتصريح ١٩٢٢ ، ونظرية المسؤولية الوزارية . واضاف رئيس الوزراء انه لا يستطيع انكار ان ذكره سوف تقدم الى مجلس النواب توصى بالغاء السردارية واستبعاد المفتش العام من مجلس الجيش ، وان هذه المذكرة يظاهرها عدد كبير من أعضاء البرلمان الوفديين . وعبر رئيس الوزراء عن قلقه الشديد امام هذه الأزمة وانه يتوق الى حل سريع لها حتى يمكن تلافي أية مشكلات في المستقبل ، لان البرلمان مستعد تماما لمهاجمة اى عمل من جانب الحكومة يقدم « العمل الودى » كعمل ممكن تجاها بريطانيا .

واضاف رئيس الوزراء - خلال لقائه مع لويد - بأنه سيبذل جهده كى يستميل أعضاء البرلمان الى جانبه ، وانه اذا استطاع ان يهزم سعد زغلول فانه يكون قد كسب نصف المعركة .

الا ان لويد ابرز للملك فؤاد ولثروت باشا خطورة تأخر حل الأزمة ، وان المفتش العام يعصل بلا عقد منذ ابريل ابريل ١٩٢٧ . وانه

- أى المندوب السامى - اذا كان يعالج الازمة بطريقة غير رسمية ، فانه يجب عدم اغفال ان كل المراسلات بينه وبين ثروت هى كلها مراسلات رسمية . وهنا أوضح ثروت انه بعد مقابلته لسعد زغلول يمكنه أن يجيب على المطالب البريطانية فى ضوء هذه المقابلة . الا أن لوييد علق على ذلك بقوله « ان رئيس الوزراء المصرى لم يعط أى تأكيدات ، وأنه قد يكون مماطلا ، ويسعى لكسب الوقت » (١) .

ولم ينس لوييد ان يقابل وزير الحربية جعفر والى باشا فى ١٩ مايو ، الا أنه لم يدخل معه فى تفاصيل المطالب البريطانية بخصوص الجيش المصرى لأن ثروت باشا كان قد طلب منه ترك المسألة له ليحلها هو بطريقة الخاصة . وقد رحب الوزير بالسياسة البريطانية القائمة ، باعتبارها موجهة ضد حزب الوفد ، كما ألح فى وجوب الاعتماد عليه لضمان تحقيق حل للأزمة بتفق مع رغبات الحكومة البريطانية ، وأنه قد عقد علاقات حسنة مع المفتش العام (٢) .

وفى بداية الاسبوع الاخير من شهر مايو ، قابل المندوب السامى الملك فؤاد مرة أخرى ، وأوضح الملك أنه حث رئيس الوزراء بقوة للموافقة على المطالب البريطانية الخاصة بالجيش المصرى ، وأنه مع وجود صعوبة جانبية بالنسبة لاختصاصات السردارية ، فان كل شئ يسير سيرا حسنا (٣) .

كما قابل لوييد رئيس الوزراء مرة أخرى فى نفس هذه الفترة ، وشعر أنه يماطل من أجل كسب الوقت ، فأرسل له مذكرة تلخص مطالب الحكومة البريطانية ، ومبثية على مذكرته التى سبق أن أرسلها

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 93 (J. 1310/184/16)
No. 186 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 17, 1927.
(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 94 (J, 1322/184/16)
No. 188 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 19, 1927.
(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 96 (J, 1337/184/16)
No. 201 Lord Lloyd to Austen Chamberlain. Cairo, May 24, 1927.

الى وزارة الخارجية البريطانية في ٢٢ مارس ١٩٢٧ (١) .

واكد لويد لثروت باشا مرة اخرى ان الحكومة البريطانية ترحب
بفرصة وضع المطالب البريطانية في خطة أكبر للتعاون ، حيث يمكن للجيش
المصري أن ينسق مع القوات البريطانية في مصر لوضع خطة شاملة للدفاع
عن البلاد وأنه برحب بأي مقترحات مصرية في هذا الصدد .

كما أوري لويد - أنه اذا ما رغب ثروت - فانه يمكنه مقابلة سعد
زغلول والتباحث معه للتوصل الى حل للأزمة ، ولكن ثروت باشا طلب
منه أرجاء هذه المقابلة حتى يمكن له مقابلة سعد باشا أولا وطبقا لكلمات
لويد ، فان موقف ثروت بدا يرثى له أمام تأثير سعد زغلول الساحق
على نواب البرلمان .

ولم يلبث أن عاد ثروت وأبلغ المنحوب السامي بأن سعد زغلول فضل
تأجيل مقابله الى ما بعد تسوية أزمة الجيش بطريقة مريحة . . وفي وسط
هذه الدوامة من المقابلات والاتصالات والمراسلات ، سجل لويد « أن الجو
العام سييء جدا وأن المناخ السياسي ملئ بالغيوم السوداء » وأضاف لويد
« أن البلد يبدو هادئا ، الا أن الحكومة البريطانية يجب أن لا تنسى أن
أحداث ثورة ١٩١٩ قد وقعت وهي في غفلة عنها » .

وعلى أية حال ، فقد عاد ثروت مرة أخرى وقدم اقتراحا مضادا
وافق عليه سعد زغلول يقضى بانه عند الغاء السردارية . فانه يمكن
استحداث وظيفة رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصري على أن يحتلها
صابط بريطاني ، بالإضافة الى المفتش العام البريطاني أيضا ، فطلب
لويد من ثروت تقديم هذا الاقتراح كتابة ، الا أن ثروت لم يقدم
هذا الاقتراح مكتوبا . . ولكنه عاد مرة أخرى وقدم عرضا جديدا
يقضى بأن يكون كل من رئيس هيئة أركان حرب الجيش والمفتش العام -
وكلاهما انجليزى - في رتبة واحدة . وأن يحل الأول محل السردار ،
ويستحوذ على كل سلطاته . الا أن لويد أثناء مناقشة هذا العرض ،

أوضح أن العمل لا يسير حسنا بين ضابطي بنفس الرتبة ، إلا أن رئيس الوزراء أجاب على ذلك بأن مستشاريه العسكريين ليس لديهم اعتراض على ذلك ، باعتدال أن التقدم في نفس الرتبة يعطى التعليمات للأحداث في نفس الرتبة ، وبمعنى آخر أن يكون رئيس هيئة أركان حرب الجيش أقدم من المفتش العام رغم أنهما في رتبة واحدة .

ورويدا رويدا بدأ ثروت باشا يكشف عن رأيه بصراحه ، وكذلك رأى الزعماء السياسيين . فوضح « أن هناك بعض المسائل القانونية قد تؤدي الى بعض الصعوبات ، وأن بعض الزعماء قد أثاروا مسألة أن الجيش المصرى لا يدخل في إطار التحفظات الأربعة . وأكثر من ذلك ، فإن المادة السابعة من قرار تشكيل مجلس الجيش تعطى لوزير الحربية الحق القانونى الواضح للتدخل في كل التعيينات والترقيات والأوسمة ، وبتوصية من لجنة الضباط ، وأن الحكومة المصرية لا يمكنها أن تسلم في هذا الحق » كما أضاف ثروت أنه ليس هناك أى أمل في اقناع البرلمان بتعديل ذلك القانون ، كما أنه غير قادر على اقناع الوزراء بالموافقة على تغيير تبعية مصلحة الحدود وجعلها تحت الاشراف البريطانى . فوضح المفدوب السامى لثروت باشا عن خيبة أمله ، وأنه حتى بالنسبة للاقتراح الخاص بتعيين رئيس أركان حرب الجيش المصرى، فإنه لا يوجد ضابط بريطانى يحترم نفسه يقبل هذا المنصب في مثل هذه الظروف .

وعلق لويد على هذه المقابلة مع رئيس الوزراء بأن « علينا أن نتخذ خطوات أخرى لتأمين مصالحنا » كما أبقى الى تشمبرلز بأن « رئيس الوزراء المصرى بماتل ، (١) » .

وفي الأسبوع الاخير من مايو شعر لويد أن سعد زغلول يتدخل في المسألة عن طريق وزراء الخارجية والانسغال العميمة والاتصالات ، الذين اختاروا وجهة نظر وطنية في مواجهة المطالب البريطانية الخاصة بالجيش

المصرى . وقد أرجع لوييد هذا البحول Volta Fare من جانب هؤلاء الوزراء بعد أن كانوا قد وافقوا على هذه المطالب البريطانية الى خوفهم من الاتجاه المعارض للنواب الوطنيين ، والى اقتناعهم بأنه ليس في امكانهم التصدى للعاصفة التى سوف تثيرها موافقتهم على المطالب البريطانية فى البرلمان . ويجب أن نشير فى هذا الصدد الى أنه فى اجتماع لحزب الوفد فى بداية الاسبوع الاخير من مايو ، كرر سعد زغلول عزمه على رفض المطالب البريطانية ، ووافق الحاضرون على رايه بالاجماع (١) .

ولم ينس لوييد - غمرة تحركاته - مقابلة عدلى يخن ايضا فى ٢٤ مايو ، وناقش معه أزمة الجيش ، وعسر عدلى عن جهله الكامل بالموضوع رغم أن عملاء لوييد السريين كانوا قد أبلغوه - طبقا لكلماته - أن عدلى كان قد قام بمباحثات فى الموضوع مع ثروت وسعد قبل مقابلته للوييد ببضعة أيام . وعلى أية حال ، سجل لوييد أن عدلى « كان وديا أثناء المقابلة ، وأنه سيبذل كل جهده لاقتناع الحكومة بأنه من الحماقة معارضة اقتراحاتنا » .

وتطورت الامور بسرعة ، ففي ٢٤ مايو تسلم لوييد مذكرة خاصة من رئيس الوزراء تهسكت غيضا الحكومة المصرية رسميا بالنقط التالية على أسس قانونية :

١ - أن الجيش المصرى لا يدخل ضمن أى من التحفظات الاربعة الواردة فى تصريح ١٩٢٢ ، وأن مصر مطلق الحرية بالتالى للعمل فى هذا القطاع .

٢ - أن توصيات لجنة الضباط خاضعة لموافقة وزير الحربية .

٣ - أن الاقتراح الذى قدمه رئيس الوزراء بتعيين رئيس لهيئة اركان حرب الجيش المصرى هو نافع اساسا من الرغبة فى تلبية احباجات

الجيش وابعاده عن أية أعمال لها طبيعة سياسية . ومن ثم تمام المندوب السامي بمقابلة الملك فؤاد وأبلغه بما جاء في مذكرة رئيس الوزراء ، وقد انزعج الملك كثيرا من هذا النبا ، خصوصا وأنه كان على شفا سفر الى لندن ، وقد تعهد الملك بتدعيم المطالب البريطانية ، وعلق لوييد على ذلك « ليس هناك من شك في ولائه ، فهو أفضل المساعدين لنا » (١) وعلى أية حال ، جاءت الأنباء الى لوييد بأن البرلمان سوف يناقش مشروع ميزانية الجيش المصرى للعام النالى فى يوم ، ٢٥ مايو ، (٢) فقرر ارسال مذكرة خاصة يكرر فيها المطالب البريطانية المعروفة طبقا لراسلته السابقة فى هذا الصدد . (٣) .

المذكرة البريطانية الى الحكومة المصرية :

من التسلسل السابق ، يتضح أنه فى الاسبوع الاخير من مايو ١٩٢٧ وقعت أحداث خطيرة بالنسبة لازمة الجيش ، فقد وجه ثروت باشا بصفته الشخصية مذكرة رفض فيها أى حق قانونى للحكومة البريطانية فى التدخل فى شئون الجيش المصرى ، كما أن البرلمان المصرى امتسلا بمناقشات عنيفة معادية لبريطانيا ، ونصحت هذه المناقشات مطالب باعادة تشكيل مجلس الجيش واستبعاد المفتش العام من عضويته . وبدا أن البرلمان سوف يبحث المسألة برمتها فى الايام الاخيرة من شهر مايو . . . واعتبر لوييد أنه من الاهمية بمكان القيام بعمل مضاد وبطريقة فورية . وهكذا أعد مشروع مذكرة يحتوى على المطالب البريطانية للتصديق عليه (٤) . ولا يختلف هذا المشروع عما

-
- (١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 99 (J. 1388/184/16)
No. 203 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 24, 1927.
- (٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 101 (J 1389/184/16)
No. 207 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo May 25, 1927.
- (٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 99 (J. 1334/184/16)
No. 204 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 24, 1927.
- (٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 174 Memorandum reviewing
the Egyptian Army Crisis, C.M. Patriche, F.O. June 29, 1927.

سبق أن أرسله من مذكرات تطالب به كإشارة لكبرى للمفتش العام وتعيين مساعد له ، والسيطرة البريطانية على لجنة الضباط وعلى مساحة الحدود (١) .

وقد أجابت وزارة الخارجية البريطانية على الخدوب السامي بثلاث برقيات توضح فيها وجهة نظرها ، ففي البرقية الأولى ، وافقت وزارة الخارجية من ناحية المبدأ على مشروع المذكرة الذي كان لويد قد رفعه إليها ، إلا أن تشمبرلن لم يوافق موافقة صريحة على كل ما جاء في المذكرة ، فقد أوضح أنه قد فهم من مراسلات لويد السابقة أن الحكومة المصرية غير قادرة على مواجهة البرلمان « . . . لأنه لن يوافق بحال على مطالبنا ، وإن علينا أن نطلب من الملك فؤاد حل البرلمان ، وأن نعتمد نتيجة لذلك على جلالته في تشكيل حكومة نستطيع التعامل معها . . . » وأنه في مثل هذه الظروف ستكون هناك فرصة للتوصل إلى تسوية شاملة أفضل من التي نطالب بها الآن » (٢) .

ثم بدأ تشمبرلن يعدل في مشروع المذكرة التي اقترح لويد إرسالها إلى الحكومة المصرية (٣) . وأخيراً أرسل تشمبرلن في برقيته الثالثة مذكرة تمكن لويد من إرسال مذكرة الحكومة البريطانية على غيوتها إلى الحكومة المصرية . وقد ركز تشمبرلن في هذه المذكرة على أهمية صياغة اتفاق بين الحكومتين ، تتعهد الحكومتان بمقتضاه على تنسيق التعاون بين الجيش المصري ، والجيش البريطاني للدفاع عن مصر ضد أي عدوان خارجي . كما نصت المذكرة أيضاً على مسئولية الحكومة البريطانية من تدعيم الجيش المصري بالخبراء البريطانيين اللازمين ، هذا بالإضافة إلى مسئولية الحكومة البريطانية عن إمداد الجيش المصري بالأسلحة والذخائر ، على أن لا تحاول الحكومة المصرية الحصول

P.R.O. F.O (407-204) b, No. 82 op. cit,

(١)

P.R.O. F.O (407-204) b No 102 (J 1389/184/16)

(٢)

No. 153 Sir Austen Chamberlain to Lord Lloyd. F.O May, 27, 1927

P.R.O. F.O (407-204) b, No. 103 (J, 1389/184/16)

(٣)

No. 154 Sir Austen Chamberlain to Lord Lloyd. F.O. May 27, 1927

على هذه الاحتياجات من مصدر آخر غير بريطانيا (١) .

وقد علق لوييد على فكرة متروك الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية ، بأنه « يحقق حلا ممتازا ، وأنى سأبذل كل جهودي لضمان تحقيقه » (٢) .

وبعد ذلك أعد لوييد مذكرة مطولة تضم كل المطالب البريطانية من الحكومة المصرية ، وأرسلها الى تشمبرلن كي يحصل منه على الموافقة النهائية حتى يمكنه إرسالها الى الحكومة المصرية (٣) . وبعد دراسة عميقة لمسودة هذه المذكرة ، أجاب د . برلن بملاحظات عليها بالنسبة لبعض النقاط وحاول التقليل من عنف كلتيهما ، (٤) وإضافة بعض المقاطع اليها ، مع تعديل البعض الآخر ، مع تبيان أن تنفيذ المطالب البريطانية الواردة في هذه المذكرة ، سوف يؤدي الى صالح الطرفين (٥) .

وحاول لوييد في غضون هذه الفترة أن يصور لتشمبرلن الموقف المضطرب والمعادي للبريطانيين في مصر . . ففي ٢٧ مايو قدم مجلس الجيش توصياته القاضية بإلغاء السردارية لتعارضها من ناحية المبدأ مع المسئولية الوزارية ، وأوصى المجلس كذلك بإعادة تشكيل مجلس الجيش مع استبعاد المفتش العام (الانجليزى) من عضويته ، وكذلك إلغاء لجنة الضباط . هذا بالإضافة الى أن حزب الوفد ابرز عن سلوكه المعادي تماما للانجليز ، وحاول مقاومة المطالب البريطانية بأى ثمن ومهما كلفه الامر Coûte que Coûte وسجل لوييد أنه في مثل هذه الظروف ، فإننا لا يجب أن نعطيهم أى انطباع عن خوفنا من هذا التحدى : فإى

PR.O. F.O. (407-204) b. No. 105 (J. 1389/184/16) (١)

No. 156 Sir Austen Chamberlain to Lord Liyd, F.O. 1 May 27, 1927.

P.R.O. F.O (407-204) b. No. 115 (J. 1466/8/16) (٢)

No. 211 Lord Liyd to Sir Austen Chamberlain, Cairo, May 31, 1927

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 (J. 1392/184/16) (٣)

No. 206 Lord Liyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 25, 1927

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 103 op. cit. (٤)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 105 op. cit., (٥)

تصرف قد يفهم منه أنه ضعف من جاذبنا سيؤدي لا محالة الى فرص
الالتجاء الى العنف (١) .

كما أبلغ لوييد تشمبرلن أيضا في ٢٨ مايو أنه في اجتماع للهيئة
التنفيذية لحزب الوفد في منزل سعد زغلول في يوم ٢٧ مايو ، قرر
المجتمعون عدم التراجع عن أى بند من بنود مشروع ميزانية وزارة الحربية
التي سبق واعترض عليها المندوب السامي ، كما قرروا مقاومة المطالب
البريطانية مهما كانت النتائج ، (٢) وتنظيم المقاومة عند التصويت في
البرلمان . وأشار بعض المتحدثين في هذا الاجتماع الى أن سياسة
الاعتدال القائمة قد وضعت حزب الوفد في حالة فقدان السمعة ،
وأن الوقت قد حان للعودة الى السياسة التقليدية ، أى العداء الشديد
للبريطانيين .

وفي يوم ٢٨ مايو - وفي انتظار وصول موافقة الخارجية البريطانية
على مشروع المذكرة التي اقترح المندوب السامي ارسالها الى الحكومة
المصرية - قام لوييد بمقابلة الملك فؤاد لمعرفة مدى جهوده لاقتناع رئيس
الوزراء بالاستجابة للمطالب البريطانية ، وطبقا لما كان قد وعده به جلالتة .
ولكن لوييد سجل بأن أسلوب الملك كان متخاذلا ، وأنه عبر عن فشلة في
اقتناع ثروت بالاستجابة لهذه المطالب ، وأن سعد زغلول متصلب تماما
في رايه القاطع بالرفض ، لان حزب الوفد يسعى لاستعادة مكانته
التي أخذت في الهبوط - طبقا لكلمات الملك - وذلك باستغلال مسألة
الجيش المصرى كذريعة لتفجير العداء مع انجلترا . كما استفسر الملك عما
يجب ان تفعله الحكومة المصرية في حالة رفض المطالب البريطانية . . هل
سيطلب منه حل البرلمان ؟ وهنا حذر الملك بأنه في مواجهة حزب الوفد
فأنه سيحد أنه من الصعوبة بمكان ان يفعل ذلك . . وأن هذا الطلب هو

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 108 (J. 1421/184/16) (١)

No. 213 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 28, 1927

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 110 (J. 1422/8/16) (٢)

No. 214 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 28, 1927

بمثابة دعوته الى ارتكاب انتحار سياسى . وسجل لويد ان الملك بدأ خائفا تماما ، وان كانت صداقته مؤكدة لبريطانيا (١) .

وظلت الأزمة تشتد وتمتد ، وطلب لويد من تشمبرلين ارسال سمبنتين حربيتين الى الاسكندرية وسفينة حربية الى بور سعيد كنوع من الارهاب عن طريق مظاهرة بحرية مسلحة ، واكد لويد ان هذا الاجراء سيكون له تأثير فعال ، وأنه سيسمح بتأمين النفوذ البريطانى فى المينائين فى حالة حدوث أى اضطرابات مفاجئة « تخطط لينا الآن بلا شك قطاعات مختلفة من حزب الوفد » (٢) .

وفى هذه المرحلة ، طلب تشمبرلين من لويد صبح الملك فؤاد بعدم مغادرة الاراضى المصرية - بعد ان كان مزعما السفر الى لندن - حتى يتم حل الازمة (٣) .

والواقع ان موقف الملك فؤاد كان صعبا . . اذ لم يكن من المتوسع منه ان يوافق فى ذلك الوقت على المطالب البريطانىة الا فى حالة من الحالات الآتية :

- ١ - ان تقح مسئولية حل البرلمان على كاهل الانجليز ، وبذا يبدو الملك وكأنه قد خضع لقوة القاهرة ، وأنه غير مسئول عما حدث .
- ٢ - ان نمحه بريطانيا ضمانات مؤكدة بمساعدته فى كل الظروف
- ٣ - ان تسمح له بريطانيا بالغاء الدستور .

والاعتراض على الحالة الثانية - من وجهة النظر البريطانىة - هو ان الملك فؤاد غير محبوب من شعبه ، وان اعتماده على التأييد البريطانى لضمان مكافته ، سيزيد بلا شك من كراهية الشعب المصرى له ، بل

(١) P.R.O. F.O. F.O. (407- 204) b. No 111 (J 1423/8/16)

No. 215 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 28, 1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 112 (J. 1424/8/16)

No 216 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 28, 1927

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 113 (J. 1423/8/16)

No. 162 Sir Austen Chamberlain to Lord Lloyd F.O. May 30, 1927

سيجعله مكروها « بينما نضل نحن (الانجليز) نحمل الطفل »
To carry the boy حسب التعبير الانجليزى .

أما الاعتراضات بالنسبة للحالة الثالثة من وجهة النظر البريطانية
فهي أكثر « لأنه إذا أخذنا في حسابنا موقف الغثات السياسية المنظمة

فقط ، ولم تأخذ في الاعتبار تلك الوطنية المفرطة لدى باقى المجتمع
المصرى ، فسيكون تقديرنا خاطئا ، لان المشاعر الوطنية عند العامة
مضافة الى الاهتمام الشخصى لدى السياسيين المحترفين ، وجسدت
هدفها فى الدستور . والمصريون قد يشكون من البرلمان ، ولكنهم اذا ما
حرموا منه ، فانهم سوف يتحدون فى ثورة عارمة لاعادته . وستكون تلك
الثورة هوجمة ضدنا (الانجليز) لاننا منعنا عنهم . ومن المحتمل جدا
انه فى مثل هذه الظروف ان تلجأ الى استخدام اجراءات عنيفة للمحافظة
على النظام ، وفى نفس الوقت ، اذا ما كنا مرتبطين بأى تعهد تم
منحه للملك ، فلن نكون فى موقف يسمح لنا بأن نعبد الحياة النيابية
... والواقع انه ليس امامنا سوى السير طبقا للسبيل الاول ، ولكن
علينا ان نكون مستعدين لمراجعة حالة من اضطرابات والقلاقل فى
مصر ، (١) .

وهكذا نستخلص من التحليل السابق ان الوضع الامثل لحل الازمة
- من وجهة النظر البريطانية - انما يركز على اضطلاع الانجليز وحدهم
بالحل عن طريق حل البرلمان او التلميح بذلك ، مما يؤدى الى خسوف
السياسيين من الغناء الدستور ، ومن ثم تراجعهم عن الموقف المتصلب الذى
يقفوه امام المطالب البريطانية .

وعلى اية حال ، تم فى ٣٠ مايو ١٩٢٧ تسليم مذكرة الحكومة
البريطانية الى الحكومة المصرية بعد تنقيحها وتعديلها عدة مرات
طبقا للمراتب المتبادلة بين لوبيد وتشمبرلن . وقد ابلغ لوبيد ثرون
باشا بان « المذكرة كما سوف يرى قد صيغت طبقا لأكثر الشروط

ودية ، وانها اعدت بأسلوب يسهل عليه الحصول على الموافقة عليها
... » وحكومة جلالة الملك - الوثائق من مساعره الودية تجاهها -
تعتمد عليه في بذله لكل جهوده لضمان الموافقة الكاملة عليها في
مجلس الوزراء والبرلمان ، وأن اتجاه آخر سوف يؤدي الى أزمة
خطيرة جدا في العلاقات بين البلدين » .

وقد قرأ ثروت باشا المذكرة جيدا ، وأوضح بأن لهجتها الودية
سوف تساعد كثيرا في التصدي لموقف الهدف المناوئ *Vis avis*
وأكد للمندوب السامي بأنه سيبذل كل جهوده -حتواء الازمة التي بزغت .

وإذا كان لويد لم يضع حدا زمنيا لاجابة رئيس الوزراء على
المذكرة ، فإنه أكد له بأن الاجابة عليها ملزمة تماما .

وعلى أية حال سلم لويد ثروت باشا نص المذكرة في ٣٠ مايو -
طبقا لما سجله لويد في مراسلته لتشمبرلن في ٣١ مايو من أن « ثروت
قام بزيارتي أمس (٣٠ مايو) وقد سلمته مذكرة حكومة جلالة الملك
بخصوص الجيش المصرى » (١) وان كان عبد الرحمن الرافعى قد ذكر أن
تسليم المذكرة للحكومة المصرية كان يوم ٢٩ مايو ، (٢) كما ذكر
الزميل والصدیق الاستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان أن تسليم هذه
المذكرة للحكومة المصرية كان يوم ٣١ مايو ١٩٢٧ (٣) .

وقد نصت تلك المذكرة الخطيرة على سلسلة من الاجراءات الخاصة
بالجيش المصرى بهدف فى التوصيل الى تسوية ودية مع مصر بالنسبة
للأمور المختلفة القائمة بين الدولتين (٤) وأنه أيا كانت هذه التسوية ،
فإن الحكومة البريطانية ترى أنه يجب على مصر أن تساعد بريطانيا
على الدفاع عن مصر من العدوان الاجنبى ، وعلى حمابة المواصلات

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 114 (J. 1553/8 /16)

Sir Austen Chamberlain to Lord Lloyd. F.O. June 2, 1927

(٢) عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٢٧٣

(٣) د . عبد العظيم رمضان - الجيش المصرى فى السياسة ص ٢٣٤

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op cit

..(٤)

الامبراطورية ، كما نصت المذكرة ايضا على رغبة الحكومة البريطانية في جعل الجيش المصرى قوة حديثة تتحلى بالكفاءة ، وتشكل جزءا من خطة الدفاع عن البلاد ، وهى لذلك مستعدة لان تقدم كل مساعدة ممكنة على ايجاد مثل هذه القوة ، بشرط ان تكون مدربة طبقا للواعد البريطانية وبأقل عدد من (الخبراء) البريطانيين لان هذه القوة ستدعى لتنسيق التعاون مع القارات البريطانية في مصر .

الا ان المذكرة - من ناحية أخرى - اوضحت أنه قد لوحظ في الأيام الاخيرة أن هناك اتجاه مقلقا برمى الى اقحام النفوذ السياسى في الجيش المصرى ، وأن هذا الاتجاه برز بأشكال مختلفة ، وأنه قد تم جذب انتباه رئيس الوزراء المصرى الى خطورة هذا الامر عدة مرات ، كما سبق جذب انتباه سلفه وأضافت المذكرة أن الاتصالات مع رئيس الحكومة المصرية في هذه المسألة كانت غير رسمية ، الا أنه نتيجة لقلق الحكومة البريطانية أمام تهديد مصالحها بطريقة مباشرة ، فإنها فضلت التدخل بأدنى درجة من درجات التدخل - طبقا لما تسمح به الظروف - في الشئون المصرية .

وهذا الاتجاه - اقحام النفوذ السياسى في الجيش - أدى الى فشل جيوش عديدة من قبل ، وأخيرا ارتبط هذا الاتجاه بمحاولات فعالة لتقليل اختصاصات المفتش العام للجيش ، وكذلك الضباط البريطانيين القلائل الذين يعملون في المصالح المختلفة التابعة لوزارة الحربية . وهذه المحاولات لقيت مؤخرا تأييدا في بعض ما أوصت به لجنة الحربية البريطانية في تقريرها الذى نشر حديثا ، وسيطرح للمناقشة قريبا في البرلمان ، وترى الحكومة البريطانية أن الموافقة على هذه التوصيات تقلل كثيرا من الفرص التى تنهى للتسوية الودية لهذه المسألة الهامة بين مصر وبريطانيا ، ولذلك فإنها تدعو الحكومة المصرية الى إعادة النظر في موقفها بغير ابطاء .

كما اوضحت المذكرة ان الحكومة البريطانية - من اجل التوصل الى التسوية الودية - مسنعة للموافقة على توصيتين : الاولى بخصوص تخفيض الخدمة العسكرية الاحبارية من ٥ الى ٣ سنوات ، رغم أن هذه التوصية كانت هناك معارضة معلنة بالنسبة لها بخصوص زيادة الاحتياط المدرب ، وثانيا رفع كفاءة ٩ كتائب مساة الى تدعيم أفضل ، وتحقيق زيادة

سريعة فى قوات المشاة (حملة البنادق) فى الجيش اصرى بأكثر من ١٦٠٠ جندى والمساعدة من جانب الحكومة البريطانية لمصر من أجل تشكيل قوة جوية مصرية .

وفى المقابل ، طالبت الحكومة البريطانية - طبقا لنص المذكرة - تحقيق الآتى :

١ - وجوب تمكين المفتش العام للجيش المصرى من ممارسة الاختصاصات التى سبق أن فوضها له هـلسنر باشا فى يناير ١٩٢٥ ، اذ هى لم تلغ قط ، وانه لهذا الغرض يجب أن تمنح حرقبة الفريق وراتبه ومخصصاته ، وأن يوقع معه عقد لمدة ثلاث سنوات على الاقل وبصفة قورية .

٢ - اذا بقيت لجنة الضباط على شكلها الحاضر ، فيجب على وزير الحربية أن لا يتأخر فى أن يرفع الى صاحب الجلالة ملك مصر توصيات هذه اللجنة فيما يتعلق بالتعيينات والترقيات والاوزمة ، والامور الخاصة بالضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى بصفة عامة .

٣ - أن يعين ضابط بريطانى كبير برتبة لواء ليكون مساعدا للمفتش العام ينفوب عنه فى غيابه ، ويقوم بالاعمال التى يقوم بها المفتش العام نفسه . وهذا الضابط - مساعد المفتش العام - يحل محله فى غيابه ، أو عندما يكون قائما بأعمال المفتش العام أقدم ضابط بريطانى يكون موجودا فى ذلك الوقت .

٤ - يجب أن تكون مصلحة الحدود (ومصلحة خفر السواحل اذا نفذ الدمج الذى تقرر أخيرا) تحت اشراف المفتش العام البريطانى للجيش أو نائبه فى غيابه . ويمكن بدلا من ذلك أن يكون المدير العام لهذه المصلحة ضابطا بريطانيا ، كما كان الحال حتى أبريل ١٩٢٥ .

٥ - أن تظل المراكز التى يشغلها الآن ضباط أو مرؤفون بريطانيون فى المصالح التابعة لوزارة الحربية ، وكذلك فى مصلحة خفر السواحل اذا

ما ادمجت في مصلحة الحدود محفوظة في ايد بريطانيا ، ولا ينبغي أن
تمس اختصاصاتهم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

٦ - فيما يتعلق بالاختصاص القضائي ، تظل الحالة الحاضرة على
ما هي عليه في الجيئات الداخلة في اختصاص مصلحة الحدود ، أى يبقى
النظام العرفى فيها (١) .

وانتهت المذكرة بالتأكيد على أن هذه المطالب هي الحد الأدنى الممكن
لبريطانيا أن ترضى به ، كما اضافت أن الحكومة البريطانية تأمل في أن
ترسل لها الحكومة المصرية مقترحاتها من أجل تنسيق التعاون في خطة
الدفاع عن مصر (٢) .

ويتضح من المذكرة البريطانية السابقة أن الحكومة البريطانية كانت
مقتنعة بأن الحل المناسب للزمة - وجهة نظرهما - هو توقيع اتفاق بين
بريطانيا ومصر ، « وأن الحكومة البريطانية مستعدة للدخول فوراً في
مباحثات من أجل تحقيق هذا الغرض ، وهي لا تستبعد احتمال اجراء
بعض التعديلات في مطالبها كجزء من التسوية . الا أنه في انتظار توقيع هذه
التسوية ، فإنه ليس امامها سوى أن تطالب من الحكومة المصرية
تنفيذ الاجراءات (الواردة في المذكرة) والسابق بيانها » (٣) .

وقد حل المندوب السامى الموقف في حاله اختيار الحكومة المصرية
لاتجاه معارض لبريطانيا بالنسبة لازمة الجيش موضحاً أنه طبقاً لمراسلة
جرانفيل (No. 61 in 1884) فإنه « لا يمكن الدفاع عن مكانتنا الممتازة
في مصر طالما لا نملك القدرة على اسقاط الوزارة القائمة والمنحدية لمصالحنا »
واضاف لوييد أنه من ناحية اخرى يجب عدم الغاء النظام الديمقراطي
للحكومة بدون تقديم اسباب معقولة . لان هذا الالغاء متعارض مع التقاليد

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op. cit

(١)

انظر أيضاً : - عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٢٧٣ ، ص ٢٧٤

ر د . عبد العظيم رمضان - المصدر السابق ص ٢٣٤ - ص ٢٣٦

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op cit.

(٢)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

(٣)

البريطانية . هذا بالإضافة الى أن حل البرلمان (المادة ٣٨ من الدستور المصرى) أو تعطيل أعماله (المادة ٣٩ من الدستور) فان القرار الملكى فى كلا الحالىن يتطلب موافقة رئيس الوزراء .

الا أن تعطيل البرلمان لا يعد اجراء كافيا لتحقيق الاهداف البريطانية لان مدة تعطيل أعمال البرلمان لا تستمر سوى لشهر واحد ، ولا يمكن تجديده بدون موافقة المجلسين . وهكذا تبين أن حل المجلس (النواب) هو الاجراء الأكثر فعالية - من وجهة النظر البريطانية - لان أعضاء مجلس النواب الجدد سبنتخبون فى شهرين أكثر قليلا ، كما أن البرلمان سيدعى للاجتماع بعد هذا الانتخاب أكثر من عشرة أيام (المادة ٨٩ من الدستور) واسترسل لويد « أننا ما دمنا لا نتظر اجابة فى صالحنا من رئيس الوزراء ٠٠ فان الحل الامثل عند رفض الحكومة المصرية للمطالب البريطانية هو حل البرلمان » (١) وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه الآراء ، (٢) لأنه فى هذه الحالة ، ليس امامها سوى اجبار الملك فؤاد على حل البرلمان ، والاعتماد على جلالته فى تشكيل حكومة يمكنها التعامل مع الحكومة البريطانية ٠٠٠ « وأنه من المعلوم أننا قد نضطر الى اعادة اعلان الاحكام العرفية ، حتى يمكننا التعامل مع القلاقل والاضطرابات المحتملة الوقوع » (٣) .

الرد المصرى على المذكرة البريطانية :

فى يوم ٣ يونيو ١٩٢٧ جاء الرد المصرى على المذكرة البريطانية ، وهو لا يقبل من المطالب البريطانية سوى المطالب الخاص بموافقة وزير الحربية على آراء لجنة الضباط ، وجاء هذا الرد المصرى منمقا سيطر عليه الشكل أكثر من المضمون ، فهو لم يوافق على باقى المطالب البريطانية ولكنه لم يرفضها تماما .

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 115 op. cit (١)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 128 (J. 1477/8/16) (٢)

Sir Austen Chamberlain to Lord Lloyd F.O. June 2, 1927

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit (٣)

وعلى أية حال نصت المذكرة المصرية على أن الحكومة المصرية تشاطر المنحوب السامى وجهة نظره فى منع اقحام السياسة فى الجيش، وانها راغبة تماما فى ابعاد هذا الاتجاه عن الجيش المصرى ، ولم يكن ليفوتها اجراء التحقيق اذا قدمت لها حوادث معينة . واوضحت المذكرة المصرية ان التقرير الذى اُشار اليه المنحوب السامى فى مذكرته ليس من عمل اللجنة الحربية البرلمانية ، بل ان لجنة فرعية منها تألفت لبحث مرسوم سنة ١٩٢٥ الذى أنشأ مجلس الجيش ولجنة الضباط ، فكلفت اثنين من أعضائها بوضع تقرير فى الموضوع ، وأن مشروع هذا التقرير هو الذى نشر بغير ان يقدم للجنة الحربية أو للجنة الفرعية نفسها ، وأضافت المذكرة ان الحكومة المصرية على استعداد لان تستقبل بكل ترحاب الاقتراح الذى ينحو نحو المفاوضة لايجاد الترتيبات التى من شأنها أن تسهل التعاون المذكور ، ولكن فى انتظار الوقت الملائم للقيام بهذه المفاوضات ، ترى الحكومة المصرية أنه حتى تعمل هذه الترتيبات ، فإنه يمكن أن تحتفظ بالموقف فيما يتعلق بأداء مأمورية الجيش المصرى كما كانت حتى الآن وبغير عائق ، وأنه منذ اعلان مرسوم سنة ١٩٢٥ المذكور آنفا ، والذى أدخل المفتش العام فى عضوية مجلس الجيش ولجنة الضباط فان الخدمات المختلفة فى الجيش تسير سيرا عاديا . ومع أن بعض خلافات قد نشأت حول توصيات لجنة الضباط ، الا أنها كانت ثائرة وعرضية ، وكانت تدور غالبا حول مدة الترقية الوقتية . على أنه يمكن القول بأن الوزير سيقبل بصفة عامة آراء اللجنة التى تم تشكيلها لمساعدته على القيام بواجباته .

أما فيما يتعلق بمسألة مد خدمة المفتش العام من سنتين الى ثلاث سنوات ، فان الحكومة المصرية ترى أن عقد المفتش العام لم يكف يبدأ مدته ، ومن ثم فان هذه المسألة الشخصية ليس لها أهمية حالية ، ومثل هذا يقال عن اقتراح الانعام عليه برتبة الفريق ورفع راتبه ، على أن الوزير سيبحث من جهة أخرى مسألة تعيين ضابط بريطانى عظيم ليكون مساعدا للمفتش العام على أداء أعباء منصبه أو ليحل محله عند غيابه . وما دامت حاجة العمل تقتضى هذا التعيين ، فلن يتأخر عن القيام به فى

حدود السلطة المخولة له لتعيين أجنبي في منصب فنى . وهذا الضابط سيحل محله متى دعت الحاجة أثناء غيابه أو نيابته عن المفتش العام أقدم ضابط بريطاني في مصر .

وفيما يختص بمصلحة الحدود ، فإن هذه المصلحة التى تقوم بأعمال الإدارة الداخلية البحتة ومنع التهريب قد ألحقت بوزارة الحربية بمرسوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٢ . وبمقتضى مرسوم سنة ١٩٢٥ الذى أنشأ مجلس الجيش ، فإن المدير العام لهذه المصلحة أصبح عضوا في هذا المجلس بحكم وظيفته . هذا الى أنه ما دامت المسائل المرتبطة بالدفاع عن البلاد داخلة في اختصاص مجلس الجيش ، فإن هناك ما يدعى - فى الثقة بأن شئون مصلحة الحدود المتصلة بالسائل العسكرية ستتم بكل ما يرغب فيه من ضمان ، وطبقا لمقتضيات الخدمة - وفوق ما تقدم ، فإن الضباط البريطانيين الذين يشغلون مناصب في هذه المصلحة قد انتفعروا بالقانون رقم ٢٨ لسنة ١٩٢٣ ، ونظر مجلس الوزراء في بتأخير الماضى في مسألة هؤلاء الضباط عندما انتهت مدة عقودهم ، فقرر - لمصلحة العمل - أن يتم تثبيتهم في مناصبهم ، وقد أعطيت لهم عقود جديدة لمدة تتراوح بين سنة وستين ، وهذه العقود تثبتهم في الاعمال التى كانوا يقومون بها ولا يزالون مستمرين في القيام بها ، وانما يكون عند انتهاء هذه العقود البحث في هل يبقى هؤلاء الضباط في مراكزهم أم لا ، وعند بحث هذه المسألة ستكون الحكومة المصرية طبعاً خاضعة لمصلحة العمل فقط لا لى اعتبار آخر مهما كان . أما النظام التضامى المطبق في المناطق الواقعة تحت سلطة مصلحة الحدود ، فهو ليس في الواقع أكثر من تطبيق المبادئ التى وضعتها الحكومة المصرية سنة ١٩١١ لشبه جزيرة سيناء قبل إلحاقها بمصلحة الحدود ، حتى شمل هذا التطبيق مثل هذه المناطق جميعها . ومرسوم سنة ١٩٢٢ يقتضى دبقاء هذا النظام الى الوقت الذى يمكن أن يحل محله نظام أوفى ، ومنذ هذا الوقت لم تدع الاسباب الحكومة المصرية الى النظر في وضع النظام الجديد ، وبرجع على الأقل الى أسباب تقتصل بالاحوال الخاصة ودرجة التقدم في منطقة العربى التى تتبع منطقة الحدود الشرقية وان الحكومة تدرس مسألة إعادة محكمة اول درجة باختصاصها . وهذه المحكمة هى التى كانت موجودة في الاصل قبل وجود الادارة محل البحث .

وأعرب دروت باشا في حتام رده عن رجائه في أن الايضاحات والتاكيدات السابقة ، سوف تنهى كل سوء تفاهم بين الحكومتين بالنسبة لمسألة الجيتس المصرى ، وعن رغبة الحكومة المصرية في أن تفوى العلامات بين البلدين يوما بعد يوم ، وأن بطل حسن التماهم بينهما ، وأن نكسل بالنجاح مجهودات الطرفين في الوصول الى اتفاق مدعم روابط الصداقة التى تربط بين البلدين وبؤمن مصالحهما (١) .

تضارب الآراء بين المندوب السامى ووزارة الخارجية البريطانية :

وصف لويد الرد المصرى على المذكرة البريطانية بأنه « ويفة سرفية تماما ، وأنها يمكن أن تتلاءم مع أى سياسة نهرها الحكومة المصرية . في وقت لاحق » (٢) وفي نفس الوقت مرر لويد أن هذا الرد المصرى • مرفوض تماما ، واقترح أنه في حاله فنسل المفاوضات النهائية ارسال انذار الى الحكومة المصرية لكى تستجيب للمطالب البريطانية في مدى ٢٨ ساعة فقط .

الا ان وزارة الخارجية البريطانية لم تستصوب آراء المندوب السامى . فان المذكرة المصرية رغم أنها لم توافق الا على مطلب واحد من المطالب البريطانية ، فهى في نفس الوقت لم ترفض تماما كل المطالب ، كما ان لهجة المذكرة ودية في مظهرها ، وان بدت متمسكة بالوضع الراهن ، ولا يتضح من المذكرة اتجاه الحكومة المصرية الى اصدار قرارات معادية لبريطانيا ،

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 132 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June 3, 1927. (١)

انظر أيضا النص الفرنسى الموجه من ثروت باشا الى اللورد لويد :
P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 161.

وانظر أيضا :

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

وانظر أيضا : عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٢٧٤ - ص ٢٧٦ .

وكذلك : د . عبد العظيم رمضان - المصدر السابق ص ٢٣٧ - ٢٣٩
P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 (J. 1553/8/16 (٢)

No. 250 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June, 7, 1927.

وأخيرا فأنهما تبدوا مرافقة على مبدأ التفاوض بالنسبة لمبدأ التعاون العسكرى بين الجيشين المصرى والبريطانى ، والذي ركزت عليه المذكرة البريطانية (١) والذي جاء فى تقرير المستر تشمبرلن فى مجلس العموم (٢) .

وبالوصول الى هذه النتيجة ، تبين أن المصالح البريطانية - فى رأى وزارة الخارجية البريطانية - يمكن الحفاظ عليها بالآتى :

١ - عدم الدخول فى تصادم خطير مع مصر ، مع نتائجه الخطيرة المحتملة ، الا اذا فشلت كل الوسائل الاخرى فى تحقيق المطالب البريطانية .

٢ - أنه اذا كان الصدام حتميا ، كما يـ . الموقف الآن ، فانه لا داعى للدخول فيه الا :

(أ) باتتباع أسلوب يحقق المطالب البريطانية تماما وبدرجة معينة من الاستمرار .

(ب) وبنتيجة مفهومة وجاهزة ومتجاوبة مع رأى العمام المصرى بصفة عامة .

الا ان خطة لويد المقترحة لحل الأزمة كانت متعارضة مع الحالتين السابقتين ، فبالنسبة للحالة الاولى ، فان الاتجاه المقرر لكل من الحكومة المصرية وحزب الوفد لم يقدم أى ضمان بأن الانذار البريطانى سوف يوافق عليه . وبالنسبة للحالة الثانية ، فهناك من الاسباب ما يؤكد أن المصريين لن يبدأوا بتنفيذ تنازلات ، وأنهم حتى لو اذعنوا - تحت الضغط - لمطالب الحكومة البريطانية ، فأنهم سيبدأون فورا فى الدوران حولها واحباطها ، ونجاحهم فى هذا الاتجاه فى فروع أخرى من الادارة - طبقا لوجهة نظر وزارة الخارجية البريطانية يؤكد أن الورقة الخاصة بالموظفين الانجليز هى ضمان غير كاف أمام المناورات المصرية . أما بالنسبة للحالة الثانية ، فان المطالب المقدمة للحكومة المصرية ، والتي يمكن الحكم عليها من

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit, (١)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 149 (J. 1553 /8/16 (٢)

No. 179 Sir W. Tyrell (For the Secretary of State) to Lord Lloyd.
F.O. June 10 1927.

الاشارات الحديثة للصحافة المصرية ، مانها لا يمكنها بحال ان تحوز على موافقة الراى العام المصرى على سياسة قد تؤدى الى الغاء الدستور واعداد الاحكام العرفية واحتمال التدخل العسكرى البريطانى (١) .

وامام هذا التعارض الكبير بين وجهتى نظر المندوب السامى ووزارة الخارجية البريطانية ، ارسل رئيس الوزراء البريطانى فى ٦ يونيو تعليماته المحددة الى لوييد فى كيفية التعامل مع الحكومة المصرية ، وان عليه ان يرسل الى ثروت باشا مذكرة خاصه توضح ان الحكومة البريطانىة قد اهتمت كثيرا بالمذكرة المصرية ، وانها ترحب بالتنازلات التى مدمتها الحكومة المصرية للتفاوض بهدف تنسيق التعاون بين الجيوشين المصرى والبريطانى ، ومن ناحية اخرى فان الحكومة البريطانىة لا ترغب فى الانفراد بالحل النهائى لامور مختلفة ، والتى يمكن ارجاؤها للتسوية بالمفاوضات . . . الا ان التحركات الاخيرة قد اوضحت خطورة عدم تحديد امور تحكم طبيعة وحجم التعاون المصرى مع الاحتلال فى امور تؤثر على الدفاع عن الدولة ، وانه من الضرورى تحقيق بعض التفاهم بين الحكومتين المصرية والبريطانية بالنسبة لهذه الامور ، انتظارا للمفاوضة على التسوية النهائية وطبقا لهذا المفهوم ، اعدت الحكومة البريطانىة مشروع اتفاق عسكرى مؤقت ، ويجب على الحكومة المصرية عدم التردد فى الموافقة على هذا المشروع طبقا لما جاء فى المذكرة المصرية . كما اوضحت مذكرة رئيس الوزراء البريطانى الى لوييد والمقترح ارسالها الى الحكومة المصرية ان الترتيبات التفصيلية الخاصة بمسائل الادارة والخبرة والامراد سوف تكون على شكل ملحق يرفق بالاتفاق ، وان الحكومة البريطانىة مستعدة لمناقشة هذه الترتيبات مع الحكومة المصرية ، وهى لا تستبعد احتمال تدخل بعض التعديلات فى مطالبها السائدة بشرط ان تكون الحكومة المصرية مستعدة نمادا للموافقة وبدون تأخير على هذا العرض الجديد .

واضاف رئيس الوزراء البريطانى فى برقيته الى لوييد ان اهم نسيء فى الموقف هو الحصول على موافقة الحكومة المصرية على الاتفاق ، وانه اذا رفضت الحكومة المصرية ذلك ، فان « علينا ان نجرب عن اعنف

الاجراءات « (١) » .

وقد أرسل رئيس الوزراء البريطانى فى نفس اليوم (٦ يونيو) برقية أخرى الى المندوب السامى ، أوضح فيها أنه فى حالة مرافقة الحكومة المصرية على الاتفاق ، فإنه يلحق بالمفاوضات النقاط التى وافقت عليها الحكومة المصرية فعلا ، يضاف إليها الشروط التى يمكن الحصول عليها ومنها :

١ - المفتش العام البريطانى ونائب له . وحقه فى عضوية مجلس الجيش .

٢ - تصرف وزير الحربية بمشورة مجلس الجيش .

٣ - حصول كل الضباط البريطانيين العاملين فى الجيش المصرى على عقود لمدة ثلاثة أعوام .

٤ - بقاء الشئون القضائية فى اقاليم الحدود على ما هى عليه .

٥ - استمرار الضباط العاملين فى مصلحة الحدود فى ممارسة وظائفهم ، وحصولهم على عقود لمدة عامين .

كما نبه رئيس الوزراء البريطانى فى برقيته بأن على لورد - فى هذه المرحلة - عدم الالتحاح على تحديد تام لسلطات واختصاصات الجنرال سبنكس وزملائه ، لان الأهم هو التوصل الى عقد الاتفاق المؤقت علاوة على ملحق بنتابه الغموض (٢) وهكذا - وطبقا لرجحة نظر الحكومة البريطانية - فإنه اذا ما قدر المصريين صعوبة مواجهة بريطانيا ، فإنهم قد يفضلون التوفيع على اتفاقية قد تمنحهم فرصة للتراجع وحفظ ماء

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 140 (J. 1514/8/16) (١)

No. 174 Sir W. Tyrell (for the Secretary of State) to Lord Liyd.

F.O. June 6. 1927.

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 141 (J. 1514/8/16) (٢)

No. 175 Sir W. Tyrell (for the Secretary of State) to Lord. Liyd

F.O. June 6, 1927.

الوجه ، رانهم اذا ، وافقوا على الاتفاق والملحق الخاص به ، فان ذلك لا يعد استجابة للمطالب البريطانية فقط ، بل انه سينظم الاحتلال البريطاني لمصر ، والذي ظل بلا اساس لاكثر من اربعين عاما . كما انه سيكون مقدمة لاتفاقيات اخرى تعد بريطانيا في امس الحاجة اليها ، اما اذا قرر المصريون المقاومة ورفضوا الاتفاق ، فانهم بذلك العمل سوف يوضحون ان سلوكهم غير ودي تجاه بريطانيا ، وهكذا « يكون لنا الحق الكامل في اتخاذ اساليب عنيفة ضدهم » (١) .

وعندما وصلت هانان البرقيتان الى لوييد فانه ابرق في ٧ يونيو الى المستر تشمبرلن والمعلومية رئيس الوزراء البريطاني موضحا الموقف السياسي في مصر في هذا الوقت المضطرب ، وان انباء قد وصلت بان كل كبار قادة حزب الوفد قد اجتمعوا في منزل سعد زغلول في يوم ٦ يونيو ، وان سعدا قد اقترح الاذعان مؤقتا لكل المطالب البريطانية ، مبينا بان هذا الاتجاه هو للحفاظ على الدستور من الالغاء ، وكذلك لكسب الوقت من اجل الاستعداد لصراع حاسم . ووضح سعد زغلول للمؤتمرين بأنه يجب تعيين وكيل وزارة جديدة للداخلية من بين اعضاء الوفد ، ليتمكن استخدام سلطاته لضمان تدعيم نفوذ الوفد في البلد ، وخاصة عن طريق العمدة . وكذلك بث الدعاية بين ضباط الجيش المصري من اجل جعلهم في خط واحد مع حزب الوفد ، وقال سعد بثقة ان الجيش المصري - عندما يحين الوقت المناسب - سيظهر شجاعة لا تقبل عما فعله السودانيون في عام ١٩٢٤ ، واضاف سعد بأنه ينظم لهجوم على لوييد شخصيا عن طريق الصحافة البريطانية ، وفي مجلس العموم من اجل ايقافه عند حده مبكرا . الا انه بينما لقي اقتراح سعد بالهجوم على لوييد ترحيبا من الحاضرين ، فان اقتراحاته الخاصة بالاذعان المؤقت للمطالب البريطانية بخصوص الجيش المصري لقيت معارضة عنيفة ، ولم يصل المجتمعون الى اتفاق بشأنها (٢) .

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

(١)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 143 Lord Lloyd to Sir Austen

(٢)

Chamberlain No. 249. Cairo, June 7, 1927.

وفي نفس اليوم (٧ يونيو) أبرق لويد الى المستر تشمبرلن وللملوية
رئيس الوزراء البريطاني وجهات نظره بالنسبة لمذكرة الحكومة البريطانية
والمقترح ارسالها الى الحكومة المصرية ، والتي يتضح منها محاولة عدم
تصعيد الموقف مع المصريين . وقد انزعج لويد جدا من الآراء الواردة في
مذكرة الحكومة البريطانية واعتبرها بمثابة لطمة قاسية له واورى
انه يكرر هو ويستساروه ان اجابة الحكومة المصرية هي بصفة عامة
غير كافية ، وان دلماتيا الودية تبدو بلا قيمة ، وانه اذا كان رئيس
الوزراء المصرى مستعدا للموافقة على المطالب البريطانية ، فانه خائف من
أزمة برلمانية ، وان هذا هو الذى دفعه الى هذه الاجابة المراوغة من اجل
كسب الوقت ، وكرر لويد قوله ان تلك الاجابة المصرية هي اجابة شرقية
تماما ، وانها صالحة لاي سياسة يمكن ان تتخذ في أى وقت لاحق . واكد
لويد انه ليس هناك أى احتمال للتفاوض بين الدولتين ، وانه شخصيا
يقوم بمباحثات مع ثروت باشا منذ فترة من أجل التوصل الى تسوية
عن طريق اتفاق ، وان هذه المباحثات انتهت بارسال ثروت باشا ب خطاب
له ينكر فيه أى حق بريطانى فى التدخل فى مسألة الجيش المصرى على
الاطلاق . . . و اضاف لويد مرصحا « . . اننى لا اتعامل حقيقة مع
ثروت باشا او حتى مع سعد زغلول باشا ، بل مع الأعضاء
(المتطرفين) فى حزب الوفد الذين يسيطرون فى النهاية على الاثنى . »
واستخلص لويد من ذلك ان الطريقة الوحيدة الواكدة للتعامل مع
هؤلاء المتطرفين هي التلويح لهم بخطورة فقدانهم لمكاسب سياسية ومادية
كثيرة يمنحها لهم الدستور عن طريق البرلمان . وانشار لويد فى برقيته
الى ان مخطط هؤلاء (المتطرفين) من أعضاء حزب الوفد ينحصر فى استغلال
المشكلات القائمة - ومنها أزمة الجيش المصرى - لخلق مرقف يؤدي الى
اضطرابات عامة ضد الاحتلال البريطانى عندما يحين الوقت المناسب .
وعلق لويد بان الذى تطلبه الحكومة البريطانية سوف يفسره المصريون
على انه ضعف بريطانى ، وهذا التفسير قد يؤدي الى مخاطر كبيرة
بالنسبة للأمن العام ، واسترسل لويد موضحا وجهة نظره . . .
« فنحن « وخرأ قد تعرضنا لهجوم فى البرلمان ، وهذا الهجوم الذى
أيقظ المشاعر العتيقة للسخط ضد الاحتلال ، ليس فقط بين قطاعات كبيرة
من المصريين ، بل أيضا فى بعض المستعمرات البريطانية ، هذا الهجوم

يجعل من المرغوب فيه تماما عدم الاستسلام بالنسبة لازمة الجيش المصرى ،
وانى تخاذل فى موقفنا سيكون حافزا لازمات اخرى مما يؤدى مسرعا ،
الى فقداننا لمكانتنا فى مصر ، كما ان علاقاتى بالك ستصبح صعبة
جدا ، (١) .

واوضح لورد موقف الأجانب فى مصر من أزمة الجيش المصرى ،
مقال أنه تلقى كل معاونة قلبية من السفراء الفرنسى والايطالى والبلجيكى
واليونانى ، الذين يمثلون أهم أربع جالبات فى مصر . كما ان السفير
الفرنسى - على وجه الخصوص - الذى له دراية واسعة بالشرفى اوضح
للويد بأن اى تراجع فى موقف بريطانيا من الازمة سيكون له خطورة
سياسية كبرى ، (٢) لان اى تخاذل بريطانى سوف يشجع كل الفئات حتى
غير المتطرفة على مشايعة المتطرفين . وأنه حتى اذا ما تغلبت بريطانيا
على الصعوبة القائمة (أزمة الجيش) فانها سوف تواجه حتما ازمات
اخرى أكثر خطورة .

كما عبر لويد عن اسنيائه من مذكرة الحكومة البريطانية المقترح
ارسالها الى الحكومة المصرية ، بتسجيله أنه لم يفهم كيفية تنفيذ
الاجراء المطلوب ، وخصوصا مسألة المالح الذى سوف يلحق بالانفاق .
واضاف لويد أنه تصرف فى الامور فى حدود السلطة المخولة له من وزير
الخارجية ، وأن موقفه بهذا الشكل سيكون حرجا جدا ، لان المباحثات مع
الحكومة المصرية لن تؤدى الا الى ذرائع جديدة ونتائج هزيلة . واعاد
لويد الى الاذهان أن الموقف البريطانى يرتكز على تصريح ١٩٢٢ ، وأنه
هل من المفروض ان تسلم بريطانيا بكل شىء لان البرلمان المصرى يرفض
الاعتراف بالتصريح ، وأنه هو المحرك الأكبر لرفض المطالب البريطانية ، وأنه
اذا كانت الحياة البرلمانية فى مصر متعارضة مع المصالح البريطانية
الحقيقية ، فان على بريطانيا ان تقبل التحدى ان عاجلا ام آجلا . .

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 op. cit

(١)

P.R.O. F.O.(407-204) b. No. 122 (J. 1475/8/16

(٢)

No. 228 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 31, 1927

« وان الازمة الحالية تقدم العاجل الذى يمكن ان نسنغله فوراً ، (١) وان
اى تأخير فى حسم هذه الازمة « سيقطل من فرص نجاحنا فى هذا
الخصوص ، (٢) » .

واحتدم الخلاف فى رأى بين وزارة الخارجية البريطانية والندوب
السامى ، حتى ان الوزارة رأت ان آراء الندوب السامى الاخيرة لم تقدم
جديداً ، ولكنها توضح ان الندوب السامى لم يفهم جيداً التعليمات المرسلة
له من الحكومة البريطانية ، فقد بدا من كلماته انه يتصور ان « حكومة
جلالة الملك لا ترغب فى معاونته . او انها تود التفهقر عن الموقف الذى
انفجر فعلاً ، (٣) وهكذا أرسل رئيس الوزراء البريطانى برقية اخرى الى
الندوب السامى فى ١٠ يونيو تحتوى على تفسيرات أكثر وتؤكد التعليمات
السابقة .

وقد نصت هذه المذكرة الجديدة على ان الحكومة المصرية لن تسعى
لتحقيق أهدافها الفعلية الا اذا دفعت لاجراء ذلك ، وان تنفيذ تعليمات
الحكومة البريطانية سيؤدى الى امر من اثنين ، اما ان ثروت سوف يوافق
على عقد الاتفاق او انه سيرفض ذلك ، وأنه اذا وافق فانه يكون بذلك
قد استجاب للمطالب البريطانية أما اذا رفض الاتفاق فانه يكون بذلك
قد رفض مبدأ التعاون مع البريطانيين فى الدفاع عن مصر ، وبذلك يكشف
المستار عن الاتجاه الحقيقى للحكومة المصرية . وهذا التصرف المعادى
لبريطانيا « سيعطينا الحق أمام العالم فى اتخاذ الاجراءات العنيفة
التي نراها ضرورية لتأمين موقفنا فى مصر » واسترسل رئيس الوزراء
البريطانى فى مذكرته للويد موضحاً انه يجب جعل الامر واضحاً لثروت
« اننا لن نعطيه سوى بضعة ايام للموافقة او الرفض على الاتفاق ، مع
التلميح له بالنتائج السيئة الخطورة والمحتمة التي سوف تتلو
رفضه » (٤) .

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 op. cit (١)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 115 op cit (٢)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op cit. (٣)

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 149 op cit. (٤)

ولا يفوتنسا أن منوه هنا أن الليفتنانت جبرال السير هوكنج الذى عاد الى انجلترا فى ١٠ يونيو بعد أن انتهت مدة قيادته للقوات البريطانية فى مصر ، عند تمت استشارته فى مسألة أزمة الجيش المصرى ، وقد أدى هوكنج موافقته الكاملة على مذكرة رئيس الوزراء الاخيرة والمقترح ارسالها الى الحكومة المصرية ، وقد أبرق الى لوييد بهذا المعنى (١) .

ورغم هذا الضغط من جانب الحكومة البريطانية على لوييد ، فإنه أبرق الى تشمبرلن لمعلومية رئيس الوزراء البريطانى فى ١١ يونيو طالبا اعادة النظر فى التعليمات الصادرة اليه من الحكومة البريطانية ، ففى رأيه أن الاختلاف شديد بين مقترحاته ومقترحات الحكومة ، لان هناك صعوبات خطيرة أمام ضمان موافقة الحكومة المصرية على الاتفاق المقترح من جانب الحكومة البريطانية ، وأنه لا يمكن انجاز هذا الاتفاق الا بموافقة البرلمان . وان رئيس الوزراء بينما يرفض الموافقة على هذا العرض لذلك السبب ، فإنه لن يرفضه تماما ، ولكنه سيماطل فى محاولة منه لتدعيم موقفه ، وأن الامر سيظل معلقا هكذا حتى الخريف ، وأنه فى ذلك الوقت سيرسل الامر كله الى مجلس النواب طالبا التفاوض على الملحق قبل الاتفاق ، وأنه ليس هناك أدنى أمل فى ان البرلمان سيوافق على الاتفاق أو الملحق بأى شكل من الاشكال . وأضاف لوييد أنه فى غضون ذلك الوقت ستواجه بريطانيا مشكلات خطيرة فى مصر لها طبيعة أخرى . . « وأنا أرجو ان يكون معلوما أننى لم يغمض لى جفن بالنسبة لمحاولاتى الحصول على كافة التفاصيل المنشورة عن الازمة و « أن أولى المشكلات الملحة هى موقف المفتش العام ، الذى من غير المتوقع ان يستطيع ممارسة سلطاته التى ستظل بلا تحديد . وأنه اذا ما رأى ان موقفه غير محتمل وتخلى عن منصبه ، فإن باقى الضباط البريطانيين الذين يعملون فى الجيش المصرى سوف يتبعونه فى هذا السبيل . وهكذا سوف تواجه بريطانيا مأزقا تفقد فيه كل سيطرة لها على الجيش المصرى فى ظروف بالغة الصعوبة » . وأضاف لوييد « أنى عندما استحسنتم اجراء المفاوضات باعتبارها حلا أمثل ، فإننى فضلتها باعتبار أنها

ستحدث ونحن في موقف قوى ، أما محاولة اتفاق الان طبفا لرغبتك ، فانها لن تؤدي الى تسوية المسألة ، بل ستؤدي فقط الى تأخير حلها ، وقد استنتج من ذلك أنك ترغب في (تعليق) الازمة المصرية ، وأردف لويد أنه حتى لو استطاعت الحكومة البريطانية بشكل ما ضمان الموافقة المصرية على العمل العسكى المشترك ، ودعوة الحكومة المصرية للتفاوض على اجراءات تنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى على قدم المساواة ، فان الامر سيكون خطيرا - من وجهة النظر البريطانية - لأن بريطانيا لن تستطيع الانفراد بالاشراف الفردى على القوات . وأكد لويد أنه طيلة الازمة لم يطمع سوى في حل سلمى ولكن الحل الذى تقترحه الحكومة البريطانية - في رايه - سيؤدي الى الاضطرابات وسيجعل المكانة البريطانية غير محسوبة فى المساواة ، ثم انتهى لويد برقيته بأنه قد يكون قد اخطأ فى تصوير الجو السياسى فى مصر ، ولكنه يجب ان يكون مفهوما ان الراى العام المصرى والصحافة كلها قد ركزت على الازمة القائمة ، وان الحكومة البريطانية قد تعرضت لهجوم شديد فى مجلس النواب ، وأن حزب الوفد كان يعانى فى تلك المرحلة من هبوط فى اسهمه فى مصر . وأن سعد زغلول باشا مرة أخرى تكلم فى جلسة عاصفة فى مجلس النواب موضحا أنه اذا مارست بريطانيا ضغطا كبيرا على الحكومة المصرية ، فان على المجلس الموافقة على المطالب البريطانية من أجل انقاذ الدستور ، والحقيقة ان الحكومة المصرية تنتظر منا القيام بضغط شديد عليها ، وأنها سوف ترضخ لهذا الضغط . أما تغيير موقفنا فى مثل هذه الظروف ، فانه سيؤدي الى عواقب وخيمة ، (١) .

تراجع الحكومة المصرية ومجلس النواب :

وسط ذلك التضارب فى الآراء بين رئاسة الوزارة البريطانية ووزارة الخارجية من جانب والندوب السامى من جانب آخر ، ووسط البرقيات والمذكرات المتعارضة بين الجانبين ، أبرق اللورد لويد فى ١٢ يونيو الى وزارته موضحا أنه بعد جلسة طويلة وعاصفة لمجلس الوزراء ، فان

ثروت باشا أعد مذكرة - وافق عليها سعد زعلول - لتسوية أزمة الجيش ويؤكد لوبد أن هذا التراجع المصرى كان نتيجة للمباحثات التى بدأها المستر انتونيوس Antonius فى ٨ يونيو مع بركات باشا ، وأن هذه المباحثات كانت شخصية وغير رسمية ، ولكنها أدت تحت التوجيه السرى لها من جانب المندوب السامى الى تلك النتائج المرضية من وجهة النظر البريطانية - فقد وصل الامر بثروت باشا الى أن يقوم بعرض مسودة المذكرة الجديدة على المندوب السامى بحضور الملك فؤاد ووزير الحربية لازخال أى تعديلات عليها ، وأن خوف الحكومة المصرية كان الميزة الواضحة للمذكرة الأخيرة ، وكانت خلاصة هذه المذكرة الأخيرة أن الحكومة المصرية قد قررت وبتحديد كامل أن اختصاصات السردار كما فوضها الجنرال ديلستون باشا فى سنة ١٩٢٥ ، قد أدت الى سوء تفاهم بالنسبة للامور القائمة ، وأن الحكومة المصرية مستعدة للحفاظ على هذه الاختصاصات دون مساس ، كما تم تفويضها للمفتش العام . كما أنه بالنسبة لمنصب نائب المفتش العام ، فإن الحكومة المصرية مقتنعة تماما بالحاجة الى هذه الوظيفة ، التى يجب أن يعين فيها ضابط بريطانى فورا . أما بالنسبة لتوصيات لجنة الضباط ، فإنها ترفع فى الخلافات الاستثنائية جدا من وزير الحربية الى ملك مصر كما كان الحال قائما . كما أن الحكومة المصرية سوف تبدى اهتماما سريعا بالنسبة للامور المدنية والقضائية التى تتكفل بها مصلحة الحدود وكذلك الامور التى تؤثر فى الدفاع عن البلد ، وأية موضوعات أخرى هامة .

كما اضافت المذكرة ان المفتش العام سيتمنح رتبة الفريق وراتبه فى غضون اسبوع ، وأن مساعد المفتش العام سوف يصدر قرار تعيينه فى ظرف اسبوع من ترشبح اسمه ، وأن المنصب الثانى فى مصلحة الحدود سوف يحتله ضابط بريطانى - وهو مساعد مدير خفر السواحل - عند ادماج المصلحتين .

وهكذا وافقت الحكومة المصرية على كل المطالب البريطانية الحيوية . وانتهت أزمة الجيش بسرعة فائقة ولصالح الحكومة البريطانية تماما ، ووافقت أيضا على اجراء المفاوضات من اجل التوصل الى اتفاق بين

الحكوميين لتفسيق التعاون بين الجيشين المصري والبريطاني للدفاع عن مصر وطبقا لما سبق ان طلبته الحكومة البريطانية ، ومد صيغت المذكرة المصرية الجديدة بمهارة وعلى خطوط جعلت رجوعها الى مجلس النواب امرا غير ضروري . وهذه المذكرة مثل المذكرة الاولى ، لم تحدد شكل التعاون العسكري بين الجيشين المصري والبريطاني ، رغم انها رحبت بمثل هذا التعاون .

واكد ثروت باشا اهمية الموافقة الفورية على المذكرة المصرية الجديدة قبل ان يغير سعد من موقفه ويسحب موافقته عليها . وبطبيعة الحال ابلغه لويد سكر الحكومة البريطانية على مجهوداته في تعديل وجهة نظر الحكومة المصرية والاتجاه بالسياسة المصرية الوطنية بخصوص أزمة الجيش اتجاها جديدا مواليا للاحتلال . ومن ناحية اخرى طلب لويد برقيا من وزارة الخارجية البريطانية الموافقة الفورية على المذكرة المصرية الجديدة « حتى لا يحصل (المتطرفون) على اى فرصة للضغط على سعد زغلول حتى يتراجع عن موقفه » وأضاف انه سينتظر اجابة الحكومة البريطانية حتى الساعة الرابعة من مساء يوم ١٢ يونيو ، وأنه في حالة تأخر الرد « فأننى سأتحمل المسؤولية الكاملة في المرافقة الى المذكرة المصرية بصفتى الشخصية ، وان كنت افضل وصول رد الحكومة البريطانية لكى اعفى نفسى من هذه المسؤولية (١) .

الا انه في نفس اليوم (١٢ يونيو) صدرت التعليمات من لندن الى لورد بالموافقة على المذكرة المصرية الجديدة ، وهكذا ارسل لويد مذكرة الى ثروت باشا يبلغه فيها ان الحكومة البريطانية قد اسعدها ان تحد مشاركة كاملة من الحكومة المصرية بالنسبة للاخطار الناتجة عن السماح باقحام السياسة في الجيش المصري ، كما اسعدها ايضا موافقة الحكومة المصرية على الاحتفاظ بدون اى مساس بسلطات السردار كما فرضها مجلسون باشا الى المفتش العام ، وضمان رتبة ومرتب الاخير طبقا لاختصاصاته . وانهى لويد مذكرته الى ثروت باشا

PR.O. F.O. (407-204) b. No. 156 (J. 1584/8/16) (١)
Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June 12, 1927

بشكر رئيس الوزراء المصرى على اللهجة الودية التى سادت المذكره
المصرية ، وأن هذه اللهجة تنبئ بما ستكون عليه العلاقات المستقبلية
بين الدولتين . واستمرت الحكومة المصرية فى تراجعها الكامل عن الموقف
المتصلب السابق ، فأرسلت فى اليوم التالى (١٣ يونيو) ردا على المذكرة
البريطانية بحتوى على بعض التفسيرات والتفصيلات ، أوضحت المذكرة
الجديدة أنه طبقا لمرسوم يناير ١٩٢٥ - الذى كان للجنرال سبنكس دور
كبير فى اعداده - فإنه تم التنسيق بين مطالب الخدمة فى الجيش ووظائف
الدستور بإنشاء مجلس الجيش ولجنة الضباط ، وقد أثبت المجلس
واللجنة نجاحا فى عملهما فى تنسيق كامل مع اختصاصات المفتش
العام المفوضة اليه فى عام ١٩٢٥ . والحكومة المصرية لا تعترض على
عقد اتفاق محدد بين الدولتين لعدم تغيير نظام أثبت نجاحه تماما .
ومن ناحية أخرى ، فإن الحكم البرلمانى فى مصر ، الذى قام هــاذان
العنصران (مجلس الجيش ولجنة الضباط) بواجباتهما بانسجام عن
طريقه ، يركز على مسئولية كل وزير عن أعمال فروع وزارته ، ومن المؤكد
- فى رأى المذكرة المصرية - أن الحكومة البريطانية لم تكن ترغب فى
السير ضد هذا المبدأ . ولكن الحكومة المصرية متأكدة أيضا من وجوب
احترام سلطات القادة العسكريين ، وفى مثل هذه الظروف ، فإن الحكومة
المصرية تؤكد بأن من مسئولية وزير الحربية الموافقة على توصيات
لجنة الضباط . كما أن تعيين ضابط عظيم لمساعدة المفتش العام فى ممارسته
لاختصاصاته ، وليحل محله أثناء غيابه ، يدخل ضمن سلطات الوزير ،
كما يدخل ضمن سلطاته أيضا كل المسائل المتعلقة بالرتبة والراتب
ومدة خدمة هذين الضابطين التابعين للسلطة المصرية ، والحكومة المصرية
لن تجد صعوبة فى التوصل الى الحل المرضى لكل هذه المسائل .
وأما المذكرة المصرية إن مجلس الوزراء المصرى قد منح - منذ
يناير ١٩٢٦ - عقودا جديدة للضباط البريطانيين الذين يعملون فى
مصلحة الحدود لمدد تتراوح بين عام وعامين . وأنهى ثروت باشا هذه
المذكرة بالاشارة الى أن الحكومة المصرية - مع مراعاتها للمصالح المشتركة
بين الدولتين وعدم المساس بحقوق البرلمان - قد استطاعت باستخدام
السلطات الراقعة دستوريا على كاهل مجلس الوزراء أن تجد الحلول

الممكنة لانتهاء كل سوء تفاهم في موضوع الجيش المصرى (١) .

ولو قارنا المذكرة المصرية الاخيرة (١٣ يونيو) بالمذكرة المصرية الاولى (٣ يونيو) لوجدنا أن الاختلاف بينهما ينحصر في كلمتين : التحدى والتراجع .

وقد لاحظ لويد أن هدف رئيس الوزراء كان الحصول على حل للأزمة يمنح لبريطانيا ما تشاء ، وفي نفس الوقت بساعده للدفاع عن نفسه أمام البرلمان ، وأن ثروت باشا كان ماهرا في كل ذلك ، وطبقا لكلمات لويد كان « ثروت بدون شك يرغب في استغلال الفرصة للحصول على اقتصار على سعد زغلول والوفد ، وتسديد ضربة قوية (للمتطرفين) وأن هدفه الاساسى هو تدعيم نفسه عند حكومة جلالة الملك كشخص يمكنه التفاوض على تسوية عامة للمسألة المصرية البريطانية . «أنا لا أستطيع سوى أن أشجع ثروت للسير في هذا الاتجاه ، لان نجاحه في السيطرة ، وضغطه المتزايد على (المتطرفين) امتد على سعد زغلول نفسه » .

وتد تحدث ثروت باشا مع لويد بصراحة عن سعد زغلول مؤكدا انه في النهاية « أمكننى تقييد يديه وقدميه » وأعلن ثروت باشا في المنهجية ، بأن الح على لويد عدم نشر المذكرات الاخيرة والخاصة بالازمة ، الا بعد أن يبدأ مجلس النواب عطلة الصيف ، والتي ستبدأ بعد عشرة ايام ، وأورى . بأنه سيقدم للمجلس بياناً في يوم ١٥ يونيو بخصوص الازمة ، واقترح على لويد أن يتكلم بطريقة عامة تماما ، وأن يقدم امتنانه للصدائقة مع الحكومة البريطانية ، وأنه ليس من المستحسن نشر المذكرات حتى يصل الرد البريطانى على المذكرة المصرية الاخيرة . . وهو بطبيعة الحال لم يكن يتوقع أى رد على تلك المذكرة .

وقد علق لويد على تراجع سعد زغلول السريع عن موقفه الاول المتصلب بأنه يرجع فقط الى تأكده بان البديل الوحيد هو انذار

سريع وحل البرلمان (١) .

وقد عرض ثروت باشا مسودة بيانه الى مجلس النواب على المندوب السامي لاستطلاع رأيه ، وقد تم تعديل بعض الفقرات في هذا البيان المقترض طبقا لآراء اللورد لوييد ، وتحدد مرعد القاء هذا البيان بعد ظهر يوم ١٥ يونيو لاعطاء سعد زغلول الوقت الكافي (لتلقين) النواب واقناعهم بالموافقة .

وكان مجلس النواب صامتا تماما اثناء القاء رئيس الوزراء لبيانه وفي النهاية رحب النواب مع تصفيق (رسمى) . ثم تكلم ثلاثة من النواب من اعضاء الحزب الوطنى بالتقالى ، فطالب الاول بتسليم المذكرات المتبادلة للمجلس لدراستها ، وهدد الحكومة بالعواقب الوخيمة لاستسلامها الكامل لبريطانيا . كما كانت مناقشات العضوين الآخرين على نفس المنوال ، وان كانت اقل عتقا .

وقد انجز سعد زغلول الموقف بمهارة ملحوظة - من وجهة النظر البريطانية - حتى ان النواب اليفديين المتطرفين - ومن بينهم احمد ماهر والنقراشى واتباعهما - لم يمتنعوا فقط عن مهاجمة رئيس الوزراء عند القائه لبيانه في المجلس ، بل عارضوا كذلك المتحدثين من ثواب الحزب الوطنى باشارات تهكمية ، واستقبلوا اجابات ثروت باشا بالترحيب . وفي النهاية أعلن سعد زغلول انه ليس هناك خلاف بين اعضاء المجلس على بيان رئيس الوزراء وان الموافقة شبه اجماعية . وهكذا تمت الموافقة على بيان ثروت باشا ، ولم تستمر المناقشة بخصوصه أكثر من أربعين دقيقة .

وقد رفع رئيس الوزراء هذه الموافقة بسرعة الى مجلس الشيوخ ، حيث أعاد قراءة البيان ... وقد استقبل الاعضاء هذا البيان بالصمت

الرجيب (١) .

ومن المفيد ان نسير الى ما جاء في بيان رئيس الوزراء للمجلسين ،
فقد جاء فيه انه لسوء التفاهم القائم بين الحكومتين المصرية والبريطانية
بخصوص المطالب البريطانية الخاصة بالجيش المصرى ، فان الحكومة
البريطانية تقدمت بطلب لتسوية المسائل المعلقة بطريقة ودية ولتحقيق
التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى ، كما دعيت الحكومة المصرية
لاجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية بهدف ترفيع اتفاق لوضع
أسس هذا التعاون . والحكومة المصرية - لاختلافات مختلفة - توصلت
في بداية شهر يونيو الى ان المطالب البريطانية المذكورة في المذكرة البريطانية
تمس السيادة المصرية والسلطة التشريعية للبلاد ، وان مجلس الوزراء
ليس لديه السلطة الموافقة على أى شىء يتعارض مع الدستور . وهكذا
لم يوافق المجلس على المطالب البريطانية بالشكل الذى قدمت به . الا ان
مجلس الوزراء من ناحية أخرى ، ورغبة منه في تلافي أى أسباب لسوء
التفاهم بين الدولتين ، قرر تسوية المسألة بطريقة لا تمس الحقوق
الدستورية ، وتدخل ضمن سلطاته . وهكذا درس مجلس الوزراء موقف
الجيش المصرى ، ووجد انه من الممكن الموافقة على بعض المطالب
البريطانية وخصوصا ما يتطرق منها لمسائل التدريب والضبط والربط
وحسن الانتظام العسكرى ، كما قرر المجلس الموافقة على بعض المطالب
الآخرى لتلافي سوء الفهم . وقد وافقت الحكومة المصرية على التمسك
بالوضع الراهن فى الجيش ومصلحة الحدود ، مع التحفظات الضرورية
بخصوص السلطة الدستورية لوزير الحربية وصيانة مبدأ المسؤولية
الوزارية امام البرلمان .

وانه لما كانت المذكرة المصرية الاخيرة قد وصلت الى المندوب السامى
اول امس فقط (١٣ دونيو) فالحكومة المصرية مراعاة منها للاسلوب
الديبلوماسى ، تعتذر بأننا لا نستطيع اعطاء تفصيلات أخرى امام

البرلمان في الوقت الحاضر (١) .

وهكذا وافق البرلمان على ميزانية وزارة الحربية ، وتضمنت هذه الميزانية بندا لشراء عدد من المدافع الآلية (٢) وفي ١٧ يونيو وافق الملك فؤاد على منح المفتش العام للجيش المصري رتبة الفريق (٣) وجاءت التهنئة من رئيس الوزراء البريطاني الى اللورد لوييد لفجائه في حل ازمة الجيش المصري بما يحقق الحفاظ الكامل على المصالح البريطانية ، ذلك رغم تعارضهما في الرأي بالنسبة لكيفية حل هذه الازمة في مرحلة سابقة (٤) . وقد اجاب لوييد بامتنانه العميق على هذه التهنئة (٥) .

وهكذا انتهت أزمة كبرى - خاصة ببناء الجيش المصري الوطني القوى - كادت تؤدي الى مواجهة شاملة بين مصر وبريطانيا .. انتهت لصالح بريطانيا لتقاعس السياسيين المصريين عن التمسك بالوطنية المفرطة التي كانت نبراسا لمصر أثناء ثورة ١٩١٩ ، وتمسكا بمقاعدهم سواء في الوزارة او في البرلمان ، وخوفا منهم من الغاء الدستور . والواقع ان مهارة المندوب السامي اللورد لوييد ، وتبهمه الكامل لدقائق الحياة السياسية في مصر في تلك الفترة ، مكنته من اختيار الاسلوب المناسب لحل هذه الازمة الخطيرة ، بما يحقق في النيابة الحفاظ على المصالح البريطانية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان تراجع السياسيين المصريين اساسا لتأخر بناء الجيش المصري .

P.R.O. (407-204) b. No. 164 (J. 1655/8/16)

(١)

No. 271 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June 16, 1927

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 170 (J. 1718/8/16)

(٢)

No. 285 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June 23, 1927

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 166 (J. 1639/8/16)

(٣)

No. 273 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, June 20, 1927

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 168 Sir W. Tyrell

(٤)

(for the Secretary of State) to Lord Lloyd No. 186. F.O. June 16, 1927

Austen Chamberlain. No. 280. Cairo June 20, 1927.

P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 169 Lord Lloyd to Sir

(٥)

Austen chamberlain No. 280 Cairo June 20, 1927

عقد معاهدة ١٩٣٦ : (٢٦ أغسطس ١٩٣٦)

توفى سعد زغلول في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، وأنتخب مصطفى النحاس رئيسا للوفد . ورأس النحاس وزارة ائتلافية ، الا ان المنحوب السامي دأب على التدخل في شئون مصر وارسل الانذارات ، الى أن أقال الملك فؤاد هذه الوزارة في ٢٥ يونيو ١٩٢٨ .

وحاءت وزارة محمد محمود وهي من الاحرار الدستوريين مصممة على تعطيل الدستور . فالواقع أنه رغم كون الملك فؤاد محبا للفنون والآداب ، الا أنه كان في الوقت نفسه حاكما مستبدا ، لذلك كان أهم ما كان يشغله هو تعديل الدستور وحل البرلمان والحكم حكما مطلقا . ولذلك لجأ الى احزاب الائتليات التي تضم بعض المستقلين المرتبطين بالقصر أكثر منهم ذوي رصيد شعبي واضح ، ولم يكن بإمكان هؤلاء أن ينفذوا المهمة الصعبة التي وكلت اليهم الا باللجوء الى تعطيل البرلمان أولا لمدة شهر ثم باصدار قرار بحل مجلس النواب فور انتهاء مدة التعطيل (١) .

وبعد وزارة محمد محمود شكل عدلى يكن وزارة لعقد الانتخابات ، وحصل الوفد على أغلبية كبيرة ، وألف مصطفى النحاس وزارته الثانية في اول يناير ١٩٣٠ ، ولكن لم يطل الامد بهذه الوزارة ، اذ قدمت استقالتها لتعنت الملك فؤاد معها ، وسارع الملك من جانبه بتكليف اسماعيل صدقي بتشكيل الوزارة .

وفي ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ أعلن صدقي الغاء الدستور القائم (دستور ١٩٢٣) ووضع دستورا جديدا .

ولم يعترف الوفد والاحرار الدستوريون بهذا الدستور الجديد . وفي سبتمبر ١٩٣٣ استقال صدقي بعد فترة من الحكم المطلق . ثم توالت الوزارات ... وزارة عبد الفتاح يحيى ثم محمد توفيق نسيم .

(١) مارسيل كولومب - تطور مصر ١٩٢٤ - ١٩٥٠ ترجمة زهير الشايب ومراجعة د . أحمد عبد الرحيم مصطفى مكتبة سعيد رافت - جامعة عين شمس ١٩٧٠ ص ٤٤

وفي ديسمبر ١٩٣٥ تأسست الجبهة الوطنية من كل الاحزاب و
المستقلين وطالبت الملك باعادة دستور ١٩٢٣ .

ولما كان الملك فؤاد قد أصبح مريضاً جداً ، فانه رغب في أن تعقب وزارة
نسليم باشا وزارة ائتلافية ، ولما فشلت المساعي في هذا الاتجاه ، كلف
الملك على ماهر باشا - وكان رئيساً للديوان الملكي بمهمة تأليف الوزارة
فألفها في ٣٠ يناير ١٩٣٦ ، وهي وزارة محابدة تماماً .

وفي ٢٦ مارس ١٩٣٦ صدر المرسوم بدعوة الناخبين الى انتخاب
أعضاء مجلس النواب ، وحدد يوم ٢ مايو لاجراء الانتخابات . الا أن
الملك فؤاد توفي في ٢٨ أبريل ١٩٣٦ وفودى بابه وولى عهد فاروق ملكاً
على مصر (١) .

على أية حال أجريت الانتخابات حرة لم تتدخل فيها الحكومة ،
وأسفرت عن أغلبية للوفد ، ومن ثم كلف مصطفى النحاس بتأليف الوزارة
الجديدة ، فألفها في ١٠ مايو ١٩٣٦ وهي وزارته الثالثة .

وجرت المفاوضات من أجل عقد معاهدة مصرية بريطانية منذ
أواخر عهد الملك فؤاد ، وكانت هيئة المفاوضات المصرية مؤلفة على النحو
التالى : مصطفى النحاس رئيساً . محمد محمود . اسماعيل صدقى . عبد
الفتاح يحيى . واصف بطرس غالى . الدكتور أحمد ماهر . على الشمسى .
عثمان محرم . محمد حلمى عيسى . مكرم عبيد . حافظ عفيفى . محمود
فهمى النقراشى . أحمد حمدى سيف النصر أعضاء ، أما هيئة المفاوضات
البريطانية فكانت مؤلفة من السير ما يلز لامبسون المندوب السامى البريطانى
في مصر يعاونه كل من : الاميرال السير وليم فيشر قائد الاسطول البريطانى
في البحر المتوسط . واللفنت جنرال السير جورج وير القائد العام
للقوات البريطانية في مصر وقتئذ . ومارشال الطيران الاول السير روبرت
بروك بوبهام قائد قوات الطيران البريطانية في الشرق الاوسط . والمستر كيلي
مستشار دار المندوب السامى . والمستر سمارت السكرتير بها .

(١) عبد الرحمن الرافعى - في أعقاب الثورة المصرية ج ٢ ص ٢٥١ .

وبدأت المفاوضات في القاهرة يوم ٢ مارس سنة ١٩٣٦ بقصر
« الزعفران » ثم استمرت في الاسكندرية منذ أواخر يولية بقصر « انطونيادس »
وانتهت بوضع مشروع المعاهدة التي وقعت في لندن بقاعة « لوكارنو »
التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ (١)

مواد المعاهدة :

المادة الأولى :

انتهى احتلال مصر عسكريا بواسطة قوات صاحب الجلالة الملك
والامبراطور .

المادة الثانية :

يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والامبراطور لدى
بلاط جلالة ملك مصر وبتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان
جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية .

المادة الثالثة :

تنوى مصر الانضمام الى عضوية عصبة الامم وبما أن حكومة صاحب
الجلالة في المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فانها
ستؤيد أي طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الامم بالشروط المنصوص
عليها في المادة الاولى من عهد العصبة .

المادة الرابعة :

تعهد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصداقة
والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما .

(١) عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية ج ٣ ط ١٩٥١

المادة الخامسة :

يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ في علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفا وتعارض مع المحالفة وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية .

المادة السادسة :

إذا أفضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى الى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة تبادل الطرفان المتعاقدان الرأى لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقا لاحكام عهد عصبة الامم أو لاي تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة .

المادة السابعة :

إذا أشتبك أحد الطرفين في حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقنم ذكرها فإن الطرف الآخر يقوم في الحال بأنجاده بصفته حليفا وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتى ذكرها .

معاونة صاحب الجلالة ملك مصر في حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم و قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها في أن يقدم الى صاحب الجلثة الملك والامبراطور داخل حدود الاراضى المصرية ومع مراعاة النظام المصرى للادارة بالتشريع جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات .

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التى لها أن تتخذ جميع الاجراءات الادارية والتشريعية بما فى ذلك إعلان الاحكام العرفية واقامة رقابة وافية على الانباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة .

المادة الثامنة :

بما أن قنال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق اساسى للمواصلات بين الاجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالتى أن يحين الوقت الذى يتفق عليه (م ٢٥ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح في حنة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على النبال وسلامتها يرحص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع في الاراضى المصرية بجوار النبال بالمنطقة المحددة في ملحق هذه المادة قنرات نتعارن مع الغواب المصرية لضمان الدفاع عن النبال ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترنيبات الخاصة بتنفيذها ولا يكون لتلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الاحوال .

كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية .

ومن المتفق عليه أنه اذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحددة في المادة السادسة عشر على مسألة ما اذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضروريا لان الجيش المصرى أصبح في حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على النبال وسلامتها التامة فان هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الامم للفصل فيه طبقا لاحكام عهد عصبة الامم النافذة وقت توقيع هذه المعاهدة أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقا للاجراءات التى قد يتفق عليها الطرفان .

المادة التاسعة :

يحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع من إعفاء وميزات في الوسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى تكون موجودة في مصر طبقا لاحكام هذه المعاهدة .

المادة العاشرة :

ليس في أحكام هذه المادة ما يمس أو يقصد به أن يمس بأى حال من الاحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التى قد تترتب لاحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الامم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليها في باريس في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ .

المادة الحادية عشرة :

١ - مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقيات جديدة في المستقبل لتعديل اتفاقية ١٩ يناير ، ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن

ادارة السودان مستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين .

والطرفان المتعاقدان يتفقان على أن الغاية الاولى لادارتهم في السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين . وليس في نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان .

٢ - بناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين في السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين في الوظائف الجديدة ، التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء .

٣ - يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام الدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين .

٤ - تكون هجرة المصريين الى السودان خالية من كل قيد الا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام .

٥ - لا يكون هناك تميز في السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين في شئون التجارة والمهاجرة او في الملكية .

٦ - اتفق الطرفان المتعاقدان على الاحكام الواردة في ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصبح الاتفاقيات الدولية سارية في السودان

المادة الثانية عشرة :

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبرطور بأن المسئولية عن ارواح الاجانب واموالهم في مصر هي من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهي التى تتولى تنفيذ واجباتها في هذا الصدد .

المادة الثالثة عشرة :

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد بلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة . و يرغب صاحب الجلالة ملك مصر في الغاء هذا النظام دون ابطاء . وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن في ملحق هذه المادة .

المادة الرابعة عشرة :

تبقى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقيات أو الوثائق القائمة التي يكون استمرار بقائها مافيا لاحكام هذه المعاهدة ، ويجب أن يعد باتفاق الطرفين المتعاقدين اذا طلب أحدهما ذلك بيان بالاتفاقيات والوثائق الملغاة وذلك في مدى ستة اشهر من فناء هذه المعاهدة .

المادة الخامسة عشرة :

اتفق الطرفان المتعاقدان على ان أى خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق احكام المعاهدة الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويقه بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى احكام عهد عصبة الامم .

المادة السادسة عشرة :

يدخل الطرفان المتعاقدان في مفاوضات بناء على طلب أى منهما في أى وقت بعد إنقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة . وذلك بقصد إعادة النظر بالاتفاق بينهما في نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك فاذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التي أعيد نظرها بحال الخلاف الى مجلس عصبة الامم للفصل فيه طبقا لاحكام عهد العصبة النافذ وقت هذه المعاهدة أو الى أى شخص أى هيئة للفصل فيه طبقا للاجراءات التي يتفق عليها الطرفان المتعاقدان . ومن المتفق عليه أن أى تغير في المعاهدة عند إعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقا للمبادئ التي تنطوي عليها المواد (٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) ومع ذلك ففى أى وقت بعد انقضاء مدة عشرة سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن

الدخول في مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد إعادة النظر فيها بما سبق بيانه (١) .

وقد هاجم الحزب الوطني حضر ، المعاهدة هجوما شديدا ، لانها تقبل بالصداقه والتحالف مع الانجليز وهم لا يزالون يحتلون مصر بينما اعتبرنيها باقى الاحزاب أساسا جبدا للبناء عليه .

والواقع ان التحالف العسكرى بين مصر وانجلترا واعتراف مصر بالحكم الثنائى فى السودان هو الثمن الذى دفعته مصر فى مقابل السيادة التى أضفها عليها تمتعها بعضوية عصبة الامم ، والغاء الامتيازات الأجنبية طبقا لاتفاق مونترىه ، وكانت معاهدة ١٩٣٦ وليدة اصطناع القوة ، اذ أن انجلترا بسبب وجود قواتها العسكرية فى الشرق الاوسط ، كانت قادرة على الاستمرار فى احتلال مصر والسودان رغم انف المصريين . وعلى أن تدافع عن مصر سواء اشتركت مصر فى هذا الدفاع أم لم تشترك وكانت انجلترا على يقين من ان باستطاعتها ان تقوم بذلك ، وكان المصريون يعلمون ذلك وبدركون حقيقة الموقف الدولى فى شرق البحر المتوسط ، ولهذا تنازلوا عن نصف مطالب مصر فى سبيل الحصول على النصف الآخر (٢) .

وكان من الواضح ان هذه المعاهدة قد وضعت نهاية لفترة فى العلاقات المصرية البريطانية ، بدأت بضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ (٣) ثم بلغت درجة شديدة من التوتر والعنف سنة ١٩١٩ ثم انتقلت الى طور الصداقة سنة ١٩٣٦ .

على ان معاهدة ١٩٣٦ تسجل نقطة انتقال حاسمة فى تاريخ مصر المعاصرة . فقد أقنع الزعماء الوفديون الشعب بأنهم قد أحرزوا له الشرف والاستقلال ، ، ولهذا انحسر المد الوطنى الصاعد الذى كان ذخيرة مصر

(١) د . عبد العزيز الشناوى - د . جلال يحيى - وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر - دار المعارف ١٩٦٩ ص ٧٤٣ - ٧٧٠ .

(٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

John Marlowe op. cit., p. 307

المعنوية منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر وتوهم المصريون انهم قد حصلوا على الاستقلال ، وابصرموا وصرفهم الاحزاب الى البضال المرتبط بتقلبات الحكم (١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يوليو

من الملاحظ أن الحركة الوطنية في مصر قد قلت حماسيتها كثيرا في عام ١٩٢٤ بالقياس الى عام ١٩١٩ ويرجع ذلك الى أن الحركة الوطنية قد لقيت الكثير من عنف سلطات الاحتلال ، ومن تدخل القصر في الحكم والانتهازية والحزبية التي طغت على وحدة الأهداف الوطنية (٢) .

وكانت « المفاوضات » هي الاداة التي اتخذها قادة الرأي في مصر لوضع العلاقات المصرية البريطانية على أساس يحقق لمصر أمانيتها القومية ، والمفاوضة أخذ وعطاء ، فكان هم المفاوض المصري الا يعطى انجلترا ما يتنافى مع جوهر الاستقلال ، واختارت الحكومة الانجليزية هي أيضا المفاوضات أداة لوضع علاقاتها بمصر على أساس يقبله المصريون راضين تماما أو راضين ببعض الرضا ، ويحقق لانجلترا الاغراض التي من أجلها سيطرت على مصر . والمفاوضة أخذ وعطاء ، فكان هم المفاوض الانجليزي أن يسخو في الصيغ العامة وأن يحقق كل التحقيق فيما يمس المصالح التي ادعتها بلاده لنفسها (٣) .

وهكذا انتقلت المسألة المصرية من مرحلة الثورة الى مرحلة جديدة هي مرحلة المفاوضات السلمية . وبدأت المفاوضات الاولى بين سعد زغلول ومكدونالد بلندن في سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، الا أن المطالب التي تقدم بها سعد لم تجد موافقة من حكومة العمال ، وانتهت المفاوضات برفضها .

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٢٠٢ .
(٢) د . جاد طه - الصراع الاستعماري في حوض النيل ص ٨٩
(٣) محمد شفيق غربال - تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية ١٨٨٢ - ١٩٣٦ القاهرة ١٩٥٢ ص ١ .

وكانت المفاوضات التالية بين عبد الخالق ثروت الذى رأس الحكومة الانتلافية فى مصر فى أبريل سنة ١٩٢٧ وتنمبرلن وزير الخارجية البريطانية البريطانية فى حكومة المحافظين ، ووصل الطرفان الى مشروع معاهدة تحقق لبريطانيا فيها كل ما تهدف اليه من نفوذ وسيطرة ، الا ان الوفد والوزارة رفضا هذا المشروع ومن ثم لم يعرض على البرلمان ، وانتهى الامر بتأجيل النظر فى هذا المشروع .

وفى عام ١٩٢٩ بدأ محمد محمود رئيس الوزارة المصرية الدور الثالث للمفاوضات مع آرثر هندرسن وزير الخارجية البريطانية فى حكومة العمال ، الا ان مشروع المعاهدة الذى أسفرت عنه المفاوضات كان يتلخص فى الاحتفاظ بالاحتلال البريطانى الدائم للبلاد ، وبفصل مسألة السودان عن المسألة المصرية . . . ولما أعلن نص المشروع سقطت وزارة محمد محمود (١) وفى ٢٦ أغسطس عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى تكلمنا عنها سابقا .

وتميزت الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٥٢ بأنها شهدت انهيارا سياسيا واسع المدى ، فعلى الرغم مما كان يتمتع به حزب الوفد من مساندة جماهيرية الا ان الحزب بدأ يتفتت نتيجة لمؤثرات داخلية وخارجية ، فقد كان الاستعمار والسراى بخشيان من الحزب على أساس انه يجمع ويقتل قوى الشعب ، فبدأ الامر بسلخ بعض عناصره القوية ، وهى التى شكلت بعد ذلك حزب الاحرار الدستوريين . ولما بدأ حزب الوفد يقوى مرة أخرى ، قامت محاولة جديدة لتمرزقه بخروج السعديين منه . وكان السعديون يمثلون العناصر الرأسمالية الجديدة التى ظهرت فى عقاب الحرب العالمية الأولى . وقد حاول الوفد أن يتحول منذ عام ١٩٤٥ الى حركة اشتراكية باتجاهه الى الى التشكيلات العمالية ، ولكنه فشل فى ذلك . حقيقة كان فى وسع الوفد دائما أن يعتمد على قوته فى كسب الانتخابات ، ولكنه ما ان يكسبها فى أى مرة من المرات حتى تتفرق وحدة الهدف التى سادت

أعضاءه أثناءها وحتى بركن الى الاسترخاء ، وكثيرا ما كان لجأ القصر الى اقالة وزارة جديدة تم انتخابها أو الى حل البرلمان وتعطيل الدستور عملا بنصبة بريطانيا أو بدونها اذا رأى أن النذر السياسية غير مواتية له ، وهكذا كانت تنطلق الانتهازية والمصالح الخاصة حرة طليقة في ظل مثل هذه الاوضاع .

وكان أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة هم الذين يسيطرون على السياسة كلها ، وكانوا في غالبيتهم من الغائبين عز أرضهم ، ومقن صرفون أيامهم بين القاهرة والاسكندرية وأوربا . ومع ذلك ، فقد كان بإمكانهم أو بإمكان وكلائهم أن يضمنوا لهم الفوز في الانتخابات البرلمانية باستخدام وسائل غير مشروعة في جعلتها ، وكان من العادات المألوفة أن يكون هناك سماسة لشراء أصوات الناخبين .

ولقد تقدمت الصناعة والتجارة في مصر بعد عام ١٩٢٢ ، ولكن هذا التقدم لم يخلق مع ذلك طبقة قوية من رجال الصناعة والتجارة تستطيع أن تتحدى السلطان السياسي لفئة كبار الملاك ، فلقد كان الشطر الأكبر من الصناعة الجديدة ومن التجارة ملكا للأجانب وتحت اداراتهم ، وكان الأجانب يملكون في عام ١٩٤٨ نحو ٦١٪ من مجموع رؤوس الأموال في الشركات المساهمة ، يضاف الى هذا أن الفئة الممتازة من كبار الملاك كانت هي التي خططت شكل المجتمع المصري ، ورسمت له خطاه وحياته العامة منذ أمد طويل ، بحيث أجبر المصريون الذين ارتقوا عن طهريق الصناعة والتجارة الى الظهور بمظهر التبعية للطبقة الأرستقراطية من الملاك .

وعكست البرلمانات التي سبطر عليها الوفد في الفترة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٥٢ الخصائص السياسية للاتجاه السياسي . وقد يكون صحيحا أن البلاد خططت خطوات واسعة في حق التعليم العام ، وأن البرلمان قد أقر في عام ١٩٤٢ قانونا هاما لتنظيم الحركة النقابية ، وحقق للبلاد تقدما عام ١٩٥٠ تشريعا هاما للضمان الاجتماعي ، والحفبتة أن كبار الملاك في داخل الحكومة أو في خارجها كانوا ينساحون في هذه

الاجراءات ٠٠٠ الامليه عن امن بيا والغالبية نرى فبب وسيله لامتصاص البورة ، ومع ذلك علم يكن فى استطاعة اى برلمان فى مصر بين عامى ١٩٢٢ ، ١٩٥٢ أن يسن قانونا للاصلاح الزراعى ، بل ورفض البرلمان الاقتراحات التى قدمت لها فى عامى ١٩٤٥ ، و ١٩٥٠ بنحدد الملكية الزراعية .

وظل سكان مصر فى التزايد المستمر ، وارتفع تعداد السكان من ١٣ مليوناً سنة ١٩٢٢ الى ٢١ مليوناً فى عام ١٩٥٢ ، وتبع ذلك حبرط فى مستوى دخل الفرد . واخذ الكيان السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى مصر ينهار سنة بعد أخرى ، وفقد الوفد قدرته على اجتذاب الألوف من العاطلين ومن ذوى الاجور الضئيلة من خريجي الجامعات .

وشهدت الفترة من ١٩٢٢ الى ١٩٥٢ ظهور جيل جديد من الشباب القلق نستطيع ان نقرا قصته فيما كتبه الرئيس جمال عبد الناصر فى كتابه فلسفة الثورة ، فقد كان هذا الجيل يتكون من المتعلمين من خريجي الجامعات ومن الذين يعملون فى المهن المختلفة والطبقة الوسطى عموماً التى كانت بمثابة الأرض الخصبة التى أختت تترعرع فيها الافكار الجديدة التى سادت العالم عقب الحرب العالمية الاولى ، وكانت هذه الطبقة تؤلف حاجزاً طبقياً بين الاغنياء والفقراء ، ولكن هذا الحاجز لم يكن يملك من الثروة او الوفرة العددية والتنظيم السياسى والمكانة الاجتماعية ما يمكنه من تحدى النظام القائم تحدياً جدياً . وظل هذا الحاجز يؤلف طبقة تعيش فى حيوية قلقة بين هؤلاء الذين يمسكون بزمام السلطان وبين اولئك الذين يقعون عاجزين فى شقائهم .

وادى التحول السريع فى حياة المدن الى ظهور طبقة عمالية جديدة، وان كانت تسد ظلت تفتقر الى حد كبير الى التنظيمات الفعالة للطبقة العاملة .

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع اوزارها ، حتى كان السخط ظاهرة عامة وخاصة بعد قيام اسرائيل وما صاحبها من مأساة حرب فلسطين . ونمت فى عقول أبناء هذا الجيل رغبة شديدة لا تكتفى

بالإصرار على تصفية كل سيطرة جنابية فحسب ، بل تتطلع الى الحيلولة دون تمكن أية دولة من الدول الكبرى من عقد تحالف مع أى جزء من أجزاء الوطن العربى .

وكان النظام الجمهورى مطلباً متأصلاً فى سعى هذا الجيل الى اصلاح الاجتماعى وأخذت الاشتراكية والديموقراطية تجتذبان هذا الجيل بدرجة متزايدة ، ولكن النظام الداخلى الذى كان يتحكم فى البلاد كان بطبيعة الحال يعارض هذه الأفكار وهو فى هذا متفق تماماً مع سياسة الاحتلال ، ومن هنا بدأ التحدى لهاتين القوتين معا ، ومع ذلك لم تنشأ حركة سياسية تعكس كل هذه الآراء وتتصدى لمقاومة التدبيلات التى كان من المفروض أن تواجهها ، وبالتالي لم تقم أحزاب متماسكة ، أهدافها نشيطة فى عملها لتعكس هذه الآراء .

والواقع أن الشعب المصرى كان يعيش فى السنوات السابقة للثورة فى حالة بأس شديد نتيجة لتدهور الأوضاع الاقتصادية ولبقاء جيش الاحتلال ، وكان لا بد من تغيير سريع ، وكان من المستحيل أن تقوم الأحزاب السياسية فى مصر بمهمة هذا التغيير بعد أن فقدت الجماهير ثقتها بتلك الأحزاب ، وأخذت تبحث عن شئ جديد ينير معالم الحياة فى البلد ، فالوفد الذى كانت تلتف حوله الغالبية العظمى من أفراد الشعب قد فقد ثقة واحترام المثقفين لتسرب الفساد الى الصفوف الأولى من قاداته وكانت الأحزاب السياسية الأخرى كحزب الأحرار الدستوريين وحزب السعديين قد بدأت تفتح أبوابها لنفوذ الرأسماليين ، بينما كان الحزب الوطنى يتكبر من مجموعة من المثقفين الذين انعزلوا انعزالاً يكاد يكون تاماً عن الشعب . وكان الموقف يتطلب ظهور قيادة غير فيادات الأحزاب القائمة ، فى الوقت الذى كان فيه الوعي القومى للشعب قد ازداد ارتفاعاً ، بفضل الاتجايدات الثورية الشعبية الجديدة ، وبفضل تطورات الأحداث العالمية ، وبفضل التجارب الثورية التى خاضتها بعض الشعوب الآسيوية ، وأثبت هذا الوعي وجوده فى مظاهرات فبراير ١٩٤٦ وفى المارك المسلحة فى الفنال سنة ١٩٥١ .

وكانت حرب فلسطين ، والكشف عن مخازى القصر ابذانا بارتفاع صوت الشعب بالمطالبة بالقضاء على الملكية ، وظهرت المقالات في الصحف ضد الباشوات ابذانا بالقضاء على الاحتكار .

ولم يكن الجيش بمعزل عن الشعب ، فقامت في صفوفه تنظيمات سرية . وقد بدأت حركة الضباط الاحرار سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢ وبالذات اثناء محاولة الغزو الالماني لمصر ، وبدأت الحركة تظهر في اوساط الجيش لمقاومة محاولة التدمير التى ازمع الانجليز القيام بها عند انسحابهم امام الالمان . واستمر الارتباط قائما بين جماعة الضباط الاحرار ، وبدا الاتجاه السياسى يظهر فى التنظيم ، وتجاوب التنظيم السياسى فى مفاهيم هؤلاء الضباط الذين دخلوا الجيش بعد معاهدة ١٩٣٦ عندما زبد عدد الجيش ، وكانت اكثريتهم من العناصر الشعبية بينما كان الجيش من قبل وقفا على عناصر معينة . وكانت هذه الفئات الجديدة هي الطلائع الثورية لثورة يوليو ، ولعل ذلك بذكرنا بموقف يكاد يكون مشابها . نان الثورة العربية قد تزعمتها ايضا فئات من العناصر الشعبية التى دخلت الجيش اثر ما تقرر زيادة عدده فى عهد الخديو اسماعيل . وقد اخذت تنظيمات الضباط الاحرار تقوى بعد عام ١٩٤٨ نتيجة لما لمسها الضباط بانفسهم فى حرب فلسطين من مقدار الفساد فى الفئة الحاكمة ، واصبح الشعور الحقيقى بان المعركة الاساسية لا تكون فى فلسطين بل فى مصر نفسها ، ولذلك اخذ التنظيم يدخل مرحلة جديدة بعد ١٩٤٨ . وبعد عودة الجيش من فلسطين كانت السلطات متنبهة الى ذلك فبدأت عملية تشتيت واسعة ، ولكن الأفكار الثورية كانت مع ذلك تزداد قوة ، لأن الظروف التى كانت تمر بها البلاد انعكست على التنظيم نفسه . وقد اعطت معركة الكفاح المسلح فى القنال فرصة لزيادة قوة التنظيمات التى اقامها الضباط ، واصبح من المستحيل أن يبقى الجيش كما أريد له أن يكون أداة صماء فى يد القصر .

وبعد نكسة فلسطين سنة ١٩٤٨ وقعت فى مصر سلسلة من الاحداث أدت الى اضطراب امور البلد ، فقد نشب صراع دموى بين بعض الاحزاب المتصارعة على الحكم ، ووقعت عدة حوادث اغتيالات وانفجارات

في أرجاء القاهرة والاسكندرية ، واهتزت مكانة الوزارات في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٤٨ - ١٩٥٠ .

وشعر الملك أنه في حاجة الى وزارة قوية تستطع أن تعيد الأمن الى البلاد ففكر أن يعيد الوفد الى الحكم ، وفعلأ أجريت الانتخابات في عام ١٩٥٠ . وحصل الوفد على الأغلبية البرلمانية ، الا أن الوفد غير سياسته ، وأخذ يتقرب من السراي لان مدة ابعاده عن الحكم دفعت رجاله الى التفاهم مع السراي لعلهم يستمرون في الحكم مدة أطول ، وحتى لا يتعرضوا للاقالة مثلما حدث فيما سبق .

وقد حاولت حكومة الوفد أن تستعيد نقه التسعب ، فحاولت أن تصدر مشروعا للضمان الاجتماعي ، كما منحت علاوات للموظفين وزيادات في أجور عمال الصناعة ، ولكن هذه الخطوات أدت الى غلاء الاسعار . وحاولت حكومة الوفد أن تلجأ الى طرق أخرى لاستعادة الثقة بها فدخلت في مفاوضات مع الانجليز على أمل إنهاء الاحتلال وعندما فشلت هذه المفاوضات أعلنت الحكومة الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وكان ذلك في ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ .

وفد استقبلت البلاد الغاء المعاهدة بالغبطة والحماسة ، وابتدت استعدادها للبذل والتضحية شأنها في الاوقات العصيبة ، واستنعدت الامة بمختلف هيئاتها وطوائفها للكفاح ، وتجاوبت مع الحكومة في مجاهدة الانجليز في القنال ، وتجلت في الشعب الروح الوطنية النائرة التي ظهرت في ثورة ١٩١٩ .

لقد كان الغاء المعاهدة بداية مرحلة جديدة من مراحل الكفاح الوطني ، وكان أيضا الفرصة السانحة لتوحيد الصفوف وجمع الكلمة وازالة اسباب الفرقة والانقسام .

وكان واجبا على الوفد ان يكون هو الداعي الى توحيد الكلمة والعمل على تحقيق هذه الغاية لانل كان يتولى الحكم حينذاك ، ووزارته هي التي أعلنت الغاء المعاهدة واتخذ هذا الإلغاء شكل اعلان الحرب على الاحتلال . ولكن مصطفى النحاس، لم يفعل شيئا من هذا ، فلا هو دعا معارضييه الذين

أيذوه في الغاء المعاهدة الى التعاون معه بشكل جدى ، ولا هو صنع وزارته بالصيغة القومية .

كما أعلن مصطفى النحاس ان الوزارة قد أعدت لكل شىء عنده فيما ستواجهه مصر من مشاق الجهاد ، وأنها أمضت الشهور في الاستعداد للكفاح ، وان المصلحة العامة تقتضى ان تظل الخطوات المقبلة في طي الكتمان الى ان تعلن في الوقت المناسب . وسرت الحماسة الى نفوس المواطنين ، وأخذوا يستعدون للكفاح ضد الانجليز في القتال ويعدون له عدته من تلقاء انفسهم ، وكان في الحق كفاحا مجيدا ، كفاح شعب اعزل من السلاح أمام فوات غاصبة مسلحة بأحدث معدات القنك والدمار .

... وتجلت بطولات الفدائيين في مهاجمة المعسكرات والمخافر والمنشآت البريطانية في منطقة القنال مما تردد صده في صحف العالم ، وكان من أقوى الدعايات لمصر ضد الاحتلال (١) . ورغم تأكيد حكومة الوفد بأنها قد أعدت لكل شىء عنده ، فقد حدث في ٢٥ يناير ١٩٥٢ ان هاجم الانجليز محافظة الاسماعية بالمدافع والدبابات ولم يكن يدافع عن المحافظة سوى عدد قليل من جنود الشرطة (بلوكات النظام) الذين لا يحملون سوى البنادق العادية ، ومن ثم أبيد معظمهم .

وفي اليوم التالي خرجت جماعات من الطلبة ورجال الشرطة في مظاهرة احتجاج ضخمة ضد ذلك العدوان الوحشى ، وكانت النفوس ثائرة ضد حكومة الوفد المتخاذلة ، وانتهزت بعض الجماعات المتطرفة هذه الفرصة للاساءة الى الحركة الوطنية ، فكان حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وكان لذلك الحريق اثر كبير في تقديم موعد الثورة ، وفي ذلك يقول الرئيس جمال عبد الناصر : « حرقت القاهرة وحرق معها كفاحنا في القتال . ومن ذلك اليوم بداننا نفقد الصبر وآثرنا ان نصرع الفساد قبل ان يصرعنا » والحقيقة انه كان هناك تفكير بأن يقوم الجيش بحركته بعد ان نزل الى

(١) عبد الرحمن الرافعى مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ١٨ - ٢١ .

تسوارخ القادة في ٢٦ يناير واحل الاماكن الرئيسية . ولكن الظروف لم تكن مواتية في ذلك الوقت .

وبدات الاحداث تنوالى بسرعه ، ففي نفس ذلك اليوم أعلنت الاحكام العرفية وأقبلت وزارة الوفد في اليوم الثالث للحريق ، وحلت محلها وزارة على ماهر ، ثم جاءت بعدها وزارة نجيب الهلالي الاولى فحلت البرلمان ورفعت شعار « لا تحرير قبل التطهير » ، وكان هدف هذا السعار تمميع حركة الكفاح الشعبي وادخال البلاد في معركة أخرى معركة التطهير داخل الاجهزة الحكومية وكان المقصود بهذه العملية صرف نظر الشعب عن عملية الكفاح .

ولما بدأ الهلالي في عملية التطهير يمس في تحقيقاته بعض المتصلين بالسراى كان لا بد من ابعاده ، وتمادى الملك في تعيين وزارة واسقاط أخرى حتى انه كلف انذين بنأليف الوزارة في وقت واحد دون أن يعلم أحدهما بأمر الآخر .

وفي ٢٢ يوليو ١٩٥٢ استقالت وزارة حسين سرى بعد ١٩ يوما وكلف الملك نجيب الهلالي تأليف وزارة جديدة وفرض الملك عليه عددا من الوزراء ليكرنوا اداة للملك في السيطرة على الجيش بوجه خاص نتيجة لنشاط الضباط الاحرار .

وبينما القيادة العليا للجيش تبحث في تلك الليلة (٢٢ يوليو) الوسائل التي يحب اتخاذها لتنفيذ ارادة الملك ، قام الجيش بالثورة . . . والحقيقة ان الشعب المصرى كان قد بدأ ثورته على الوضع ، ولكنه كان بحاجة الى قيادة منظمة توجه نشاطه وتنظم صفوفه ، فلما قامت الثورة لم تكن تهنل فئط غضبه رجال الجيش ، وانما كانت تعبر عن رغبة شعبية عميقة ، وهكذا التقت ارادة الجيش وارادة الشعب ، فلما تحرك الجب في صباح يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لم يجد أمامه مقاومة .

اسباب ثورة ٢٣ يوليو :

ان البيانات التي اصدرتها الثورة في بدء قيامها لم توضح سوى الاسباب الظاهرية ، او الاسباب الجزئية ، خلاصة هذه البيانات ان قادة الثورة وكلهم من ضباط الجيش قد ثاروا على فساد نظام الجيش ، ذلك الفساد الذي كان من اسباب الهزيمة في حرب فلسطين ، وأنهم اعتزموا تطهير الجيش من عوامل الفساد والرشوة والخيانة ثم متابعة النظير في جميع مرافق البلاد ، ورفع لواء الدستور ، وقد رأوا ان الملك بتصرفاته السيئة وعيسته بالدستور من اسباب الفساد الذي سيطر على اداة الحكم ، مما أدى بالتالى الى الفوضى الشاملة التي عمت جميع المرافق وأساعت الى سمعة مصر فاعتزموا خلعه وخلعوه فعلا في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ (١) .

والواقع ان هذه العوامل هي بعض اسباب الثورة لأكملها ، فاسبابها اهم وأعمق من ذلك ، فهي ليست خاصة بالجيش ، وانما كانت قياداتها تعبر عن احساس الشعب واتجاهاته وتترسم خطواته في تحديد اهدافه ، ولذلك لا تختلف هذه الثورة عن الحركات الشعبية التي سبقتها باستثناء الثورة العراقية الا في اتخاذ الجيش اداة العمل والتنفيذ ، وقد كانت هذه القوة فعلا هي السبيل لنجاح الثورة ولولاها لانتهت بالنكسة والاخفاق .

ويمكن ان نرجع اسباب ثورة يوليو الى عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ، ولذلك فان الثورة في معالجتها لتلك الاسباب ثورة سياسية واقتصادية واجتماعية ، مما يميزها عن الحركات الشعبية الاخرى التي قامت .

الاسباب السياسية :

كانت الثورة تعبيرا عن سخط الشعب . الاحتلال البريطاني الذي جثم على صدر البلاد سنوات طويلة ، كما كانت تعبيرا عن سخط الشعب

(١) د . جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو ص ١٤٤ .

لاستغلال المستعمر للبلاد سياسيا واقتصاديا ، ونفضه المتواصل
لأوعبد الجلاء ، والمارواغة في تعويق الجلاء بمفاوضات منكورة . كما
عمل الانجليز بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ على تدبير المؤامرات واسقاط
الوزارات واقامتها ، واستحداث الازمات لتحقيق أغراضهم الاستعمارية .
وأدرك الضباط الاحرار ان الواجب ان يكون لهم الدور المرتقب في الجهاد
لانهم يمثلون القوة المسلحة التي يستطيع الشعب ان يستند اليها في التخلص
من مساوىء سيطرة المحتل .

الاسباب الاقتصادية :

كانت الحالة الاقتصادية في أوائل سنة ١٩٥٢ مما يحفز النفوس
الى الانتفاض والثورة والعمل على تحرير البلاد من عوامل الفقر التي
كانت تتردى فيها .

حقا ان البلاد قد خضت خطوات متوالية منذ الحرب العالمية الاولى
في سبيل التقدم الاقتصادي ، واطرد هذا التقدم في أعقاب الحرب العالمية
الثانية ، وتعددت المنشآت الصناعية ، الا أن مصر ظلت بصفة عامة من
البلاد المتخلفة اقتصاديا ، وكان من مظاهر هذا التخلف ظهور
العجز في ميزانها التجاري ، هذا الى ما كان من سيطرة الاستعمار والنفوذ
الاجنبي بصفة عامة على مقدرات البلاد ، وكان هذا النفوذ يمتد الى
المحيط السياسي ، وكانت الغالبية العظمى من أفراد الشعب تنسكو الفقر
وسوء الحالة الاجتماعية بما يصحبها من انخفاض في المستوى المعيشي ،
وافتقرت البلاد الى آفاق جديدة تزيد من الانتاج القومي ومن دخل الافراد
كالتفمية الزراعية او الصناعية ، وكان ذلك من العوامل التي أدت الى
التطلع نحو تغيير شامل في نظام الحكم قد يساعد على اصلاح ما اغفل
من شئون البلاد المالية والاقتصادية .

الاسباب الاجتماعية :

لقد كانت الحالة الاجتماعية تدعو ايضا الى الثورة ، وأهم مظاهرها
فقدان العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب . ان العدالة الاجتماعية من

مقرمات المجتمع 'تقدم ، وأساسها أن لا تتحيف طبف، حفرى طبف .
أخرى ، وأن تفل 'لوارى الضماسة بين الطبقات ، وأن نعمل الدرله
على تحسين حالة الطبقات الفقيرة من الوجهة الاقتصادية والصحية
والثقافية ، وبذلك يتحقق التضامن الاجتماعى بين أفراد الأمة .

وقد كانت الفوارق فى الثروات بين أفراد المجتمع تتخذ طابعا خطيرا ،
وكانت البلاد تنسكو من سوء توزيع ملكية الاراضى الزراعية ، وان سوء
توزيع هذه الملكية فى مصر ظاهر توزيع ملكية الاراضى الزراعية ، وان
سوء توزيع هذه الملكية فى مصر ظاهر من القاء نظرة على عدد الملاك
ومقدار ما يملكون ، ونسبة صغار الملاك الى كبارهم فى مجموع هذه
الاراضى . ويوضح هذا الاحصاء هذه الحقيقة فيما يلى :

أن مساحة الارض المنزرعة قبل الثورة كانت ٦٦٢ر٦٦٢ره مدانا ،
وكان مجموع ملاكها ٦٦١ر٦٧٠ مالكا .

فاذا نظرنا الى الملكيات الصغيرة فأننا نجد أن :

١ - ١٦٧ر٤٥٩ مالكا يملك كل منهم لغاية نصف فدان ، مجموع
ملكياتهم ٤١٣ر٥٥١ فدانا .

٢ - ١٦٢ر٥٢٢ مالكا يملك كل منهم أكثر من نصف فدان الى
فدان ومجموع ملكياتهم ٦٩٥ر٣٥٦ فدانا .

٣ - ٦١٢ر٣٢٧ مالكا يملك كل منهم أكثر من فدان الى فدانين
ومجموع ملكياتهم ١٨٦ر٤٤٩ فدانا .

٤ - ٢٩٣ر١٥٣ مالكا يملك كل منهم أكثر من ٢ لغاية ٣ افدنة
ومجموع ملكياتهم ٨٥٥ر٣١٤ فدانا .

٥ - ٣٦٦ر٨١ مالكا يملك كل منهم أكثر من ٣ لغاية ٤ افدنة ومجموع
ملكياتهم ١٧ر٢٤٧ فدانا .

(م ٢٦ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

٦ - ٥٨٩ر٥٦ مالكا يملك كل منهم أكثر من ٤ لغاية ٥ أفدنة ومجموع ملكياتهم ٢٤٧ر٠٠٠ فدان .

واذا نظرنا الى الملكيات الكبرى فاننا نجد أن :

١ - ٦١ مالكا يملك كل منهم أكثر من ٢٠٠٠ فدان ومجموع ملكياتهم ٢٧٧ر٢٥٨ فدانا .

٢ - ٢٨ مالكا يملك كل منهم من ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ فدان ومجموع ملكياتهم ١٢٢ر٢١٦ فدانا .

٣ - ٩٩ مالكا يملك كل منهم أكثر من ١٠٠ - ١٥٠٠ فدان ومجموع ملكياتهم ١٢٢ر٢١٦ فدانا .

٤ - ٩٢ مالكا يملك كل منهم أكثر من ٨٠٠ الى ١٠٠٠ فدان ومجموع ملكياتهم ٨٦ر٤٨٣ فدانا .

ومعنى ذلك أن ٢٨٠ مالكا يملكون ٥٨٣ر٤٠٠ فدان ، أى أن ١ على ١٠٠٠٠ من الملاك يملكون حوالى ١٠٪ من الارض

واذا نظرنا الى الملكيات التى تزيد عن ٢٠٠ فدان ، فاننا نجد أن ٢٢١٥ مالكا يملكون ١٢٠٨ر٤٩٣ فدانا ، أى أن ٨ على ١٠ر٠٠٠ من الملاك يملكون ١٩٪ من الارض (١) .

وواضح من هذا الاحصاء مبلغ سوء توزيع الملكية الزراعية ، وهذا التوزيع السوء جعل الغالبية العظمى من صغار الملاك الزراعيين يملك الواحد منهم نحو ربع فدان ، وهو مقدار لا يكفى لسد حاجة هذه الفئة من السكان إذ لا يزيد دخل الفرد منهم عن مبلغ تافه لا يكفى للقوت الضرورى للمالك وعائلته .

ولكن السعى الى تحديد الملكية الزراعية قد باء بالفشل فى عهد النظام الملكى ، وكانت كل محاولة من هذا القبيل مقضيا عليها بالافخاق

(١) هذا الاحصاء مأخوذ عن المذكرة التفسيرية لقانون الاصلاح الزراعى انظر عبد الرحمن الراقعى - مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ١٧٠ .

ولقد بذلت في عهد فاروق في سنة ١٩٤٥ محاولة تشريعية لتحديد الملكية الزراعية ولكنها انتهت بالاحقاق . ولم يكن ممكنا في ظل النظام الملكي ان تحدد الملكية الزراعية ، وكان لا بد من ثورة لتحديد الملكية الزراعية فحالة البلاد الاجتماعية من هذه الناحية كان لها دخل كبير في قيام الثورة (١) .

(١) المصدر السابق ص ١٧٢ .

الفصل التاسع
من متاحف مصر الحديثة

ترجع فكرة انشاء المتاحف في مصر الى الملك فؤاد ، الذى أراد أن ينشئ متاحف متخصصة . وفى هذا الفصل سنحاول الاشارة الى بعض متاحف مصر الحديثة ، لأن المتاحف عديدة ومتنوعة كمتحف الاحياء المائية بالاسكندرية ومتحف التعليم ومتحف قناة السويس والمتحف الحربى والمتحف الزراعى ومتحف الري ومتحف الامير محمد على ومتحف الركائب ومتحف السكة الحديد ومتحف البريد ومتحف مختار ومتحف احمد شوقي ، ومتاحف القصور الملكية والمنتشرة فى كل مكان ، . الخ فهذه الدراسة قد تشجذ الهمة عند البعض معرفتى بقلة رواد هذه المتاحف التى تقص قصبة الحضارة فى مصر الحديثة . . واذا كنا لم نفصل الكلام هذه المرة عن كل متاحف مصر الحديثة ، ففى الطبعة القادمة من الكتاب سوف نقلافى هذا النقص بمشيئة الله ، لاننا أثربنا هذه المرة اعطاء لمحة سريعة عن المتحف الزراعى والمتحف الحربى ومتحف المركبات الملكية ومتحف الري ومتحف الامير محمد على

اولا : المتحف الزراعى

راى الملك فؤاد الاول أن مصر وهى أعرق البلاد فى الزراعة يجب أن يكون لها متحف زراعى يقوم بنصيبه فى نشر المعلومات الزراعية والاقتصادية فى البلاد .

فقامت الحكومة فى ذلك الوقت بتحقيق هذه الرغبة واشترت لهذا الغرض قصر سمو الاميرة فاطمة اسماعيل الذى تبلغ مساحته بما يحيط به من اراض

حوالى ١٢٥٠٠٠ م مربع. وأجرت فيه من الاصلاحات ما جعله لائقا
بمتحف زراعى . وقد روعى فى انتخاب هذا القصر وقوعه على مقربة من
وزارة الزراعة بالدقى لتنعكس فيه جهود اقسامها المختلفة .

وقد رؤى فى بادىء الامر الاسترشاد برأى خبير اجنبى لادارته فعينت الحكومة
السيو الاجوس دى بيكرت فى أواخر يناير سنة ١٩٣١ - وكان مديرا لمتحف
بودابست الزراعى - غير أنه استقال من الخدمة فى سنة ١٩٣٢ ، وعين بدلامنه
الدكتور ايفان ناجى فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٣ وكان ايضا مديرا لمتحف
بودابست الزراعى وسار فى اعداد المتحف حتى انتهى عقد تعيينه فى ٢١ فبراير
سنة ١٩٣٦ وعهدت ادارة المتحف الى حضرة ص.ب. العزة المرحوم محمد بك
ذو الفقار من ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٦ الى ٨ يونيه سنة ١٩٣٨ وخلفه فى
ادارته حضرة صاحب العزة حامد سرى بك والذي فى عهده اكتمل المتحف ،
فسمى متحف « فؤاد الاول الزراعى ثم غير اسمه بعد الثورة الى المتحف
الزراعى .

والقرص الاول من المتحف الزراعى هو تمثيل الزراعة المصرية فى مختلف
نواحيها بشكل ملموس وذلك بعرض مختلف الحاصلات الزراعية التى تخرجها
القربة المصرية ونتائج الابحاث الفنية التى توصل اليها الاختصاصيون فى
مختلف تجاربهم العلمية وكيفية تنسيق الحقائق والبساتين والصناعات
الخاصة بها ، وطريقة تعبئة الفاكهة وتصديرها واختيار البذور وتنظيفها
والفلاح وحياته والامراض التى تنتابه وطرق الري والصرف بالبلاد والصحارى
والواحات ، وما يوجد بها من زراعات وصناعات وغيرها ، والاحصاء الزراعى
لبيان حالة الحاصلات فى البلاد ، ومدى تقدم انتاجها ، وابحاث القربة وتكون
الارض المصرية ، وانواعها ، والاسمدة والمخصبات التى تستعمل لتعويض المواد
الغذائية التى تفقدها القربة ، والظواهر الجوية ، وطرق تربية الحيوان
والدواجن ومنتجاتها ، وما يتبعها من صناعات ، الاسماك والطيور النافعة
والضارة وحيوانات الصيد والقنص وطرق صيدها ، والادوات المستعملة فى
ذلك ، وتربية النحل واستخراج العسل ، والنباتات التى بتغذى عليها ،
وتربية دودة القز والآلات المستعملة فى نسج الحرير وغيرها ، والمجموعات
الحشرية ومقاومة الآفات وغير ذلك مما له علاقة بالحشرات .

والمتحف اذ يضم الآن بين جدرانه من طرائف المعروضات ذات القيمة العلمية النافعة يعد معهدا يسترشد به المسترشدون في شتى الشئون الزراعية وكل ما له علاقة بها ، ويستفيد منه المشاهدون بما لا يمكن الاستفادة به بالقراءة الطويلة والبحث العميق .

فهو ليس متحفا بالمعنى الصحيح فحسب ، بل مدرسة علمية وعملية يقتبس منها كل زائر .

ولقد حرص المتحف على جمع كل حديث وقديم فأضيفت الى مجموعته الاثرية القيمة عادييات مصلحة الاثار المصرية التي لها علاقة بالزراعة والحوان ، فأتاح بذلك للزائر فرصة مشاهدة أطوار الزراعة في العصور الحاضرة والغابرة أى منذ ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا .

كما عنى المتحف بالحياة والفنون الريفية ، حيث بعرض صناعة الفخار في مصر ، والذي حظى باهتمام المصرى القديم في صناعة الاواني الفخارية التي احتفظ بها في مقابره ، وصناعة الزجاج والصلال والاطباق من الخامات الزراعية ، مثل سيقان القمح وخص النخيل كذلك يوضح المتحف صناعة الكليم والسجاد وكذلك الازياء المختلفة للنساء والعمارة الريفية والزخارف والتصوير الريفي على الحوائط وغيرها من مظاهر الحياة الريفية للفلاح المصرى .

كذلك اهتم المتحف الزراعى بالنماذج (الماكينات) التي توضح المحاصيل المختلفة التي تزرع على مجرى النيل ومناطقها ، وحصيلة كل سنة منها . كذلك اهتم المتحف الزراعى بتوضيح القناطر المختلفة التي انشئت على النيل لتنظيم عملية الري والتي منها قناطر أسنا وديروط والقناطر الخيرية وظروف بنائها كما هناك قاعة خاصة بالسسد العالى .

كذلك يوضح المتحف الزراعى البيئة الحيوانية التي تعيش في مصر وفي العالم الخارجى . وهناك قاعة خاصة بالافات التي تهدد المحاصيل الزراعية الرئيسية في مصر منها دودة القطن والجراد وكيفية التغلب عليها . كذلك يهتم

المتحف بالثورة الحيوانية كالابقار والماعز وأهم الامراض التي تهدد تلك الثورة وكيفية التغلب عليها كذلك يوضح مختلف أنواع الطيور التي يرببها الفلاح المصرى وكذلك الثورة السمكية بمصر وحياة الصيادين مع توضيح مختلف أنواع الاسماك الموجودة بالبحر الاحمر والبحر المتوسط ونهر النيل .

كذلك يهتم المتحف الزراعى بالقطن الذى تشتهر به مصر والجهود التي تبذل في زراعته وتطور صناعة الاقمشة القطنية بمصر وجهود محمد على في ذلك المجال .

ويعتبر القمح من أهم المحاصيل الغذائية ، لذلك نجد أنواعا مختلفة منه كالقمح جيزة ١٣٥ والطنطاوى والقناوى والمنباوى وغيره وتطور كل نوع وأهميته لاستخراج الدقيق ، ودرجاته المختلفة فنجد طرق تقشيريه أولا ، ثم استبعاد القشرة والاعواد وكيفية طحنه ثم استخداماته المختلفة لانتاج أنواع كثيرة من الخبز مثل الابيض والاسمر وغيره .

وتعتبر الذرة من المحاصيل الزراعية الرئيسية في مصر ، فاستخداماته عديدة بالنسبة للإنسان كخبز ، وللحيوان كعلف . أما عن الارز فبجانب كونه غذاء حيوى للإنسان فهناك صناعات كثيرة تقوم عليه مثل صناعة الحبال من قشيه أو أعواده والحصر والوزق والسجاد . وأيضا يوضح المتحف الزراعى طرق زراعته بالشتلات وطرق تقشيريه وفحص التقاوى وطرق تخزينه وأيضا نماذج مجسمه لمضارب الارز .

ويوضح المتحف كيفية تصنيع واستخلاص السكر من القصب والعسل الاسود (الاسمر) والكحول والورق من مخلفات القصب بعد عصره .

الاقسام المختلفة التي يتضمنها المتحف الزراعى : -

يضم المتحف الزراعى ستة ابنية مختلفة :

المبنى الأول : الزراعة المصرية القديمة .

المبنى الثانى : المجموعات العلمية .

المبنى الثالث : لمجموعات الثروة النباتية .

المبنى الرابع : المكتبة وقاعة اجتماعات ،

المبنى الخامس : صناعة القطن .

المبنى السادس : الادارة .

مبنى الزراعة المصرية القديمة

يعرض بهذا المبنى معروضات الزراعة المصرية القديمة ، وقد روعي في عرضها أن تكون في نطاق واسع بحيث تشمل الحيوان والحاصلات والازهار والآلات الزراعية والاسماك وادوات صيدها وبعض الادوات المنزلية التي كانت تستعمل في مختلف العصور القديمة ، وادوات الغزل والنسيج ، وعينات من المنسوجات وبعض المناظر الملونة المأخوذة من المقابر لتمثيل طرق الزراعة ، وبعض الصناعات المتصلة بها ، ليتمكن الباحثون في تاريخ الزراعة من قنبح الاطوار المختلفة والوقوف على ما يتصل منها بأبحاثهم العلمية .

نموذج لبית الفلاح المصرى القديم :

بنى المصريون القدماء بيوتهم في عصر ما قبل التاريخ من الطين على شكل بيضاوى صغير الحجم ابوابها من اعلى وكانوا يصعدون اليها بواسطة سلالم خشبية اما في العصور التاريخية التالية فقد عرفوا قوالب الطوب من الطين ، فتمكنوا من بناء البيوت بالمعنى المعروف ، وكانت بيوتهم في جملتها مكونة من طابق واحد ، يوافذها من اعلى وبها فناء بعضها مسقوف على عمدان واستعملوا الجريد والبوص واخشاب النخيل في حمل السقف وهو يشبه الى حد كبير بيت الفلاح الحديث .

مبنى المجموعات العلمية

يتكون هذا المبنى من طابقين :

الطابق الارضى - الجناح الجنوبى :

حجرات الواحات : -

تمثل الحالة الزراعية بالواحات المصرية ، وما يتبعها من صناعات تقليدية كمصنع السهلال والمقاطف والحصر والاكلمة والملابس والآلات * .

المستعملة في المزارعة والحياة في هذه النواحي ممثلة احسن تمثيل بالحجم الطبيعي كما لو كانت حقيقية .

حجرة الصحراء : -

وبها مناظر مجسمة تمثل الطبيعة الصحراوية وتضم كثيرا من نباتات الصحراء ، وتوجد بها خرائط ورسومات أخرى تبين اكتشاف الصحراء في الأزمنة المختلفة .

حجرات الحياة الاجتماعية في الريف

توجد في هذه الغرف بعض أنواع حجرات استقبال الزائرين لدى الطبقة الغنية من الزراع في الريف وكذلك العرس الريفى وكيفية الاحتفال به وليلة الحنة وغيرها من العادات الريفية .

حجرة المساحة : -

وبها مجموعة كاملة من الادوات والاجهزة التى تستعمل فى مسح الارض وطريقة استعمالها وخرائط مساحية مختلفة وطريقة التسجيل .

حجرة المخصبات :

ويبين بها أهمية استعمال الاسمدة لتعويض المواد الغذائية التى تفقدها التربة وطرق حفظ الاسمدة والنباتات المستعملة فى التسميد والادوات المستعملة لتقديم المواد الغذائية اللازمة للتربة وعينات لمختلف المخصبات والصخور التى تستخرج منها الاسمدة الصناعية والكيميائية ، ورسومات بيانية عن تأثير الاسمدة فى بعض الزراعات ، وكيفية صناعة السماد (البلدى) من مخلفات الحقل .

حجرة الظواهر الجوية :

وبها أجهزة لتسجيل التقلبات الجوية والتكهن بأحوال الطقس ، ورسومات مختلفة عن الظواهر الجوية ، وتوزيع الامطار ودرجات الحرارة فى مختلف انحاء القطر .

حجرة الاراضى المصرية :

وبها الصخور المكونة للطمى وتكوين الاراضى المصرية ، وقطاعات لانه اع
الاراضى المختلفة وبحث فى طبيعة الارض وجزئياتها والبكتريا المختلفه
واصلاح الاراضى المالحة .

بهو حياة الفلاح :

يوجد بهذا البهو نماذج من التماثيل للفلاح المصرى فى جلسات طبيعية
ومناسبات مختلفة وهذه التماثيل وما حولها من رسومات زيتية كبيرة وعينات
من الاثاث فى بيت الفلاح وآلات الطرب واللهو التى يستعملها الفلاح المصرى
فى حياته وتماثيل للمرأة المصرية بأزيائها المختلفة التى تطبع بطابع المحافظه
وهى تصور الحياة الريعية اصدق تمثيل وهى من صنع المرحوم إسماعيل الكبير
مختار .

حجرة مياه الشرب :

وبعرض بها مختلف عينات المياه المصرية المستعملة للشرب والجراثيم
والديدان التى تلوثها ومصادرها وطرق التعقيم والخلص منها .

حجرات الري والصرف :

خصص لهذا القسم حجرتان وبهو كبير وعرض بالحجرات نماذج
لبعض الخزانات والظلمبات والآلات المستعملة فى توزيع مياه الري والصرف ،
وعينات من الاعشاب والحشائش التى تعوق سير المياه فى الترع والمصارف ،
وبها أيضا ماكتات لبعض القناطر وخزان أسوان والسد العالى ومصادر
مياه الري المياه الجوفية ، والنيل ، والامطار ، والمصارف .

الطابق العلوى - الجناح الجنوبى :

الدخل :

وبه ألواح متحركة لصور بعض الطيور والواح من الجبس والزيت
لنماظر طيور قديمة وحديثة وتمثال لجواد أصيل من البرونز .

حجرة الوراثة :

ويعرض بها لوحات وبيانات عن علم الوراثة في الحيوان .

حجرة الركائب :

وتتضمن الأدوات المستخدمة في الركوب وطرق معالجة الحيوانات ونماذج للحوافر السليمة والمصابة .

حجرة الخيل :

ويعرض بها تماثيل لاجود الخيول ولوحات زيتية تمثلها من مصرية وأجنبية وبيانات عن انساب بعضها وصورها (فوتوغرافية) ونماذج للاستطبالات المصرية ، وقد زينت جدران هذه الحجرة بصور لاهم أنواع الخيل في العالم .

حجرة البقر والجاموس :

يعرض بها نماذج لاشهر هذه السلالات من مصرية وأجنبية وتتضمن نموذجا لعمل ألبان مصرى وصورا ورسومات وألواحها وبيانات وخرائط خاصة بهذه الحيوانات .

حجرة الجمال :

يعرض بها نماذج للجمال المصرية وعينه من صوفها وبيانات وخرائط ورسوم وصور مختلفة خاصة بها .

حجرة المعلومات العامة :

ويعرض بها نموذج للبرسيم وعينات من العلف ونباتات المراعى والنباتات السامة للماشية وغير ذلك من المعلومات الاخرى .

حجرة البحيرات المصرية :

تشتمل على نماذج لانواع الاسماك المختلفة التى تعيش في البحيرات المصرية ونبذ عن بعضها وخريطتان لبحيرة المنزلة والبرلس تبين المدن

والقرى ومراكز الصيد بها وسورا فوتوغرافية زجاجية تبين صائدى الاسماك في البحيرات ، وبناء السفن للصيد وحياة صائدى السمك في المناطق الساحلية

حجرة الألبان :

ويعرض بهما الآلات المستعملة في صناعة منتجات الالبان ونماذج مجسمة لحظائر المواشى ونماذج شتى لاهم تلك المنتجات ورسومات بيانية عنها .

حجرة أمراض الحيوان :

ويعرض بها نماذج وعينات طبيعية تبين الاجزاء المصابة بالامراض المختلفة التى تصيب الحيوانات بمصر لايضاح هذه الآفات والامراض . وكيفية الوقاية منها وطرق علاجها .

حجرة الهياكل العظيمة :

ويوجد بها عينات للهياكل العظمية لمختلف الحيوانات التى لها علاقة بالزراعة اصرية .

حجرة اللقاحات والامصال :

وبها عينات مختلفة من اللقاحات والامصال التى تستخدم في وقاية وعلاج بعض الامراض التى تصيب الحيوانات الزراعية والدواجن .

الابهاء

بهو التاريخ الطبيعى :

وبه تمثال مصغر لجمل افريقى يعطوه رجل بيده حربة ، ومجموعة من الزواحف وهيكل غظمى لحوت هائل قذفت به المياه الى السواحل المصرية ، وآلات الصيد والقنص قديمها وحديثها ومجموعة محفظة لانواع الحيوانات وهياكلها وجلودها وبعض الجماجم ، ومجموعة لانواع الطيور .

بهو الاسماك :

وبه انواع حية تعيش في أحواض زجاجية تمثل أسماك نهر النيل .
وانواع محفظة ورسومات ولوحات للاسماك التى تعيش بالمياه المصرية

ونماذج لمراكب الصيد والآلات المستعملة لهذا الغرض ، وعيّنات للاصداق والاسفنج ، وأسماك محنطة منذ عهد الفراعنة ، وأنواع الشباك المختلفة المستعملة في الصيد وخرائط بيانية وصور (فوتوغرافية) عن كل ما له علاقة بالاسفنج والسّمك ، ومجموعات كاملة من الاصدف والمحار والمرجان الموجودة بالشواطئ المصرية والصناعات المتعلقة بها .

بهو الحيوان :

وبه نماذج وصور رسومات لأنواع الحيوانات البرية والمفترسة التي تعيش في الصحارى المصرية ، وعلى ضفاف النيل، والواحات، وكيفية معيشتها، والآلات المستعملة في صيدها .

بهو الطيور :

ويضم مجموعات كبيرة من الطيور المصرية والطيور الرحالة وطرق صيدها .

الطابق العلوى - الجناح البحرى

حجرة المجموعة الحشرية :

تمثل معروضات هذه المجموعة الفصائل المختلفة للحشرات المصرية مرتبة تبعا لتقسيمها العلمى . ووضع على أحد الجدران التقسيم العلمى للمملكة الحيوانية مع التمثيل لكل قسم منها بلوحة زيتية رمز فيها الى أشهر حيوانات هذا القسم . وعلى الجدار المقابل له وضعت فصائل للحشرات ، ورمز لكل فصيلة منها . كما يحتفظ في وسط هذه الحجرة بالمجموعة الحشرية التى أهداها الملك فاروق للمتحف .

الحجر الزراعى :

يوجد بها نماذج للاجهزة المستعملة لتطهير النباتات الزراعية الواردة للقطر المصرى ، وكذلك المستعملة في معالجة بذور القطن بالمحالج ، ولوحات وخرائط وبيانات ونماذج لاهم الآفات المنوع دخولها للقطر مع الواردات ،

ورسومات بيانية عن مقادير الواردات الزراعية من الفاكهة وفوائد الحجز وتأثيره في مقادير هذه الواردات .

حجرة (مقاومة الآفات) وتربية النحل ودودة القز :

تحتوى على عينات ونماذج ومنتجات ولوحات توضح طرق تربية دودة القز والنحل ، والاجهزة المستخدمة والآلات المستعملة لاستخراج العسل ، النباتات التى تعيش عليها هذه الحشرات ، والاجهزة المستعملة فى نسج الحرير ، والامراض والآفات التى تصيبها وطرق المقاومة وصناعة الاوتار (الخيوط) من الديدان وقد نجحت مصر فيها نجاحا كبيرا .

حجرات الاحياء المائية ومنتجاتها :

ويعرض بأحداها عينات مجففة ، ونماذج لبعض أنواع الاسماك التى تعيش فى المياه المصرية ومنتجاتها من الاصداغ وصور (فوتوغرافية) مختلفة لبيان طرق صناعة هذه المنتجات ، وبالأخرى منظر لصيد الاسفنج بالبحر ويوجد بالغرفة الثالثة مجموعة للأسماك المصرية وصورها ، والذى تعيش بالمياه المصرية وبعض البيانات والصور الخاصة بها .

حجرة الاغنام والماعز :

ويوجد بها نماذج للاغنام المصرية والاجنبية والماعز المصرية ، وعينات لاصوافها ومنتجاتها ، كما يعرض بها جهازان لاختبار متانة الصوف ، وهياكل عظيمة لرعوس الاغنام والماعز منذ عهد الفراعنة . وخرائط وصور ونماذج مختلفة ، علاوة على عينات من الفرو الثمين .

حجرة الدواجن :

ويعرض بها أنواع من الدواجن المصرية المختلفة ، الى جانب مجموعة اخرى من الدواجن الاجنبية ، ونماذج لابراج الحمام القديمة والحديثة وحظائر لتربية الدواجن ، وطرق التفريخ قديمها وحديثها والاجهزة والآلات والادوية والنماذج المختلفة التى تتعلق بذلك . ويوجد بها كذلك أنواع من السبب والتفريخ لوحات وخرائط خاصة بالدجاج وأنواعه .

(م ٢٧ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

مبنى المجموعات النباتية

يتكون هذا المبنى من طابقين ، كل طابق مقسم الى جناحين : الجناح الجنوبي والجناح الشمالى . وفى الطابق الارضى بالجناح الجنوبي سبع حجرات أما الجناح الشمالى فمقسم الى خمس حجرات أما الطابق العلوى فمقسم الى جناحين الجنوبي ثمانى حجرات أما الشمالى فست حجرات . وفيما يلى شرح لكل حجرة على حدة .

الطابق الارضى (الجناح الجنوبي) :

حجرة القمح والشعير « زراعة » :

تضم هذه الحجرة الاصناف المختلفة لمحصول القمح والشعير واطوار نموها والآلات المستعملة فى اختبارهما والمعلومات الخاصة بزراعتهما والامراض التى تصيبهما واحصاءات مختلفة عنهما

حجرة القمح والشعير « صناعة » :

تضم هذه الحجرة نماذج للمطاحن الحديثة ، والمخابز القديمة والحديثة والاجهزة المستعملة فى اختبار البذور ، وعينات الحقيق المختلفة ، ونماذج لانواع الخبز المختلفة (والمكرونه والبسكويت) ورسومات بيانية ، كما يوجد بها بيانات واحصاءات اخرى .

بهو خزن الحبوب :

ويضم نماذج لمخازن الحبوب قديمها وحديثها ، وطرق تطهيرها ، وعينات الحبوب المصابة ، والمواد المستعملة فى علاجها والحشرات المختلفة التى تصيب الحبوب .

حجرة الذرة : -

وتضم بيانات لمختلف انواع الذرة ، وطرق زراعتها ، واطوار نموها ، والآفات التى تصيبها ، وبعض منتجاتها ونماذج لطواحين هوائية ومائبة

ورسومات بيانية واحصائية ، وصوراً (فوتوغرافية) مختلفة وعينات من الزيت المستخرج من الذرة .

حجرة الارز : -

وبها معلومات عن زراعة الارز ، وعينات محفوظة لبيان ادوار النمو حتى النضج ، وعينات من اصنافه ودقيقه ومنتجاته ، وصناعة النشا ، وعينات لنباتات مصابة ، وكذا لوحات مثبتة عليها الحشائش الضارة ونموذج لطريقة زراعة الارز بالشتل ، والآلات التي تستعمل في ذلك ومنها ما هو من تصميم الاستاذ حامد البلقاني استاذ علم الزراعة بكلية الزراعة جامعة فؤاد الاول في ذلك الوقت (القاهرة) وكذا نموذج لمصنع تبييض الارز .

حجرة البصل والثوم : -

وفيهما تمثل اطوار نمو هذين المحصولين واصنافهما ، ونماذج لاصناف البصل الجيد والصالح للتصدير ، ولوحة ملونة خاصة بفرز البصل وارشادات زراعية .

كما تضم الحجرة عينات للبصل المجفف ونبذة عن عملية التجفيف - وكذلك نماذج وعينات طبيعية محفوظة لاهم الامراض الفطرية التي تصيب هذين المحصولين .

الطابق الارضى - الجناح الشمالى

حجرة القطن « معلومات تاريخية وعلمية »

وبها بيانات عن تاريخ القطن ونبذة عن اصنافه قديمها وحديثها وعينات محفوظة لاجزاء نباتية ولوزات لمختلف نباتات القطن في العالم ، وكذا عينات زهر وشعر للاصناف التجارية والسلالات الحديثة وكذا رسومات بيانية وايضاحات مختلفة ، وصور تبين الصفة التشريحية لاجزاء نبات لقطن ، وبعض اجهزة لاختيار التيلة .

حجرة القطن ، زراعة ، :

وبها معلومات عن زراعة القطن وتسميده وريه ، والحشائش التي تصيبه وآفاته الحشرية والفطرية وضريقة التهجين والانتخاب ، وكل ماله علاقة بالقطن وهو بالحق .

صالة الآلات الزراعية : -

وبها مجموعة نماذج المحاريث الزراعية المستعملة في العالم ، ويؤدي هذا المنعطف الى صالة فخمة تحوى الآلات الزراعية بأحجامها الطبيعية وبيانات كافية عنها .

حجرة القطن ، صناعة ، :

وهي خاصة بالقطن بعد خروجه من الجقل ويخوله في المحالج وبها نماذج حديثة لدواليب الطح والمكابس والمغازل ، كما توجد خريطتان كبيرتان يارزتان تناران بالكهرباء لبيان محصول القطن العالمى ، والجهات التي يصدر اليها القطن المصرى ، كما توجد بها صور ولوحات خاصة بصناعة الغزل والنسيج وغير ذلك .

حجرة القطن ، تجارة ، :

ويعرض بها طريقة فرز قيلة القطن ، وعينات لبعض رتبه وطريقة نقله برا وبحرا ، وعينات مختلفة لمنتجاته ، وعينات لمنتجات بذرة القطن ، ويتوسط هذه الحجرة نموذج بارز لمصنع الغزل والنسيج التابع لشركة مصر بالمحلة الكبرى . كما توجد بها خرائط احصائية وبيانات وصور مختلفة ومعلومات عن البورصة .

الطابق العلوى - الجناح الجنوبي

حجرة الالياف : -

ويعرض بها عينات نباتات الالياف من جوت وكتان بذرة وشعر ممشط ومصنوعات كتانية اثرية وأخرى حديثة وكذا نموذج لمعطنة بعلوها صور لشرح عملية التعطين البلدية وصور وبيانات أخرى مختلفة عن طرق الزراعة .

حجرة الزيوت : -

وبها عينات بذور ونباتات للحاصلات التي تنتج الزيوت وعينات منها ورسوم بيانية تبين نسبة الزيت والرطوبة في مختلف البذور الزيتية ونماذج للمعاصر البلدية والحديثة ومعمل الزيت الصناعي وعينات صابون وكسب ومخلفات العصير ، وكذا بيانات كيميائية مختلفة .

حجرة القصب :

وبها مجموعة من اصناف القصب الشهيرة التي تزرع بمصر ، وعقل محفوظة في محاليل تبين بعض الامراض التي تنتاب القصب ، وطريقة قطعه ونقله ، ونماذج لصناعة مختلف أنواع السكر ، واقمصاع من قوالب الفخار لصناعة السكر الاحمر (الجلاب) وبها نموذج لمكبس قش القصب وعينات من انواع السكر المختلفة ، والفضلات الناتجة من صناعته كالعسل الاسود وصناعات أخرى تعمل من السكر وبها خرائط وصور مرسومة :

حجرة الكحول :

تعرض بها عينات من جميع ثمار الحاصلات الزراعية واجزائها التي يستخرج منها الكحول وبها نماذج لمصنع السكر بفجج حمادى ومختلف الاجهزة التي تستعمل في التقطير .

حجرة ادارة المزارع :

تبين بما الطرق المختلفة في ادارة العزب وطرق امساك دفاترها ونماذج لما يستعمل منها في الدوائر الكبيرة كالاوقاف الملكية ومصلحة الاملاك وبيانات عن ادارة العزب في المساحات المختلفة وذلك قبل ثورة ٢٣-يوليو سنة ١٩٥٢ قبل ظهور الاصلاح الزراعى والقوانين الزراعية التي تخدم الفلاح .

حجرة آلات الحديقة :

وبها بعض الآلات المستعملة في فلاحه البساتين ورشاشات وغفرات تستعمل في مقاومة الافات كما توجد بها بعض انواع السلال وغيرها .

الطابق العلوى - الجناح الشمالى

حجرة البساتين « خضروات » :

تعرض بها البذور ونماذج لخضروات مختلفة وأخرى لأصناف البطاطس السليمة والمصابة وصور خاصة بأفاتها الفطرية والحشرية .

حجرة البساتين « فاكهة » :

تعرض بها نماذج لمختلف ثمار المانجو والموز والموالح وطريقة معالجة الأخيرة بالتدخين مبينة بالصور الملونة ، وطرق التقطيم المختلفة وأصناف البلح وبذور الأزهار والثمار وبيانات فنية .

بهو الأخشاب :

وبه عينات لأخشاب مصرية متحجرة من غابة العباسية المتحجرة وغيرها وكذا عينات من قطاعات الأخشاب التى يمكن زراعتها بمصر كما توجد به لوحه عرض عليها قطاعات لأخشاب اجنبية وأخرى مصرية مصقولة .

حجرة البساتين « تجارة » :

وتعرض بها منتجات البساتين كالمربى والفاكهة المحفوظة والروائح العطرية وتقطيرها، ونماذج لأجهزة تجفيف البذور ومجموعة من مختلف الصناديق الخاصة بتعبئة الخضر والفاكهة وبها كثير من البيانات التى تتعلق بصناعة منتجات الخضر والفاكهة .

حجرة فحص البذور وتنظيفها :

تعرض بها عينات من انواع الحبوب والبذور والاجهزة والادوات التى تستعمل لتنظيفها من الشوائب وتقدير نسبة الرطوبة بها وقوة حيوييتها فى الانبات الى غير ذلك مما له علاقة بهذه العملية .

ثانيا : المتحف الحربى :

يرجع التفكير فى انشاء المتحف الحربى الى عام ١٩٢٨ . ولكنسه لم ينفذ الا فى عام ١٩٣٧ ، حينما خصصت غرفتان من مبنى وزارة الحربى:

لتجمع فيهما المقتنيات الاولى ، ولتكوين مكتبه صغيرة ومصنع . وفي مسنبل عام ١٩٣٩ اختير مبنى مؤقت (فيلا) بالقرب من كوبرى قصر النيل وفيه جمعت مجموعات السلاح والملابس العسكرية واللوحات والنماذج . وبجلاء القوات البريطانية عن قلعة صلاح الدين في عام ١٩٤٧ ، انتقل المتحف الحربى الى قصر الحرم بالقلعة . وكان قد بدىء فى اصلاحه واعداده ليكون لائقا لعرض المحتويات ثم اخذ القائمون بأمر المتحف تحت اشراف العقيد عبد الرحمن زكى بترتيب المجموعات وتنظيم المعروضات بما يليق بالنظم الحديثة المتبعة وافتتح رسميا فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩٤٩ .

وفى حديقة المتحف الآن ، توجد مدافع الهاون والميدان التى صنعت فى مصر واستعملها الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر .

اقسام المتحف الرئيسية واهم محتوياتها : -

رعى فى ترتيب معروضات المتحف التسلسل التاريخى والموضوعى .

القسم الاول : يعرض فيه التطورات المتعاقبة للمعدات الحربية كالمدفعية والذخيرة بأنواعها ، والأسلحة النارية والبيضاء ، والملابس .

والقسم الثانى : يوضح تاريخ مصر العسكرى منذ عصر الفراعنة الى العصر الحديث .

والقسم الثالث : خصص للسلاح البحرى والسلاح الجوى وبعض اسلحة الجيش .

وتاريخ مصر العام ، فى الواقع هو تاريخ جيشها منذ قامت الوحدة بين اقليمى مصر بفضل الملك مينا ، وقد امكن للمتحف أن يبين أحوال الجيش المصرى القديم وتسليحه ومعاركه فى اثناء حكم السرات المصرية . ومعروضات هذا القسم تنطق بأمجاد جيش مصر فى لوحات ونماذج سجلت عليها انتصاراته فى أهم المعارك بـمنيا ، مججو ، وقادش ، وذلك نقلا عن نقوش الآثار فى معابد الاقصر ، ومدينة هابو . أبو سمبل ، وغيرها .

أما قسم مصر الاسلامية فحافل بالامجاد ، منذ أن دخل مصر عمرو ابن العاص سنة ٦٣٩ م حتى الحملة الفرنسية ١٧٩٨ .

ففى هذا القسم ، لوحات من الجص ، أوضحت أهم معارك الفتوح الإسلامية منذ عصر النبي وخلفائه الراشدين : معارك بدر ، وأحد ، واليرموك وإلى جانبها صنعت نماذج لآلات القتال ، كالمنجانيق ، والسيوف ، والسهام ... وفضلا عن ذلك ، فتوح العرب فى شمال إفريقيا وإندلس . ويلاحظ كثرة النماذج التوضيحية فى هذا القسم ، منها حصون القاهرة وأسوارها وأبوابها فى أيام الدولة الفاطمية ، ونموذج قناطر الماء التى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون (٧١٠ هـ - ١٣١٠ م) التى زودت منطقة القلعة بالماء من فم الخليج . ونموذج قلعة صلاح الدين بأبراجها ومبانيها ومساجدها . ونموذج دار ابن لقمان بالمنصورة حيث أمضى الملك الفرنسى لويس التاسع مدة أسره عقب معركة المنصورة (١٢٥٠ م) ، وإلى جانبها لوحات خشبية جميلة نقشت عليها بعض المواقف فى الحروب الصليبية . ونشاهد أيضا فى هذا القسم عدة لوحات لأهم المعارك الإسلامية التى خاضها المماليك ضد الصليبيين ، وضد المغول .

وهناك فى حجرة صغيرة مجموعة من الصور والخرائط التى توضح أحداث مصر الهامة فى أثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) بقيادة يونايرت وكليبر ، ومينس .

أما القسم الخاص بجيش مصر أثناء القرن التاسع عشر ، فحافل بالذكريات الجيدة . انتصارات القوات المسلحة فى معارك لا حصر لها فى شبه الجزيرة العربية ، وبلاد اليونان ، والسودان ، وسوريا والناضول ، وكريت وغيرها . والحق أن كلها معارك تشهد ببطولة الجندى المصرى فى ظروف القتال المختلفة .. وفى جبال وسهول ، وصحراوات ووديان ، وبحار .

لقد سجل المتحف الحربى تلك الذكريات اللامعة بترتيبها التاريخى وبأسلوب واضح . وعرضت كذلك أعمال الجيش فى مناطق السودان فى شرقه وغربه وجنوبه ... وتعرض عدة لوحات زيتية أنيقة لكبار القادة

الذين قادوا جيش مصر الى النصر (١) .

وعنى المتحف الحربى بابراز الاحداث العسكرية فى مصر فى اثناء الثورة العرباىة (١٨٨١ - ١٨٨٢) فى شتى المعارك : الاسكندرية ، كفر الدوار ، والتل الكبير . وخذ المتحف مواقف البطولة النادرة فى لوحات زيتية ، وفى تماثيل نصفية ، ونقوش جصية .

جناح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهو من اهم اقسام المتحف التى تتناول التاريخ المعاصر ، فتعرض ثورة واحداثها ، فى صور وديورامات ، ومنها ديوراما تمثل رحيل الملك فاروق على الباخرة الشهيرة المحروسة ، وحصار قصر رأس التين ، والمنقزة ، وعابدين .

وفى هذا القسم نشاهد مئات الصور الفوتوغرافية التى تبين التطورات التى لحقت بالقوات المسلحة ، فى أسلحتة وعقاده ، وبما حققتة ثورة يوليو من جليل الاعمال فى مختلف الميادين ، وفى طليقتها السد العالى .

وعنى المتحف ايضا بالجانب العسكرى لقضية فلسطين منذ حملة ١٩٤٨ / ١٩٤٩ ، والعدوان الثلاثى فى اعقاب تأميم قناة السويس (١٩٥٦) ومعارك بور سعيد الباسلة وجهاد شعبها ضد المعتدين .

قاعة الاعلام والنياشين ، وفيها نماذج للاعلام المصرية والعربية منذ نشأة العلم ، فضلا عن اعلام دول الجامعة العربية والاعلام الزمريبية للمحافظات ثم اعلام القوات المسلحة المصرية ، كذلك نماذج للنياشين التى كانت تمنح وتهدى للقادة فى المناسبات والانتصارات المختلفة .

جناح حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ويعكس لنا نماذج من اسلحة الجيش فى هذه الحرب الخالدة ، وتسليح الافرع الرئيسية .

المكتبة : وهى من اهم اقسام المتحف ، وتضم عدة آلاف من المراجع العربية والاجنبية فى شتى الفنون الحربية والتاريخ الحربى القديم والمعاصر

ويبلغ عدد الكتب بها نحو خمسة آلاف مجلد ، بالإضافة الى قسم الدوريات العسكرية . أما قسم الخرائط العسكرية فغنى بمجموعته النادرة التي رسمها ضباط أركان حرب الجيش المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٢ : فى شرق أفريقيا ووسطها ، وفى صحارى مصر حتى سواحل المحيط الهندى وتقرأ على هذه الخرائط أسماء راسميتها .

ويضم المتحف كذلك قاعة للعرض السينمائى ، الى جانب أقسام الرسم والتصوير ، وقسم النماذج ، وقسم النجارة ، وقسم اصلاح الاسلحة . ومكتبة زاخرة .

ثالثا : ومتحف المسكة الحديد

يقع متحف السكك الحديدية بامتداد مبنى محطة القاهرة خلف محطة كوبرى اللمون ويطل على ميدان رمسيس . ويمكن الوصول اليه اما بالسير بمحاذاة المبنى من الخارج فتجده على اليسار ، او عن طريق باب يفضى اليه من الرصيف رقم ١ الخاص بقطارات الاسكندرية .

نشأة فكرة انشا المتحف :

نبعث فكرة انشا متحف المسكة الحديد من احساس بالحاجة الى متحف فنى وعلمى يتوج الاحتفال بالمؤتمر الدولى للسكك الحديدية الذى عقد عام ١٩٣٣ ، وقد استكمل بناؤه فى السادس والعشرين من أكتوبر ١٩٣٢ وتم أعداده وفتحه للزوار فى ١٥ يناير ١٩٣٣ ، ولقد اتاح ذلك الافتتاح لاعضاء المؤتمر فرصة زيارة أول متحف من نوعه فى الشرق .

ويعرض فى المتحف حوالى ٦٠٠ موديل هذا الى جانب مجموعة من الوثائق والخرائط والدراسات ، وكلها تحكى تطور وسائل النقل ، وكذلك خطوط السكك الحديدية .

نشأة السكك الحديدية فى مصر :

تعتبر سكك حديد مصر ثانى خط سكك حديدية فى العالم ، اذ انشئ سنة ١٨٥٢ بعد أن استخدم فى انجلترا سنة ١٨٢٥ وتعتبر سكك حديد

مصر أول خط في افريقيا بأسرها سابقة بذلك أيضا أول خط انشىء في آسيا
بعام اذ افتتح في عام ١٨٥٣ وتلته خطوط استراليا ١٨٥٤ . علما بأن
هذا المشروع ناقشته بريطانيا مع محمد على بواسطة المهندس الانجليزى
جالوس ، الا ان فرنسا تدخلت وأوعزت الى محمد على بأن بريطانيا
تريد عزل مصر عن العالم الاسلامى ، وفي الواقع كان غرض فرنسا حفر قناة
السويس وبالتالي رفض محمد على كلا المشروعين .

وبعد وفاة محمد على عانت بريطانيا لتناقش المشروع مع عباس
الاول - المعروف بميله لانجلترا وتركيا وكرهه لفرنسا ، واتفقا على ان
تقوم شركة جورج ستيفنسن بالاشراف على اقامة خط سكك حديدية بين القاهرة
والاسكندرية وقد وقع عقد الاتفاق على ذلك في ١٢ يوليو ١٨٥١ وبدأ
العمل في ستمبر ١٨٥١ . وكانت شركة ستيفنسن مسئولة عن التخطيط
واقامة الاعمال على القناطر والسجود على طول الطريق ، والامداد بالمهندسين
ومساعديهم والعمال وكذلك تقديم الخبرة الفنية والمساحين ومعداتهم
وكذلك أى معدات اخرى تكون مطلوبة لتصميم المشروع وتنفيذه .

وفي مقابل ذلك كان على عباس باشا ان يدفع مبلغ ٥٦٠٠٠ جنيه
انجليزى بالتقسيط ، اول قسط ١٦٠٠٠ جنيه يسدد في أغسطس والباقي
على اقساط نصف سنوية في فبراير وأغسطس من كل عام . ووضع شرط
جزائى بمبلغ ٨٠٠٠ جنيه يدفعها عباس اذا تعطل المشروع من قبله كذلك
ان يهد المشروع بالاطباء والادوية والخيام اللازمة للعمال . وتم الانجاز
كما يلى : -

١ - في عام ١٨٥٣ تم ربط الاسكندرية بكفر الزيات .

٢ - في عام ١٨٥٧ امتد الخط الى القاهرة - بعد انشاء كوبرى كفر
الزيات - ثم الى السويس . وبعد افتتاح قناة السويس تم رفع الخط ١٨٧٩
واعيد تركيبه في ١٩٣٤ .

٣ - وفي عام ١٨٦٠ استكمل اول جزء من الخط الذى يربط بين بنهسا وبورسعيد ووصل حتى الزقازيق بطول ٣٥ كم . وفي عام ١٨٦٨ امتد هذا الخط حتى الاسماعيلية بطول ٧٩ كم .

٤ - وفي عام ١٨٩١ انشأت شركة قناة السويس خطا فرديا يصل بين الاسماعيلية وبورسعيد ، وكان مملوكا للشركة . وفي ١٩٠٢ اخذته الحكومة وحولته الى خط رئيسى عام ١٩٠٤ .

٥ - وفي عام ١٨٦٧ بدا العمل فى خط الصعيد ، وفي عام ١٨٩٨ وصل الى الاقصر ثم امتد الى أسوان بخط فردى ضيق . وفي عام ١٩٢٦ تم رفع الخط السابق وأبدل بخط اعلى كفاء يصل بين الاقصر واسوان .

٦ - وفي الفترة ما بين ١٩٠٠ - ١٩٣٦ انشىء خط الاسكندرية - مطروح وفي عام ١٩٤١ مد هذا الخط حتى طبرق الليبية الا انه فى عام ١٩٥٢ أصبح ينتهى عند السلوم .

٧ - فى عام ١٩١٨ وصل خط حديدى لسيناء يبدأ من القنطرة وينتهى عند حيفا بطول ٤١٤ كم . . . منه ٢٠٢ كم داخل الاراضى المصرية فى منطقة الحدود رفح . والقنطرة .

وتعتبر السكة الحديدية من أهم وسائل النقل فى مصر ويبلغ طول شبكة الخطوط ٤٣٥٨ كم الى جانب ٣٠٠٠ كم خطوط فرعية ومخازن كما توجد ٧٦٤ محطة رئيسية وفرعية .

تقسيم المتحف :

ينقسم المتحف الى قسمين كل قسم فى طابق وهما كما يلى :

١ - الطابق العلوى :

يضم الطابق العلوى بعض النماذج لوسائل النقل فى فجر التاريخ وبخاصة أيام الدولة المصرية القديمة واجمل هذه المعروضات هو نموذج

يبين كيف أمكن للفراعنة القدماء أن ينقلوا تمثالا يزن ٦٠ طنا مستخدمين في ذلك الواحا من الخشب في نظام بديع • الى جانب وسائل مبسطة للنقل تعتمد على القوى العضلية للانسان والحيوان •

كما يضم هذا الجناح مجموعة كبيرة تشرح تطور أول قاطرات في العالم وفي مصر ، ومن بين هذه القاطرات نموذج ذو أهمية تاريخية خاصة لانه يعرض لأول قاطرات في العالم سنة ١٧٨٤ وهناك نموذج آخر يعرض أول قاطرة جالت في الطرق المصرية عام ١٨٥٤ تلك التي بناها روبرت ستيفنسن وشركاه وسلمت لمصر ١٨٥٢ •

كما تعرض مجموعة متنوعة من النماذج المختلفة للقاطرات وعربات السكك الحديدية وكذلك عربات الصالون في شكلها القديم والحديث ، تحكى لنا تطور سكك حديد مصر منذ انشائها حتى بزوغ قاطرات الديزل الكهربائية •

وتعرض القاعة نمونجا لقاطره اكسبريس قام يصنعها نلسن وشركاه في سنة ١٨٦٢ وعملت على خطوط سكك حديد مصر الى أن كسرت في سنة ١٨٩٥ • كما يعرض نموذج لقاطرة بخارية دخلت الخدمة في مصر عام ١٩٥١ •

وبعد ثورة ١٩٥٢ دخلت القاطرات التي تستخدم الديزل بدلا من القاطرات البخارية • ولدينا نموذج لجرار ديزل كهربائي للخطوط الرئيسية استورد من ألمانيا (هنشل) ودخل الخدمة في مصر سنة ١٩٥٧ •

وأیضا هناك نماذج لنقلات المازوت والمياه وكذلك نموذج لعربة بها أول صالون سنة ١٨٧٠ للركاب صنعت من الخشب •

هذا بالإضافة الى نماذج لعربات لنقل الدبابات صنعت في المصانع الحربية بالاشتراك مع سيمانف وذلك لنقل العتاد الى جبهات القتال •

قطار الخديو

صنع هذا القطار في مصر في بولاق والفبارى وهو يتكون من ست وحدات، وصممت القاطرة في لندن سنة ١٨٥٩ على يد روبرت ستقنسن اما العربات فقد صنعت في مصر .

والعربة الاولى بعد القاطرة خصصت للضباط وصنعت في مصر سنة ١٨٦٨ واستمرت في الخدمة حتى سنة ١٩٢٩ .

العربة الثانية خصصت للاميرات وصممت بواسطة رايت وشركاه سنة ١٨٥٨ وغشيت من الداخل بالطنافس والحريز ولكن جسم العربة (كهن) سنة ١٩٢٤ والاطار الداخلى استخدم لعربة اخرى .

العربة الثالثة خصصت للصالون الرسمى وبناها مانسون في امريكا سنة ١٨٥٨ .

والعربة الرابعة صنعها رايت ١٨٥٥ وخصصت للصالون العائلى والعربة الخامسة خصصت للعائلة المالكة وصنعها ايضا رايت عام ١٨٥٥ .

العربة السادسة خصصت صالونا للوزراء وصنعت في مصر في عام ١٨٧٢ وهذا الصالون (كهن) سنة ١٩١٣ .

في عام ١٩٣٥ دخل الى مصر اول ديزل كهربائى صنع بانجلترا بأمر الملك فؤاد واستخدم للدرجة الاولى والثانية .

ب - الطابق الارضى :

يعرض هذا الجناح نمونجا بالحجم الطبيعى يتكون من جزئين يوضح الاجزاء الداخلية المختلفة للقاطرة .

وفي جناح منفرد هناك مجموعة من الاشارات القديمة والحديثة توضح كيف كانت تترجى الفطارات يدويا في ايامها الاولى وعملية التطور التي لاحقت ذلك حتى أصبحت القطارات توجه اليوم عبر الطرق المختلفة بالوسائل الميكانيكية وكيفية تفادى المخاطر والحوادث وأخيرا يوضح ذلك القسم النظام الجديد لكهربة وسائل الاشارات الحديثة .

وفي قسم المحطات والكبارى هناك نماذج وصور للمحطات القديمة ومنها محطة القاهرة التي جددت عام ١٩٥٨ ومحطة سيدى جابر التي بنيت عام ١٩٤٨ . . ومحطة بورسعيد قبل العدوان الثلاثى والمبنية عام ١٩٥٥ .

كما تعرض في هذه القاعة نماذج للكبارى التي تخدم السكك الحديدية ومنها :

- كوبرى امبابة بنى عام ١٩٢٤
- كوبرى كفر الزيات الجديد بنى عام ١٩٥٠
- كوبرى قناة السويس بنى عام ١٩٥٤
- كوبرى المرازيق بنى عام ١٩٥٨

رابعاً : متحف البريد

يرجع الفضل في انشاء هذا المتحف للملك فؤاد الاول . وقد تم انشاؤه سنة ١٩٣٤ . ويقع المتحف في الطابق الاول بمبنى الادارة العامة للبريد بالقاهرة ، ويتكون من قاعتين وبهو وصالة مستطيلة .

أهم المقتنيات :

- نسخة مقلدة من لوحة نارمر • وعليها أقيم كتابة مفهومـة ويرجع تاريخها الى عهد الاسرة الاولى •

- محبرات من العهد الفرعونى ، والرومانى ، والقبطى •

- ورقة بردى خالية من الكتابة ، بأخرى مكنوبة •

- نماذج اختام مصرية قديمة ، وخاتم مصرى قديم كتب عليه اسم صاحبه بالهيدوغليفية •

صورة خطاب باللغة الديموطيقية يرجع تاريخه الى سنة ١٤٠٠ ق م •

- تمثال للكاتب فى عهد الدولة القديمة ، وآخر للكاتب فى عهد الدولة الحديثة ، وآخر للكاتب وجد فى تل العمارية •

- صورة من حجر رشيد •

- نماذج تمثل : احدى رسائل البريد فى عهد الفراعنة ، وتسليم الرسائل الى احد ملوك الفراعنة •

- صوره فوغرافية لوثيقة الحيبة التى يرجع تاريخها للقرن الثالث قبل الميلاد ، وهى من أقدم الوثائق البريدية ، وقد جاء بها ما يثبت اختظام البريد السريع فى مصر فى عهد البطالة •

- صورة فوتوغرافية لورقة بردى اكسيرمينوس ٧١٠ ويرجع تاريخها الى سنة ١١١ ق م ، وورد بها ذكر عدد موظفى احد مكاتب البريد فى بلد بالفيوم •

- نماذج لخطابات على فخار ، وجلد ، وعطمة يحمل •

- نموذج خطاب ذكر فيه اسم صاحب البريد سنة ٩١ هـ •

- خطاب من عصر المماليك .
- عقد بين شركة البوستة الاوربية وقناة السويس .
- عقد بين شركة البوستة الاوربية ومصلحة البريد في سنة ١٨٦١ م .
- عقد امتياز لشركة البوستة الاوربية في سنة ١٨٦٢ .
- عقد استلام الحكومة المصرية لشركة البوستة الاوربية .
- اعلان عن تصفية أعمال شركة البوستة الاوربية .
- أول منشور لمصلحة البريد في عهدهما الحكومي .
- اعلان عن استكمال طوابع البريد الاولى في سنة ١٨٦٦ .
- اعلان عن وضع صناديق البريد في الشوارع في سنة ١٨٦٦ .
- خريطة الاسكندرية في سنة ١٨٧٧ وعليها مواقع مكاتب البريد المصرية والاجنبية .
- خريطة لطرق نقل البريد في برزخ السويس .
- منشور مدير البوستة في خلال الثورة العرابية سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ .
- صاحب البريد ورشول البريد في العصر العربي .
- ميدالية تذكارية من موظفي البريد لموتسى بك اعترافا بخدماته .
- تمثالان ، أحدهما للملك فؤاد ، والاخر للخديوى اسماعيل الذى تأسست في عهده مصلحة البريد .
- ٢ - قسم طوابع البريد :
- قوالب واكلاشيوات والواح لصنع طوابع البريد المصرية والاوراق المدموغة .
- مجموعة نماذج خطوات العمل في صنع طوابع البريد المصرية .
- (م ٢٨ - تاريخ مصر الحديث والمعاصر)

- اسطوانات لطبع العلامة المائية على طوابع البريد .
- لوحات لصنع طوابع البريد من الفئات المختلفة .
- مجموعة طوابع البريد المصرية منذ الطوابع الاولى سنة ١٨٦٦ وحتى الآن .
- مجموعة طوابع البريد السودانية .
- لوحة بالطوابع تمثل الاهرام وابير البهل . مساحتها ٤ x ٣ مترا .
- لوحة بالطوابع تمثل زفاف الملك فاروق .
- لوحة بالطوابع تمثل الرئيس الاسبق جمال عبد الناصر .
- ٣ - القسم الاوربي : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الاوربية ، كل بلد على حده .
- ٤ - القسم الافريقى : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الافريقية ، كل بلد على حده .
- ٥ - القسم الامريكى : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الامريكية ، كل بلد على حده .
- ٦ - القسم الآسيوى : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الآسيوية .
- ٧ - القسم الاسترالى : ويضم مجموعات الطوابع .
- قسم ادوات البريد :

ويضم مجموعات سنج وموازين ، أهمها موازين لوزن الجنية الاسترليني ، والعملة الذهب والعملة الفضة . وبه سلال وحسابات جردية لاغراض بريدية مختلفة ، ومحافظ ، وأعلام ، وشهادات . وفوائيس ، وضواغط للأختام ، واكياس لفصل البريد المسجل والمستعجل والجوى ، ومفاتيح لصناديق الخطابات بأنواعها المختلفة . وساعات . وصناديق الخطابات المختلفة فى مصر وبعض الدول الاوربية ، وأختام مختلفة ، وأختام تفكرية .

٩ قسم الملابس .

• ويضم الملابس التي استحضرها « موتسى بك » سنة ١٨٦٦ ليرتديها كبار موظفى البريد فى الحفلات الرسمية والتشريفات الخديوية ، وصغارهم فى حالة زيارة الخديوى لإدارة البريد . كذلك نواع الملابس فى سنوات ١٨٦٦ ، ١٨٨٧ ، ١٨٩٥ على التوالى ثم فى السنوات التالية .

١٠ - قسم مباني البريد :

ويضم نماذج (ماكينات) لبعض مباني البريد الكامة .

١١ - قسم الاحصائيات والرسوم البيانية والخرائط والصور الفوتوغرافية

— ويضم الى جانب الاحصائيات والرسوم البيانية ، خريطة خطوط الحمام الزاجل فى مصر فى عصر المماليك ، وخريطة مكاتب البريد فى سنة ١٩٣٢ .

١٢ - قسم النقل :

ويضم نماذج مختلفة للوسائل المتنوعة لنقل البريد .

١٣ - قسم البريد الجوى :

ويضم نماذج لسفينة نوح ، وبرج حمام الزاجل لمنطاد ، ونماذج لطائرات مختلفة ، واول خطاب جوى ورد للاسكندرية من لندن فى ١٧ اغسطس سنة ١٩٢٩ ، واول خطاب جرى ورد من كراتشى فى الخط الجوى بين مصر والهند .

١٤ - البريد الأجنبى :

ويضم مجموعات صور للبريد فى دول مختلفة .

خامسا : متحف المركبات الملكية

يقع هذا المتحف فى شارع ٢٦ يوليو رقم ٨٢ من جهة جامع ابنى العلا . وقد تم افتتاح هذا المتحف فى ٥ يناير سنة ١٩٨٢ ، وكان فى الأصل « عربخانه » الخديو اسماعيل . ويتكون مبنى المتحف من طابقين :

- الطابق الأول يعرض فيه بعض المركبات الملكية القاربخبة .
- الطابق الثانى : لعرض الملابس وأطقم الخيول .

الطابق الاول الارضى

نلاحظ أولا الفناء الكبير وهو أحسن فناءين - كانت تعد عنيهما الركبة وتجهيزها - أما إراجهة المتحف : فهي عبارة عن تشكيلات معمارية يمتزج فيها الفن والجمال مع البساطة ، وهي نمائل تماما واجهة قصر عابدين وفي وسطها كورنيش كبير بارتفاع ٥ أمتار . وهو عبارة عن خطوط ومنحنيات أفقية بالاضافة الى حليات هندسية رأس ، عبارة عن تكتارين منحوت بارز يضم في وسطه حرف F- كرمز الى الحرف الاول من اسم الملك « فؤاد » . وفي أعلى الواجهة كورنيش آخر أعلاه نحت بارز جميل على شكل دائرة حجرية تتكون من هلال و ٣ نجوم شعار العلم المصرى فى ذلك العصر - يحيط بها زخارف من أفرع وأوراق نباتية وفي أعلاه التاج الملكى الجسم . وعلى أسفل الكورنيش مباشرة ثبتت عشرة نماذج لرأس حصان يظهر فيها التشريح العضلى ويحلى عنق كل رأس حلقة من الأوراق النباتية والزهور .

● الشكل الداخلى من المبنى : كما سبق الذكر يتكون من طابقين : صالة الدور الارضى الرحبة ذات النوافذ الزجاجية العديدة والتي تضم المركبات والبانوراما المتحفية . أما الطابق العلوى الذى تصله عن طريق سلم فهو عبارة عن صالة أصغر مساحة من الدور الارضى - ذات نوافذ زجاجية عديدة وتشمل : الفتارين والدواليب الزجاجية التى تحوى الأطقم الخاصة بالخيل والملابس ومستلزماتها بالاضافة الى تابلوه عرض ملابس التشرىفات .

● محتويات المتحف :

بالمتحف ٧٨ عربة ملكية ذات قيمة تاريخية فريدة هي تشكل اثنين وعشرين دعما كان معظمها هدايا من دول أوروبية لحكام مصر السابقين ابتداء من عصر الخديوى اسماعيل باشا . وحتى عصر الملك فاروق الاول .

ومن أهم هذه العربات عربة الآلاى الكبرى الخصوصى والتي أهداها نابليون الثالث والملكة أوجيني للخديوى اسماعيل عند افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ أضف الى ذلك البانوراما المتحفية الواقعة فى نهاية الصالة والتي

تمثل شكلا بديعا للعربة الآلاى سابقة الذكر وهى مزدانة بألوانها وتذهيبها واقفة على حصوات من الزلط الملون . ويؤدى القائمون بالعمل عليها عملهم فى حركة جميلة ورشيقة بالكرابيج أو العصوات بملاسمهم الجميلة زاهية الألوان .

وتغطى خليفة البانوراما بالكامل لريحة كبيرة ملونة . ولضيق مساحة العرض المتخفى اكتفى بتمثيل اثنين من الخيول كاملى الطاقم والزينة بدلا من خيول العربة التسعة .

● الطابق الثانى (العلوى) :

يحتوى على ٧ فتارين ، ٢٤ دولابا صفت من الخشب والزجاج لحفظ انواع الملابس الخاصة بالتشريفات والاطقم الجلدية المختلفة الاشكال والاسماء ومستلزماتها من أدوات الزينة الخاصة بالخيول ، وكل هذا بعرض بطريقة متحفية رائعة هذا بالاضافة الى تابلوهات ملونة بالزيت أو بالألوان ، ومجموعات نادرة من رسومات هندسة تبين التركيبات الهيكلية لبعض العربات مع بعض قطاعات لاجزائها . أما تابلوه عرض الملابس فهو عبارة عن اطار كبير من الخشب يحوى داخله ثمانية نماذج آدمية من الجص بالحجم الطبيعى والذى الرسمى .

● مصادر العربيات :

عرفنا أن ادارة الاسطبلات الملكية كانت تحوى مجموعة نادرة ومتنوعة من العربيات ، وعرفنا أن بعض هذه العربيات كانت تصل الى مصر من دول اوروبية فى شكل هدايا أو تحصل اليها عن طريق الاستيراد فى شكل هياكل . . ومع ذلك لم تكن أسلوب الاستيراد أو الهدايا المصدر الرئيسى لجلب العربيات الى مصر . . فقد كان هناك مصدر آخر وهم اللجان المختصة ، حيث تقدم اللجنة بعمل جولات . . بالمرور على ورش مشاهير التجار المصريين . . وانتقاء العربيات ذات المراضات المحددة . والخفة حتى تحديد سعر الشراء المناسب ، وما كان على البائع الا أن يبيع وهو راض سعيد . لما سرف يناله من شهرة وتقدير . وبعد الشراء تسحب العربة داخل ورش ادارة الاسطبلات الملكية فنعدل هياكلها احسانا . .

وتجدد فراشاتها دائما . . وتدهن بالطلاء اللازم ثم توضع عليها التيجان الملكية الجاهزة . . او ترسم عليها . وتصبح بعد ذلك معدة للاستعمال . . وتحفظ عربات مصلحة الركائب بمبنى ادارة الاسطبلات الملكية داخل غنابر رحبة نظيفة حيث ترتب فيه حسب اهميتها وتغطى كل عربة بغطاء من التيل مرقم يكسوها تماما ولا ينزع الا عند السزوم .

سادسا : متحف الرى (الثورة) :

يقع فى منطقة القناطر الخيرية وسط حديقة جميلة . ويتكون المتحف من طابقين . والطابق العلوى مخصص لتقصير مشروعات الرى . اما الطابق الاول فيتكون من قاعتين كبيرتين (١ ، ٧) وقاعات جانبية صغيرة .

والقاعة (١) هى قاعة كبيرة ، وهى اول ما يصادف الزائر عند دخوله المتحف ، حيث يوجد خريطة كبيرة فى مواجهة باب الدخول تملأ الحائط ، وهى خريطة مجسمة لشمال الدلتا توضح البحر المتوسط من الشمال ، وبحيرة المنزلة من الشرق ، وبحيرة مريوط من الغرب .

وتوضح الخريطة بطريقة مجسمة الطلمبات والمحولات ومحطات الكهرباء ، واسفل هذه الخريطة نرى خريطة أخرى صغيرة من الزجاج الشفاف مرسوم عليها شبكة شمال الدلتا وتوصيلها بشبكة شمال القاهرة .

ويتجه الزائر الى اقصى الشمال وذلك عند دخوله المتحف ويبدأ رحلته من هناك حيث يجد مكانا مرتفعا قليلا (قاعة ١) يصعد اليه الزائر حيث توجد بضعة سلالم من الشمال واليمين . يوجد بهذا المكان نموذج لسواقى هدير الفيوم ، ويحتوى هذا المكان ايضا عن ثلاثة رسومات فى الثلاث جهات . الرسم الاول يوضح كلا من الوجهين القبلى والبحرى حيث يقف رجلان من كل منهما لتأكيد الوحدة بين شطرى الوادى وذلك عند قدماء المصريين ، اما الرسم الثانى فيوضح الصيد عند قدماء المصريين ، والرسم الثالث يوضح الزراعة عند قدماء المصريين .

ثم ينزل الزائر من هذا المكان المرتفع وهو مازال في القاعة (١) حيث يجد النماذج والخرائط الآتية في هذه القاعة :

- خريطة مجسمة لبركة قارون .

- نموذج للطنمير : وهو آلة للرى في العهد التركي وتستخدم حتى الآن في الريف المصرى ، لرفع المياه من مكان مرتفع قليلا .

- نموذج للصرف المغطى ، لصرف المياه الزائدة عن حاجة النباتات : وهو عبارة عن مجرى مائى يحيط بمساحات منزرعة صغيرة المساحة وهذا المجرى ينخفض قليلا عن مستوى الأرض المزروعة حتى يسمح بتسرب المياه الزائدة

- نموذج للمراوح الهوائية .

- نموذجين لقناطر أسيوط والتي أنشئت عام ١٩٠٢ م وتمت تقويتها عام ١٩٣٨ م .

- نموذج لشبكة محولات كهربائية للضغط العالى .

- نموذج لقناطر أسفا والتي أنشئت عام ١٩٠٦ وتمت تقويتها عام ١٩٤٧ م

- نموذج لقناطر زفتى التى نشئت عام ١٩٠٢ وتمت تقويتها عام ١٩٥٤ م

- خريطة مجسمة لحوض النيل من بدايته حتى نهايته ومصبه بمقياس

رقم ١ : ٢٠٠٠٠٠٠ .

يتجه الزائد بعد ذلك الى القاعة (٢) ليجد منظرا عاما لمنطقة القناطر الخيرية ونموذجاً لقناطر الدلتا الجديدة بما فيها فرع دمياط وقناطر فرع رشيد وقد أقيمت قناطر الدلتا الجديدة فى عام ١٩٣٩ كبديل للقناطر الخيرية التى بناها محمد على ، حيث أنها لم تعد تستطيع حجز المياه لأنها مبنية بالطوب العادى ، وقد مضى عليها زمن طويل . أما القناطر الجديدة فقد تسم انشاؤها بحجر الجرانيت .

والهدف الاساسى من وجود القناطر الخيرية الان هو كونها اثر سياحى
اثرى ولكنها لا تستخدم فى شىء من مجالات الرى فى مصر .

ومن المعلومات الظريفة أنه من الاسباب التى دعت محمد على لانشاء
القناطر الخيرية هو احتمال قدوم الفرنسيين مرة أخرى الى مصر عن طريق
النيل ولذلك أقام القناطر على شكل قلعة حربية يحتوى فيها الجنود ومنها
يستطيعون ضرب أى سفينة معادسة قادمة من الشمال .

وهناك صيانة دورية سنوية من جانب وزارة الرى للقناطر الخيرية .
وعند اتجاهنا شمالاً للقاعة رقم (٤) نَخد فى منتصفها نموذجاً رائعاً
للسد العالى ، وهناك منظر مجسم للسد العالى على الحائط أيضاً .

ومن القاعة رقم (٤) يتجه الزائر مباشرة الى القاعة (٥) حيث يوجد
نموذج لخزان أسوان وهو يمثل ثلاثة قطاعات فى خزان أسوان المقام على مجرى
النيل جنوبى القاهرة وعلى مسافة ٩٤٦ كيلو مترا منها . ويمثل القطاع الاول
الخزان عند انشائه عام ١٩٠٢ م وكان منسوب التخزين ١٠٦ م ، وسعة
الخزان مليار م ٣ . والقطاع الثانى يمثل الخزان بعد التعلية الاولى التى تمت
فى عام ١٩١٢ م حيث رفع منسوب التخزين الى درجة ١١٣ م وزادت سعته
الى ٢٨ مليار م ٣ - والقطاع الثالث يمثل الخزان بعد العلية الثانية التى تمت
فى عام ١٩٣٣ م فرفعت منسوب التخزين الى درجة ١٢١ م ووصلت سعته الى
٥ مليار م ٣ . وقد تمت اخرا عملية تدعيم حائط السد بحقنه بالاسمنت .
ويتكون الخزان من ١٨٠ فتحة عرض كل منها متران ، وتختلف مناسيب اعقابها
باختلاف مناسيب قاع المجرى الصغرى ، وهو مزود بخمسة اهوسة بالجهة
الغربية منه لتيسير الملاحة من حوض الخزان بالامام الى مجرى النهر بالخلف .

ثم يتجه الزائر من القاعة (٥) الى القاعة (٦) حيث يجد نموذجين فى
هذه القاعة :

- نموذجاً للرى بالرش : يوضح فيه كيفية زراعة الارض (خاصة
الصحراوية) عن طريق استخدام الرى بالرش .

نموذجاً لقنطرة مصرف فنيشة : وبوضح كيفية استعمال البوابات وذلك بمقياس رسم ٢٥/١ .

ثم يرجع الزائر مرة أخرى الى القاعة (٥) متوجها الى القاعة (٧) حيث توجد النماذج والخرائط :

- خريطة مجسمة لمصر عليها موقع كل من :

السد العالي / خزان أسوان / قناطر أسنا / قناطر نجع حمادى / قناطر أسبوط وادى الريان / قناطر الدلتا / قناطر زفتى / قناطر ادغينا / منخفض القطار

- نموذج بالخشب لخزان سنار الموجود بالسودان وهو أول خزان على النيل خارج حدود مصر ، وقد أنشئ عام ١٩٢٥ على النيل الأزرق .

- نموذج لصوامع الغلال بالاسكندرية .

- نموذج لقناطر الدلتا فى أزمنة مختلفة بمقياس رسم ٥٠/١ .

- نموذج للسد العالي .

- نموذج لمحطة طلخا لتوليد الطاقة الكهربائية .

- ثلاثة نماذج (حجم كبير) لخزان أسوان كل واحد منها يبين مرحلة من

مراحل انشاء خزان أسوان (ثلاث مراحل) .

ثم يتجه الزائر الى القاعة (٨) حيث يجد الخرائط والرسومات الخاصة بمصلحة المساحة .

ويجد الزائر أيضا فى هذه القاعة (٨) رسما مجسما لمشروع سحارة تحت قناة السويس فهذه السحارة تأتى من ترعة الاسماعيلية ومن النيل فرع دمياط، وتتكون من ستة مواسير قطر كل منها ١٥٠ سم .

وعن طريق توصيل مياه النيل الى سميناء سمينتم استصلاح نحو مليون فدان .

سابعاً : متحف قصر الامير محمد علي بالنيل .
صاحب القصر :

هو الامير محمد علي ابن الخديوى توفيق ، وشقيق الخديوى عباس حلمي الثاني ، ولد بالقاهرة عام ١٨٧٥ وتوفي خارج مصر في مارس عام ١٩٥٤ .
وكان وصيا على العرش في الفترة ما بين وفاة عمه الملك فؤاد الاول وجلوس ابن عمه الملك فاروق الاول على عرش مصر بعد بلوغه السن القانونية في ٢٨ ابريل ١٩٣٦ ، ثم أصبح وليا للعهد الى ان انجب فاروق الامير احمد فؤاد .

اشتهر الامير محمد علي بشدة تدينه ، وحبّه للفنون الرفيعة ، خاصة الاسلامية منها . وقام بجولات عديدة حول العالم . وكان احد أشهر هواة تربية الخيول في عصره ، كذلك كان شغوفا بجمع التحف الثمينة . واذا أضفنا الى هذه الصفات تلك الحادثة التي وقعت له عندما سقط من فوق صهوة جواده عندما كان صبيا ، فحرمته من الانجاب . نحد أن الامير قد ركز كل جهوده على قصره كي يحمل اسمه عوضا عن النسل ، فخرج قصرا فريدا في نوعه ليس في مصر فقط بل في العالم اجمع .

انعكست اذن صفات الامير السابقة على قصره فشيدته متميزا عن قصور اقرانه من أمراء وأفراد الاسرة العلوية . وفي حقيقة الامر فان الامير قد وضم في اعتباره عند البدء في تشييد قصره أن يجعله متحفا في حياته ويحمل اسمه بعد مماته كما جاء ذلك في وصيته عام ١٩٢٥ . وفي نفس الوصية أوقف للقصر جزء من أملاكه من الاراضي الزراعية للصرف منها عليه .

القصر :

تبلغ المساحة الكلية للقصر ٧١١ و٦١ مترا مربعا ، وتبلغ مساحة السرايات المقامة داخل القصر ٥٠٠٠ متر مربع ، وتبلغ مساحة الحديقة ٣٤ ٠٠٠ متر مربع ، ومساحة الطرق والمنشآت الخاصة بالحديقة ٧١١ و٢٢ مترا مربعا ويتكون القصر من :

١ - سراى الاقامة ٠٠ وهى السراى الرئيسية وأول مبنى يقام داخل القصر وكان ذلك عام ١٩٠١ ٠٠ وتتكون السراى من طابقين ، الارضى قاعات للاستقبالات الخاصة وحجرة للطعام ومكتب الامير ، مكتبته ٠ وفى الدور العلوى توجد حجرات النوم وملحق بها حجرة خاصة بالمجوهرات والتحف الثمينة ٠ وملحق بالسراى برج يشرف على كل القصر والحديقة والفيل والاهرامات والمقطم ، جزء كبير من القاهرة ٠

٢ - سراى الاستقبال : وتقع فوق المدخل الرئيسى للقصر وهى تتكون من طابقين الارضى وبه قاعتين واحدة للتشريفات ، والاخرى لاستقبال بعض الشخصيات الهامة التى كانت تاتى لصلاة الجمعة مع الامير ٠ اما الطابق العلوى فيتكون من قاعتين كبيرتين ، احدهما على الطراز المغربى والاخرى على الطراز الشادى ٠٠ اى ان الامير جمع جناحى الوطن العربى فى احدى سريان قصره ٠

٣ - برج الساعة : وقد شيده الامير على طراز أبراج المغرب الاقصى ، ووضع فى أعلاه ساعة من نفس طراز الساعة التى وضعها الخديوى عباس حلمى فى محطة مصر والموجودة حتى الان ٠

٤ - المسجد : رغم صغر مساحته الا أنه يعتبر آية من الفن الرفيع سواء من الناحية المعمارية أو الزخرفية على الطراز العثمانى ٠

٥ - سراى العرش : لم يعترف الامير محمد على بجلوس كل من عمه السلطان « حسين كامل » او عمه الملك فؤاد الاول او ابن عمه الملك فاروق على عرش مصر ، وأعتبر ذلك اغتصابا لحقه الشرعى فى تولى حكم مصر بعد اقضاء أخيه عباس حلمى عن العرش ٠٠ ولتذكير هؤلاء بذلك قام بتشديد سراى للعرش خاصة به وقد شيدها على نفس نمط قاعة العرش الخاصة بجدة الاكبر « محمد على باشا » بقصر الجوهرة بالقلعة ، وقد زين القاعة بصور الذين حكموا مصر فى أسرته ابتداء بمحمد على وابراهيم باشا - والد جده - فعباس الاول ، فسعيد باشا ، فالخديوى اسماعيل - جده - فالخديوى توفيق - والده ثم شقيقه عباس حلمى الثانى ٠٠ ولم يضح صورا لمن جاؤا بعد أخيه لعدم اعترافه بهم ٠

وفوق قاعة العريش ، يبرز طابقي نان عبارة عن قاعات جلوس شرقية بشوية
تطل على النيل أهمها حجرة الابيسون الفريدة .

٦ - المتحف الخاص : عرف عن الامير شغفه الشديد بجمع التحف
خاصة التحف الاثرية الاسلامبة بالدرجة الاولى . . ولذا فقد قام ببناء
متحف خاص به لعرض ما جمعه من تحف ومقتنيات وهذا المتحف يتكون
من ١٥ قاعة . . وما بها من مقتنيات تكاد تتساوى في الكم بما
هو موجود بالمتحف الاسلامي الذي شيده شقيقه الخديوي عباس حلمي
الثاني . . وتمتليء قاعات المتحف بأنواع نادر من السجاد والمنسوجات
والمخطوطات واعداد كثيرة من المصحف الشريف ، السمر منها من النوع النادر ،
ولوحات زيتية وتحف مصنوعة من الكريستال أو الفضة أو الذهب هذا
بجانب التحف الزجاجية ومن الكريستال والعاج والخشب المشغول أو
المطعم . . غيرها من التحف لا يتسع المجال لاستعراضها .

٧ - القاعة الذهبية : وهي تحفة لا يوجد لها مثيل ، فرغم أنها تكاد
تكون خلوية من التحف أو الاثاث بالقياس بالسرايات الاخرى ، الا أنها تعتبر
تحفة قائمة بذاتها . . فاسقفها وجدرانها وأعمدتها محلاة بالزخارف البديعة
المذهبة علاوة على الايات القرآنية وأسماء الله الحسنى وبردية البوصيري
في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - التي تزين الاسقف والجدران . .
وكانت القاعة تستخدم في الحفلات الرسمية .

٨ - متحف الصيد : استغل الفنان « أحمد خالد درويش » مراقب عام
المتاحف التاريخية الاسبق وجود ممر مغطى ملاصق للصور الشمالي للقصر
وحوله الى متحف للصيد حيث عرض به الحيوانات والطيور
والزواحف المحنطة وغيرها وجميعها مجموعات خاصة بالملك « فاروق » جلبت
من استراحته بانشخاص . والمجموعة والخاصة بالامير يوسف كمال . . وأهم
ما يميز هذا المتحف الدخبل على القصر ، هو وجود مجموعات من الفراشات
والحشرات النادرة . . وهو في محملة عامل جذب للزائرين .

هذه نبذة مختصرة للغاية عن سرايات القصر . . أما الزائر للقصر فبفتح
في حيرة ايشاهد الزخارف البديعة التي تملأ كل ركن من أركان السراي هل

ينظر الى الارضيات ام ينظر الى الاسقف المصنوعة بأساليب فنية بديعة،
أم يشاهد الاتاث والمقنيات والتحف المنتشرة في كل ركن من اركان كل
قاعة .

الحديقة :

حديقة قصر الامير « محمد على » فريدة من نوعها . . وكانت في عصره
ذات شهرة عالمية ، وما زالت . . فقد جمع فيها الامير نباتات من جميع المناطق
المناخية منها نباتات من مناطق استوائية ومدارية حنبا الى جنب مع
نباتات من مناطق معتدلة او مناطق باردة . . وأهم تلك النباتات على
الاطلاق هي اسجار الميكس ، والتي تغطي أحداها ٣٠ مترا مربعا ، وأنواع
نادرة من الصبار كان قبل اقامة الشاليهات الخاصة بالفندق نبلغ أكثر
من ٧٠ نوعا بجانب أنواع النخيل وأهمها النخيل الملكى . هذا غير الاشجار
والنباتات المثمرة ، مانجو وبرتقال ويوسفى وأنواع الياميش والعنب
والجوافه والتفاح ، بل أن بعض الفاكهة المزروعة بالتصر غير معروفة في مصر
. . وغير ذلك كثير . . وكانت الحديقة في عهد الام حل دراسة للعلماء من
جميع أنحاء العالم خاصة لنباتات الصبار . . كما كان يؤمها طلبة الفنون
الجميلة ، الذين كان الامير راعيا لكليتهم .

ويحيط بسرايات القصر ومنتشأنه وحديقته سور ضخمة شيد على نمط
اسوار الحصون والفصور في العصور الوسطى . . وهو يتكون من أربعة
أضلاع ، كل ضلع يواجه جهة من الجهات الأربعة الرئيسية . . والباب الرئيسى
للقصر يقع في النهاية الشرقية للسور الشمالى . . كما يقع باب آخر في
في منتصف السور الغربى . . وفي أعلى الباب الرئيسى للقصر وضع الامير
اللوحه التأسيسية للقصر حيث كتب عليها (انشأ هذا القصر الامير
محمد على باشا نجل المغفور له الخديوى محمد توفيق احباً للفنون
الاسلامية واحلالا لها) .

« تم بعون الله »

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
الفصل الأول : الحملة الفرنسية على مصر	١١
المقاومة المصرية ضد الحملة	١٦
ثورة القاهرة الاولى	٢٠
ثورة القاهرة الثانية	٢٨
نتائج الحملة الفرنسية	٣٥
الفصل الثاني : عصر محمد علي	٤٣
الحكومة والادارة	٤٧
الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧	٤٩
الامبراطورية المصرية في عصر محمد علي	٥١
التعليم في عصر محمد علي	٦١
المطابع والصحافة	٦٥
الجيش والبحرية	٦٥
تطور الصناعة في عصر محمد علي	٧٠
تطور الزراعة	٩٦
التجارة في عصر محمد علي	١٢٥
الفصل الثالث : عصر اسماعيل	١٢٩
علاقته بالحولة العثمانية	١٣٢
تطور الزراعة	١٣٣
تطور الصناعة	١٣٤
المواصلات	١٣٤
البريد والبرق	١٣٥

الموضوع	الصفحة
العميران	١٣٥
التعليم في عصر اسماعيل	١٤٠
الصحافة	١٤١
الفصل الرابع : قناة السويس	١٤٥
الفرمان الأول	١٤٩
الفرمان الثاني	١٥٣
افتتاح القناة	١٦٢
الفصل الخامس : الثورة العربية	١٦٥
اسباب الثورة	١٧٢
احداث الثورة	١٧٥
موقف الدولة العثمانية من الثورة العربية	١٩٠
مسألة المشاركة العسكرية العثمانية في مصر	١٩٦
مسألة نزول القوات العثمانية في (أبو قير)	
وبور سعيد	١٩٨
انجلترا تنفرد بمصر	٢٠٧
اسباب اخفاق الثورة	٢٠٨
النتائج التي ترتبت على فشل الثورة	٢١٠
الفصل السادس : يقظة مصر بعد الاختلال	٢١٥
مصطفى كامل	٢١٩
مصطفى كامل وحادثة فاشوده	٢٢١
مصطفى كامل وجريدة اللواء	٢٤٠
مصطفى كامل وحادثة دنشواي	٢٤٢
مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطني	٢٥٥
محمد فريد	٢٥٨
المؤتمر الوطني للحزب الوطني	٢٦٠

الموضوع	الصفحة
مقالات الزعيم في أورينا	٢٦٤
الزعيم في السجن	٢٦٤
الفصل السابع : ثورة ١٩١٩	٢٦٩
الحماية البريطانية على مصر	٢٧١
أسباب ثورة ١٩١٩	٢٧٦
أحداث الثورة	٢٨١
تقييم ثورة ١٩١٩	٢٩٤
الفصل الثامن : تطور مصر ١٩٢٢ - ١٩٥٢	٢٩٧
تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢	٢٩٩
الدستور المصري ١٩٢٣	٣١٣
أزمة ١٩٢٤ في مصر والسودان	٣١٧
المطالبة بإخلاء السودان	٣٢٠
أزمة الجيش المصري	٣٢٦
تطور الجيش المصري حتماً وتسلّياً	٣٣٢
خطة لويد لحل الأزمة	٣٣٦
اتصالات لويد لحل الأزمة	٣٤٤
المذكرة البريطانية للحكومة المصرية	٣٥٢
الرد المصري على المذكرة البريطانية	٣٦٢
تضارب الآراء بين المندوب السامي والخارجية	
البريطانية	٣٦٥
تراجع الحكومة المصرية ومجلس النواب	٣٧٤
عقد معاهدة ١٩٣٦	٣٨٢
مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢	٣٩٠
أسباب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢	٣٩٩
الفصل التاسع : من متاحف مصر الحديثة	٤٠٥

الموضوع	الصفحة
اولا المتحف الزراعى	٤٠٧
ثانيا : المتحف الحربى	٤٢٢
ثالثا : متحف السكة الحديد	٤٢٦
رابعا : متحف البريد	٤٣١
خامسا متحف المركبات الملكية	٤٣٥
سادسا : متحف الرى (الثورة)	٤٣٨
سابعا : متحف قصر الامير محمد على بالمنيل	٤٤٢
القهـرس	٤٤٧

